المكتبة العربية

بول كازانوڤا

تاريخ ووصف قلعة القاهرة

ترجمة وتقديم : د. أحمد دراج

مراجعة : د. جمال محرز

تاريخ ووصف قلعة القاهرة

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ١٤٤ —

آثار [٨٤]

ترجمة [١٦]

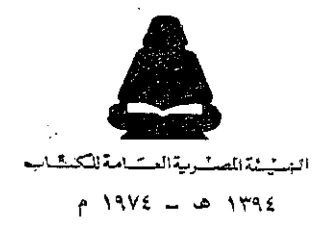
القاهرة

١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م

پول كازانوڤا

تاريخ ووصف قلعة القاهرة

ترجمة وتقديم : الدكتور أحمد دراج
مراجعة : الدكتور جمال محرز



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

مقدمة المترجم

المستشرق كازانوفا Casanova هو أحد أعلام مدرسة الاستشراق الفرنسية التى وجهت جهودها نحو الدراسة التاريخية والأثرية لعواصم مصر الإسلامية . وهى دراسة تقوم على استخراج النصوص التاريخية الخاصة بالمعالم الأثرية من المصادر المعاصرة ، ثم تطبيقها على الطبيعة فى ضوء ما تبقى من أطلال وآثار فى محاولة لإحياء المعالم الكاملة لهذه العواصم فى فترات ازدهارها ومجدها . وإلى هذه المدرسة يرجع الفضل فى إحياء معالم مصر الإسلامية .

فقد انتهى رافيس Ravaisse فى عام ١٨٨٧ من دراسته للقاهرة منذ إنشائها حتى القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر الميلادى ؛ وهى الدراسة التى صدرت بعنوان :

— Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire d'après Makrizi, (dans Mém. Miss. Arch. Franç., T. I et III).

وقام سالمون Salmon بدراسة مماثلة عن قلعة الكبش وبركة الفيل لإحياء معالم مدينة القطائع ، ثالثة عواصم مصر الإسلامية ، وقد صدرت دراسته فى عام ١٩٠٢ بعنوان :

— Etudes sur la topographie du Caire. La Kal'at al-Kabch et la Birkat al Fil (dans Mém. de l'Inst. Franç. d'Arch. Or. T. VII., Le Caire, 1902).

وكان كازانوفا قد سبقه فى دراسته للقلعة التى انتهى منها فى عام ١٨٩٤ ، لا باعتبارها قلعة عسكرية ؛ وإنما بوصفها إحدى المدن الثلاث التى تتكون منها حاضرة مصر الإسلامية منذ أن انتقل إليها الملك الكامل ، ابن أخى صلاح الدين . فى هذا المعنى يقول السيوطى (١) ، نقلا عن شهاب الدين بن فضل الله العمرى : (وحاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام : الفسطاط وهى بناء عمرو بن العاص وهى المسماة عند العامة بمصر العتيقة ، والقاهرة بناها جوهر القائد لمولاه الخليفة المعز ، وقلعة الجبل بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب) . وقد استحق كازانوفا عن هذه الدراسة الجادة القيمة تقدير المجمع الفرنسى ، فمنحه فى سنة ١٨٩٧ جائزة سانتور : Prix Saintour المخصصة لأحسن إنتاج فى علم النقوش والكتابات الأثرية .

(١) حسن المحاضرة ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٥ .

وفى ظل هذا التقدير الذى غمرته به أكبر الهيئات العلمية فى فرنسا اتجه كازانوفا نحو دراسة أكبر وأكثر تعقيدا من دراسته السابقة . هذه الدراسة هى محاولة إحياء معالم الفسطاط ، التى انتهى منها على خير وجه فى عام ١٩١٩ ، والتى صدرت بعنوان :

— Reconstruction topographique de la ville Fustat ou Misr (dans Mém. de l'Inst. Franç. d'Arch. Or. du Caire, T. XXXV).

ويتضح للقارىء أن مدينة العسكر ، ثانية الحواضر الإسلامية لمصر ؛ لم يكن لها نصيب فى هذه السلسلة من الدراسات نظرا لاندثارها واختفاء معالمها كلية ، فضلا عن أسباب أخرى تاريخية أدت إلى تعذر القيام بمثل هذه الدراسة عنها .

وإذا كانت لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية(١) ، بجمهورية مصر العربية ، قد أوصت بمناسبة التفكير فى إحياء ذكرى صلاح الدين — بأن يُعهد إلىّ ترجمة كتاب كازانوفا عن القلعة وأن يُعهد إلى الزميل الأستاذ الدكتور جمال محرز مدير الآثار العربية والقبطية ترجمة الدراسة الأثرية التى قام بها الأستاذ كرزويل عن القلعة ؛ فإنى لأهيب باللجنة أن تبحث فكرة إصدار توصية أخرى بترجمة بقية الدراسات السابقة عن حواضر مصر الإسلامية . وليس ثمة شك فى أن هذه الترجمات ستيسّر للقارىء العربى أن يأخذ صورة حية عن هذه الحواضر فى فترات ازدهارها ومجدها ، وليس هناك أعمق وأشد تأثيراً فى النفس البشرية من أن ترى هذه الأطلال والآثار تتحول إلى شواهد ناطقة تفيض بالحياة وتنطق بمجدها التليـــد .

* * *

وهذه الدراسة التى قام بها كازانوفا عن القلعة أبرزت أمامنا معالم القلعة ، كما كانت حتى زمن الحملة الفرنسية على مصر وبداية عهد محمد على . وذلك أن القلعة ، وبخاصة السور الجنوبى منها ، والنطاق المحيط بذلك السور الذى يشتمل على المنشآت الملحقة بالقلعة (٢) ، قد تغيرت معالمها بدرجة كبيرة للغاية نتيجة لما أنشأه محمد على مكان المنشآت القديمة . وإذا أضفنا إلى ذلك أن كازانوفا قام بهذه الدراسة للقلعة فى الفترة التى أعقبت بداية احتلال القوات البريطانية لها ؛ وهو الاحتلال الذى أدى إلى تغيير بعض معالمها الأثرية ، لأدركنا مدى الصعوبة التى واجهها كازانوفا فى دراسته هذه .

ومن ثم فإن هذه الدراسة تقوم أساسا على استخراج النصوص التاريخية من المصادر العربية المعاصرة ، حقبة حقبة ، منذ بناء القلعة على يد صلاح الدين حتى بداية القرن التاسع عشر . فهى تتتبع هذه المصادر فى حديثها عن بناء القلعة زمن صلاح الدين ، ثم استكمال بنائها على يد ابن أخيه الملك الكامل ، وما أقيم بها فى عهده من منشآت ، وما توالى بناؤه بها من منشآت وعمائر جديدة ، أو هدم القديم منها وإعادة بنائه من جديد فى عهود بقية سلاطين الأيوبيين ثم سلاطين المماليك وولاة مصر فى العصر العثمانى حتى محمد على .

(١) توصية لجنة التاريخ والآثار بالمجلس التى أقرها المجلس الأعلى فى اجتماعه الثلاثين .

(٢) انظر فيما بعد ، وصف مخطط القلعة .

ومن هذا يتضح أن الأمر تطلب من كازانوفا عملية « مسح » واسعة المدى لجميع المصادر التي تغطى هذه الفترة الزمنية الطويلة من تاريخ مصر .

وما من شك فى أن كازانوفا كان كفئاً للقيام بهذا العمل العلمى الضخم ، بل إن الأمر تطلب منه دراسة واعية لتاريخ مصر السياسى ، فتاريخ القلعة لا يعدو أن يكون تاريخ مصر نفسها خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة .

وإن القارىء ليلمس – فى قراءته هذه الترجمة – مكانة كازانوفا العامية كمؤرخ صادق مع نفسه أولا ، وصادق فى فهمه للتاريخ المصرى ثانيا ، والصدق مع الذات ، والفهم الصادق الأمين للتاريخ هما اللذان مكناه من أن يضع هذه النصوص التاريخية المستخرجة من بطون الكتب فى موضعها الصحيح ، وفى تسلسلها الطبيعى ، بل أن يفسر هذه النصوص التاريخية الجامدة على خير وجه ويجعل منها معالم بارزة تنبض بالحياة .

إن فهمه الصادق لحقائق التاريخ المصرى – على مر الحقب والقرون – وإيمانه بدور مصر الحضارى ، قد تجلّى فى هذه الصورة المبدعة التى أبرز لنا فيها معالم القلعة . فالمتتبع لهذه الصورة المبدعة ، فى فصولها المتتالية يدرك على الفور أن كازانوفا لم يكن يعالج موضوعا من « الطوب والحجارة » ويحدد مكان هذا الأثر أو ذاك على مخطط القلعة ، وإنما كان يعالج – أولاً وقبل كل شىء – ما حققه الشعب المصرى فى ميدان الحضارة خلال هذه الفترة الزمنية التى كانت فيها القلعة رمزاً لمجده السياسى .

فهذه الأسر الحاكمة التى قامت طوال تاريخ مصر الإسلامية لم تقم نتيجة حركات ثورية شعبية ، فجميع مؤسسيها أجانب عن البلاد . ومع ذلك فإن الشعب المصرى استطاع أن يبرز ملكاته وقدراته الحضارية المتوارثة منذ القدم فى صورة جديدة ، هى الحضارة المصرية الإسلامية . وليس أبلغ من تصوير إيمان كازانوفا بقدرة الشعب المصرى من هذه الكلمات التى جاءت فى سياق وصفه لمصر بعد الفتح العثمانى لها وما تعرض له الشعب المصرى من المظالم وألوان العسف والهوان على يد الأتراك العثمانيين. وفى هذا الصدد يقول : (فقد قتل السلطان المملوكى قانصوه الغورى فى موقعة مرج دابق بسورية ، كما أن خلفه الأشرف طومان باى حلت به الهزيمة وأسر تحت أسوار القاهرة) ومن ثمّ فلم يقدر للقلعة أن تدافع عن نفسها ، واستبدل الشعب المصرى دون أية مقاومة بسادته المماليك هؤلاء السادة الجدد . فهذا الجنس الذى ينتمى إليه سلاطين المماليك ، والذى – على الرغم مما عُرف به من ميل للشغب وإثارة الفتن – قد شهدت له ميادين الحرب بالفروسية والجرأة ، قد اختفى دون أن يترك من آثار سوى هذه الأسر الحاكمة العديدة التى توالت على حكم هذا البلد ؛ البلد الذى تعود أن يلفظ سادته الأجانب ، بمثل السهولة التى يفتحونه بها . وكما هو الحال فى جميع البلاد التى خضعت للنفوذ العثمانى فإن شعلة الحياة قد خبَت فى هذا البلد . فالحركة الفنية والأدبية قد ذوت ، أو بمعنى أدق فإن جميع نواحى النشاط الحضارى قد أصيبت بهذا الجمود المطبق الذى بدا منذ هذه اللحظة للرحالة الأجانب الذين يجهلون تاريخ مصر كما لو أنه صفة وراثية تجرى فى دماء الشرقيين . فرمال الصحراء عادت تغطى فى صمت كئيب ، آثار مصر القديمة . وهؤلاء الأتراك العثمانيون ، أبناء الصحراء ، بدوا كأنهم قد نشروا على هذا الشعب ، خلال فترة حكمهم العابرة له ، حجاباً كثيفا من الجهالة والجمود الذهنى أشبه بأكفان الموتى . غير أن اليوم الذى نرى فيه البطل الذى سيُقدّر له أن يبعث هذا الشعب من هذا السبات العميق ليس ببعيد ، هذا البطل الذى سيكون كمَمنْ يرفع أنقاض العمائر الخربة ليعيد بناءها ويجعلها تنبض بالحياة من جديد(١)) .

---

(١) انظر الجزء الثانى .

وفضلاً على ذلك فإن فهمه الصادق للنماذج البشرية التى قدر لها أن تلعب دورا هاما فى تاريخ مصر يبدو لنا واضحا من خلال هذه الدراسة . وأبرز مثل لذلك فهمه الصادق العميق لشخصية صلاح الدين الذى تُنسب إليه القلعة . وأحسبنى لا أعدو جانب المبالغة إذا قلت إن أحدا من المؤرخين ، القدامى والمحدثين ، الذين تناولوا دراسة شخصية صلاح الدين ، قد نجح فى أن يصور لنا هذه الشخصية التاريخية الفذّة ، كما صورها لنا كازانوفا . ففى هذا الصدد يقول ، (فأما صلاح الدين فيبدو لنا رجلاً رقيق الطباع ، بل هو إلى الحياء والخجل أقرب ، لم تهبه الطبيعة روح الإقدام والمبادرة ، وإن كانت قد عوضته عن ذلك سداد الرأى والقدرة على حسن اختيار رجاله ومستشاريه والاستماع إلى آرائهم ونصائحهم ؛ وهى صفة لها قيمتها الكبرى إذا ما توافرت لدى أحد الملوك أو السلاطين . ففى الأحداث الكبرى التى قررت مصيره لم يكن هو الذى يوجه الأحداث وإنما كانت هى التى توجهه ، كان يتوارى عن مواجهتها فى بادىء الأمر ، ولكن إذا ما أجبرته الظروف على ذلك ، كان يعرف كيف يكون كفئا لها . ...

... ...

وفضلا على ذلك فقد كان له من صفات النزاهة ، والبعد عن الهوى ، والكرم ، وطيب المعشر ، والتقوى ما جعله موضع الحب العميق من معاصريه . كما أجمع أعداؤه على الاعتراف بنبل أخلاقه وبشهامته ومروءته . وأما مؤرخو سيرته فلا يكون حديثهم عنه إلا مقرونا بالإعجاب والتقدير .

وموجز القول إنه أحد النماذج البشرية التى عرفها التاريخ ، ومن أكثرها رقة ودماثة خلق(١) .

* * *

هذا ومن حق القارىء علينا أن نوضح له فى بضع صفحات مجمل ما انتهى إليه كازانوفا فى دراسته حتى يمكنه أن يخرج من تتبعه لها بصورة واضحة عن القلعة . وقد سبق أن أوضحت أن القلعة الحالية — فيما عدا السور والأبراج — تختلف كثيراً عن القلعة التى بناها صلاح الدين واستكمل بناءها خلفاؤه من بعده .

إن الشعور بالخطر هو الذى دفع صلاح الدين أن يقوم فى سنة ٥٦٦ هـ — وكان وقتها وزيراً للخليفة الفاطمى العاضد — بترميم سور القاهرة الذى كان قد بناه بدر الجمالى . وكان هذا السور قد أصبح على حالة سيئة ، وتهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلا ولا خارجا .

غير أنه بعد أن أصبح سلطانا على مصر ، وبعد أن قام بحملته على سورية عدّل خطته . فرأى فى سنة ٥٧٢ هـ أن يحصن القاهرة ومصر (الفسطاط) معاً ، بأن يدير عليهما سورا واحدا يبدأ من شاطىء النيل ببرج أقامه عند المقس ، وينتهى ببرج آخر أقامه على النيل عند الكوم الأحمر (بالفسطاط) . كما دفعه هذا الإحساس بالخطر إلى أن يفكر فى حماية نفسه ، وأن يبنى قلعة يتحصن بها ويلوذ بها إذا ما تعرضت حياته للخطر ، وإذا ما وجهت إليه ضربة مفاجئة يوماً ما . ومن ثمّ كان اختياره لموقع بناء القلعة (وسط هذه الأسوار) على جبل المقطم لتكون بمثابة المفصل القوى الذى يشد هذه الأسوار بعضها إلى بعض ، أو بمثابة نقطة ارتكاز قوية فى هذه التحصينات . وهذا المشروع الضخم لم يُقدر لصلاح الدين أن يشهد إتمامه ؛ فضلا على أن هذا المشروع على هذه الحالة التى تخيلها صلاح الدين لم يكتمل تنفيذه يوما ما (٢) .

(١) انظر الجزء الأول .

(٢) انظر الفصلين : الأول والثانى .

فأما القلعة فقد بنيت على سطح الجرف المتصل بجبل المقطم . وهى تشرف على القاهرة والفسطاط ، والنيل والقرافة ؛ فالقاهرة فى الجهة البحرية منها ، والفسطاط والقرافة الكبرى وبركة الحبش فى الجهة القبلية الغربية ، والنيل فى غربيها ، وجبل المقطم من ورائها فى الجهة الشرقية .

والواقف فوق هذا الشرف الذى أقيمت عليه القلعة ، ليجد نفسه مسحورا بروعة المنظر العام الممتد أمام ناظريه ؛ ذلك المنظر الذى أثار خيال جميع الرحالة فخلّدوا لنا وصفه فى كتاباتهم . ويعبر لنا كازانوفا عن أحاسيسهم وهم وقوف فى هذا المكان بهذه الكلمات ، (هذه الصور والمناظر التى ترى من هذا المكان بالقلعة تهز مشاعر أكثر الناس برودا ، وتدفع بالفيلسوف إلى بحر من التأمل ، وتبعث النشوة فى روح الفنان ، بل تدفع أبعد الناس عن الإحساس بالجمال إلى عالم من الأحلام والتأملات . حقا إنه ليصعب على المرء أن يفيق من روعة وسحر هذا المنظر الذى لا يوجد له نظير فوق سطح المعمورة (١))

ففى هذا المكان الذى عُرف بطيب هوائه بنى حاتم بن هرثمة ، أحد ولاة مصر فى فجر الإسلام ، قبة الهواء التى كان يحلو له الصعود إليها للإقامة بها طلباً للراحة .

وفى قبة الهواء جلس الخليفة المأمون عندما حضر إلى مصر فى سنة ٢١٧ ﻫ يتأمل أرض مصر وما عليها من خصب ، وما أبقت عليه يد الزمن من تراث مصر القديمة ، ويقارن كل ذلك بأرض العراق (٢) .

وفى هذا المكان تنبأ صلاح الدين ، وهو واقف مع أخيه الملك العادل ، عندما طلعا إلى القلعة معا ليتفقدا سير العمل بها ، بمصير الملك فى أسرته من بعده . فقد أدرك صلاح الدين ، وهو يرى من ذلك المكان أرض مصر ، والمدينة الكبيرة ممتدة أمام ناظريه وفى قبضة يده ، أن أولاده ليسوا جديرين بأن يخلفوه فى هذا الملك . فما إن حانت منه التفاتة نحو أخيه الملك العادل — الذى يعرف فيه علو الشأن والهمة — تنبأ له بهذا الملك الذى ينتظره هو وأولاده من بعده (٣) .

وهذا الشعور والإحساس الذى أحس به العالم ماريت Mariette ، وهو واقف فوق هذا الشرف ، كان بمثابة الوحى الذى انطلق به نحو اكتشافه العظيم للسيرابيوم . وكان هذا الاكتشاف بداية للاكتشافات الأثرية التى أبرزت إلى الوجود شيئا فشيئا معالم تاريخ مصر القديمة (٤) .

* * *

وقبل أن يقوم كازانوفا بدراسته للقلعة كان من الصعب على الزائر للقلعة أن يتصور الوضع العام لها . ومما يزيد فى صعوبة ذلك التصوّر ، أن وصف المخطط العام للقلعة ، كما جاء على لسان المؤرخين ، لا يساعد المرء على ذلك . فالمقريزى فى كتابه « الخطط » ينقل لنا عمن سبقه وصف القلعة فى هذه العبارات الغامضة ، إذ يقول : (وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نَشْزٍ عالٍ يدور بها سور من حجر بأبراج وبدنات حتى تنتهى إلى القصر الأبلق ، ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج القلاع) .

---

(١) انظر الجزء الثانى .
(٢) انظر الجزء الأول .
(٣) انظر الجزء الأول .
(٤) انظر الجزءين الأول والثانى .

وقد فهم كازانوفا من هذا النص أن سور القلعة بأبراجه وبدناته ، بدلاً من أن يدور حول القلعة كلها ، فإنه يتوقف عند الدور السلطانية . وهذا الوضع ، غير الطبيعى من شأنه أن يهدم كلية وحدة القلعة .

ومن هذا الفهم ، وبتطبيق هذا الوصف على القلعة ، أمكنه أن يتبين المخطط العام لها . فالقلعة — حسب ذلك المخطط — تتكون من سورين ، أو (نطاقين) ، أحدهما بالشمال والثانى بالجنوب ؛ وكل منهما يختلف عن الآخر تمام الاختلاف . فأما السور الشمالى ، فهو عبارة عن مستطيل ، تدور عليه أبراج ضخمة ، ويفصل بينه وبين السور الجنوبى جدار سميك محصن بأبراج ضخمة . وأما السور الجنوبى فينفصل عن السور الشمالى على شكل زاوية قائمة ، ثم يدور فى غير انتظام . وهذا السور الثانى — وفقا للمخطط الأصلى لبنائه — لم يكن محصنا بأية أبراج ، أو على أقل تقدير فى جزء كبير منه .

والقلعة الحقيقية ، أو بمعنى أدق « قلعة الجبل » ليست سوى ذلك السور الشمالى . فذلك السور هو المشروع الحربى الذى يعتبر جزءاً متمماً للمخطط الكبير لمشروع التحصينات حول القاهرة والفسطاط فى عام ٥٧٢ هـ .

وهذا السور الشمالى تبلغ مساحته أكثر من ١٧٠٠٠ متر (بما فى ذلك مساحة الأبراج والبدنات) ، وهو على هيئة مستطيل — أو على وجه التحديد — على هيئة مستطيل : جانبان من جوانبه غير متساويين . والجانب الشمالى من هذا المستطيل على هيئة نتوء كثير البروز ، ويفصل بينه وبين المقطم خندق عميق . وأما الجانب الغربى منه فيتجه ناحية القاهرة ؛ وفى مواجهته يقع الشرَّف الذى يعرف بالصوَّة . وبهذا السور بابان : أحدهما بالجانب الجنوبى المواجه للقاهرة ، وهذا الباب يعرف بباب سارية ، وبباب المُدرَّج . وأما الباب الثانى فيوجد تجاه باب المدرَّج بالضلع الخلفى من المستطيل المواجه للقرافة وبجبل المقطم ؛ ومن ثم فقد عرف « بباب القرافة » أو « باب الجبل » . وقد اكتمل الجانب الأكبر من هذا السور الشمالى (قلعة الجبل) فى عام ٥٧٩ هـ ، حسبما يشهد بذلك النقش الموجود أعلى باب سارية .

وكان من الطبيعى أن يفكر صلاح الدين فى أن يقيم بجوار القلعة وفى حماها ، أى أن يبنى قصرا له بجوارها ، غير أنه لم يقدَّر لصلاح الدين أن ينفذ ذلك المشروع ؛ إذ شغلته أحداث سورية عن ذلك . وقد وقع إتمام ذلك المشروع على كاهل ابن أخيه الملك الكامل . وفى ذلك يقول ابن عبد الظاهر : (والملك الكامل هو الذى اهتم بعمارتها وعمارة أبراجها ، البرج الأحمر وغيره ، فكملت فى سنة أربع وستمائة ، وتحول إليها من دار الوزارة) . وهذا يعنى أن الملك الكامل هو أول من اتخذ القلعة مقرا له ، أى هو الذى قام ببناء القصور وغيرها من عمائر السلطنة بجانب « قلعة الجبل » وهى المنشآت التى احتواها السور الجنوبى . فهذا السور الجنوبى — كما يقول كازانوفا — أشبه بمدينة ملكية صغيرة ، مثل فرساى أو بوتسدام ، أقيمت فى حمى القلعة .

واقتضت الإقامة بالقلعة على هذا النحو ، ونقل مقر السلطنة إليها ، أن يكون إلى جانبها الاصطبل السلطانى . واقتضى وجود الاصطبل السلطانى أن يكون بجانبه الميدان السلطانى وسوق الخيل . ومن ثم فإلى الملك الكامل ينسب بناء الاصطبل السلطانى أسفل الربوة الواسعة التى أقيم عليها القصر السلطانى فيما بين ميدان الرميلة ، الذى أصبح سوقاً للخيل ، والميدان السلطانى(١) . والاصطبل السلطانى وسوق الخيل ، كلها كانت تكون وحدة

---

(١) كان يعرف هذا الميدان بالميدان الكبير ، والميدان الأسود ، وقراميدان .

واحدة تشمل جميع الأرض الفضاء التي تقع تحت القلعة . وكان يحيط بالميدان سور يمتد حتى يتصل بباب القرافة الموجود بالسور الشرقي الذي يصل بين القلعة والفسطاط .

وهذه المنطقة أسفل القلعة التي كانت تضم هذه الوحدات الثلاث هي التي أصبحت تكوّن السور الثالث ، أو النطاق الثالث للقلعة . وكان يُسمح بالدخول إلى هذا النطاق من باب السلسلة ، الذي يُتوصل منه إلى الاصطبل السلطاني . ومنذ منتصف القرن الرابع عشر أصبح هذا النطاق مقرا مختارا لسلاطين المماليك ، فأنشئوا به المناظر والقاعات والحوش ، وجامع الاصطبل ، والطبلخاناه ، ودور الأمراء ... وغيرها من المنشآت الملحقة .

ومن دور الحريم السلطانية القائمة بالسور الجنوبي (المدينة السلطانية) يستطيع السلطان، عن طريق دَرَج مخصصة له ، أن ينزل إلى الاصطبل السلطاني ، وإلى الميدان الكبير ، وأن يخرج من باب السلسلة إلى القاهرة . وهذا النطاق الثالث أو السور الثالث ، ينحدر من أعلى إلى أسفل ، أي من فوق الصُّوَّة حتى الميدان .

* * *

وقد تعرضت القلعة ، وعلى وجه التحديد السورين : الثاني والثالث ، طوال العصر المملوكي لعدة تعديلات جوهرية . فمنذ عهد السلطان الظاهر بيبرس ، والسلاطين قد انتابتهم حمّى البناء والتعمير ، هذه الحمى التي بلغت ذروتها على يد الناصر محمد بن قلاوون ، إلا أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن هؤلاء السلاطين لم ينشئوا — اللهم إلا فيما ندر — عمائر جديدة ، وإنما كانوا يهدمون العمائر القائمة ليعيدوا بناءها من جديد أكثر سعة وأجمل هيئة .

غير أن ما قام به بيبرس ، وما قام به بعض خلفائه ، قد اختفت معالمه في خضم التعديلات الضخمة التي أحدثها بالقلعة الناصر محمد بن قلاوون . فالعمائر التي أنشأها الناصر محمد شخصيا توجد كلها تقريبا بالقلعة ، وتختص بها مباشرة . ويمكن القول إنه قام بتغيير تام في عمارة القلعة لدرجة أنه لم يتبق بها شيء على الإطلاق من إنشاء أسلافه سوى الوضع العام للأسوار الثلاثة والآبار الموجودة بها . ومنذ ذلك الحين حتى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ، والقلعة على ما كانت عليه ، لم تتغير معالمها إلا بقدر ضئيل . هذا إذا لم يكن هذا التغيير الضئيل لايتناول القلعة ذاتها بقدر ما يتناول المنشآت الملحقة ، أي بالسور الثالث . فعند ما جاء الفرنسيون إلى مصر لم يجدوا شيئا يثير إعجابهم بالقلعة سوى ما تبقى من أطلال عمائر الناصر محمد . وكانت هذه العمائر من الروعة والجمال بحيث ذهب الخيال بأفراد الشعب إلى أن ينسب بناءها — لا إلى يوسف صلاح الدين — وإنما إلى سيدنا يوسف الذي تنسب اليه الأسطورة كل ما هو رائع وجميل بمصر .

وعمائر الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ — الجامع الذي يُنسب إليه ، والذي لا يزال قائماً .

٢ — العمائر التي كانت قائمة حتى زمن الحملة الفرنسية على مصر ، التي ترك لنا العلماء والفنانون المرافقون للحملة وصفاً لها .

٣ — العمائر التي اندثرت التي لا نتعرّف عليها إلا بما ورد في وصفها على ألسنة المؤرخين العرب .

وبعد الناصر محمد بن قلاوون أخذ خلفاؤه يتركون شيئا فشيئا الإقامة بالقلعة ذاتها (السور الجنوبي ، المدينة السلطانية) ، ويفضلون الإقامة بالنطاق الثالث (السور الثالث) . وعلى مدى الزمن أصبح هذا النطاق مقرا مختاراً لسلاطين المماليك ؛ ولا سيما سلاطين الجراكسة .

ومنذ بداية العصر العثمانى حتى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر ، استقر الجند الانكشارية محل المماليك بالطباق القائمة بقلعة الجبل (السور الشمالى ، سور صلاح الدين) . ومن هنا جاءت تسمية هذا السور « صور الانكشرية » فى كتاب « وصف مصر » . وأما القصور ودور الحريم السلطانية وعمائر السلطنة القائمة فوق الشرف بالمدينة السلطانية (السور الجنوبى) فقد هُجرت وأهملت ، فيما عدا القصر الأبلق — وهو من إنشاء الناصر محمد بن قلاوون — الذى خصّص لصناعة كسوة الكعبة . وأما المنشآت الملحقة التى أنشئت تحت القلعة (بالسور الثالث) فقد خصصت المنشآت القائمة منها بجوار باب السلسلة كثكنات لإقامة الجند العزب ؛ ومن هنا كانت تسمية هذا السور « صور العزب » فى كتاب « وصف مصر » . وأما المنشآت القائمة على امتداد الميدان ، فقد خصصت لإقامة الباشوات العثمانيين .

هذا ويجدر بنا أن نشير إلى أن باب العزب الحالى — الذى يؤدى إلى السور الثالث — ليس هو باب السلسلة الذى سبقت الإشارة إليه ، والذى يرجع إلى العصر المملوكى . فهذا الباب يرجع بناؤه إلى العصر العثمانى ، وأما باب السلسلة فلم يعد له أثر ، ويحدد كازانوفا موضعه داخل السور وعلى مقربة من باب العزب .

وقد استعادت القلعة مجدها السابق فى عهد محمد على ، كما تغيرت معالمها كلية . فلم يعد قائما من هذه المنشآت القديمة سوى جامع الناصر محمد بن قلاوون وبعض أطلال قصره الأبلق ؛ وما عدا ذلك من منشآت فقد اختفت لتقوم مقامها عمائر محمد على . كما قام محمد على ببناء العمائر العديدة التى توجد بسور صلاح الدين ، وبعمارة الجدران المتداعية التى تفصل سور صلاح الدين (قلعة الجبل) عن السور الثانى (المدينة السلطانية) الذى بناه الملك الكامل . وأما التعديلات التى حدثت بالسور الثالث فيبدو أنها قد تمت فى عهد الخديو إسماعيل .

* * *

لقد أنهى كازانوفا دراسته للقلعة بالحديث عن موضوع على قدر كبير من الأهمية ، ألا وهو موضوع « النسر » المثبت على جدران القلعة المجاور لباب السر . وعلى الرغم من قدرته على الإحاطة الشاملة بما يتصدى له من بحث ، فإنه يعترف — على الرغم مما ساقه من أدلة تبدو مقنعة — بأنه لم يتوصل على وجه التأكيد إلى معرفة حقيقة أصله .

ونظرا لأهمية الموضوع وارتباطه بتاريخنا المعاصر ، فإنى أضع أمام القارىء مجمل ما انتهى إليه كازانوفا فى هذا الصدد :

أولا — إن هذا النسر المثبت فوق جدران القلعة — والذى لا رأس له الآن — كان ذا رأس مزدوج (انظر اللوحة رقم ١٠)

ثانيا — إن أحدا من الكتاب العرب لم يشر إلى ذلك النسر ، وإن معلوماتنا عنه ترجع إلى الرحالة الغربيين الذين زاروا القلعة فى العصر العثمانى وتركوا لنا وصفا له . وإن أول من أشار إليه هو الرحالة بوكوك Pococke الذى زار مصر فى عام ١٧٤٠ ، ثم نيبوهر Niebuhr الذى زارها فى عام ١٧٧٨ ، وهو الذى أكد فى وصفه له أنه ذو رأسين .

ثالثا — إن هذا النسر لم يكن مثبتا فى مكانه على جدار القلعة زمن الحملة الفرنسية على مصر . فقد خلا الفصل الذى كتبه جومار JOMARD عن القلعة (كتاب وصف مصر ، الجزء ١٨ ، القسم الثانى) عن الحديث

عنه . كما أن أحدا من الفنانين الذين رافقوا الحملة وصوروا لنا كل ما شاهدوه بها لم يلاحظ وجوده ، ومن الجائز أن يكون قد سقط عن الجدار ، وفُقد بين الأطلال ، إلى أن عثر عليه بعد ذلك وثُبِّت فى موضعه الحالى فى عهد محمد على .

رابعا — إن اسم « قراقوش » معناه « النسر » ، وكان قراقوش هو الذى كلفه صلاح الدين بالإشراف على بناء القلعة . غير أن كازانوفا يستبعد أن يكون هذا النسر هو « الرنك » الخاص بقراقوش لسببين :

أولهما : أن القلعة تُنسب إلى صلاح الدين ، وثانيهما : أن هذا الجانب من جدار القلعة الذى ثُبِّت عليه النسر قد بُنى بعد وفاة قراقوش .

خامسا — أنه ثبت لديه من فحص قطع النقود التى سُكّت باسم الملك الكامل أن بعض هذه القطع نُقش عليها صورة النسر ذى الرأس المزدوج ؛ ومن المرجح أن يكون النسر ذو الرأس المزدوج هو « الرنك » الخاص بالملك الكامل . وإذا صح هذا الفرض ، فمن الجائز أن يكون هذا النسر قد اختفى من مكانه بالقلعة فترة من الزمن بعد وفاة الملك الكامل ، وبخاصة أنه ثبت من الدراسة التى قام بها كازانوفا للقلعة أن هذا الجدار المثبّت فوقه النسر ، وهو مجاور لباب السر ، قد أعيد بناؤه عدة مرات . ويفترض كازانوفا أن النسر قد ثبت ، فى هذا المكان ، فى الفترة التى انقضت بين إقامة الرحالة مييه Maillet بمصر (من ١٦٩٢ حتى عام ١٧٠٨) وزيارة الرحالة بوكوك Pococke (عام ١٧٤٠) .

سادسا — إنه إذا صح هذا الافتراض الأخير ، وإذا صح ما يقال من أن الامبراطور فردريك الثانى هو الذى ضم « النسر ذا الرأس المزدوج » إلى مجموعة رنوك الامبراطورية الألمانية ، فإنه من المحتمل أن يكون الامبراطور فردريك الثانى قد اتخذ هذا الرنك مقلداً فى ذلك حليفه الملك الكامل .

سابعا — فى ضوء هذه الشواهد والأدلة يرفض كازانوفا الرأى القائل بأن هذا النسر هو « رنك » صلاح الدين ، وهو الرأى الشائع بين الناس .

وكنا نأمل من الأثرى المعروف الأستاذ كرزويل أن يكون هذا النسر موضع اهتمامه فى أبحاثه الأثرية التى أجراها بالقلعة ، سواءٌ تلك التى نشرها سنة ١٩٢٤ أو سنة ١٩٥٩ . فقد اكتفى بأن يقول فى جملة عابرة : إن هذا النسر لايرجع إلى عهد صلاح الدين أو إلى عهد الملك الكامل ، وإنما يرجع إلى فترة متأخرة لم يحددها .

وكان هذا الموضوع مثار اهتمامى أثناء قيامى بترجمة هذا البحث . فقد حرصت على استقراء جميع المصادر العربية التى تتصل من قريب أو من بعيد بموضوع القلعة ، وبتاريخ مصر منذ العصر الأيوبى علّنى أجد نصا يكشف لنا هذا الغموض ، غير أنى لم أكن أكثر توفيقا فى هذا الصدد من كازانوفا . هذا فضلاً على أن جميع الدراسات التى تمت حديثا عن « الرنوك » الإسلامية لا نجد فيها شيئا يدل على أن النسر كان « رنك » صلاح الدين أو الملك الكامل ، أو غيرهما من سلاطين الأيوبيين والمماليك الذين تبوءوا عرش مصر .

وكل ما أستطيع أن أضيفه — فى هذا الصدد — هو أن النسر ذا الرأس المزدوج كان « الرنك » الخاص بالامبراطورية البيزنطية (١) . وربما يكون سلاطين العثمانيين قد اتخذوا هذا « الرنك » شعاراً لهم بوصفهم

(١) انظر (صورة النسر ذى الرأس المزدوج — رنك الامبراطورية البيزنطية) فى مجلة : History Today, March 1965, p. 159.

خلفاء للأباطرة البيزنطيين فى السيادة على هذه المنطقة من العالم . وإذا صح هذا الافتراض ، فإن هذا النسر الخاص بالقلعة يكون قد ثبت فى مكانه فى فترة من فترات الحكم العثمانى لمصر .

* * *

وقبل أن ننهى الحديث عن دراسة كازانوفا للقلعة ، لايفوتنى أن أشير إلى أن أثمن شىء خلّفته لنا الأيام عن القلعة هو هذه التحفة الرائعة التى لاتزال — حتى الآن — محفوظة فى متحف بورجيا بمدينة Velletri بإيطاليا ، وهى عبارة عن كرة من النحاس صوّرت عليها السماء بأبراجها ونجومها وكواكبها .

ويستدل من النقوش التى نُقشت على هذه الكرة أنها صُنعت برسم خزانة (مكتبة) الملك الكامل ، وأن الذى صنعها هو « علم الدين قيصر بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن مسافر ، المعروف بتعاسيف » . وعلم الدين قيصر مصرى المولد ، ولد بمدينة أصفون بصعيد مصر سنة ٥٧٤ هـ ، ثم أدركته الوفاة بدمشق سنة ٦٤٩ هـ ، وهو فى خدمة الملك المظفر تقى الدين أمير حماه .

وهذه الكرة هى الشىء الوحيد الذى قدّر له أن ينجو من الحريق الذى شب بالقلعة سنة ٦٩١ هـ ، فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، والتهم فيما التهمه من منشآت بالقلعة خزانة الكتب . وهذه الخزانة يُنسب إنشاؤها إلى الملك الكامل ، وكانت تتكون من الجانب الأكبر من خزانة القاضى الفاضل ، التى كانت تحتوى على أنفس ما تبقّى من خزانة الخلفاء الفاطميين .

ووجود هذه الكرة بإيطاليا يُفسَّر ، فى ضوء علاقات الود والصداقة التى ربطت بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثانى ، فضلا عما عُرف عن كليهما من شغف بالعلوم والمعرفة ، وعما عرف عن الامبراطور فردريك الثانى — على وجه التخصيص — من شغف بالعلوم العربية . وفى ضوء هذه الحقائق يفترض كازانوفا أن الملك الكامل أهدى هذه الكرة إلى حليفه الامبراطور ، وعلى هذا النحو تكون الكرة قد نُقلت من القلعة إلى بلاط الامبراطور بصقلية (١) .

وبعد ، أليست هذه الكرة هى حقا أثمن ما خلّفته لنا الأيام عن القلعة ، وأبلغ دليل على مدى ما حققه الشعب المصرى من تقدم حضارى ؟ .

* * *

لقد أدرك كازانوفا أن هذه الدراسة التاريخية الوصفية للقلعة يجب أن يتبعها دراسة أثرية لها ، ولذلك أشار فى ثنايا دراسته إلى الدراسة الأثرية للقلعة التى كان يزمع القيام بها فى ذلك الوقت ماكس هرز Max Herz مهندس لجنة حفظ الآثار العربية وقتذاك .

غير أن ماكس هرز لم يُقدّر له القيام بهذه الدراسة الأثرية المكمّلة ، وهذا هو ما دعا الأثرى المعروف الأستاذ كرزويل إلى القيام بأبحاثه الأثرية بالقلعة سنة ١٩٢٤ التى نشرت فى مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، العدد ٢٣ تحت عنوان : Archaeological researches at the Citadel of Cairo. —

(١) عن العلاقات بين الملك الكامل والامبراطور فردريك الثانى — انظر :
— الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى — المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الحادى عشر ، سنة ١٩٦٣ ، ص ١٩٥ — ٢١٣ .
— WIET : L'Egypt Arabe, p. 356.

وهذه الأبحاث الأثرية اقتصرت على السور الشمالى للقلعة ، أى سور صلاح الدين الذى يعرف « بقلعة الجبل » . وانتهى كرزويل فى أبحاثه هذه عن السور وبدناته وأبراجه وأبوابه إلى إيضاح ما ينسب بناؤه منها إلى صلاح الدين ، وإلى أخيه الملك العادل (يقصد ابنه الملك الكامل الذى كان نائبا عنه فى حكم مصر) ، وإلى السلطان جنبلاط والسلطان طومان باى فى أواخر العصر المملوكى ، وإلى عصر الأتراك العثمانيين — وعلى وجه التحديد — خلال القرن السادس عشر أو السابع عشر ، وأخيرا ما ينسب إلى محمد على (١) .

غير أن الأهم من ذلك أن كرزويل اختلف مع كازانوفا فيما يختص بتحديد مكان باب الجبل (أو باب القرافة) ، وهو الباب الثانى بسور صلاح الدين (قلعة الجبل) . فقد انتهى كازانوفا فى دراسته إلى القول بوجود هذا الباب الثانى تجاه بابها الأول والرئيسى المعروف بباب المدرّج (أو باب سارية) ، وذلك بالزاوية مكان التقاء السور الشمالى بالسور الجنوبى تجاه جبل المقطم والقرافة . غير أن كرزويل ، فى ضوء النصوص التاريخية التى ساقها كازانوفا فى معرض التدليل عن وجهة نظره فيما يختص بتحديد مكان هذا الباب؛ وفى ضوء أبحاثه الأثرية للضلع من السور الشمالى المواجه للجبل والقرافة وما به من بدنات وأبراج، استطاع أن يكتشف مكان هذا الباب على وجه الدقة ، وهو مدخل برج الإمام أحد أبراج هذا الضلع من السور (٢) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أدت هذه الأبحاث الأثرية إلى اكتشاف بابين (غير رئيسيين) بالسور يرجعان إلى عصر متأخر : أحدهما يوجد بالبدنة من السور التى تقع غربى برج الحدّاد ، وثانيهما يوجد ببرج الصخرة . وكلا البابين مسدود الآن (٣) . وفى نهاية هذه الأبحاث يتحدث كرزويل عن النسر الذى تكلمنا عنه من قبل ، ويكتفى بأن يذكر أن هذا النسر يرجع إلى عصر متأخر عن صلاح الدين وابن أخيه الملك الكامل (٤) . وفى سنة ١٩٥٩ أصدر كرزويل الجزء الثانى من كتابه الضخم : .The Muslim Architecture of Egypt, II — وهذا الجزء الثانى يتناول دراسة عمائر الأيوبيين والمماليك البحرية الأوائل حتى سنة ٧٢٦ هـ /١٣٢٦ م . وقد خصص كرزويل الفصلين : الأول والثانى من هذا الجزء لدراسته الأثرية عن القلعة .

وبالرجوع إلى هذه الدراسة يتضح لنا أنها تتناول فقط السور الشمالى لقلعة الجبل (سور صلاح الدين) الذى سبق له أن قام بدراسته فى سنة ١٩٢٤ . ولم تخرج هذه الدراسة الثانية ، فى جوهرها ، عن دراسته الأولى . وكل ما فى الأمر أنه بالإضافة إلى تأكيد أبحاثه السابقة فيما يختص باكتشاف مكان « باب الجبل » واكتشاف البابين غير الرئيسيين واللذين يرجعان إلى عصر متأخر ، يتحدث عن اكتشاف باب آخر يقع بالضلع من السور المواجه للجبل والقرافة . وهذا الباب يوجد بالبدنة من السور التى تقع بين البرجين نصف الدائريين اللذين يكونان برج المطار (٥) .

وفيما عدا ذلك فإن ما كتبه كرزويل عن القلعة فى هذين الفصلين يعتبر بمثابة تضمين لأبحاثه الأثرية التى

---

(١) انظر البحث المذكور ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٢) انظر البحث المذكور ، ص ١٤٧ — ١٥٦ ، والخريطة رقم ١ .

(٣) انظر البحث المذكور ، ص ١٢٢ — ١٢٦ .

(٤) انظر البحث المذكور ، ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٥) الكتاب المذكور ، الفصل الأول ، ص ١٥ — وانظر أيضا الخريطة رقم ١ .

قام بها فى سنة ١٩٢٤ فى موضعها من حيث التسلسل الزمنى فى دراساته عن الآثار المصرية فى عصرى الأيوبيين والمماليك الأوائل .

والقصد من هذه المقارنة بين الدراسة التى قام بها كازانوفا ، والأبحاث الأثرية التى قام بها كرزويل ، هو أن نوضح الآتى :

أولا — أن الأبحاث الأثرية التى قام بها كرزويل اقتصرت فقط على السور الشمالى (سور صلاح الدين) ؛ ومن ثم وجب التنويه إلى أهميتها كدراسة مكمّلة للدراسة التى قام بها كازانوفا عن هذا السور (الفصل السادس).

ثانيا — أن الجانب الأكبر والمهم من الدراسة التى قام بها كازانوفا عن القلعة ، هى دراسة السور الجنوبى ، الذى أنشأه الملك الكامل ، وهو الذى كان بمثابة مدينة ملكية بما تضم من عمائر السلطنة وقصور ودور الحريم السلطانية وغيرها من القاعات . وكذلك السور الثالث الذى يضم بعض المنشآت الملحقة بالقلعة الذى كان يدخل إليه زمن المماليك من باب السلسلة ، وزمن الأتراك العثمانيين من باب العزب . وهذه المنشآت المقامة فى كل من السورين قد اندثر معظمها ولم يبق منها سوى الوضع العام للسورين ، وجامع الناصر محمد بن قلاوون ، وبعض الأحجار الصفراء والسوداء من بقايا أطلال قصره الأبلق (١)

ومن ثم فإن دراسة كازانوفا لهذا الجانب الأكبر من القلعة ستظل هى الدراسة الوحيدة والمعول عليها حتى الآن . ولولا قدرة كازانوفا الفذة على تتبع النصوص التاريخية الخاصة بهذه العمائر فى مصادرها الأصلية والمقارنة بينها لما تمكن من إحياء معالمها وتحديد مكانها على المخطط العام الذى نصوره للقلعة .

ولكى نفرغ من الحديث عن الناحية الأثرية يلزم التنويه بالدراسات الأثرية التى أجريت لأسوار القاهرة . فقد أثبتت الدراسات الأثرية التى قام بها المرحوم الأستاذ على بهجت . والمرحوم الأستاذ حسن الهوارى ، والأستاذ كرزويل، صحة المخطّط الذى رسمه كازانوفا لأسوار القاهرة وأبوابها . كما أدت هذه الدراسات إلى اكتشاف أجزاء من هذه الأسوار ، وبخاصة السور الشرقى فى قطاعه الممتد من القلعة جنوبا حتى الفسطاط ، وفى قطاعه الشمالى الممتد من القلعة إلى برج الظفر وباب النصر ، وأدت أيضا إلى اكتشاف بعض أبواب هذا السور : فباب الفسطاط اكتشفه كرزويل ، وباب البرقية اكتشفه على بهجت ، والباب الجديد اكتشفه كرزويل .

هذا وقد أورد لنا كرزويل فى ختام الفصل الذى خصصه عن أسوار صلاح الدين قائمة بالأبواب التى كانت موجودة بهذه الأسوار وما اختفى منها نتيجة للتنظيمات التى تعرضت لها مدينة القاهرة منذ أواخر القرن التاسع عشر وما لا يزال قائما منها حتى الآن . (٢)

---

(١) أفرد كرزويل فى كتابه المذكور ، الفصل السابع (ص ٢٥٥ — ٢٦٤) للحديث عن مجرى المياه بالقلعة والقصر الأبلق . ودراسته للقصر الأبلق دراسة وصفية تنقل الينا وصف هذا القصر كما جاء على لسان المؤرخين والرحالة .

(٢) عن الدراسات الأثرية الخاصة بهذه الأسوار انظر :
— CRESWELL : The Muslim Architecture of Egypt., chap. X, pp. 161-196, II, chap. III, pp. 41-63.
— الدكتور عبد الرحمن زكى : قلعة الجبل ، ص ١١٧ — ١٣٥ (الفصل الخاص بالأسوار) .
— الدكتور عبد الرحمن زكى : القاهرة تاريخها وآثارها، ص ١٣ — ١٧ ، ٦٦ — ٧١ .

وبالإضافة إلى هذه الأبواب التى ذكرها كرزويل ، فقد اكتشف عن طريق المصادفة فى السنوات الأخيرة باب السور الشرقى الذى بناه بدر الجمالى . ففى أثناء قيام مصلحة التنظيم برفع أتربة تلال الدراسة كُشف عن أجزاء من هذا السور الشرقى كانت تخفيها هذه التلال ، ومن بين ما كُشف عنه هذا الباب : ويتضح من النقش التذكارى الخاص به أنه يُعرف بباب التوفيق ، وأنه أنشىء فى أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله على يد مولاه « أبى النجم بدر المستنصرى » (١)

* * *

ويتضح من هذه المقدمة أنه كان من المتعذّر على كازانوفا أن يقوم بهذه الدراسة التاريخية الوصفية للقلعة وما حوته من منشآت عديدة، لولا هذا العدد الضخم من المصادر العربية الذى يتميز به تاريخ مصر الإسلامية، وبخاصة فى العصرين: الأيوبى والمملوكى . ومن هذه المصادر ما هو بمثابة موسوعة علمية اتسعت للكثير من أنواع العلوم والمعرفة .

ويأتى فى مقدمة هذه المصادر — بالنسبة لموضوع البحث — كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » للمقريزى . فهذا الكتاب كان هو المرشد الرئيسى لكازانوفا فى أهم فترة من فترات دراسته للقلعة؛ أى منذ بداية الحديث عن بناء أسوار القاهرة والقلعة حتى سنة ٨٤٣ هـ /١٤٣٩—١٤٤٠ م (٢)

غير أن كازانوفا لم يترك نفسه ليقوده المقريزى كيفما شاء وأينما شاء ، وإنما كان يأخذ عنه ما يقدم من نص عن هذا الأثر أو ذاك ، ثم يضع هذا النص موضع الدراسة المقارنة فى ضوء ما يستخرجه من نصوص مقابلة من المصادر العربية الأخرى ، وأخيراً يطبق ما يخرج به من هذه الدراسة المقارنة على الطبيعة لمعرفة مدى انطباقه على المخطط العام الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية للقلعة . وهذا المنهج العلمى جعل ثقة كازانوفا تهتز نوعا ما فى المؤرخ الكبير ، الذى يقف موقف الصدارة من مؤرخى عصره ؛ بل إن هذا المنهج كشف له الكثير من تناقضات المقريزى مع نفسه (٣) . ومن الحق والإنصاف أن نذكر أن تطبيق قواعد المنهجية العلمية

(١) WIET : Une nouvelle Inscription Fatimide au Caire, Journal Asiatique, T. CCXLIX, année 1961, Fasc. No. I, p. 13 et suiv.

(٢) يرى الأستاذ فيت Wiet — وهو الذى قام باعادة نشر جزء كبير من الخطط — أن المقريزى انتهى من كتابة الخطط سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م. غير أنه ظل يضيف اليها اضافات جديدة عما استجد بناؤه بالقاهرة حتى سنة ٨٣٦ هـ / ١٤٣٣م. ويرى الأستاذ محمد عبد الله عنان أن المقريزى استمر فى اضافة هذه الاضافات حتى سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩ — أنظر :
WIET : Compte rendu d'Ibn Muyassar, JA, 1921, p. 73, No. 1.
— محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية ، وتاريخ الخطط المصرية (الفصل الثانى ، مؤرخو الخطط ، ص ٤٧ — ٤٩

(٣) أوضح كازانوفا — فى هذه الدراسة — الكثير من هذه الأمثلة .
— وفيما يختص بمكانة المقريزى وما يوجه اليه من اتهامات ، انظر :
— محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، الفصل الثانى ، ص ٤٥ — ٥٩ .
— الدكتور محمد مصطفى زياده : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، الفصل الأول (المقريزى ومعاصروه ، ص ٣ وما يليها) .

بمثل هذه الصرامة التى طبقها كازانوفا على المقريزى فيه شىء كثير من التحامل عليه ، وبخاصة إذا ما وضعنا موضع الاعتبار أسلوب التأليف فى ذلك العصر ، وعند المؤرخين العرب بصفة عامة .

ومعظم هذه المصادر العربية ، كان لا يزال مخطوطاً وقت أن قام كازانوفا بدراسته للقلعة ، وليس ثمة شك فى أن هذا أدى إلى مضاعفة الجهد الذى قام به فى استخراج مادته التاريخية . غير أن الكثير من هذه المصادر الخطية أصبحت مطبوعة الآن ، ومن ثم تطلب الأمر منى مطابقة النصوص التاريخية فى مصادرها الخطية ومصادرها المطبوعة ، وإثبات وجه الخلاف إن كان ثمة خلاف ، ووضعه بين قوسين .

وقد أغفل كازانوفا — فى كثير من الأحيان — أن يثبت النص العربى ، سواء بالمتن أو بالحواشى ، وقدمه مترجما إلى اللغة الفرنسية . ولذلك فإن ترجمة هذه الدراسة من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية اكتنفتها صعوبات كثيرة . فمن هذه الصعوبات أنها اقتضت العودة إلى جميع النصوص العربية فى مصادرها الأصلية ، ثم وضعها فى موضعها بالمتن المترجم .

ومن هذه الصعوبات أن كازانوفا — فى بعض الأحيان — كان يقتطف من النص العربى العبارة أو الكلمة التى يريد الاستدلال بها . وهذه الطريقة تزيد من متاعب المترجم فى تفهم النص ، بل تجعل ترجمة ما اقتطفه كازانوفا من النص غير واضحة . ولذلك فقد رأيت — فى هذه الحالات — إثبات النص كاملاً بعد تحقيقه فى مصادره الأصلية .

وهذا اقتضى منى العودة إلى جميع المصادر العربية التى اعتمد عليها كازانوفا ، المخطوطة منها والمطبوعة . فضلا عما أخرجته المطابع ، فى السنوات التالية لدراسته وحتى الآن ، من كتب عديدة تتصل بالموضوع . وسيجد القارىء فى نهاية هذه الترجمة ثبتاً بهذه المصادر التى رجعت إليها .

وككل عمل كبير ، فإن هذه الدراسة الجادة القيمة لم تخل من بعض الأخطاء البسيطة غير المقصودة ، وهى أخطاء مطبعية أو أخطاء جاءت نتيجة السهو أو اللبس . مثال ذلك ما لوحظ من أخطاء فيما يختص بتحديد مواضع وأرقام المنشآت التى تحدث عنها ، سواء على خريطة القلعة أو على خريطة القاهرة التى وضعها علماء الحملة الفرنسية . والمنشورة فى كتاب وصف مصر . وقد استوجب الأمر الرجوع إلى الجزء الخاص من هذا الكتاب الذى يتضمن وصف القلعة ، وهو الجزء الثامن عشر ، القسم الثانى ، والخرائط الملحقة به لتصحيح هذه الأخطاء .

وبالإضافة إلى ذلك لا يفوتنى أن أوضح للقارىء أن كثيرا من معالم القاهرة الأثرية ، التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب ، والتى كانت قائمة حتى نهاية القرن التاسع عشر ، قد اختفت الآن نتيجة للتنظيمات الحديثة التى شهدتها المدينة الكبيرة — ولا تزال تشهدها حتى الآن . وقد أشرت إلى ما اختفى من هذه المعالم الأثرية من خريطة القاهرة فى موضعه من الكتاب .

* * *

وإنى إذ أختتم هذه المقدمة ، أود أن أقدم أجزل الشكر إلى كل من تكرم بمساعدتى فى تذليل بعض ما اعترضنى من صعاب أثناء قيامى بهذا العمل. وأخص من هؤلاء بالذكر المرحوم الأستاذ الدكتور جمال محرز مدير مصلحة الآثار الذى — فضلاً على قيامه بمراجعة هذه الترجمة — لم يدخر وسعاً فى أن يقدم إلى ما تطلبه الأمر من مساعدة . كما أخص أيضا الصديق الزميل الأستاذ الدكتور أحمد السعيد سليمان ، أستاذ اللغات الشرقية ، بقسم اللغات الشرقية ، بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، الذى تفضل عن طيب خاطر وفى سماحة الأستاذ العالم بترجمة أربعة من النقوش التركية التى أوردها كازانوفا بالأصل الفرنسى لهذا الكتاب .

وبعد ، فأرجو أن أكون قد وفقت فى نقل هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية .

والله ولى التوفيق

د . أحمد دراج

تاريخ ووصف
قلعة القاهرة

الجزء الأول

مقدمة

تاريخ القلعة العام

لكى يتيسر للقارئ متابعة دراسة — من هذا النمط — تستلزم الدخول فى كثير من التفاصيل التاريخية أعتقد أن الأمر يستوجب أن أعرض أولا الصورة العامة للمراحل الرئيسية التى مرت بها القلعة . ومن ثم ، فإن القارئ سيجد فى هذه الصفحات القادمة عرضا مبسطا للتخطيط العام للقلعة ؛ إذ فى ضوئه يمكنه أن يتتبع فى يسر وسهولة مثل هذه الدراسة .

لقد افتتح صلاح الدين ، بعد أن آل اليه ملك مصر وأسس بها أسرة حاكمة ، عهدا جديدا كل الجدة فى تاريخ هذا البلد . (فهذه الأسرة الأيوبية (١) كانت بالنسبة لتاريخ هذا البلد بمثابة فترة انتقال ، بل يمكننا أن نقول بأنها كانت بالنسبة لتاريخ مصر ثورة شملت جميع ميادين الحضارة ؛ ثورة فى ميدان النظم الدينية بانتصار السنة على الهرطقة الفاطمية ؛ وثورة فى ميدان العمارة الدينية بإدخالها طراز المدرسة ؛ وثورة فى ميدان النظم العسكرية بما حققته من إقامة نظام الإقطاع وبما أشاعته من روح عسكرية وشرف الانتساب إلى الجندية ؛ وثورة فى ميدان العمارة الحربية بما أدخلته على بناء القلاع والأسوار من تعديلات متأثرة فى ذلك بالصليبيين ؛ وثورة فى ميدان الزخرفة ... وأخيرا فى ميدان الكتابة الأثرية ... الخ (٢) .) وأما من وجهة النظر العامة فقد تميزت هذه الثورة بالسيطرة التامة للعنصر العسكرى على مقاليد الأمور فى هذا البلد ، فهذا العنصر العسكرى الذى ظل مغلوبا على أمره فترة طويلة تحت حكم الفاطميين بسبب تسلط العنصر المدنى ، أخذ يسترد نفوذه وسلطانه فى عهود أوائل سلاطين الأيوبيين ، ثم ما لبث أن أصبح السيد المطلق فى البلاد بانتقال السلطة إلى المماليك ثم إلى العثمانيين . ومن ثم فليس هناك ما يدعو للدهشة فى أن يكون مقر هؤلاء السلاطين والحكام ، بل أن تكون حاضرة مصر نفسها — منذ بداية هذه الفترة — إحدى القلاع وليست مدينة من المدن . ولذلك فإن تاريخ القلعة (قلعة القاهرة) لا يعدو أن يكون هو تاريخ مصر نفسه خلال أكثر من أربعة قرون .

---

(١) لم يحكم أولاد صلاح الدين سوى فترة قصيرة ، وانما كان اخوته وأولادهم هم خلفاؤه الحقيقيون . ولهذا فقد نسبت الأسرة الى أيوب والد صلاح الدين والجد المشترك لخلفائه فى مختلف أجزاء الامبراطورية التى كان له فضل اقامتها .

(٢) VAN BERCHEM : Archéologie Arabe, p. 118 (tirage à part).

وواضح جلى أن صلاح الدين فى بنائه لهذه القلعة الضخمة قد استوحى فكرة بنائها من الصليبيين . فهؤلاء الصليبيون الذين كانوا يعسكرون فى بلاد معادية لهم ، قد قاموا منذ اللحظة الأولى ببناء قلاع ضخمة ؛ كل قلعة منها بمثابة مدينة محصنة . إذ لم يكن القصد من بناء هذه القلاع أن يحتمى بها الجند فحسب ، وإنما ليحتموا بها هم وأفراد عائلاتهم ، وأتباعهم ومن يلوذ بهم من الأهالى الذين يعيشون بجوارها . وكان صلاح الدين فى السنوات الأولى من حكمه ، يعتقد أن الخطر يتهدده من جانب من تبقى من أتباع الفاطميين ؛ ولهذا يعزو البعض بناءه للقلعة فى عام ٥٧٢ هـ (١١٦٦ م) إلى إحساسه بهذا الخطر .

ومع ذلك ، فيبدو أن الفاطميين — منذ عام ٥٧٢ هـ على أقل تقدير — كانوا قد تخلوا نهائيا عن مقاومة صلاح الدين ، كما يغلب على الظن أيضا أن صلاح الدين قد نسى أمر القلعة نظراً لكثرة مهامه فى سورية . وذلك أن القلعة لم يتم بناؤها وتصبح مقراً للحكم إلا على يد ابن أخيه الملك الكامل سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م). فالملك الكامل — كما سنرى فيما بعد فى مزيد من التفصيل — هو الذى أنشأ بها القصور الأولى والأبراج الرئيسية .

وعلى الرغم من أن الملك الكامل هو أول سلاطين الأيوبيين الذى نقل إلى القلعة مقر السلطنة ودار العدل ، إلا أن العنصر العسكرى لم يكن قد أصبح بعد فى عهده صاحب السلطة المطلقة فى البلاد . وإنما حدث ذلك التطور فى عهد الملك الصالح ثانى خلفائه ؛ إذ أن ضروب الحظوة والرعاية التامة التى أحاط بها جنده (الذين عرفوا بالمماليك لأنهم جلبوا من أسواق الرقيق) ، أمدتهم بأسباب القوة التى مكنتهم من أن يتربعوا فيما بعد على عرش السلطنة ذاته .

هذا ومما يسترعى الانتباه أن الملك الصالح بنى قلعة جديدة لكى يقيم بها خصيصا هو ومماليكه . وذلك أن القلعة التى كان يقيم بها أسلافه لم تعد فى نظره ، فيما يبدو ، بمعزل كاف عن الشعب ؛ ومن ثم فقد اختار لقلعته جزيرة الروضة . وقد عرف مماليكه بالمماليك البحرية ، أى النيلية (لأن النيل يسمى فى لغة العامة بالبحر) . وهذه التسمية تعبر تماماً عن الحالة وقتذاك ؛ فالعزلة التامة بين العنصرين : العسكرى والمدنى قد أصبحت أمرا واقعاً . ومع ذلك فإن المماليك البحرية بعد أن آلت إليهم السلطنة لم ينظروا بعين الارتياح لهذه الحالة من العزلة التامة التى تفصلهم عن أفراد الشعب ، ولذلك عادوا إلى القلعة وأقاموا بها ، ثم أخذت مدينة القاهرة تتصل اتصالا مباشرا بالقلعة نتيجة للمبانى العديدة التى شيدت فى منطقة المقابر القديمة . ولكن على الرغم من أن هذه العزلة بين العنصرين : المدنى والعسكرى قد تلاشت ، فقد ظلت المدينة الحربية (القلعة) تسيطر على المدينة البرجوازية (القاهرة) طالما كانت هذه الطائفة القوية من المماليك تفرض سلطانها على مصر وتسيطر سيطرة تامة على مقاليد الأمور بها .

لقد استمرت الأسرة الأيوبية تحكم البلاد تسعة وسبعين عاما (٥٦٩ — ٦٤٨ هـ / ١١٧٣ — ١٢٥٠ م (١). وهذه هى أسماء سلاطينهم فى هذه الفترة :

١ — السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ٥٦٩ — ٥٨٩ هـ

---

(١) لقد أسقطنا من هذه الفترة السنتين اللتين حكم أثناءهما صلاح الدين مصر باسم نور الدين (من ٥٦٧ الى ٥٦٩ هـ) ، كما أسقطنا أيضا السنوات (من ٦٤٨ الى ٦٥٢ هـ) وهى التى شهدت آخر سلاطين الأيوبيين ، وذلك أن سلطنته كانت مجرد اجراء صورى .

— (هذا السلطان الاخير هو الاشرف موسى ، وكان طفلا فى السادسة من عمره ، أشركه معه المعز أيبك فى السلطنة كاجراء شكلى لمواجهة معارضة أمراء الأيوبيين بالشام) .

٢ ــ السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان (ابن صلاح الدين) ٥٨٩ ــ ٥٩٥ هـ .

٣ ــ « « المنصور ناصر الدين محمد (ابن العزيز) ٥٩٥ــ ٥٩٦ هـ .

٤ ــ « « العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب (أخو صلاح الدين) ٥٩٦ ــ ٦١٥ هـ .

٥ ــ « « الكامل ناصر الدين محمد (ابن العادل) ٦١٥ ــ ٦٣٥هـ .

(كان الكامل فى الواقع هو السلطان الحقيقى لمصر منذ عام ٥٩٦ هـ . إذ أن أباه ظل يقيم على الأخص بسورية وكان قد فوض إليه شئون الدولة بمصر) .

٦ ــ السلطان الملك العادل سيف الدين الثانى (ابن الكامل) ٦٣٥ ــ ٦٣٧ هـ .

٧ ــ « « الصالح نجم الدين أيوب (ابن الكامل) ٦٣٧ ــ ٦٤٨ هـ .

٨ ــ « « المعظم غياث الدين توران شاه (ابن الصالح أيوب) ٦٤٨ هـ .

ونحن لا يهمنا من هؤلاء السلاطين ــ من وجهة النظر الخاصة هذه الدراسة ــ سوى السلطانين : الأول والخامس .

وأما سلاطين المماليك فلم يكونوا يمثلون ــ الا فيما ندر ــ هذا التتابع الوراثى الذى نلحظه بين أفراد الأسرة الحاكمة الواحدة . فكثير من هؤلاء السلاطين لاقوا حتفهم على أيدى قواد جيوشهم لكى يتربعوا بدورهم على عرش السلطنة . ولم تشذ عن هذه القاعدة سوى أسرة واحدة ، هى أسرة قلاوون التى استطاعت ــ على الرغم مما تعرضت له من حوادث الزمان وتقلباته ــ أن تحتفظ بالسلطنة مدة طويلة من الزمان .

وقد رأينا من قبل كيف أن القلعة بعد سقوط الأيوبيين أصبحت مقرا للسلطنة بصفة دائمة . ولم تلبث القلعة ، منذ ذلك الوقت ، أن أخذت تتعرض لعدة تعديلات جوهرية . إذ كان من العسير أن تظل بمنأى عن اهتمام سلطان مثل بيبرس ، وهو من أكثر سلاطين المماليك شغفا بالعمارة . غير أن ما قام به بيبرس ، وما قام به بعض خلفائه أيضا ، قد اختفت معالمه فى خضم التعديلات الضخمة التى أحدثها بالقلعة محمد بن قلاوون ؛ هذا السلطان الذى لم يكن يقل شهرة عن بيبرس من حيث شغفه الشديد بالبناء والتعمير . ولهذا يعتبر عهده ــ من وجهة النظر هذه ــ فترة تجديد (عمرانى) شمل مدينة القاهرة بأجمعها ؛ ــ كما كانت فترة تجديد شامل للقلعة ، وهو ما سوف أتمكن من إيضاحه فيما بعد . فالقلعة فيما عدا سورها الخارجى والآبار الموجودة بها لم يعد بها ــ بعد التعديلات التى أجراها محمد بن قلاوون ــ أى أثر من آثار المنشآت السابقة .

هذا ويجدر بنا أن نشير إلى أن الكاتب الذى كتب البحث الخاص بالقلعة الذى تضمنه كتاب « وصف مصر » (الجزء ١٨ ، القسم الثانى) (١) قد وقع فى خطأ تام فى هذا الصدد ؛ إذ أن كل ما شاهده بالقلعة من منشآت قديمة لم يكن يتعدى عهد محمد بن قلاوون .

ففيما عدا المنشآت التى أنشأها محمد بن قلاوون ، ليس هناك ما يستحق الاشارة سوى بعض المنشآت القليلة الأهمية التى أنشأها السلطان برقوق وأولاده ، والسلطان قايتباى أيضاً . وأما الأتراك العثمانيون الذين فتحوا مصر فى الفترة التى أدى فيها استخدام المدفع إلى إحداث ثورة فى فن القتال . فإنهم قاموا بإجراء بعض التعديلات الهامة بأحد جوانب السور الخارجى ، كما قاموا بتغيير مواقع بعض المنشآت الداخلية . كما شهدت القلعة أخيرا

---

(١) JOMARD : Description abrégée de la ville et de la Citadelle du Caire. Description de l'Egypte, Etat moderne, Vol. XVIII, 2e partie, Paris 1822.

فى عهد محمد على بناء بعض المنشآت الجديدة التى أخذت بدورها تتلاشى (هذه الأيام) شيئا فشيئا لتبنى مكانها المخازن وثكنات الجند . (١)

ويعتبر عهد سلاطين المماليك من أهم عصور التاريخ المصرى الجديرة بالدراسة لأنه — أولا — يعتبر من وجهة النظر العسكرية والمعمارية من ألمع عصوره وأكثرها طرافة — وثانيا — لأننا لدينا مرشدا ثمينا نهتدى بهديه فى دراسة التاريخين : العسكرى والمعمارى لهذا العصر ؛ وهذا المرشد الثمين هو المقريزى ذاك المؤرخ العربى . وأما العصر العثمانى القريب العهد بنا ، ففضلا على أنه يعتبر أقل خصوبة من العصر المملوكى من الناحية الفنية ، فإنه لم يصل لنا منه سوى عدد قليل يكاد لا يذكر من المراجع التى يمكننا الاعتماد عليها والاستفادة منها .

ومن ثم فإنى سأكتفى — قبل الدخول فى هذه الدراسة التفصيلية — بأن أستعرض فى إيجاز سريع تاريخ القلعة على عهد سلاطين المماليك .

فالقلعة تتكون من قسمين يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف . فأما القسم الأول فهو القلعة نفسها ، وهى عبارة عن بناء منيف بارز يتصدر مجموعة تحصينات القاهرة ، ولهذه القلعة بابان يقعان فى الجهة الجنوبية ؛ هما باب سارية الذى يعرف أيضاً بباب المدرَّج (٢) ، وباب القرافة الذى يفضى إلى الصحراء تجاه جبل المقطم .

وأما القسم الثانى فهو قصر السلطان مع ما يتبعه من مرافق ؛ أى الإيوان — هذه القاعة الكبيرة ذات الأعمدة التى كان يعقد بها السلطان مجالسه مقلداً فى ذلك خلفاء الفاطميين — ثم الإصطبلات ، إذ من الطبيعى أن تكون هذه الإصطبلات موضعا للاهتمام الكبير من جانب هؤلاء الأمراء الذين كانوا — بحكم وضعهم — على أهبة الاستعداد دائما للانطلاق بخيولهم فى حملات نائية فأما الإيوان فكان يطل على الجهة الشمالية ، وكان يفصل بينه وبين القلعة رحبة واسعة . وفى هذه الرحبة كان الأمراء والجند يتجمعون انتظاراً لانعقاد مجلس السلطان . وأما الإصطبلات فكانت تقع بالجهة الجنوبية الغربية أسفل القصر .

وقد بنى بيبرس داخل القلعة ذاتها الدار الجديدة والبرج (الذى يعرف بالقُلَّة) ، كما ترك بيبرس الإيوان بعد أن بنى دارا للعدل أسفل القلعة فيما بين بابى السلسلة وسارية ؛ وفى هذه الدار كان يعقد مجالسه . وقام قلاوون بعده ببناء قصر خاص لنائب السلطنة . وأما دار العدل التى بناها بيبرس فقد هجرها وعاد إلى الايوان ليعقد مجالسه به . وظلت دار العدل مهجورة إلى أن جاء محمد بن قلاوون وجعلها مقراً لفرقة الطبلخاناه . وفى الفضاء الواقع شرقى الاصطبلات أنشأ محمد بن قلاوون حوشاً وأنفق الأموال الباهظة لامداده بمياه النيل ، كما شيد أعلى الحوش قصرا فخما على طراز ذلك القصر الذى شيده بيبرس من قبل بدمشق وهو القصر الذى عرف بالقصر الأبلق لأن جدرانه الخارجية بنيت وجهاتها بمداميك من الحجر الأبيض والأصفر على التعاقب ، ولا تزال بعض بقاياه موجودة حتى الآن (٣) . وكان هذا القصر الشاهق — بحكم موقعه فى هذا المكان المرتفع —

(١) (قام كازانوفا بهذه الدراسة بعد الاحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢ ، وبعد أن أصبحت القلعة أحد معسكرات القوات البريطانية • وقد تم جلاء هذه القوات عنها فى ٤ من ديسمبر ١٩٤٦ ، وحلت محلها قوات الجيش المصرى ، ورفع العلم المصرى عليها فى ١٩ من أغسطس من العام نفسه) •

(٢) صحح نطق هذه الكلمة حسبما ورد فى التصحيحات المرفقة فى نهاية هذا الكتاب • هذا وكان كازانوفا قد قرأ هذه الكلمة ، فى بادىء الأمر على هذا النحو « المدرج أى بكسر الراء وتشديدها » غير أنه عاد فاقتنع بقراءتها على النحو المذكورة به فى المتن بعد أن اطلع على التعليق الذى كتبه عنها فان برشم فى كتابه (Corpus. Inscrip. Arab., Egypte I, p. 80, note 191). وبعد أن قرأ ما ورد عنها على لسان ياقوت •

(٣) (هدم هـذا القصر عندما قام محمد على ببناء جامعه المعروف باسمه وما جاوره من المبانى) •

يشرف على الوادى الفسيح الممتد أمامه . وفضلاً على ذلك فقد كان هذا القصر أشبه بالمنظرة الفخمة وسط مجموعة القصور الأخرى التى أنشأها محمد بن قلاوون التى أكملها ببناء مسجد فخم يتوسطها . ولا يزال هذا المسجد ، الذى يعرف خطأً بمسجد قلاوون ، قائماً حتى اليوم . وأما المنطقة الواقعة بين الميدان الممتد بحذاء السور الجنوبى للقلعة وبين القلعة ذاتها — حيث كان يقيم الجند (١) — فقد كانت عامرة بالمنشآت الفخمة التى جردت من أجل تزيينها وتجميلها المعابد المصرية القديمة بالوجه القبلى . ولم يبق (الآن) لهذه المنشآت من ذكرى سوى اسم السبع قاعات أو السبع حدرات (انظر خريطة القلعة فى عهد الحملة الفرنسية) . ولما كانت مياه الآبار الموجودة بالقلعة لا تكفى لإمداد هذا العدد الضخم من الجند والأمراء من مختلف الرتب الذين كانوا يعيشون بداخلها ، فقد قام محمد بن قلاوون بجهود جبارة لجلب مياه النيل إليها .

وينفرد قايتباى ، من بين خلفاء محمد بن قلاوون ، بفضل توجيه جل عنايته لصيانة ورعاية هذه المنشآت جميعا . هذا فضلا على أن الحوش — الذى أقيم به مسجد من قبل فى عهد السلطان فرج بن برقوق — كان محلا لعنايته واهتمامه . ولم يلبث هذا الحوش أن أصبح المقام المفضل للسلاطين من بعده . فالغورى أنشأ به بستانا كبيراً ، كما أقام به الباشوات العثمانيون فى القرن الثانى عشر الهجرى عددا كبيرا من القصور التى اتخذوها مقراً لإقامتهم ، وبذلك هُجرت القصور السلطانية . وقد خُصص القصر الأبلق — أحد هذه القصور — ليكون مقرا لصناعة كسوة الكعبة التى ترسل كل عام إلى مكة ؛ ولهذا أصبح هذا القصر يعرف بقصر الكسوة . ثم نجد فيما بعد أن القلعة قد نالها نصيب من قصة سيدنا يوسف ، وهى القصة التى ترتبط بتاريخ هذا البلد كله . فالبئر المشهورة — التى حفرها قراقوش فى عهد صلاح الدين — ، وكذلك الإيوان (الذى أصابه التخريب وأصبح يعرف بالديوان) والقصر ، كلها أصبحت تنسب إلى سيدنا يوسف .

وفى عهد السيادة العثمانية خُصصت القلعة ذاتها لإقامة جنود الانكشارية . وأما الباشوات فقد نقلوا بعد القرن الثانى عشر الهجرى مقر إقامتهم من الحوش إلى المنطقة المجاورة للقصور السلطانية . هذه القصور التى تركوها تتداعى وتتساقط أمام أعينهم دون أن يهتموا بعمارتها أو بالمحافظة عليها جرياً على عادة الأتراك . وأخيراً قام محمد على بهدم معظم القصور القديمة ليبنى مكانها جامعه ، كما قام أيضا بعمارة الأجزاء المتداعية من السور .

واليوم ، لم يعد قائماً من هذه المنشآت القديمة سوى جامع محمد بن قلاوون ، وبعض أطلال قصره الأبلق . فالمكان الذى كانت تشغله فيما مضى القصور السلطانية يقوم عليه الآن مسجد محمد على ، وأما ما عدا ذلك من مبان فليست سوى مخازن . والسور الذى أهمل أمره فيما مضى إهمالا شديدا (٢) قد رمم وأصبح الآن على حالة جيدة .

---

(١) كان هؤلاء الجند يقيمون بالأبراج ولذلك سموا بالمماليك البرجية ، وكما ثار أسلافهم المماليك البحرية على سلاطين الأيوبيين وانتزعوا منهم عرش السلطة ، فقد ثار هؤلاء على سادتهم سلاطين المماليك البحرية وأسسوا دوله المماليك البرجية .

(٢) لقد ذهلت سنة ١٨٨٩ لرؤية الأعراب وهم يقومون فى اطمئنان وهدوء بانتزاع الأحجار الضخمة من سور القلعة وتقطيعها الى قطع صغيرة ليبنوا بها بعض العشش البسيطة على بعد خطوات من السور . وقد منع هؤلاء الأعراب منذ ذلك الحين من القيام بهذا العمل الشائن ، كما ملئت أجزاء السور التى انتزعت منها أحجارها بطبقة قوية من الأسمنت . وربما يكون قد أدى ذلك العمل الى تشويه منظر السور نوعا ما ، الا أنه من غير شك قد أدى أيضا الى تدعيم السور وتقويته والى المحافظة على بقايا هذه القلعة القديمة التى بناها صلاح الدين .

ومع ذلك فمن المحتمل أن تهمل القلعة يوما ما ويزول الاهتمام بها ، إذ لم يعد لها أية أهمية حربية تذكر كما يحتمل أن تبنى ثكنات أخرى للجند بتكاليف أقل . أو أن تقام يوما ما قلعة بكل مافى هذه الكلمة من معنى تجاه هذه القلعة فوق جبل المقطم حيث يوجد هناك فعلاً أحد الحصون. وفى هذه الحالة يمكننا أن نتنبأ بأن القلعة ستتحول إلى كوم من الخرائب يضاف إلى بقية الكيمان الأخرى بالقاهرة (١)

هذه هى الخطوط العريضة لتاريخ القلعة ووصفها ، وهو ما سأتصدى لدراسته باذلا كل جهد فى أن أضيف إليه كل ما أمكننى استخلاصه من إيضاحات تاريخية خاصة بالقلعة جاءت على لسان الكتاب والمؤرخين من شرقيين وغربيين .

قائمة سلاطين المماليك (٢)

(منذ سقوط الأيوبيين حتى الفتح العثمانى)

١ — (السلطانة شجر الدر) ٦٤٨ هـ

٢ — السلطان الملك المعز عز الدين أيبك ٦٤٨ — ٦٥٥ هـ

٣ — السلطان الملك المنصور نور الدين على (ابن المعز أيبك) ٦٥٥ — ٦٥٧ هـ

٤ — السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز ٦٥٧ — ٦٥٨ هـ

٥ — السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ٦٥٨ — ٦٧٦ هـ

٦ — السلطان الملك السعيد ناصر الدين بركه خان (ابن بيبرس) ٦٧٦ — ٦٧٨ هـ

٧ — السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش (ابن بيبرس) ٦٧٨ هـ

٨ — السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ

٩ — السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل (ابن قلاوون) ٦٨٩ — ٦٩٣ هـ

١٠ — « « الناصر ناصر الدين محمد (ابن قلاوون) ٦٩٣ — ٦٩٤ هـ

١١ — « « العادل زين الدين كتبغا ٦٩٤ — ٦٩٦ هـ

١٢ — « « المنصور حسام الدين لاجين ٦٩٦ — ٦٩٨ هـ

— « « الناصر ناصر الدين محمد (للمرة الثانية) ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ

١٣ — « « المظفر ركن الدين بيبرس (الثانى) الجاشنكير ٧٠٨ — ٧٠٩ هـ

— السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد (ابن قلاوون) (للمرة الثالثة) ٧٠٩ — ٧٤١ هـ

١٤ — « « المنصور سيف الدين أبو بكر (ابن الناصر) ٧٤١ — ٧٤٢ هـ

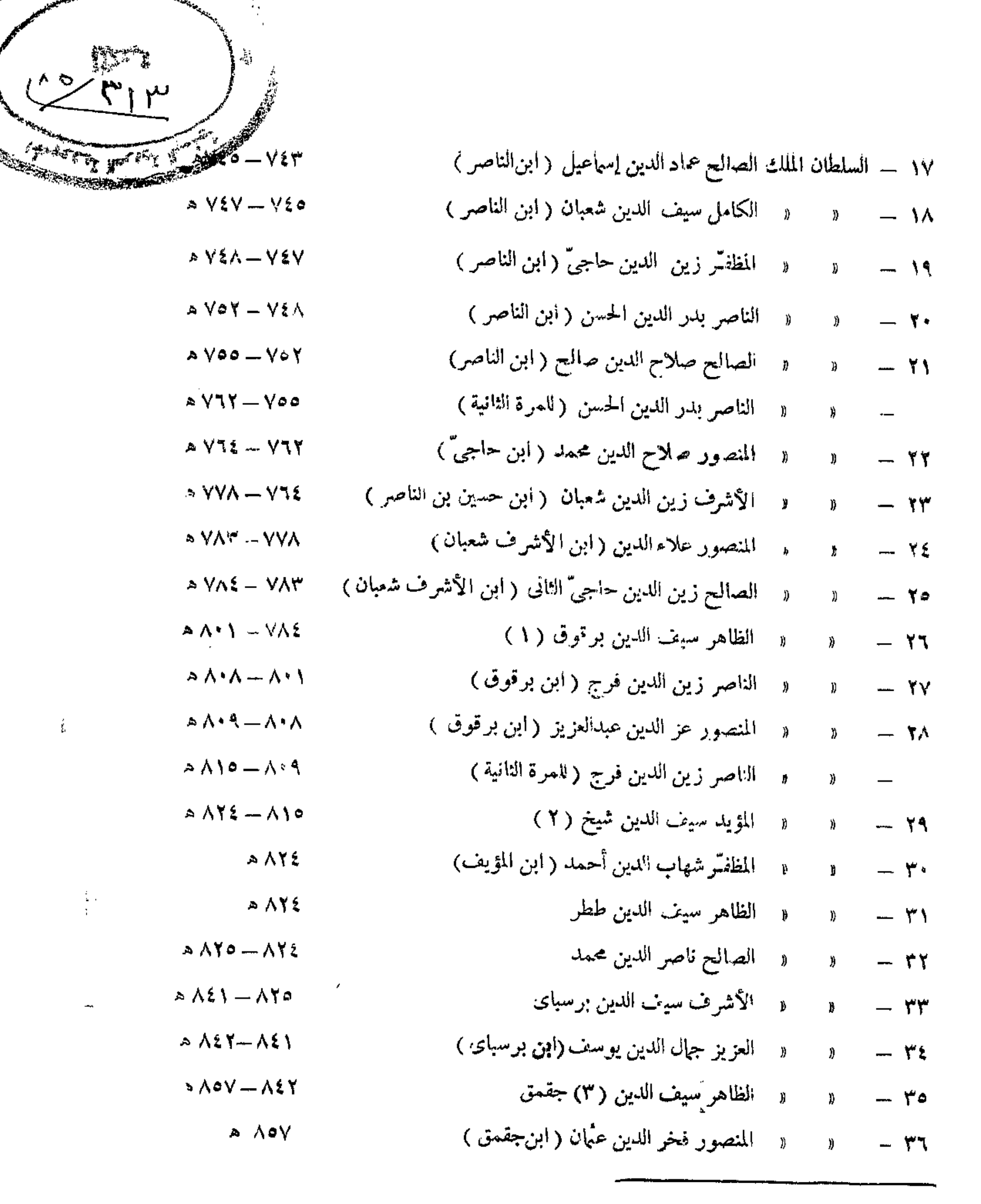
١٥ — « « الأشرف علاء الدين كجك (ابن الناصر) ٧٤٢ هـ

١٦ — « « الناصر شهاب الدين أحمد (ابن الناصر) ٧٤٢ — ٧٤٣ هـ

---

(١) (لم يصدق كازانوفا فى تنبئه ، ولا تزال القلعة الى اليوم أثرا اسلاميا نعتز به) .

(٢) (أسقط كازانوفا من هذه القائمة السلطانة شجر الدر ، وكذلك السلطان «قانصوه خمسمائة» الذى حكم لمدة ثلاثة أيام سنة ٩٠٢ هـ بعد الفتنة التى أدت الى خلع السلطان ناصر الدين محمد بن قايتباى ، التى انتهت باعادته الى عرش السلطنة المملوكية) .



١٧ –	السلطان	الملك	الصالح عماد الدين إسماعيل (ابن الناصر)	٧٤٣ – ٧٤٥ هـ
١٨ –	»	»	الكامل سيف الدين شعبان (ابن الناصر)	٧٤٥ – ٧٤٧ هـ
١٩ –	»	»	المظفر زين الدين حاجي (ابن الناصر)	٧٤٧ – ٧٤٨ هـ
٢٠ –	»	»	الناصر بدر الدين الحسن (ابن الناصر)	٧٤٨ – ٧٥٢ هـ
٢١ –	»	»	الصالح صلاح الدين صالح (ابن الناصر)	٧٥٢ – ٧٥٥ هـ
–	»	»	الناصر بدر الدين الحسن (للمرة الثانية)	٧٥٥ – ٧٦٢ هـ
٢٢ –	»	»	المنصور صلاح الدين محمد (ابن حاجي)	٧٦٢ – ٧٦٤ هـ
٢٣ –	»	»	الأشرف زين الدين شعبان (ابن حسين بن الناصر)	٧٦٤ – ٧٧٨ هـ
٢٤ –	»	»	المنصور علاء الدين (ابن الأشرف شعبان)	٧٧٨ – ٧٨٣ هـ
٢٥ –	»	»	الصالح زين الدين حاجي الثاني (ابن الأشرف شعبان)	٧٨٣ – ٧٨٤ هـ
٢٦ –	»	»	الظاهر سيف الدين برقوق (١)	٧٨٤ – ٨٠١ هـ
٢٧ –	»	»	الناصر زين الدين فرج (ابن برقوق)	٨٠١ – ٨٠٨ هـ
٢٨ –	»	»	المنصور عز الدين عبدالعزيز (ابن برقوق)	٨٠٨ – ٨٠٩ هـ
–	»	»	الناصر زين الدين فرج (للمرة الثانية)	٨٠٩ – ٨١٥ هـ
٢٩ –	»	»	المؤيد سيف الدين شيخ (٢)	٨١٥ – ٨٢٤ هـ
٣٠ –	»	»	المظفر شهاب الدين أحمد (ابن المؤيد)	٨٢٤ هـ
٣١ –	»	»	الظاهر سيف الدين ططر	٨٢٤ هـ
٣٢ –	»	»	الصالح ناصر الدين محمد	٨٢٤ – ٨٢٥ هـ
٣٣ –	»	»	الأشرف سيف الدين برسباي	٨٢٥ – ٨٤١ هـ
٣٤ –	»	»	العزيز جمال الدين يوسف (ابن برسباي)	٨٤١ – ٨٤٢ هـ
٣٥ –	»	»	الظاهر سيف الدين (٣) جقمق	٨٤٢ – ٨٥٧ هـ
٣٦ –	»	»	المنصور فخر الدين عثمان (ابن جقمق)	٨٥٧ هـ

(١) يبدأ تاريخ المماليك البرجية أو المماليك الجراكسة بسلطنة برقوق – وقد استطاع السلطان المظفر زين الدين حاجي (الأول) أن يعود مرة ثانية الى العرش فى عام ٧٩١ هـ . حتى عام ٧٩٢ هـ ، غير أن برقوق تمكن بدوره من ابعاده واعتلاء عرش السلطنة .

(٢) نجح الخليفة العباسي المستعين بالله فى اعتلاء عرش السلطنة لفترة قصيرة قبل السلطان المؤيد ، وهو بذلك يكون قد جمع بين السلطة الروحية التى كان يتمتع بها أسلافه (فى مصر) منذ عهد السلطان بيبرس والسلطة الزمنية التى كان يتمتع بها سلاطين المماليك .

(٣) كان جميع السلاطين يضيفون الى ألقابهم لقبا له دلالة دينية خاصة ، مثل سيف الدين ، وزين الدين ، وشهاب الدين .. الخ ، غير أنى لم أستطع أن أعثر فيما ذكره أبو المحاسن أو ابن اياس على هذا اللقب ضمن ألقاب هؤلاء السلاطين ، وهم قلة ، على الرغم من أن تلقيبهم به يعتبر أمرا مؤكدا .

٣٧ —	السلطان الملك الأشرف سيف الدين إينال	٨٥٧ — ٨٦٥ هـ
٣٨ —	« « المؤيد شهاب الدين أحمد (ابن إينال)	٨٦٥ هـ
٣٩ —	« « الظاهر سيف الدين خشقدم	٨٦٥ — ٨٧٢ هـ
٤٠ —	« « الظاهر سيف الدين يلباى	٨٧٢ هـ
٤١ —	« « الظاهر تمربغا	٨٧٢ هـ
٤٢ —	« « الأشرف سيف الدين قايتباى	٨٧٢ — ٩٠١ هـ
٤٣ —	« « الناصر ناصر الدين محمد (ابن قايتباى)	٩٠١ — ٩٠٢ هـ
—	(قانصوه خمسمائة) (١)	٩٠٢ — ٩٠٢ هـ
—	السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد (ابن قايتباى)	٩٠٢ — ٩٠٤ هـ
٤٤ —	« « الظاهر قانصوه	٩٠٤ — ٩٠٥ هـ
٤٥ —	« « الأشرف جانبلاط	٩٠٥ — ٩٠٦ هـ
٤٦ —	« « العادل سيف الدين طومان باى (الأول)	٩٠٦ هـ
٤٧ —	« « الأشرف قانصوه الغورى	٩٠٦ — ٩٢٢ هـ
٤٨ —	« « الأشرف طومان باى (الثانى)	٩٢٢ — ٩٢٣ هـ

(١) لم يشر اليه كازانوفا .

الفصل الأول

صلاح الدين فى مصر

لقد كان الشرق ، وقت قدوم الحملات الصليبية الأولى ، تتنازعه أسرتان حاكمتان وتتنافسان فى السيطرة عليه. هاتان الأسرتان هما السلاجقة السنيون ، والفاطميون الشيعيون . وبفضل هذه الانقسامات التى تعرض لها العالم الاسلامى وقتذاك استطاع الصليبيون إحراز انتصارات كبرى على المسلمين ، وأن يهددوا العراق باستيلائهم على الرها وكذلك مصر باستيلائهم على عسقلان . فالسلاجقة — الذين أصبحوا نهباً للخلافات والمنازعات الداخلية — لم يلبثوا أن اختفوا من فوق المسرح الرئيسى لهذا الصراع . والفاطميون الذين أنهكتهم الثورات التى كان يقوم بها رجال القصر ، لم يكن فى إمكانهم مغادرة مصر البتة لرد هذا الخطر الصليبى ؛ بل إن الصليبيين كثيراً ما جاءوا إلى مصر لمهاجمتهم فى عقر دارهم . وهكذا بدا الميدان خالياً أمام الصليبيين للقيام بغزو العراق ومصر . غير أن هذه الظروف ما لبثت أن تغيرت بقيام أسرة الأتابكة بالموصل وريثة الأسرة السلجوقية فى بلاد ما بين النهرين (١) . فقد تمكن زنكى وابنه نور الدين من رد الفرنج على أعقابهم شيئاً فشيئاً حتى المنطقة الساحلية ، وعند ما أدركت الوفاة نور الدين كانت الرها ، وحلب ، ودمشق ، ومصر كلها ، قد اجتمعت فى يد واحدة تلتف حول الصليبيين وتحصرهم داخل حلقة معادية لم يقدر لها أن تتحطم من حولهم يوماً ما .

وقد قام نور الدين بنقل التقاليد والنظم السلجوقية إلى سورية ، ومن بعده واصل صلاح الدين — الذى خلفت أسرته أسرة الأتابكة — العمل بهذه التقاليد والنظم ؛ وهى التى سنراها مزدهرة فى مصر حتى الغزو العثمانى لها .

(لقد تميز عصر ملكشاه (٢) بنظامين : فأما النظام الأول فقد أدى إلى نشأة الاقطاعات الحربية فى جنوبى آسيا ، وهذا النظام ما لبث أن انتقل بعد فترة من الزمن إلى مصر على يد صلاح الدين . وذلك أن ملكشاه ، الذى كان يحلو له كثيرا زيارة ممالكه الواسعة ، كان يقوم بهذه الزيارات وفى صحبته دائما سبعة وأربعون ألف فارس ، وكان هؤلاء الفرسان يتقاضون رواتبهم من الأموال التى كانت تجبى من الأراضى المخصصة لهذا الغرض فى الأقاليم المختلفة من الامبراطورية السلجوقية . ثم تطور الأمر إلى أن أصبح القواد وأعيان الدولة

---

(١) فيما يختص بهذا الدور الضخم الذى قام به الأتابكة انظر الدراسة الشائقة التى خصصها لهم ابن الأثير والمنشورة فى كتاب : (Historiens Orientaux des Croisades, II, 2ème partie)

(٢) ملكشاه هو السلطان الثالث من سلاطين السلاجقة . ويعتبر عصره « ٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ » شبيها لدرجة كبيرة بعصر شرلمان من جميع النواحى . فكلاهما شهد عصره تكوين امبراطورية عظيمة ، وكلاهما وجه عنايته الى احياء الدراسات القديمة والى بعث الروح العسكرية . بل كان التشابه كبيرا أيضا بعد وفاة كلا العاهلين ، اذ انقسمت امبراطورية كل منهما الى عدة ممالك ودول ، الأمر الذى أدى فى النهاية الى تفككها .

من الأتراك خاصة يمنحون المدن والأقاليم كإقطاعيات لهم وكانوا يحتفظون بهذه الاقطاعيات بوصفهم أتباعا للسلطان السلجوقى ؛ وعلى هذا النحو رأينا ظهور أمراء الموصل ، وأمراء حلب وأمراء دمشق وغيرهم) .

(وأما النظام الثانى فيرتبط بخطة واسعة لنشر التعليم بين أفراد الشعب . هذه الخطة التى شرع فى تنفيذها بفضل ما كان يتمتع به الوزير نظام الملك من نفوذ عظيم لدى ملكشاه ، ثم ما لبثت أن استكملت وقتذاك تطورها النهائى . وكانت هذه الخطة تقوم على إلقاء نماذج من الدراسات العليا فى المدارس التى أنشأتها الدولة . ولقد ظلت المدرسة النظامية ببغداد ، التى سميت بذلك الاسم نسبة إلى مؤسسها نظام الملك ، تتمتع بشهرة عظيمة فى جميع أنحاء الشرق خلال عدة قرون). (١)

وهكذا يعتبر قيام نظام الاقطاعات الحربية من جهة ونظام المدارس من جهة أخرى ، من الخصائص المميزة للأسرة السلجوقية ؛ وهى الخصائص نفسها المميزة – كما رأينا من قبل – للأسرة الأيوبية . وليس هذا مجال الحديث عن نظام المدارس ؛ وذلك أن المنشآت الحربية فى مصر هى التى تدخل فى نطاق دراستى هذه . ومن ثم فإن منشآت صلاح الدين ذات الطابع الحربى – على وجه التخصيص – هى التى يجب أن تكون موضع الدراسة فى هذا الفصل والفصول التالية .

لقد برز من بين أعوان زنكى ونور الدين أخوان : أحدهما كان رجل دولة عرف بسداد الرأى ورباطة الجأش ، والآخر كان رجل حرب جسور القلب . ضم الأول دمشق إلى أملاك نور الدين بدسائسه ومناوراته البارعة ، وفتح له الثانى القاهرة بضربة موفقة .

فأما الأخ الأول فهو نجم الدين أيوب(٢) ، وأما الأخ الثانى فهو أسد الدين شيركوه . والأخوان من بلدة دُوين التى تقع على أطراف مقاطعة أذْرَبيجان ، على الطريق الموصل إلى أرّان وإلى بلاد الكرج . وهما ينتميان إلى جماعة الأكراد الداودية ، إحدى بطون قبيلة الهدانية الكردية الكبرى(٣) .

وقدّر لشيركوه أن يموت دون أن يترك ولدا (٤) ؛ وأما أيوب فقد ترك ، على عكس أخيه ، أولاداً عديدين . وهؤلاء الأولاد هم :

---

(١) REINAUD et DERENBOURG, Préface de la 2ème édition des Séances de Hariri, IIe vol., p. 6.

(٢) فيما يختص بهذه الكنى ذات الدلالة الدينية مثل : نجم الدين ، وأسد الدين ، وظاهر الدين .. التى تلقب بها الأتابكة والأيوبيون ، وجميع السلاطين والأمراء عموما ، انظر البحث الذى نشره فان برشم بعنوان :
(Eine arabische Inschrift aus dem Ostjordanlande, etc., Zeitschrift d. deutschen Palastina — Vereins, Bd. XVI.).

(٣) ابن خلكان : سيرة صلاح الدين ، المنشورة فى مجموعة Hist. Or. des Croisades, III, p. 399.

(٤) هذه الحاشية هى التى وردت بالتصحيحات التى أرفقها كازانوفا فى نهاية الكتاب .
– ورد بالمتن أن شيركوه توفى دون أن يترك ولدا ، وهذا غير صحيح اذ أن الأسرة الأيوبية التى حكمت بحمص تنتمى اليه .
– هذا ويضاف الى أولاد نجم الدين أيوب الذين ذكرت اسماؤهم بالمتن تاج الملوك بورى الذى توفى أمام مدينة حلب فى سنة ٥٧٩ هـ .
(ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، الجزء الحادى عشر ، ص ٣٢٨) .
واليك أسماء أولاد نجم الدين أيوب حسبما ذكر Stanley Lane-Poole فى كتابه Mohammedan dynasties, London, 1894, p. 76.
١ – صلاح الدين ٢ – العادل ٣ – شاهنشاه ٤ – توران شاه ٥ – طغتكين .
ومما هو جدير بالذكر أنه قد فاته أن يذكر معهم اسم تاج الملوك بورى .
– (أولاد شيركوه قدر لهم أن يكونوا أمراء لحمص فى الفترة الواقعة من سنة ٥٧٤ حتى سنة ٦٤٤ هـ .
– انظر زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، الترجمة العربية ، الجزء الأول ، ص ١٥٣) .

١ ــ شاهنشاه ، الذى توفى سنة ٥٤٣ هـ .

٢ ــ شمس الدولة توران شاه (١) ، الذى توفى سنة ٥٧٦ هـ .

٣ ــ يوسف صلاح الدين ، الذى ولد فى تكريت (٢) سنة ٥٣٢ هـ وتوفى سنة ٥٨٩ هـ .

٤ ــ محمد أبو بكر سيف الدين ، الذى ولد بدمشق سنة ٥٣٨ هـ أو سنة ٥٤٠ هـ ، وتوفى سنة ٦١٥ هـ .

٥ ــ طغتكين ظاهر الدين (سيف الاسلام) الذى توفى سنة ٥٩٣ هـ .

فأما صلاح الدين فيبدو لنا رجلا رقيق الطباع ، بل هو إلى الحياء والخجل أقرب ، لم تهبه الطبيعة روح الاقدام والمبادرة وإن كانت قد عوضته عن ذلك سداد الرأى والقدرة على حسن اختيار رجاله ومستشاريه والاستماع إلى آرائهم ونصائحهم ؛ وهى صفة لها قيمتها الكبرى إذا ما توفرت لدى أحد الملوك أو السلاطين (٣) . ففى الأحداث الكبرى التى قررت مصيره لم يكن هو الذى يوجه الأحداث وإنما كانت هى التى توجهه ؛ كان يتوارى عن مواجهتها فى بادىء الأمر ، ولكن إذا ما أجبرته الظروف على ذلك كان يعرف كيف يكون كفئا لها ، وعلى هذا النحو فإنه لم يحضر إلى مصر إلا وهو كاره لذلك ، ولم يقم بإعلان زوال خلافة الفاطميين إلا بعد تردد شديد ، ولم يقدم على القيام بحملته المظفرة ضد بيت المقدس إلا مدفوعاً بما قام به الصليبيون من نقض معاهداتهم معه ... وهكذا ، وهذا الخلق الذى عرف به يفسر لنا كيف أن عهده لا يعدو أن يكون امتداداً للتقاليد والنظم السابقة ؛ أى مجرد تقليد وتطبيق للنظم المطبقة فعلا فى بلاد أخرى ، وليس ثورة أصيلة فى ميدان التقاليد ونظم الحكم .

وفضلا على ذلك فقد كان له من صفات النزاهة والبعد عن الهوى ، والكرم ، وطيب المعشر ، والتقوى(٤) ما جعله موضع الحب العميق من معاصريه . كما أجمع أعداؤه على الاعتراف بنبل أخلاقه وبشهامته ومروءته . وأما مؤرخو سيرته فلا يتحدثون عنه إلا مقروناً بالإعجاب والتقدير . وموجز القول ، فهو أحد النماذج البشرية التى عرفها التاريخ ومن أكثرها رقة ودماثة خلق .

ولننظر الآن ــ بعد أن درسنا شخصية صلاح الدين ــ فى دراسة أعماله فوق أرض مصر . فبعد أن توفى عمه شيركوه (٥) فى عام ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) ، الذى كان يحكم مصر بوصفه وزيرا للخليفة العاضد ، اختير

---

(١) فيما يختص بهذا اللقب انظر أيضا بحث فان برشم الذى أشرنا اليه آنفا .

(٢) قلعة تقع على نهر دجلة على خط عرض ٣٤ و ٣٣ درجة ، وكان أبوه نجم الدين واليا عليها .

(٣) كثير من المؤرخين تناولوا كتابة سيرة صلاح الدين، وهؤلاء المؤرخون هم : القاضى بهاء الدين ، والقاضى الفاضل، وعماد الدين ، وأبو شامة وابن خلكان . فيما يختص بهؤلاء انظر مقدمة الجزء الأول من مجموعة (Hist. Or. des Croisades).

(٤) يأخذ المؤرخون المسلمون على صلاح الدين ــ وهم فى ذلك على حق من حيث وجهة نظرهم الخاصة ــ أنه كان فى بعض الأحيان كريما الى أبعد حدود الكرم فى معاملة أعدائه المغلوبين على أمرهم . مثال ذلك : ما قام به غداة استيلائه على بيت المقدس وبعض الأماكن الحصينة الأخرى بفلسطين . فقد سمح لجميع أهالى المدن (الصليبية) وجنود الصليبيين الذين كانوا بالحصون والقلاع بأن يخرجوا الى مدينة صور . وترتب على هذا الوضع أن تمكنت هذه المدينة ــ بعد فترة وجيزة من الزمن ــ من أن تصبح معقل الصليبيين مما أدى الى رفع روحهم المعنوية من جديد ودفعهم الى التفكير فى اعادة تنظيم قواتهم . انظر ابن الأثير فى مجموعة (Hist. Or. des Croisades, I, p. 710).

(٥) فيما يختص بحملة شيركوه على مصر انظر أيضا ابن الأثير فى مجموعة (Hist. Or. des Croisades, I, pp. 533-562).

صلاح الدين ليخلفه فى منصب الوزارة . ويرجع الفضل فى اختياره لهذا المنصب الرفيع إلى عاملين : فأما العامل الأول فهو ذلك الشعور بالرهبة والتردد نوعا ما الذى تملكه وقتذاك ؛ إذ كان لايزال فى مقتبل العمر دمث الأخلاق رقيق الطباع (١) . وأما العامل الثانى فيرجع إلى هذه المهارة الفائقة التى عالج بها الموقف كل من الفقيه عيسى (الهكارى) والطواشى قراقوش حتى تم اختياره خلفاً لعمه . وقد أوضح لنا ابن الأثير الدور الذى قام به الفقيه عيسى (الهكارى) (المرجع نفسه ، الجزء الأول) ، كما أشار ابن خلكان إلى الدور الذى قام به الطواشى قراقوش (الترجمة الانجليزية ، الجزء الثانى ، ص ٢٣١) . وكيفما كان الأمر فقد استطاع صلاح الدين أن يفوز بالمنصب وأن يقهر غيرة بعض الأمراء منه وحسدهم إياه، وأن يصبح السيد المطلق الذى لاينازعه أحد .

وتبعاً للعرف الذى استقر العمل به فى الفترة الأخيرة من حياة الخلافة الفاطمية فقد مُنح صلاح الدين لقب الملك (٢) بوصفه وزيرا للدولة، وهكذا عرف بلقب الملك الناصر صلاح الدين يوسف . ثم جرى الاحتفال بتقلده منصب الوزارة فكان فى غاية الروعة والفخامة (٣) ، واستقر به المقام فى قصر الوزارة (٤) ، وهو القصر الذى أصبح منذ ذلك الحين مقراً له ولخلفائه الأوائل .

وكما فعل عمه من قبل فقد أحاط صلاح الدين نفسه بحرس خاص ، عُرف جنده بالجند الصلاحية . وأما حرس شيركوه « الجند الأسدية » الذين بلغ عددهم حسبما ذكره أبوشامة خمسمائة مملوك ، فلم يتخذ صلاح الدين أحداً منهم فى حرسه (أبوشامة ، طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ١٧٣ ، س ١) . وكان ذلك الحرس يتكون من الجند الذين عرفوا بإخلاصهم الشديد له ، مثل الطواشى قراقوش الذى سبق أن تكلمنا عنه ، والذى

---

(١) كان الخليفة العاضد ، فيما يبدو ، مدفوعا فى اختياره لصلاح الدين لمنصب الوزارة بما كان يكنه له من حب واعجاب ، وهو الشعور نفسه الذى كان يكنه صلاح الدين للخليفة . فقد ظل صلاح الدين حتى اللحظة الأخيرة من حياة العاضد يعامله بكل احترام وتقدير . وليس فى هذا غرابة ، اذ كان من أهم صفات صلاح الدين ، أنه كان يعرف كيف يكون محبوبا من الناس — قارن ذلك بالعبارة التى وردت على لسان ابن الأثير (Hist. Or. des Croisades, I, p. 581) فى وصف صلاح الدين للخليفة العاضد ، ونصها (وكان يصفه كثيرا بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده اليه) — وقارن ذلك أيضا بما ذكره أبو شامة فى هذا الصدد ، وقد سبق لى أن أوردت نص عبارته فى بحث نشر فى هذا العدد من (Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire, T. VI, Paris 1894, p. 439).

(٢) المقريزى ، الخطط طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ٤٤٠ ، س ١٦ ، حيث وردت فيما يختص بهذا اللقب هذه العبارة ، (وأول من لقب بالملك منهم مضافا الى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عندما وزر للحافظ لدين الله ، فقيل له السيد الأجل الملك الأفضل ، وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة ، وفعل ذلك من بعده فتلقب طلائع بن رزيك بالملك المنصور ، وتلقب ابنه رزيك بن طلائع بالملك العادل ، وتلقب شاور بالملك المنصور — ، وتلقب آخرهم صلاح الدين يوسف بن أيوب بالملك الناصر) . يضاف الى هذا ما ذكره ابن خلكان من أن شيركوه تلقب بالملك المنصور — (وفيات الأعيان ، الترجمة الانجليزية ، الجزء الرابع ، ص ٤٩١) — كما يخبرنا ابن الأثير أن نور الدين لم يمنح صلاح الدين سوى لقب « الأمير الاصفهسلار » — ومعناه القائد العام للجيش (انظر مجموعة : Hist. Or. des Croisades, I, p. 565) — (زيادة فى الايضاح رأيت اثبات عبارة ابن الأثير ، ونصها: وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الاصفهسلار ويكتب علامة على رأس الكتاب تعظيما أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاصفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية) .

(٣) فيما يختص بهذا الاحتفال انظر أبو شامة ، طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ١٧٣ .

(٤) فيما يختص بموقع قصر الوزارة أنظر : P. RAVAISSE, Essai sur la topographie du Caire, pl. III et V (Mémoires de la Mission archéologique Française du Caire, I, 3e fasc. et III, 4e fasc.

وانظر أيضا ما كتبه عن هذا القصر .

سيقدر له أن يقوم بالدور الرئيسي في بناء منشآت صلاح الدين الحربية . ومن هؤلاء الجند تكونت النواة الأولى لجند الحلقة ذات الشهرة ، وقد قام صلاح الدين مدفوعا بشعوره الطبيعي نحو هؤلاء الجند بإغداق الأرزاق والأموال عليهم . غير أنه كان بتصرفه هذا أقل اتزانا وحكمة من شيركوه الذي لم ينتزع شيئا من أحد ليمنحه للجند الأسدية (انظر ما ذكره أبو شامة نقلا عن ابن أبي طيّ ، المرجع السابق ، ص١٧٢ ، س٣٣) (١). وأما صلاح الدين فقد أخطأ بإغداقه على جنده على حساب أمراء العسكر الفاطميين (٢) مما أدى إلى نقمتهم عليه . وقد تجلى شعورهم العدائي هذا فيما قاموا به من ثورات علنية ضده .

وحيث إن تفاصيل هذه الأحداث المختلفة لا تدخل في نطاق هذه الدراسة ، فإني سأقتصر على مجرد عرضها عرضاً موجزاً كما رواها مؤرخو سيرته الذين سبق أن أشرت إليهم ، وكما رواها المقريزي على وجه التخصيص(٣) .

لقد كان الجند السودان يكونون إحدى فرق الجيش الفاطمي ، وكان يبلغ عددهم . حسبما ذكره عماد الدين ، أكثر من خمسين ألفا . وقد قام أحدهم ، وهو مؤتمن الخلافة (أحد طواشية القصر وكان موضع ثقة الخليفة العاضد) بمكاتبة الفرنج سراً يدعوهم إلى مهاجمة مصر . غير أن إحدى هذه المكاتبات وقعت في يد صلاح الدين ، الأمر الذي دفعه إلى أن يقبض على مؤتمن الخلافة وأن يقتله ، وإلى أن يقوم بطرد الجند السودان طواشية الخليفة من القصر وأن يقيم به تابعه المخلص قراقوش ليكون عيناً على الخليفة . وأدى هذا العمل إلى قيام جند السودان بالثورة عليه ومحاصرتهم له في قصر الوزارة . ولكنهم ما لبثوا أن حلت بهم الهزيمة بعد قتال مرير نشب بينهم وبين قوات صلاح الدين في الشوارع المحيطة بالقصر ، ذلك القتال الذي تجلت فيه شجاعة أخيه توران شاه . وأتبع صلاح الدين هذا الانتصار بأن أمر بإحراق حارة المنصورة التي كانوا يقيمون بها وتدمير منازلهم ، مما أدى إلى تفرقهم وتشتتهم . وقد أصبح موضع هذه الحارة أحد بساتين القاهرة .

ونظراً لأن الخليفة الفاطمي قد قام بدور مريب إلى حد ما في هذه المؤامرة (٤) ، فقد قام صلاح الدين بالتحفظ عليه داخل القصر ومراقبته مراقبة شديدة . ثم تعقب الفاطميين وأنصارهم بالقتل والعزل والتشريد ، كما قام بعزل القضاة من الشيعة وأحل محلهم قضاةً من السُنّة . وانتزع القصور والدوائر (الاقطاعات) من جميع الأمراء الفاطميين ووزعها على أقربائه وعساكره .

وهكذا أصبح صلاح الدين السيد المطلق للبلاد ، ولم يعد يوجد ما يربط الفاطميين بمصر سوى ذكر اسم الخليفة العاضد بالخطبة ، وهو ما أقدم صلاح الدين على قطعه آخر الأمر بأن أقام الخطبة باسم الخليفة العباسي في أول جمعة (من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ (٥)). وما إن توفي الخليفة العاضد ، بعد ذلك ببضعة أيام ، لم يكن

(١) (يقول أبو شامة : وكان أسد الدين لما ولي الوزارة لم يغير على أحد شيئا ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم الى أن انتهت أيامه) .

(٢) أبو شامة ، طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ١٧٨. وهذا هو نص عبارته (قال العماد : وشرع صلاح الدين في نقض اقطاع المصريين فقطع منهم الدوائر من أجل من معه من العساكر)

(٣) الخطط ، الجزء الثاني ، ص ٢ ، ٣ ، ١٩ .

(٤) (فيما يختص بهذه المؤامرة الصليبية انظر كتاب الدكتور السيد الباز العريني : مصر في عصر الأيوبيين ، رقم ٢٦٩ من سلسلة الألف كتاب ، ص ٣٥ ـ ٣٦) .

(٥) لقد كان ذكر الخليفة في الخطبة هو التقليد المتبع للاعتراف بسلطة الخلافة وكان يبدأ بالخطبة بذكر اسم الخليفة ، ثم اسم السلطان أو الأمير صاحب السيادة الفعلية على البلاد ـ اذا كان ذلك متوفرا ـ ثم اسم الوالي ، وهو ماكان متبعا أيضا في ذكر أسمائهم على العملة . وهناك من الأدلة ما يسمح لنا بأن نفترض أن صلاح الدين تلقب في هذه الفترة ، بالاضافة الى ألقابه الأخرى ، بلقب « محيي دولة أمير المؤمنين » ، اذ وجدنا هذا اللقب على قطع النقود التي سكها باسمه ، وفي احدى مكاتباته الرسمية من انشاء القاضي الفاضل (انظر أبو شامة ، الجزء الأول ، ص ٢٣٦) ، وأخيرا بالنقش الأثري الخاص ببنائه للقلعة (انظر فيما بعد) .

قد بقى أى أثر من آثار الخلافة الفاطمية ؛ هذه الخلافة (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) التى كانت من القوة يوماً ما بحيث أوشكت أن تخضع العالم الاسلامى كله لسلطتها ونفوذها .

وعلى الرغم من أن صلاح الدين أصبح السيد الآمر فى مصر ، إلا أن المتاعب والصعاب لم تكن قد حلّت عنه بعد . فقد كان عليه أن يواجه فى هذه الفترة أعداء عديدين : فالفرنج كان تهديدهم بغزو مصر لايتوقف ولا ينقطع ، وكانوا على اتصال سرى بأتباع الفاطميين الذين غُلبوا على أمرهم ، كما أن نور الدين أخذ ينظر بعين الشك والريبة إلى صلاح الدين ، نائبه فى مصر ، بعد أن أصبح على هذه الدرجة من القوة والنفوذ فى البلاد . غير أن صلاح الدين تمكن بفضل ما أبداه من نشاط وهمة وذكاء من التصدى لذلك التحالف الخطر بين الفرنج وأتباع الفاطميين والقضاء عليه . وأما مخاوف نور الدين فقد كفته إياها حكمة أبيه ومهارته السياسية(١) ، كما كفاه إياها حظه السعيد وحسن طالعه . فلم يلبث أن تُوفى نورالدين فى ١١ من شوال ٥٦٩ هـ/١٥ من مايو ١١٧٤م .

ويذكر المؤرخون العرب أن الحوادث التى تعاقبت على مصر فيما بين عام ٥٦٧ وعام ٥٧٢ هـ هى التى دفعت صلاح الدين إلى الشروع فى إقامة تحصينات القاهرة . وقد سبق أن أوضحت فى بحث سابق (٢)— فى شيء من التفصيل — كيف أن محاولات الفاطميين لاستعادة نفوذهم وإحياء خلافتهم قد استمرت من حين لآخر حتى عام ٥٧٢ هـ ، بل إنها استمرت بعد ذلك التاريخ ، وإنما كانت أقل حدة وخطورة مما كانت عليه من قبل . لقد كانت هذه الفترة مليئة بالمؤامرات التى تحاك ضده فى الخفاء ، الأمر الذى جعله يوجه كل جهوده للقضاء على هذه المقاومة التى تشكل خطرا جسيما بالنسبة له . وهذا الشعور بالخطر هو الذى دفعه لأن يفكر فى القيام لتحصين القاهرة وحمايتها من أى خطر محتمل يهددها سواء من جانب أعدائه من الفرنج (شمالا) أو من جانب أتباع الفاطميين (بمصر) . وفضلا على ذلك فقد دفعه الاحساس بهذه الأخطار إلى أن يفكر فى حماية نفسه ، وأن ينشيء ملاذاً آمناً يلوذ به إذا ما تعرضت حياته للخطر ، ومن ثمّ كان تفكيره فى بناء قلعة يتحصن بها إذا ما وجهت اليه ضربة مفاجئة يوماً ما .

ويبدو أن الحملة التى قام بها فى سورية ، فى الوقت الذى توالى فيه نشوب الثورات ضده فى مصر ، كان لها أثر فعّال حاسم فى دفعه إلى تنفيذ خططه الدفاعية . حقاً إنه كان قد بدأ فى سنة ٥٦٦ هـ فى بناء أسوار القاهرة(٣) ، غير أنه أجبر فى هذه الفترة إلى أن ينصرف عن ذلك العمل إلى ماهو أهم وأخطر . فقد كان الأمر يحتم عليه أن يبدأ ببناء القلعة ، إذا كان قد فكّر منذ هذه السنة فى حماية نفسه شخصياً . إذ لم يكن قد أصبح بعد صاحب السلطة المطلقة فى البلاد ، أو قد أصبح بعد آمنا على نفسه مما يخبئه له القدر من أخطار ومتاعب . فقد رأى سورية وقد أصبحت كظهر القنفذ من كثرة ما أقامه بها الصليبيون والاسماعيلية من القلاع والحصون . وفى سورية ، ولدى الاسماعيلية على وجه التخصيص (٤) ، لمس بما له

---

(١) انظر فى هذا الصدد رواية ابن الأثير فى (مجموعة Hist. Or. des Croisades, I, p. 582.)

(٢) انظر العدد نفسه المنشور به هذه الدراسة عن القلعة ، ص ٤١٥ ــ ٤٤٥ (Mémoires de la Mission Archéologique du Caire, T. VI).

(٣) انظر الفصل الثالث .

(٤) من المحتمل أن يكون سنان (شيخ الجبل) ــ الذى كان فى بادىء الأمر من ألد أعداء صلاح الدين ثم أصبح فيما بعد من أخلص أتباعه ــ هو الذى أشار عليه بأن يبنى قلعته على الطراز نفسه الذى بنيت به قلاع الاسماعيلية بالشام . لقد كان من أبرز صفات صلاح الدين ــ كما سبق أن ذكرنا ــ أنه كان على استعداد طيب لتقبل نصح الناصحين والأخذ بآرائهم . وليس هناك من شك فى أن تأثير سنان على أفكار صلاح الدين وعلى خططه كان كبيرا ــ اقرأ فى هذا الصدد مقال: S. GUYARD : Un grand maître des Assassins au temps de Saladin, Journal Asiatique, VIIe série, 9, Janvier - Juin 1877.

من خبرة شخصية مدى أهمية هذه القلاع . ومن ثم فقد عاد منها إلى مصر وهو صادق النية والعزم على آن يشيد قلعة مثل هذه القلاع . وهناك شواهد كثيرة تسمح لنا بأن نفسر على هذا النحو ما كان يجول بخاطر صلاح الدين. ومن هذه الشواهد : ذلك التقارب الذى نلحظه بين تاريخ قيامه بهذه الحملة وتاريخ بنائه للقلعة ، ومنها ما ذكره المقريزى من سبب بنائه لها (١) ، ثم أخيرا وجه الشبه الذى لامرية فيه بين هذه القلعة المصرية والقلاع السورية فى تخطيطها وعمارتها . والآن ، بعد أن أوضحت للقارئ — فيما أعتقد — الأصل الذى أخذ عنه صلاح الدين نموذج قلعته ، والطابع العام الذى تميزت به ، فقد حان الوقت لأن أنتقل إلى الدراسة المباشرة لهذه القلعة ؛ إذ ربما نجد فى هذه الدراسة أدلة أكثر دقة لبيان مدى صحة هذه الآراء .

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٣ .

الفصل الثانى

حالة أسوار القاهرة
زمن صلاح الدين (١)

أرى لزاما على — قبل بدء هذه الدراسة — أن أعرض فى إيجاز شديد لوصف الأسوار التى أقامها كل من جوهر ، وبدر الجمالى حول القاهرة ، إذ دون هذا التمهيد تصبح دراستنا للأسوار التى أقامها من بعدهما صلاح الدين غير واضحة تماما فى كثير من مواضعها .

إن موقع العاصمة العربية لمصر ، قبيل تفرع نهر النيل إلى فرعى دمياط ورشيد ، وقبيل انبساط السهل الزراعى بالدلتا الذى تشقه آلاف الترع والقنوات ، يشبه إلى حد كبير « مقبض المروحة » (٢)

وقد كان هذا المكان ، فى جميع الأزمنة والعصور التى مرت على مصر ، مكانا طبيعيا لمدينة كبيرة . غير أن ضفتى نهر النيل ، فى هذا المكان ، تختلف كل منهما عن الأخرى تمام الاختلاف . فعلى الضفة اليسرى تنبسط الأرض الزراعية وتمتد إلى أن تتصل بسفح الهضبة التى شيدت عليها الأهرامات ؛ وهى أرض خصبة لأن مياه الفيضان كانت تغمرها كل عام ، وعلى هذه الضفة قامت مدينة منف عاصمة مصر قبيل غزو الإسكندر ؛ وأما على الضفة اليمنى فإن الأرض المزروعة محدودة المساحة . وهذا يرجع إلى أن تقاطيع سلسلة الجبال العربية (الشرقية) — على الرغم من قلة ارتفاعها — كانت تحول دون غمر مياه الفيضان لها ؛ ولذلك كانت هذه الضفة اليمنى ، التى تمتد الصحراء على مقربة منها ، مكانا طبيعيا يصلح لإقامة الحصون ومراكز المراقبة أكثر مما يصلح

(١) لقد خصص صديقى فان برشم VAN BERCHEM لدراسة أسوار القاهرة بعض الصفحات الرائعة من بحثه القيم « مذكرات فى الآثار العربية » الذى نشره فى عددين من أعداد المجلة الآسيوية سنة ١٨٩١
(Notes d'Archéologie Arabe.- Journal Asiatique, 8e série, T. XVII, XIX, 1891).
وكان هذا البحث ذا فائدة كبيرة لى فى كتابة هذا الفصل ، ولذلك فانى سأشير اليه فى الحواشى التالية من هذا الكتاب بالحرفين الأولين من اسم المؤلف وهما (V.B.). كما لايفوتنى أيضا أن أشير الى الدراسة التى قام بها صديقى وزميلى بول رافيس PAUL RAVAISSE وعنوانها (Essai sur l'histoire et la topographie du Caire, dans Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire, I, 3e fasc., et III, 4e fasc.)
وهى الدراسة التى سأشير اليها فيما يلى أيضا بالحرفين الأولين من اسمه وهما (P.R.) وانى لأرجو صديقى أن يتقبلا بصدر رحب بعض مايعن لى من تصحيحات لبعض الأخطاء التى وردت فى دراستيهما ، هذا وانى لأعلم علم اليقين أن ما أقوم به فى هذا الصدد يعتبر أمرا يسيرا اذا ما قورن بما لهما من فضل السبق فى القيام بدراسة الآثار العربية الاسلامية) .

(٢) Elisée Réclus, Géographie Universelle, X, p. 572.

لإقامة المدن . فى هذا المكان شيد الفرس — حسبما يذكر البعض — حصن بابليون (١) . وهنالك قام البيزنطيون بتحصين ضفتى النهر تجاه جزيرة الروضة ، وهى التحصينات التى أجلاهم عنها القائد العربى عمرو بن العاص ، ثم شيد على مقربة منها أول عاصمة لمصر العربية. ومما هو جدير بالذكر أن أسماء الحواضر (العربية) التى توالى قيامها منذ ذلك الحين فى هذه المنطقة كانت كلها ذات صبغة حربية خاصة . فالفسطاط ، أولى هذه الحواضر ، كانت فى بادىء أمرها مجرد معسكر للجند العرب ، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مدينة تجارية كبيرة .. والعسكر ثانية هذه الحواضر التى أنشأها أحد الولاة (صالح بن على أول ولاة العباسيين على مصر) هى مدينة عسكرية . ثم قام (أحمد بن طولون) الذى استقل بحكم مصر فى الفترة التى ضعف فيها نفوذ الخلافة العباسية بإنشاء مدينة القطائع التى اتخذها هو وخلفاؤه من بعده عاصمة لهم ، وهى بدورها لا تقل عن سابقاتها من حيث طابعها الحربى . كما قام الفاطميون بعد غزوهم لمصر بإنشاء مدينة القاهرة ، وكان القصد من إنشائها فى بادىء الأمر أن تخصص لإقامة طوائف العسكر الفاطمية (٢) . وأخيرا أطلق على آخر هذه الحواضر اسم القلعة ، وهو أكثر دلالة — فى هذا الصدد — من أسماء الحواضر السابقة (٣). وفى هذا المعنى يقول قائل: (إن موقع مدينة القاهرة على الضفة اليمنى لنهر النيل يعتبر دليلا على أن مصر قد تم فتحها (٤)) .

ويبدو أن المدن الثلاث الأولى (الفسطاط والعسكر والقطائع) لم تكن ذات أسوار . وأما القاهرة فقد أقيمت حولها ثلاثة أسوار فى فترات متعاقبة كان آخرها سور صلاح الدين .

---

(١) يعتقد زميلى V. Loret أن حصن بابليون كان يقع فى المكان نفسه تقريبا الذى يوجد به الحصن الحالى (المعروف بقصر الشمع) انظر Grande Encyclopédie, article «Babylone d'Egypte» وقد امتنعت عن مناقشة هذا الرأى حرصا على عدم الاطالة والخروج عن الموضوع الرئيسى للدراسة ، هذا ومن جهة أخرى فان هذا الموضوع يجب دراسته على حدة ، وهو ما أزمع القيام به يوما ما .

— (لقد قام كازانوفا فعلا بدراسة حصن بابليون ، وأثبت هذه الدراسة فى مذكرة قدمها الى لجنة حفظ الآثار العربية . وقد نشرت هذه المذكرة فى المجموعة السنوية الفرنسية للجنة ، سنة ١٩٠٦ ، رقم ٢٣ ، ص ٨١ — ٨٢ — كما قام الأستاذ محمود عكوش فى كتابه « مصر فى عهد الاسلام » القاهرة ١٩٤١ ، بدراسة مستفيضة عن حصن بابليون ، أورد لنا فيها جميع النصوص الخاصة بهذا الحصن، كما ناقش فيها آراء كل من كازانوفا (التى نشرت بالمجموعة السنوية الفرنسية للجنة حفظ الآثار العربية) ، وعلى بهجت (كتاب حفريات الفسطاط) — انظر عكوش ، مصر فى عهد الاسلام ، ص ٦٣ — ٧٧) .

(٢) يوضح لنا المقريزى (الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢ وما يليها) أن حارات القاهرة وقت انشائها سميت بأسماء طوائف العسكر التى نزلت بها . ولم يكن يوجد بها وقتذاك — فيما عدا هذه الحارات — سوى القصرين المخصصين لاقامة الخلفاء الفاطميين مع ما يتبعهما من مرافق (قارن وصف المقريزى بما ذكر P.R. فى الجزء الأول من كتابه) .

(٣) لقد كانت القلعة بما يتبعها من مرافق أشبه بمدينة كاملة ، وفى هذا يذكر السيوطى (حسن المحاضرة طبعة بولاق ، الجزء الثانى ، ص ٢٣٥) نقلا عن شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، (وحاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام ، الفسطاط وهى بناء عمرو بن العاص وهى المسماة عند العامة بمصر العتيقة ، والقاهرة بناها جوهر القائد لمولاه الخليفة المعز ، وقلعة الجبل بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب) — وفى هذا المعنى يقول الشاعر : .(Alonso de Ercilla (Araucana, XXVIII فى وصف سور القاهرة :

(Mira al Cayro que incluye tres ciudades) (سور القاهرة المشتمل على مدن ثلاث)

وقد استشهد مهرن MEHREN بهذا البيت فى بحثه المنشور فى Bull. de l'Acad. des Sc. de Petersbourg, 1872, p. 529. وفسره بقوله : ان الثلاث مدن التى يقصدها الشاعر هى القاهرة ، والفسطاط ، والقطائع . غير أن القطائع فى ذلك الوقت الذى زار فيه الشاعر مصر فى (منتصف القرن السادس عشر) لم يكن يخطر اسمها ولا مجرد ذكرها على أذهان الناس ، اذ كانوا قد نسوا ذلك منذ مدة طويلة . ومن ثم فان القلعة هى المدينة الثالثة التى يقصدها الشاعر وليست القطائع .

(٤) Elisée RECLUS, ibid.

فأما السور الأول فليس لدينا ما نقوله عنه سوى النزر اليسير ؛ إذ أن هذا السور لم يكن قد بقى منه أى أثر فى الوقت الذى زار فيه ناصرى خسرو مصر فى عام ٤٣٩ ﻫ ، أى بعد تأسيس القاهرة بثمانين عاما (١) . ولذلك فإنى سأعتمد فقط فى وصفى لهذا السور على ما ذكره المقريزى عنه فى أماكن متفرقة من خططه ، وعلى ما بقى حتى الآن من أسماء بعض أجزائه .

فقد كان هذا السور على شكل مربع تتجه جوانبه الأربعة تماما نحو الجهات الأصلية الأربع . وكان جانبه الجنوبى تجاه الفسطاط ، وجانبه الشرقى تجاه جبل المقطم ، وكان جزء من جانبه الغربى يمتد بحذاء الخليج الذى كان يجرى وقتذاك على مقربة من النيل . (٢)

وكان القادم من الفسطاط يدخل القاهرة ، إما من باب زويلة (باب مزدوج) أو من باب الفرج . فأما بابا زويلة فكانا يقعان على وجه التحديد فى منتصف الجانب الجنوبى من السور ، وأما باب الفرج فمن المرجح أنه كان يقع بالزاوية التى يلتقى فيها السور الجنوبى بالسور الغربى . وقد أمدنا المقريزى بتفاصيل دقيقة للغاية عن بابى زويلة ، الأمر الذى يسر لنا تحديد مكانهما دون كبير عناء (٣) . غير أن ما ذكره من أقوال مختلفة عن باب الفرج جعل من العسير علينا أن نحدد مكانه بصفة قاطعة . وهذه هى أقواله فى هذا الصدد :

(... ... فيقال خط تحت الربع ، ربع السلطان ، خارج باب زويلة ، فيما بين باب زويلة وباب الفرج ، ويعرف ذلك الخط اليوم به (٤)) — وخط تحت الربع لا يزال موجودا حتى الآن (انظر خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ ، القسم الثامن ، رقم ٣٥٠)

(وفى نصف جمادى الآخرة سنة ثمانى عشرة وثمانمائة ابتدىء بهدم السور الحجرى فيما بين باب زويلة الكبير وباب الفرج) (٥)

(وكان فى الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير بابان : أحدهما باب سعادة والآخر باب الفرج .) (٦)

هذا فضلا عما ذكره المقريزى ، من أقوال أخرى تحدد موقع باب الفرج فى الجانب الغربى من السور (انظر الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٦٤ ، سطر ١١ ، ص ٣٨٠ ، سطر ٢٣ ، الجزء الثانى ، ص ٢٤ ، سطر ٣)

ومن جهة أخرى فإن المقريزى يذكر لنا أن باب سعادة قد عرف بهذا الاسم نسبة إلى أحد قواد الخليفة الفاطمى الذى دخل منه إلى القاهرة وهو قادم من الجيزة ، أى وهو قادم من الفسطاط التى كان يتحتم عليه أن يمر بها . وإذا كان باب سعادة — حسبما يفهم من عبارة المقريزى — يسمح للقادمين من الفسطاط بالدخول إلى القاهرة ،

---

(١) Sefer-Nameh, tr. SCHEFER, p. 131; cf. V.B., p. 39.
سأتحدث فيما بعد عن المتناقضات الصارخة التى جاءت على لسان المقريزى فى وصفه لهذا السور .

(٢) لقد أخذ النيل ، منذ ذلك الوقت يغير مجراه ويبتعد شيئا فشيئا الى الغرب من مجراه القديم — وفيما يختص بهذه التفاصيل التى أرى نفسى مضطرا لتركها انظر P.R. ، الجزء الأول ، ص ٤١٢ — ٤٢٨ .

(٣) كان باب زويلة ، بسور جوهر ، يقع بجوار مسجد أبى البناء الذى تسميه العامة مسجد سام بن نوح (انظر الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٦١ ، ٣٦٣) — وقارن ما ذكره فى هذا الصدد كل من رافيس وفان برشم .

(٤) الخطط ، الجزء الثانى ص ٣٧٩ ، سطر ٣٢ .

(٥) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٧٩ ، سطر ٣٢ .

(٦) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٦٢ ، سطر ٨ .

فليس ثمة شك فى أن باب الفرج يسمح لهم بذلك أيضا ، ومن ثم فان باب الفرج كان يقع – على أقل تقدير – بالركن الجنوبى والغربى من السور .

يضاف إلى ذلك أن خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ تشير إلى وجود شارع يعرف بسكة الشيخ فرج فى الجانب الذى يوجد فيه خط تحت الربع وعلى مقربة من الخليج (خريطة عام ١٧٩٨ ، القسم الثامن ، رقم ٣٩٢) ، ومن المحتمل أن تكون تسمية هذا الشارع مستمدة من اسم هذا الباب . كما أن سكة الشيخ فرج يقابلها فى الجانب الآخر المقابل لخط تحت الربع الشارع الذى يعرف بدرب سعادة . ولا ريب فى أن امتداد سكة الشيخ فرج ودرب سعادة على هذا النحو يؤيد إلى حد كبير الرأى الذى ذكرته بصدد موقع باب الفرج .

وأما باب سعادة فكان يقع – كما سبق أن رأينا – على مقربة من باب الفرج . وكان هذان البابان ، فى بداية الأمر ، هما البابان الوحيدان فى الجهة الغربية من السور ، إذ أن البابين الآخرين اللذين أشار إليهما المقريزى ، وهما باب الخوخة وباب القنطرة قد أنشئا فيما بعد . فأما باب الخوخة فيرجع إنشاؤه إلى ما بعد جوهر فيما أعتقد (١) ، وأما باب القنطرة فقد أنشأه جوهر نفسه فيما بعد فى ظروف خاصة (٢) .

وكان بالسور الشمالى بابان : باب النصر وباب الفتوح . وكان بالسور الشرقى أيضا بابان : باب البرقية وباب المحروق ، ومن هذا يتضح أنه لم يكن يوجد بالأسوار – حسب التخطيط الأصلى – سوى بابين فى كل جهة ، يقترب أحدهما من الآخر فى الجهة الشمالية والجهة الغربية ، وفى الجهة الجنوبية يعتبر بابا زويلة كما لو أنهما باب واحد ، وأما فى الجهة الشرقية فيبدو أنهما كانا أكثر بعدا ، كل منهما عن الآخر .

ولننظر الآن كيف نحاول إعادة تخطيط سور جوهر . وليكن باب زويلة القديم بمثابة نقطة البداية لنا فى هذه المحاولة إذ أن موقعه محدد تماما . فمن باب زويلة نخط خطا يمتد من الشرق إلى الغرب بحيث لا يكون عموديا تماما على الخليج ، وإنما يميل قليلا بحيث يكون محاذيا لسكة الشيخ فرج التى تشير إليها خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ . فاذا ما وصلنا إلى بداية درب سعادة ، حيث يبدأ الآن ميدان باب الخرق الكبير (باب الخلق) فإننا نكون قد وصلنا إلى نهاية السور فى هذه الجهة الجنوبية . ولكى نتابع امتداد السور فى الجهة الغربية ، علينا أن نتتبع درب سعادة الذى نسلك منه مباشرة إلى حى بين القصرين . فإذا ما وصلنا إلى هذا الجانب ، حيث كانت توجد حارة زويلة (٣) ، نجد أن السور الأصلى يأخذ فى الامتداد بمحاذاة الخليج تماما ، ويستمر فى امتداده على هذا النحو حتى القنطرة التى أقامها جوهر على الخليج لكى تصل بين القاهرة وميناء المقس .

---

(١) الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٢ ، س ٩ (وباب ثالث يعرف بباب الخوخة أظنه حدث بعد جوهر) – هذا الباب لم يكن يبعد كثيرا عن قنطرة الموسكى (انظر الخطط ، ج ٢، ص ١٤٧ ، س ٢٣) . وكان يسلك اليه من سويقة الصاحب (الخطط ، ج ٢ ص ٤٥ ، س ٩) – وسويقة الصاحب هذه هى المعروفة الآن بسكة السلطان صاحب ، وكانت تعرف على خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ بعطفة اللبودية (انظر الخريطة ، القسم الخامس ، رقم ١١٣ ، ١٢٦) . ومن ثم فان باب الخوخة كان يقع عند تقاطع درب سعادة الذى يعتبر بمثابة امتداد للسور الأول فى هذه الجهة الغربية .

(٢) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٨٠ .

(٣) على الرغم من هذا التشابه الملحوظ فى التسمية بين باب زويلة وحارة زويلة ، فان هذه الحارة لم تكن تقع بجوار هذا الباب كما حدد مكانها رافيس ، وانما كانت تقع بجوار الخليج . وهذا يتضح على خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ (القسم الخامس ، رقم ٢٥٦) ، ومن وصف المقريزى لها بقوله : وبجوار البستان الكافورى حارة زويلة ، وهى تتصل بالخليج الكبير من غربيها (خطط ، ج ١ ، ص ٣٦٣ ، س٢٠) – وكانت هذه الحارة يحدها من ناحيتها الشمالية الخرنفش ، ومن ناحيتها الجنوبية درب الصقالبة ، وكلاهما لايزال موجودا حتى الآن (انظر خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨، القسم الخامس ، رقم ١٤٣ ، ١٦١ – وقارن ذلك بعبارة المقريزى المذكورة سابقا وبما ذكره رافيس عنها) .

وكان يوجد فى الفضاء الواقع بين الخليج وبين الجزء الأول من امتداد السور فى هذا الجانب بعض المناظر (التى كان يقصد إليها الخلفاء بقصد الراحة والاستجام) ، مثل دار الذهب ، ومنظرة اللؤلؤة وغيرهما (١) .

وأما فيما يختص بموقع قنطرة جوهر على الخليج فإن المقريزى دقيق للغاية فى حديثه عنها . وإنى أعتقد — بناء على ما ذكره فى هذا الصدد — أن هذه القنطرة كانت توجد إزاء نقطة التقاء السور الغربى بالسور الشمالى . وإلى القارىء ما جاء على لسان المقريزى فى هذا الصدد :

(ويجد باب الفتوح القديم ... ... وبجواره شارع على يسار السالك يتوصل منه إلى حارة بهاء الدين وباب القنطرة (٢))— وبما أن هذه الحارة — حسبما ذكره المقريزى (الخطط ، حـ ٢ ، ص ٢) — كانت تقع فيما بين باب الفتوح القديم وباب الفتوح الجديد ، فإن هذا الشارع الذى يتوصل منه إليها لابد أن يكون خارج السور القديم الشمالى الذى بناه جوهر ، وأن يكون باب القنطرة عند نهاية هذا السور) .

(حارة البيازره ، خارج باب القنطرة على شاطىء الخليج من شرقيه فيما بين زقاق الكحل وباب القنطرة) (٣) — هذا ويذكر لنا المقريزى فى مواضع أخرى من خططه (حـ ١ ، ص ٣٦٤ ، س ١٨ ، ص ٤٨٧ ، س ٤ ، حـ ٢ ، ص ٣٦ ، س ١٤) أن زقاق الكحل كان يقع خارج باب الفتوح . ومن ثم فإن هذه الحارة كانت تمتد بمحاذاة السور الشمالى) .

(خط باب القنطرة يعرف فى كتب الأملاك القديمة بالمرتاحية .) (٤) — (هذا الخط كان يعرف قديما بحارة المرتاحية وحارة الفرحية (٥) . وهذه الحارة الأخيرة هى نفسها — حسبما يذكر المقريزى (الخطط ، حـ ٢ ، ص ٣٦ ، س ١) — سويقة أمير الجيوش . وفى موضع آخر يذكر عن هذه السويقة (سوق يعرف اليوم بسويقة أمير الجيوش ... .. يسلك فيه إلى باب القنطرة .) (٦)

هذا ويخبرنا أبو المحاسن (٧) أن اسم « أمير الجيوش » قد حرف إلى « مرجوش » . أى أن هذه السويقة — كما ذكر على باشا مبارك — (٨) ليست الا سكة مرجوش الحالية (قارن ذلك بخريطة عام ١٧٩٨ ، القسم الخامس ، رقم ٧٨ ، ٨٥) . ومن ثم فإن قنطرة جوهر هى نفسها القنطرة الجديدة (الحالية) (٩) — انظر خريطة عام ١٧٩٨ ، القسم الخامس ، رقم ٢٦٠ .

وأما باب القوس فلا يزال اسمه شائعا حتى (الآن) (١٠) (خريطة عام ١٧٩٨ ، القسم الخامس ،

---

(١) الخطط ، جزء ١ ، ص ٣٦٤ ، ٤٦٧ — ٤٧٠ ، جزء ٢ ، ص ٦٣ .

(٢) (صحح النص نقلا عن الخطط ، جـ ١ ، ص٣٧٦ ، س ٧) .

(٣) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٠ ، س ٢٨ ، ص ١٣٦ ، س ١٨ .

(٤) الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٤ ، س ٢١ .

(٥) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٤ ، س ١ .

(٦) الخطط ، جـ ١ ص ٣٨٥ ، س ٣٤ .

(٧) النجوم الزاهرة ، طبعة JUYNBOLL ، الجزء الثانى ، ص ٤٢٠ ، وقارن ذلك بما ذكره P.R., 2ème partie p. 39, Note

(٨) الخطط الجديدة ، جـ ٢ ، ص ٢٢ — ٢٣ .

(٩) (« القنطرة الجديدة » كماوردت بالأصل الفرنسى للكتاب وعلى خريطة عام ١٧٩٨ ، والمقصود هو (القنطرة الجديدة) . وهذه القنطرة لم يعد لها وجود الآن وذلك بعد التنظيمات الحديثة التى قامت بها بلدية القاهرة لهذه المنطقة من المدينة) .

(١٠) (كان ذلك فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأما الآن فان اسم هذا الباب غير معروف) .

رقم ٢٨٤) . وهذا الباب – كما ذكر المقريزى – كان يعرف فى زمانه بحارة الرماحين التى كانت توجد داخل باب القنطرة (١) . وأما خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ (القسم الخامس ، رقم ٢٠٤ ، ٢٠٦) فتذكر مكان هذه الحارة درب الفراخة وعطفة الفراخة ، وهو ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه التسمية ما هى إلا تحريف لكلمة « الفرحية » وهو الاسم الثانى الذى ذكره المقريزى لهذه الحارة ، كما سبق أن رأينا . ومن ثم فإن الجانب الشمالى من سور جوهر كان يمتد (من باب القنطرة) بامتداد عطفة الفراخة ودرب الفراخة (المشار إليها على خريطة عام ١٧٩٨) إلى أن يتصل بباب الفتوح القديم الذى كان يقع – على وجه التحديد – بجوار جامع الحاكم بأمر الله الذى لايزال قائما حتى الآن .

وأما باب النصر القديم فكان يقع – على قول المقريزى – تجاه الركن الغربى للمدرسة القاصدية ، التى تسمى على خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ بمدرسة الشيخ قاصد (القسم الخامس، رقم ٥٨) . ومعنى هذا أن السور كان يمتد بمحاذاة حارة العطوفية (٢) التى تعرف على خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ بحارة العطوف (القسم السابع ، رقم ١٣٣) .

فاذا ما انتقلنا إلى السور الشرقى ، فإنه يتعذر علينا أن نحدد نقطة بدايته ، إذ ليس لدينا أى أثر عن هذه النقطة . كما أن المقريزى فى وصفه لهذه الجهة الشرقية من السور مبهم للغاية . ويغلب على الظن أن حارة البرقية كانت تبدأ عند زاوية التقاء السورين: الشمالى والشرقى ثم تمتد حتى الجامع الأزهر، وأنها كانت تشتمل على باب البرقية . وفى الحقيقة فإننا نقرأ فى خطط المقريزى هذه العبارة (خط المناخ فيما بين البرقية والعطوفية (٣)) ، فهذه العبارة تقرب حارة البرقية من السور الشمالى . هذا ومن جهة أخرى فإنه يفهم من وصف باب البرقية أنه لم يكن يبعد كثيراً عن خزانة البنود التى كانت توجد بالركن الشمالى الشرقى للقصر الكبير (٤) . وهكذا يتضح لنا – بعد هذا التحديد الدقيق – أن هذه الحارة على مقربة من الجامع الأزهر .

وليس لدينا للتعرف على السور – بعد هذه النقطة – سوى عبارتين تتعلقان بوصف الكيمان المعروفة بكيمان البرقية . وهذه الكيمان – التى لاتزال توجد حتى اليوم – عبارة عن سلسلة من التلال الصغيرة التى تكونت على مر الأيام من الأتربة المتراكمة بعضها فوق بعض على طول امتداد السور الشرقى منذ عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٧ – ٤١١ هـ .) . وفى هذا الصدد يقول المقريزى (وأما جهة القاهرة الشرقية، وهى ما بين السور والجبل ، فإنه كان فضاء ثم أمر الحاكم بأمر الله أن تلقى أتربة القاهرة من ورا(ء) السور لتمنع السيول أن تدخل إلى القاهرة فصار منها الكيمان التى تعرف بكيمان البرقية (٥))

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٤ ، س ٢١ (خط باب القنطرة • هذا الخط كان يعرف قديما بحارة المرتاحية وحارة الفرجية والرماحين ، وكان مابين الرماحين الذى يعرف اليوم بباب القوس داخل باب القنطرة وبين الخليج فضاء).

(٢) الخطط ، جـ١ ، ص٣٧٧ ، س٦ (باب النصر القديم وأدركت فيه قطعة كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربى .. وعلى يسرته بابا الجامع الحاكمى وتجاه أحدهما الشارع المسلوك فيه الى حارة العبدانية وحارة العطوفية) .

(٣) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٥ ، س ٣٩ .

(٤) الخطط ، جـ٢ ، ص٣١٤ ، س٣٧ (جامع التوبة بجوار باب البرقية .. كان موضعه مساكن أهل الفساد .. فلما أنشأ الأمير الوزير علا(ء)الدين مغلطاى الجمالى خانقاهه المعروفة بالجمالية قريبا من خزانة البنود كره مجاورة هذه الأماكن لداره وخانقاهه) – قارن ذلك النص بما جاء على لسان بول رافيس فى وصفه لخزانة البنود – وبما أن هذه المنطقة التى تعرف بالجمالية بعيدة عن السـور فانى أعتقد أن المقريزى يقصد باب (حارة) البرقية وليس باب البرقية نفسه. ومما يؤيد ذلك انه كثيرا ما يستخدم هذه الطريقة فى التعبير فى وصفه لأبواب حارات القاهرة ، مثال ذلك وصفه لباب (حارة) اليانسية (انظر الخطط ، جـ٢ ، ص٤٠٩ ، س١٨).

(٥) الخطط ، جـ١ ، ص٣٦٤ ، س٢٢ .

وقد استمر العمل بذلك مدة طويلة حتى تكونت بمضى الزمن عدة طبقات من الكيمان شهدتها بنفسى. وقد عثرت فى إحدى الحفر العميقة التى حفرت فى هذه الكيمان على بعض قطع من الخزف ترجع إلى القرن الخامس عشر (أى على وجه التقريب إلى عهد برقوق السلطان الخامس والعشرين من سلاطين المماليك) . ففى هذه الفترة بالذات كان الأمير جهاركس (الخليلى) أمير آخور السلطان برقوق يلقى فى هذه الكيمان بالعظام التى عثر عليها العمال وهم يقومون بحفر أساس خان الخليلى (١) . وليس من شك فى أن وجود هذه الكيمان كان لابد أن يؤدى إلى وقف امتداد المدينة واتساعها فى هذه الجهة الشرقية. فقد ظلت هذه الجهة فضاء خاليا مدة طويلة إلى أن أخذ الناس فى بناء المقابر الكثيرة خارج مدينة القاهرة فيما وراء الكيمان، ومالبثت أن أصبحت هذه المنطقة مدينة « للموتى » بكل ما فى هذه الكلمة من معنى. ومن هذا يتضح لنا أن الصف الحالى لهذه الكيمان يحدد — على وجه التقريب — الحد الشرقى لمدينة القاهرة .

ويذكر لنا المقريزى أن أبواب القاهرة لم تكن على ما هى عليه الآن ولا فى مكانها عندما وضعها جوهر (٢) ، وبالاضافة إلى هذا يدعى أنه قد رأى قطعة من بقايا السور الذى بناه جوهر ، وأن هذا السور كان بعيداً عن السور الحجر الموجود الآن وبينهما نحو الخمسين ذراعا) (٣) وبما أن المقريزى لم يحدد لنا نوع ذلك الذراع ، فلنفترض أنه يعنى الذراع العادى الذى يبلغ طوله ٠٫٦٥٦ من المتر . وبناء على ذلك الفرض فان المسافة بين السورين كانت تبلغ حوالى ٣٣ متراً . غير أنه يتعذر علينا أن نصدق أن المقريزى قد رأى ولو مجرد قطعة صغيرة من سور جوهر. فناصرى خسرو يؤكد (أن المدينة لم تكن محوطة قط بأى سور محصن) (٤) . هذا والمقريزى يذكر (الخطط ، ح ٢ ، ص ٢ س ٤) أن سور جوهر كان من الطوب النئ ، ثم يعود فيذكر فى ذلك النص الذى نحن بصدده أنه كان من اللبن . ويبدو لى أن الرأى الأول هو الذى يتمشى مع مالاحظه الرحالة الفارسى ، وهو ما أميل إلى الأخذ به . فاذا ما سلمنا بأن سور بدر الجمالى كان من الطوب اللبن (كما سنرى فيما بعد) فليس ثمة شك — فيما اعتقد — أن هذه القطعة التى رآها المقريزى كانت من هذا السور . وبما أنه من المسلم به أيضا أن سور بدر الجمالى فى هذه الجهة الشرقية بنى مكان سور جوهر ، فإننا نستطيع أن نحدد — على الرغم من عدم وجود أداة أكثر دقة — لامتداد سور جوهر خطا يبعد حوالى ٣٣ مترا من الخط الحالى للسور الحجر (سور صلاح الدين) . وهكذا نرى أنفسنا ، آخر الأمر ، نتفق مع ما ذكره المقريزى ، فيما عدا ذلك التحفظ الذى أشرت إليه من قبل .

وأما باب البرقية وباب المحروق فكان كل منهما (مع احتفاظنا بمسافة الـ ٣٣ متراً التى تفصل بين السورين) يقابل باب الغريب الحديث (٥) (خريطة عام ١٧٩٨ ، القسم السابع ، رقم ٨) وباب درب المحروق (خريطة عام ١٧٩٨ ، القسم الثانى ، رقم ٤٦) (٦)

---

(١) الخطط ، جـ١ ، ص٤٠٧ ، س٢٥ ، وقارن ذلك بما ذكره بول رافيس فى كتابه
Essai sur l'histoire et la topographie du Caire, 2ème partie, p. 92
— وبهذه المناسبة فانى أشكر الأستاذ هينون Hénon على تفضله باهدائى قطعة من العملة النحاسية (الفلوس) عثر عليها فى هذه الكيمان ونقش عليها اسم الملك المنصور صلاح الدين والدنيا ابن الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر ، وتاريخ سكها فى عام ٧٦٤ هـ . (هذا السلطان هو السلطان الحادى والعشرون من سلاطين المماليك) .

(٢) الخطط ، جـ١ ص٣٦٢ ، س٧ .

(٣) الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٧٧ ، س ٣٤ .

(٤) سفرنامه ، ص ١٣١ .

(٥) الجبرتى ، عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٩٣ (باب البرقية المعروف الآن بالغريب) .

(٦) يذكر المقريزى (الخطط ، جـ ١ ، ص٣٨٣) أن هذا الباب كان يعرف قديما بباب القراطين ، ثم عرف بهذا=

وكان الركن الجنوبى الشرقى من السور تحده حارة الباطلية ، التى لا تزال تعرف بهذا الاسم حتى الآن (خريطة عام ١٧٩٨ ، القسم الثامن ، رقم ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧) (١) وكانت هذه الحارة تمتد إلى القرب من باب زويلة القديم . فالمقريزى يذكر فى هذا الصدد (فاذا ابتدأ السالك بالدخول من باب زويلة (الجديد) فإنه يجد يمنة الزقاق الضيق (الذى يعرف اليوم بسوق الخلعيين وكان قديما يعرف بالخشابين) ويسلك من هذا الزقاق إلى حارة الباطلية وخوخة حارة الروم البرانية (٢)). وبما أن هذه الخوخة كانت تطل من سور بدر الجمالى (انظر فيما بعد) فلا بد أن حارة الباطلية كانت تبدأ تجاهها .

وهكذا نكون — بعد أن انتهينا من طوافنا بالسور — قد عدنا إلى باب زويلة — وانى لآمل أن يكون هذا العرض من الوضوح بحيث يتمكن القارىء من متابعته دون عناء على الخريطة الخاصة به (انظر المخطط رقم ٢ الملحق بآخر الكتاب) .

وأما وصف السور الثانى (سور بدر الجمالى) فلن يأخذ منا كثيراً من الجهد . فهذه التفاصيل المسهبة نوعا ما التى استوجب الأمر ذكرها فى وصف السور الأول ستغنينى على — أقل تقدير — عن الافاضة كثيراً فى وصف السور الثانى ، إذ إنه لا يختلف عنه إلا فى بضع نقط قليلة نستطيع أن نتعرف عليها ونحددها فى يسر وسهولة .

ففى عام ٤٨٠ من الهجرة بنى بدر الجمالى ، وزير الخليفة المستنصر بالله (٣) ، بابا جديداً لباب زويلة (عرف بباب زويلة الجديد أو الكبير) . وهذا الباب هو الذى لايزال موجوداً إلى اليوم . ويضيف المقريزى إلى ذلك أن بدر الجمالى (جعل السور من لبن وأقام الأبواب من حجارة) ، غير أنه لا يلبث أن يناقض نفسه فيضيف إلى هذه العبارة السابقة قائلا : (وفى نصف جمادى الآخرة سنة ثمانى عشرة وثمانمائة ابتدىء بهدم السور الحجر فيما بين باب زويلة الكبير وباب الفرج عند ما هدم الملك المؤيد شيخ الدور ليبنى جامعه . (٤)) . وهذا يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كانت عبارة المقريزى الأولى تنطبق على السور كله ، أم على أجزاء السور المجاورة لبابى النصر والفتوح . وكيفما كان الأمر ، فعلينا أن نتذكر أنه كان فيما بين باب زويلة الكبير وباب الفرج سور من الحجر وأن المقريزى قد رأى هذا السور الذى لا تزال توجد بعض آثاره بجامع المؤيد .

= الاسم بعد زوال دولة بنى أيوب (منذ سنة ٦٥٠ هـ)، غير أنه لم يوضح ما اذا كانت هذه التسمية الأولى ترجع الى عصر الفاطميين — (عدلت هذه الحاشية بما يتفق مع نص المقريزى) .

(١) يبدو لى أن رافيس قد أخطأ فى تحديد مكان هذه الحارة خارج السور وشرقى الجامع الأزهر . ففضلا على وجود حارة بهذا الاسم حتى الآن تقع بعيدا جدا عن الموقع الذى حدده لها رافيس فاننا نقرأ فى خطط المقريزى أن هذه الحارة، هى وثلاث حارات أخرى ، تقع فى غربى الجامع الأزهر . واليك نص عبارته (وفى غربى الجامع الأزهر حارة الديلم وحارة الروم البرانية وحارة الأتراك (وهى تعرف اليوم بدرب الأتراك) ، وحارة الباطلية) . أى أن هذه الحارات الأربع كانت تتجمع غربى الجامع الأزهر . وهى على هذا النحو حتى الآن — قارن ما ذكره رافيس بالخطط ، جـ ١ ، ص٣٦٣ ، س٧ . —

(لقد أخطأ المؤلف فى نقل عبارة المقريزى مما أدى الى وجود بعض اللبس فى حاشيته ، وقد صححت بما يتفق مع نص عبارة المقريزى) .

(٢) الخطط ، جـ ١ ، ص٣٧٣ ، س٢٤ — (لقد أغفل المؤلف وضع حاشية لهذه العبارة المنقولة عن خطط المقريزى، وهذا اقتضى منا البحث عنها ونقل نصها كاملا حتى يستقيم فهمها مع سياق الكلام) .

(٣) قارن ما ذكره فى هذا الصدد كل من :
QUATREMERE : Mémoires sur L'Egypte, II (سيرة المستنصر) P. RAVAISSE : Essai, 1ère Partie.
VAN BERCHEM : Notes d'Archéologie Arabe (J. A.), VIII Série.

(٤) (آثرت نقل نص عبارة المقريزى حتى يستقيم فهم النص) .

وأما السور الغربي فانى أعتقد أنه ظل على حاله القديم . فليس صحيحا ما يراه كل من رافيس RAVAISSE وفان برشم VAN BERCHEM من أن بدر الجمالى بنى سوراً جديداً فى هذا الجانب؛ فالمقريزى لم يتحدث البتة عن شيء من ذلك . هذا ومن جهة أخرى فإن خط بين السورين لم يعرف بذلك (لأنه كان يقع بين سور جوهر وسور بدر الجمالى) وإنما لأنه كان به صفان من الأملاك أحيطت — فيما يبدو — بأسوار على جانبى الشارع الذى عرف بهذا الاسم (١) (شارع بين السورين) .

كما أن السور الشمالى لم يطرأ عليه سوى تعديل واحد . ويتلخص هذا التعديل فى الرجوع ببابى النصر والفتوح إلى الخارج بحيث يصبح جامع الحاكم بأمر الله داخل السور (وليس خارجه كما كان الحال أولا) . وفيما عدا ذلك فقد احتفظ السور الجديد — ابتداء من باب القنطرة — بمخطط سور جوهر ، إذ أن صلاح الدين — كما سنرى فيما بعد — هو الذى مد السور فيما بين باب القنطرة وباب الشعرية الذى أصبح أحد أبواب السور الذى شيده .

ولا بد من أن يكون قد روعى فى بناء السور الشرقى مطابقته لسور جوهر . فالمقريزى يذكر فى وضوح أن موضع باب البرقية وباب المحروق (فى زمانه) دون مكانهما الأول (من سور القاهرة)، وأن الزيادة فى هذه الجهة يقال لها بين السورين . وهو فى هذه المرة يوضح ، فيما لا يدع مجالا للبس ، أن هذه الزيادة عرفت بهذا الاسم لوقوعها بين السورين (٢). غير أنه لا يعزو إلى بدر الجمالى سوى تغيير مكان باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر . ومن ثم فان تغيير مخطط السور الشرقى إنما يعزى إلى صلاح الدين (انظر الفصل الثالث) .

وأما من الناحية الجنوبية فان سور بدر الجمالى يختلف عن سور جوهر . فالمقريزى يحدثنا عن خوخة ويخرج منها إلى الدرب الأحمر (٣) . وبما أن هذا الدرب لا يزال موجوداً ، فان مكان هذه الخوخة — فيما يبدو لى — كان غير بعيد من نقطة تقاطع هذا الدرب بحارة الروم (قارن ذلك بخريطة عام ١٧٩٨ ، القسم الثامن ، رقم ٢١٣ ، ٢٤٧). وليس ثمة شك فى أن حارة الروم الحالية هى حارة الروم البرانية ، وهذه الحارة كانت لها خوخة

---

(١) الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، س٢٣ (خط بين السورين .. وبه الآن صفان من الأملاك ، أحدهما مشرف على الخليج والآخر مشرف على الشارع المسلوك فيه من باب القنطرة الى باب سعادة ، ويقال لهذا الشارع بين السورين).
هذا ومن المعروف أنه كان يوجد فيما بين الخليج وهذين البابين فضاء به بعض المناظر كدار الذهب وقصر اللؤلؤة .. وغيرهما ، وهذا الفضاء حسبما يفهم من بقية نص المقريزى — هو الذى أصبح يعرف بخط بين السورين .

(٢) الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٢ ، س ٧ (وموضعهما دون مكانهما الآن ويقال لهذه الزيادة من هذه الجهة بين السورين) .

(٣) الخطط ، ج٢ ، ص ٤٥ ، س١٢ (خوخة أيدغمش : هذه الخوخة فى حكم أبواب القاهرة يخرج منها الى ظاهر القاهرة عند غلق الأبواب فى الليل وأوقات الفتن اذا غلقت الأبواب ينتهى الخارج منها الى الدرب الأحمر واليانسية ، ويسلك من هناك الى باب زويلة ، ويصار اليها من داخل القاهرة ، اما من سوق الرقيق أو من حارة الروم من درب أرقطاى ، وهذه الخوخة بجوار حمام أيدغمش) . من المحتمل أن تكون هذه الخوخة عرفت بهذا الاسم نظرا لمجاورتها لحمام أيدغمش . هذا وان حارة اليانسية لاتزال موجودة (حارة الأنسية Ounsiyeh خريطة عام ١٧٩٨ ، القسم الأول ، رقم٥٣) . وكان المرء يصل الى درب أرقطاى من الزقيق (تصغير زقاق) الذى يؤدى — بعد أن يجتاز باب زويلة الجديد — الى حارة الباطلية والى الخوخة (انظر من قبل ص٥٣٢ ، وقارن ذلك بما ورد فى الخطط ، ج٢ ، ص١٢ ، س٧) — كما يتضح من وصف المقريزى لسوق الخلعيين أنه يعرف أيضا فى زمانه بالزقيق (الخطط ، الجزء الثانى ، ص ١٠٤ ، س١٧) . ومن وصفه لهذا السوق ولحارة الجودرية (الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٥ ، س١٢) يتضح أن سوق الرقيق كان بهذه الحارة) .

كما سبق أن رأينا (انظر من قبل) . وفضلا على هذا فإنه يفهم من عبارة أخرى للمقريزى (خطط ، حـ ٢ ، ص ١٠٤ ، س ٢١) أن هذه الخوخة هى نفسها خوخة أيدغمش .

وبعد، فهذه هى أسوار القاهرة كما كانت عليه زمن صلاح الدين . وقد بذلت كل جهدى فى وصف هذه الأسوار معتمداً على ما أمكننى استخلاصه من ايضاحات جاءت على لسان المقريزى فى خططه . غير أن أقوال المقريزى – للأسف الشديد – مليئة بالثغرات ، بل الأخطر من ذلك مليئة بالمتناقضات الصارخة . ومن ثم فلم يكن فى وسعى اصدار آراء قاطعة وجازمة كما كنت أرغب وأتمنى ، ولذلك فقد اكتفيت – والحالة هذه – بمجرد إبداء بعض الافتراضات التى تحتمل الصحة والخطأ .

الفصل الثالث

أسوار صلاح الدين (١)

« وقال ابن أبي طي : فى هذه السنة (٥٦٦ هـ) شرع السلطان — يعنى صلاح الدين — فى عمارة سور القاهرة ، لأنه كان قد تهدم أكثره وسار طريق (أ) لا يرد داخلا ولا خارجا وولاه قراقوش الخادم (٢) » . هذه العبارة يفهم منها أن صلاح الدين لم يكن يقصد فى سنة ٥٦٦ هـ سوى عمارة السور الذى أصبح على هذه الحالة السيئة . هذا ومن جهة أخرى فان كلمة « عمارة » تعنى فى غالب الأحيان القيام بعملية « ترميم البناء وتجديده » . وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نشير إلى مالاحظه كليرمونت جانو CLERMONT-GANNEAU من أن الكتاب العرب قلما يفصحون فى كتاباتهم عما يقصدون ، وهى ملاحظة ستتاح لنا الفرصة للدلالة على مدى صحتها . غير أن كلمات هذا النص السابق لا تلبث أن تبدو لنا أكثر وضوحا إذا ما قارناها بنص جديد على جانب كبير من الأهمية جاء هذه المرة على لسان الكاتب الشهير عماد الدين ، كاتب صلاح الدين . فعماد الدين ، بما كان تحت يده من وثائق رسمية ، هو الذى سيوضح لنا خطة سيده فى عمارة السور .

يقول عماد الدين : « وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها ، فقال : إن افردت كل واحدة بسور ، احتاجت إلى جيش مفرد يحميها ، وإنى أرى أن أدير عليهما سورا واحدا من الشاطىء إلى الشاطىء ، وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم ، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج فى المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم » .

ولنلاحظ — قبل أن نكمل بقية النص — أن كلمة « برج » تطلق على البناء المنعزل المقام على هيئة تحصينات ، كما تعنى أيضا الحصن ، أو القلعة ، أو البرج الذى يكون جزءا من تحصينات أحد الأسوار المعزولة .

ثم يضيف : « ووجدت فى عهد السلطان بيتاً (٣) رفعه النواب وتكمل فيه الحساب ومبلغه وهو : دائر البلدين ، مصر والقاهرة ، بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفا وثلاثمائة وذراعين (بذراع

(١) (العنوان بالأصل الفرنسى Les Fortifications de Salah al-Din ومعناها «تحصينات صلاح الدين» وقد آثرت استخدام كلمة «أسوار» بدلا من تحصينات نظرا لأن هذا الفصل يعالج الأسوار فقط) .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، الجزء الأول ، ص ١٩٢ ، س ١٥ .

(٣) (المؤلف يفترض أن الكاتب يقصد بهذه الكلمة «بيت المال» ، غير أنى أعتقد أنها تعنى «قصة» أو تذكرة أو « محضر » أو شيئا من هذا القبيل) .

العمل وهو الذراع الهاشمى) من ذلك ما بين قلعة المقسم (المقس) على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع . ومن القلعة بالمقسم (قلعة المقس) إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعا . ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع . ودائر القلعة (من وراء القلعة) بحيال مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع ، وذلك طول قوسه فى أبدانه (الكلمة الأخيرة ناقصة فى نص المقريزى) وأبراجه من النيل إلى النيل (هنا يتوقف نص المقريزى) على التحقيق والتعديل وذلك بالذراع القاسمى (الهاشمى — كما يجب أن تقرأ) (١)

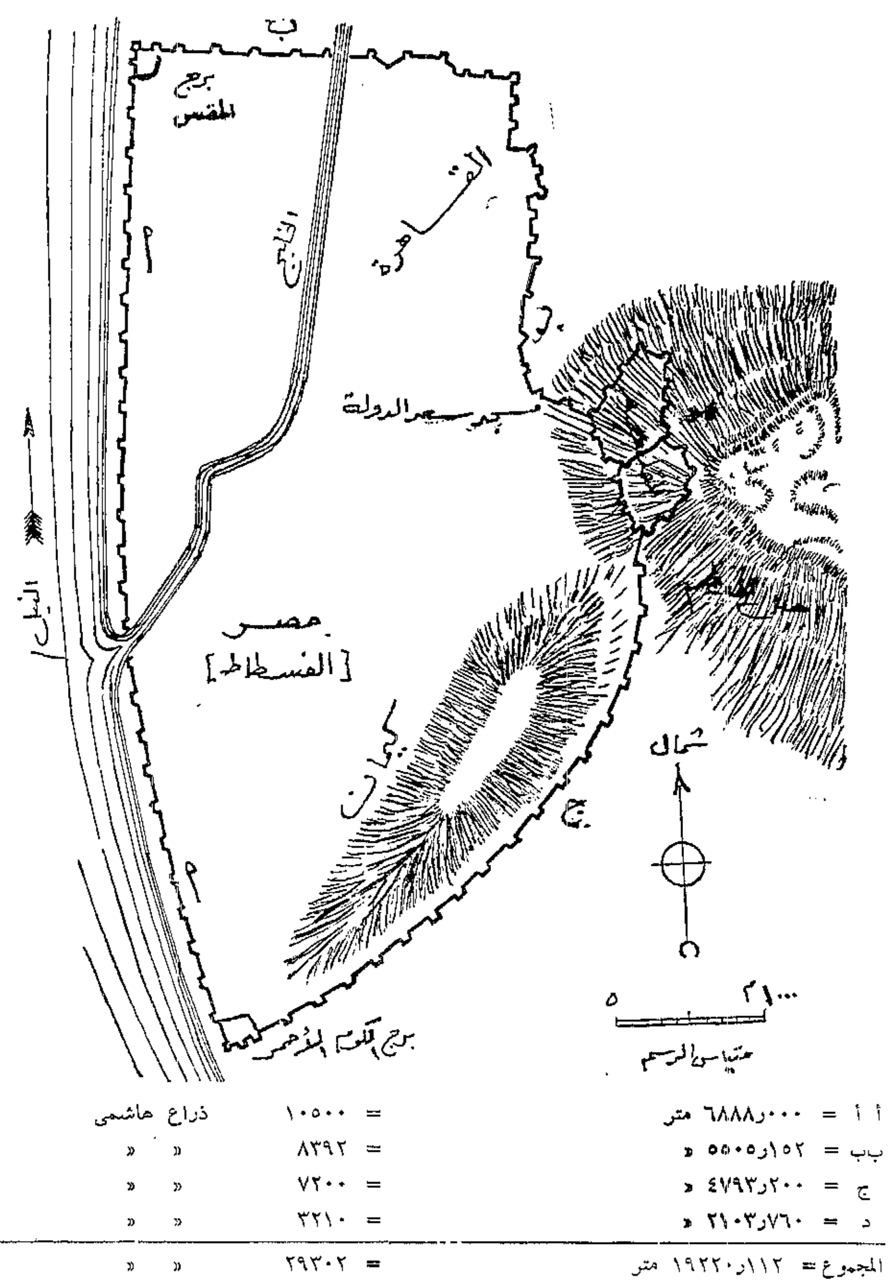
وكلمة « بدن » وجمعها « أبدان » أو كلمة « بدنة » وجمعها « بدنات » —التى ستقابلها فيما بعد— قد شرحها فان برشم VAN BERCHEM شرحا وافيا(٢) . فالبدنات هى الأجزاء البارزة بالسور ، غير أنها ليست مفصولة عنه تماما كما هو الحال بالنسبة للأبراج ، فالأبراج — وهذا ما أعود إلى تكراره — تعتبر حصونا قائمة بذاتهـــا :

فاذا ما أخذنا بنص المقريزى ، فان صلاح الدين يكون قد بدأ فى عمارة السور على هذا النحو سنة ٥٦٦ ه ، فالمقريزى يضمن وصفه للسور النص نفسه الذى أورده أبو شامة مع خلاف بسيط فى بعض المواضع ، وبعد أن ذكر أن صلاح الدين بدأ عمارته فى هذه السنة (الخطط ، حـ ١ ، ص ٣٧٩ ، س ٣٥) . غير أن أبا شامة الذى نقل نص أبى طى عن السور أثناء كلامه عن حوادث سنة ٥٦٦ ه ، نقل أيضا نص عماد الدين عن السور أثناء كلامه عن حوادث سنة ٥٧٢ ه (الروضتين ، حـ ١ ، ص ٢٦١ — ٢٧١) . ومما لا شك فيه أن الأمر لم يختلط على المقريزى ، كما اختلط على أبى شامة ، وذلك أن المقريزى حرص على أن يذكر اسم من نقل عنه . ومن ثم فإنه يمكننا أن نستخلص من كل ذلك أن صلاح الدين لم يكن يقصد فى بادىء الأمر سوى ترميم الأسوار القائمة ، غير أنه بعد أن قام بحملته على سورية عدل خطته فى تحصين القاهرة على هذا النطاق الواسع فى سنة ٥٧٢ ه . فترميم الأسوار القائمة عمل يمكن تنفيذه فى يسر وسهولة . كما أن ترميم صلاح الدين للسور فى سنة ٥٦٦ ه يتمشى مع مكانته المتواضعة وقتذاك كوزير للخليفة الفاطمى . أما ذلك المشروع الضخم ، الذى أوضحنا مدى ضخامته بالرسم ، فلا يمكن تنفيذه إلا على يد رجل قوى تكون قد استقرت له الأمور ودان له الجميع بالطاعة والولاء . ولم يكن صلاح الدين هذا الرجل القوى إلا فى عام ٥٧٢ ه ، بعد أن أصبح سلطانا على دمشق ، وحليفا لشيخ الجبل زعيم طائفة الحشيشية الذى كان يخشى بأسه . كما أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج إلى وقت طويل وإلى جهد كبير ، ولذلك لم يقدر لصلاح الدين أن يشهد نهايته . هذا فضلا على أن المشروع — على هذه الصورة التى تخيلها صلاح الدين — لم يكتمل تنفيذه يوما ما . وإذا كان هذا هو منطق الأشياء — وهو ما يتفق مع ما ذكره المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين — فإننا يمكننا أن نجزم بعدم صحة نص المقريزى . وليس هذا بالأمر الجديد بالنسبة للمقريزى فقد أتيحت لنا الفرصة من قبل لنبرز بعض متناقضاته الصارخة ، وجهله بحقائق الأمور ، الأمر الذى يدمغ سمعته كمؤرخ موثوق به .

---

(١) هذا النص أورده أبو شامة فى كتاب الروضتين ، الجزء الأول ، ص ٢٦٨ ، س١٧ ، كما ضمنه المقريزى وصفه للسور دون أن يشير الى مصوره • وقد وضعت بين حاصرتين الكلمات المختلف على قراءتهـــا مع المقريزى — فيما يختص بالمقس ، أو المقسم ، انظر فيما بعد — وقارن ذلك النص بالنص الذى أورده أبو المحاسن نقلا عن ابن عبد الظاهر (والنجوم الزاهرة ، طبعة JUYNBOLL ، الجزء الثانى، ص ٤١٥) •

(٢) VAN BERCHEM : Notes d'Archéologie Arabe, tirage à part, p. 25, note 2.



أ أ	=	٦٨٨٨ر٠٠٠ متر	=	١٠٥٠٠	ذراع هاشمى
ب ب	=	٥٥٠٥ر١٥٢ »	=	٨٣٩٢	» »
ج	=	٤٧٩٣ر٢٠٠ »	=	٧٢٠٠	» »
د	=	٢١٠٣ر٧٦٠ »	=	٣٢١٠	» »
المجموع	=	١٩٢٢٠ر١١٢ متر	=	٢٩٣٠٢	» »

ـ الذراع الهاشمى أو ذراع العمل يبلغ ٦٥٦ر٠ من المتر ، وبعملية حسابية نحصل على هذه النتيجة التى تتضح للقارىء على هذا الرسم

أما وقد اتضحت لنا هذه الحقيقة فانى سأحاول — قدر المستطاع — إعادة تخطيط السور كما كان عليه .

ولنأخذ قلعة المقس كنقطة للبداية . والمقس هى ميناء القاهرة القديم (١) ، ويمدنا المقريزى عن تاريخها ببعض التفاصيل التى ألخصها فى إيجاز سريع : فقد كانت فى بادىء الأمر قرية تعرف بأم دنين ، ثم عرفت بالمقس . وسبب تسميتها بالمقس ، كما يذكر القضاعى ، أن صاحب المكس كان يقعد بها فقيل المكس (٢) ، ثم قلبت الكاف قافا فقيل المقس .

ويقول ابن عبد الظاهر أنه سمع من يقول : إنه المَقْسِم أو المَقْسَم (لأن قسمة الغنائم عند الفتوح كانت به) ، وهذا الاسم الأخير هو الذى استخدمه عماد الدين فى وصفه للسور كما سبق أن رأينا . فهل هذا هو النطق الصحيح لهذه الكلمة ؟ وأليس من الجائز أن تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى أحد حكام الرومان لمصر كان يسمى باسم مكسيم **Maxime**

وكيفما كان الأمر فقد كانت المقس فى بر الخليج الغربى ، ولما انحسر النيل إلى مكانه الحالى عرفت بهذا الاسم المنطقة التى تقع فيما بين النيل والخليج تجاه باب القنطرة . وفى هذه المنطقة أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله جامع المقس . ويذكر رافيس **RAVAISSE** أن هذا الجامع لم يبق منه أى أثر . غير أننا نستطيع أن نتعرف على مكانه مما ذكره عنه كل من ابن إياس والجبرتى ، فقد كان جامع المقس مكان الجامع القائم الآن فى مواجهة باب الحديد (ميدان رمسيس) الذى كان يعرف بجامع البحر ثم أصبح يعرف بجامع أولاد عنان (٣) . وكان هذا الجامع — كما سنرى فيما بعد — يقع بالقرب من باب البحر ولا يزال يوجد فى مواجهة جامع أولاد عنان عند نقطة التقاء [شارع كلوت بك بميدان باب الحديد (ميدان رمسيس) قطع من السور القديم ، وهى القطع التى تراها على خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ . وليس ثمة شك فى أن هذه القطع تمثل نهاية السور فى هذه الجهة (٤) .

وأما جامع المقس فقد هدمه قراقوش ليبنى مكانه البرج الذى عرف بقلعة قراقوش (٥) . غير أن الجامع قد أعيد بناؤه فيما بعد ، وأيا ما كان الأمر فان ما تبقى منه يكفينا لتحديد مكان البرج موضع الحديث .

---

(١) الخطط ، جـ٢ ، ص١٢١ وما يليها . قارن وصف المقريزى بما ذكره P. RAVAISSE : Essai sur l'Histoire et la Topographie du Caire, 1ère Partie, p. 416, Note.

(٢) مازالت هذه الكلمة مستخدمة (حتى الآن) بهذا المعنى فى جمرك الاسكندرية .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٥٩٥ ب ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٣ ، ورقة ٣٠٧ ب (وكان فى جامع المقسى (هكذا) ابن الشيخ محمد بن عنان مقيما به) .

— الجبرتى ، عجائب الآثار ، الجزء الثالث ، ص ٢٩ (مسجد المقس .. المعروف الآن بأولاد عنان على الخليج الناصرى بباب البحر) .

— قارن ذلك على خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ (جامع العنانية — القسم السادس ، رقم ٣٢٩) .

(٤) (ان الجانب الشمالى من سور صلاح الدين لاتزال بعض أجزائه قائمة الى اليوم فى الجهات الآتية : (١) فى المسافة الواقعة بين باب الشعرية وبين باب البحر) ميدان باب الحديد . أو ميدان رمسيس كما سمى أخيرا) توجد قطع قائمة من السور وسط المبانى المشرفة من الجهة البحرية على شوارع : بين الحارات والمشنبكى والطنبله . (٢) فى المسافة الممتدة من شارع الجيش تجاه حارة المسطاحى حتى باب الفتوح ثم باب النصر . ومن باب النصر يتجه السور الى الشرق فى مسافة طولها ٣٠٠ متر وينقطع فى نهاية تلك المسافة عند شارع برج الظفر — انظر : النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، الجزء السادس ، ص ١٧٧ — تعليق المرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب الذى قام بتحقيق هذا الجزء) .

(٥) الخطط ، الجزء الثانى . ص ١٢٣ ، س ٢٨ .

(بالرجوع الى نص المقريزى ، فى هذا الصدد ، يتضح لنا أن قراقوش لم يهدم هذا الجامع ليبنى مكانه البرج كما ذكر المؤلف بالمتن ، وانما البرج هو الذى هدم ، فيما بعد ، بمناسبة تجديد الجامع ، واليك نص عبارة المقريزى (ومابرح البرج) هنالك الى أن هدمه الصاحب الوزير شمس الدين عبد الله المقسى وزير الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد قلاوون فى سنة بضع وسبعين وسبعمائة عندما جدد جامع المقس الذى أنشأه الخليفة الحاكم بأمر الله فصار يعرف بجامع =

لقد كان هذا البرج بمثابة الزاوية الغربية بالسور الشمالى ، وليس لدينا ، مع الأسف ، أية وسيلة لمعرفة الهيئة التى كان عليها ، اللهم إلا إذا اعتبرنا برج الظفر (انظر فيما بعد) شبيها له . غير أن وجود برج الظفر يثير كثيرا من المشاكل ، كما أن هذا التشابه المحتمل بينهما لا يعدو مجرد الافتراض الذى لا يرقى إلى حد اليقين .

وكان موقع باب البحر حيث تشير خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ إلى مكان باب الحديد (القسم السادس ، رقم ٣٥٣ (١)). ولا يزال اسم باب البحر باقيا ، فهناك شارع مجاور لباب الحديد يسمى بشارع باب البحر . ومن باب البحر كان السور يمتد فى خط مستقيم حتى الخليج ، وقد عثرت فى أحد المنازل الخاصة على قطعة من هذا السور ، هذا فضلا على أن خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ قد احتفظت بمعالم السور فى وضوح تام .

وعلى الجانب الغربى من الخليج كان يوجد باب الشعرية . وقد سمى هذا الباب بهذا الاسم نسبة إلى طائفة من البربر يقال لهم : بنو الشعرية ، كما لا يزال حى باب الشعرية الحالى يحتفظ بهذه الذكرى (خريطة القاهرة عام ١٧٩٨ ، القسم الخامس رقم ٢٩٢ وما يليه (٢))

ومن باب الشعرية كانت تمتد فوق الخليج القنطرة المعروفة بقنطرة باب الشعرية . وهذه القنطرة أصبحت تعرف زمن المقريزى (بقنطرة الخروبى(٣) وظلت تعرف بهذا الاسم حتى زمن الحملة الفرنسية (قارن ذلك على خريطة القاهرة عام ١٧٩٨ ، القسم الخامس ، رقم ٣٩٦) (٤)

وقد رأينا من قبل أن باب القنطرة لم يستوجب الأمر تغيير مكانه بالسور الذى بناه بدر الجمالى . إلا أن المقريزى يحدثنا عن قطعة من السور الذى بناه صلاح الدين التى تتصل بباب الشعرية ، فيقول : (فزاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومن باب الشعرية إلى باب البحر .)(٥). فاذا كان باب القنطرة قد تغير مكانه ، وإذا كان هذا الجزء الممتد من باب القنطرة حتى باب الفتوح ظل بسور صلاح الدين كما كان بسور بدر الجمالى فان المقريزى — فى تصورى — لم يعرف كيف يعبر عن قصده إذ كان عليه أن يكتفى بقوله : (فزاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب القنطرة إلى باب البحر) هذا وفى موضع آخر يذكر أنه يسلك

= المقسى هذا الى اليوم ، وما برح جامع المقس هذا يشرف على النيل الأعظم الى ما بعد سنة سبعمائة (وسبعين) بعدة أعوام — هذا ويذكر المقريزى • فى موضع آخر من خططه ، الجزء الأول ص ٣٧٩ ، س٣٨ ، ٣٩ أن البرج بنى بجانب جامع المقس فيقول : (وبنى (قراقوش) قلعة المقس وهى برج كبير وجعله على النيل بجانب المقس) •

— كما يلاحظ أن المؤلف فى الحاشية السالفة يستغرب تسمية ابن اياس لهذا الجامع بجامع المقسى ، ولو أنه قرأ بقية نص المقريزى فى وصف هذا الجامع لما كان هناك موضع لهذا الاستغراب) •

(١) كان باب البحر يقع مباشرة بجانب قلعة المقس ، فالمقريزى يذكر أن صلاح الدين •• زاد فى سور القاهرة على يد قراقوش من باب القنطرة الى باب الشعرية والى باب البحر، يريد أن يمد السور من باب البحر الى الكوم الأحمر •• (الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٤٧ ، س ٣٣) — وفى موضع آخر (الخطط ، الجزء الثانى • ص ٢٨٣ ، س ٢٩) •

يقول : (ولما بنى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب هذا السور الذى على القاهرة وأراد أن يوصله بسور مصر من خارج باب البحر الى الكوم الأحمر حيث منشبأة المهرانى اليوم ، وكان المتولى لعمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، أنشأ بجوار المقسى برجا كبيرا ••)

— (آثرت نقل عبارات المقريزى كاملة زيادة فى الايضاح • هذا ويشير كازانوفا بالأصل الفرنسى للكتاب الى باب الحديد على خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ بالقسم الخامس ، وصحتها القسم السادس) •

(٢) (بالأصل الفرنسى للكتاب رقم ٢٦٤ وما يليه ، وصحتها كما جاء بالمتن) •

(٣) الخطط ، الجزء الثانى ص ١٤٧ ، س ٣٦ •

(٤) (بالأصل الفرنسى للكتاب ، القسم السادس ، رقم ١٤٥ ، وصحتها كما جاء بالمتن) •

(٥) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٧٩ ، س ٣٧ — (عن باب الشعرية ، وخط باب الشعرية — انظر الخطط ، الجزء الثانى ، ص ١٥١ ، ١٦٢) •

إلى قنطرة باب الشعرية من باب الفتوح . فاذا كان باب القنطرة قد تغير مكانه فلا بد من أن يكون فى اتجاه السالك ، وفى هذه الحال . ما كان أيسر على المقريزى من أن يقول إنه يسلك إلى قنطرة باب الشعرية من باب القنطرة . ومن ثم فان باب القنطرة لابد أن يكون قد ظل بسور صلاح الدين فى مكانه الأول بالجهة الغربية (١). وفى الحقيقة لقد فاتنى أن أوضح على الرسم الذى وضعته للمخطط العام للسور هذه القطعة التى زيدت به من باب القنطرة إلى باب الشعرية .

هذا ويجدر بنا أن نتساءل عما إذا كانت هذه القطعة التى زيدت (فيما بين باب القنطرة وباب الشعرية) لا تعتبر جزءا من عملية ترميم السور التى شرع صلاح الدين فى القيام بها عام ٥٦٦ هـ. إنى أميل إلى الاعتقاد بأن صلاح الدين قد بدأ فى هذه السنة ترميم سور جوهر وسور بدر الجمالى،وهذا الرأى يسمح بأن يخفف — أو على الأحرى بأن يجنبنا — ذلك التناقض الذى سبق أن أشرنا إليه فى عبارة المقريزى بصدد هذه القطعة من السور المبنية بالحجر (فيما بين باب زويلة وباب الفرج) والتى ينسب بناؤها — فيما يبدو — إلى بدر الجمالى ، والتى حدثنا عنها مباشرة بعد أن أكد أن الأبواب فقط هى التى كانت مبنية بالحجر وأن الأسوار كانت مبنية بالطوب اللبن (انظر من قبل). فهذه القطعة فى السور المبنية بالحجر — فى ضوء هذا الرأى — لابد أنها تنسب إلى صلاح الدين . وحيث إنه من الوضوح بمكان فى مشروع بناء السور عام ٥٧٢ هـ أن بناء هذه القطعة المجاورة لباب زويلة يكون غير ذى موضوع البتة فانها لا بد أن تكون قد بنيت فى عام ٥٦٦ هـ إذا كان ولا بد من نسبتها إليه.

ومع هذا فلا أستطيع أن أغرر بنفسى وأجزم بصحة هذه الآراء ، إذ طالما أننا نفتقر إلى أدلة دقيقة محددة على لسان المؤرخين فاننا لا نستطيع أن نستفيد — الا بقدر محدود — من آرائهم المتناقضة فى تقييم آرائنا الشخصية ومن ثم فانى أكتفى بأن أشير إلى أن ذلك الرأى الذى ذهبت إليه يدعم تماما تلك الحقيقة — التى أعتقد أنى قمت بايضاحها حق الايضاح — والتى تتلخص فى أنه كان لدى صلاح الدين مشروعان بالنسبة للسور ، يختلف كل منهما عن الآخر . أحدهما فى عام ٥٦٦ هـ لم يكن يقصد منه سوى ترميم السور ، وثانيهما فى عام ٥٧٢ هـ وهو مشروع حربى تماما . وهذا المشروع الثانى يذكرنا — وهو ما ستتاح لنا الفرصة كثيرا لإثباته — بالطابع الذى تميزت به المنشآت العسكرية فى سورية .

ولنعد بعد ذلك إلى تتبع السور من حيث توقفنا . فبعد قنطرة باب الشعرية يعود السور للاتصال بالسور القديم حتى باب النصر . وأما فيما يختص بذلك الجزء من السور الممتد من باب النصر إلى القلعة فإن المقريزى يخبرنا بأن السور قد زيد فى هذه الجهة الشرقية وأن هذه الزيادة يقال لها بين السورين .

وهنا تبرز مسألة على جانب كبير من الطرافة .

فالسور الشرقى للقاهرة يمثله الآن سوران : أحدهما يمتد (جنوبا) على بعد ٤٠٠ متر من باب النصر ، وهو الذى تتبع معالمه على خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ حتى الباب الحالى لدرب المحروق (٢) ، ومن هناك يعود

---

(١) جاء على لسان ابن اياس عبارتان تؤيدان — فيما يبدو لى — وجهة نظرى . العبارة الأولى ونصها : ودخل من باب الشعرية وخرج من باب القنطرة ، وطلع من على سوق مرجوش وشق القاهرة (بدائع الزهور ، المخطوطة رقم ٥٩٥ ب بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ٢٣٠ ب) — والعبارة الثانية ونصها : ودخل من باب البحر واستمر الى باب القنطرة ، فشق من سوق مرجوش ثم شق من القاهرة (المخطوطة السابقة، ورقة ٣١٤ ب) — فاذا لم يكن باب القنطرة داخل السور فان تتبع هذين الطريقين لا يمكن فهمه ، وانما على العكس من ذلك من السهل تتبعهما على المخطط الخامس بالسور كما رسمته .

(٢) (هذا الباب مازال موجودا بالسور الشرقى لمدينة القاهرة) .

إلى الظهور على حالة جيدة من الصيانة والحفظ بحوائطه وأبراجه . . الخ ، ويظل على هذه الصورة حتى مسافة قريبة جدا من باب الوزير . وثانيهما يمتد مسافة ٤٠٠ متر أخرى على وجه التقريب بامتداد السور الشمالى ، ثم يمتد جنوبا فى زاوية مستقيمة محاذيا للسور الأول . وعلى الرغم من أن الضلع الشمالى لهذا السور الثانى قد اختفى ، فان رأس الزاوية التى تربطه بضلعه الشرقى — أى البرج المعروف ببرج ظفر (١)— قد ظلت على حالة طيبة ، وأما ضلعه الشرقى فلا يزال على حالته الأصلية غير أن طرفه (الجنوبى) قد اختفى تحت أكوام من الأنقاض العالية التى يتراوح ارتفاعها فى هذه النقطة بين ١٥ ، ٢٠ مترا(٢) .

وبعد الفحص الذى قمت به لهذين السورين لم يعد لدى أى شك فى معرفة الطريقة التى بنيا بها (٣). فعلى مسافة معينة من باب النصر عثرت (بالسور) على قطعة من الحجر عليها كتابة هيروغليفية ، كما عثرت على ثلاث قطع أخرى من الحجر ، عليها الكتابة نفسها بالأبراج الموجودة بالسور الثانى الشرقى . هذا ومن المعروف أن قراقوش قد قام بهدم أهرامات منف الصغيرة ليستخدم أحجارها فى أعمال البناء التى أشرف عليها (٤) ، ومن المحتمل جدا أن تكون هذه الأحجار التى عثرنا عليها من أحجار أهرامات منف .

ثم إلى أى مدى يمتد هذا السور الثانى ؟. إنه يتعذر علينا أن نجيب على هذا السؤال طالما لا تزال هذه الأنقاض قائمة هناك . فهل كان من المقدر لهذا السور أن يظل ممتدا على هذا النحو حتى القلعة ؟ وإذا كان هذا صحيحا فكيف نفسر وجود سورين يشبه كل منهما الآخر تمام الشبه ؟ ، بل كيف نفسر صمت الكتاب الذين نستقى منهم معلوماتنا إزاء هذا التماثل غير المألوف؟ . وهل هذا السور الثانى أقيم بقصد تدعيم السور الأول بحيث يكون بمثابة سور أمامى بالنسبة له ، أو بمثابة قلعة مزواة (ذات زاوية) شأنها فى ذلك شأن برج المقس أو برج الكوم الأحمر ؟ إذا كان ذلك صحيحا فكيف نفسر صمت الكتاب بالنسبة لهذا البرج الثالث (برج الكوم الأحمر) ؟ . وأخيرا هل هذا المكان الذى يوجد بين هذا السور المزدوج — وهو مكان مهجور الآن ومملوء بالخرائب والأنقاض — هو الذى كان يعرف بخط بين السورين ؟ . إن نص المقريزى الذى أشرنا إليه من قبل يحدد مكان هذا الخط بالقرب من خزانة البنود وباب البرقية ، هذا فضلا على أن هذين السورين لابد أن يكونا قد بنيا على يد قراقوش . ومع ذلك فانه يفهم من نص المقريزى أن أحد هذين السورين فقط كان مبنيا بالحجر وهو السور الذى بناه قراقوش وأما الثانى — الذى أدرك قطعة منه — فكان مبنيا بالطوب اللبن .

ويذكر لنا المقريزى بضع كلمات عن هذا السور الشرقى (المزدوج) ، وهذه الكلمات تنطبق تماما — فيما

---

(١) أنى أشارك كوربيت CORBETT الرأى فيما يختص بالرسم الاملائى لهذه الكلمة ، وانه من الصواب كتابتها « برج الظفر » — هذا وقد كانت احدى مناظر الخلفاء الفاطميين تعرف بهذا الاسم — قارن هذا الاسم بأسماء باب النصر ، وقبة النصر التى توجد على مقربة من هذا البرج . وقد عرفت قبة النصر فيما بعد بقبة العزب (الجبرتى : عجائب الآثار ، الجزء الثالث ، ص ٣٧ — وقارن ذلك على خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ ، القسم السابع ، رقم ١٤٧) .

(٢) (الأجزاء المتبقية حتى الآن من السور الشرقى هى: (١) جزء يبدأ من برج الظفر ويسير الى الجنوب بطول ٤٠٠ متر ، ثم ينقطع تجاه شارع الفواطم بقسم الجمالية (٢) جزء قائم فى المسافة من درب المحروق الى قرب تربة الأمير طراباى الشريف التى بباب الوزير الخارجى (٣) جزء قائم يمينا مكان الخانقاه النظامية وبين بقايا جامع السبع سلاطين الى أن يتصل بسور القلعة — نقلا عن المرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب الذى قام بتحقيق الجزء السادس من كتاب النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، ص ١٧٧ .) .

(٣) أنظر الدراسة المعمارية التى قام بها ماكس هرز MAX HERZ : Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire, T. VI. فى نهاية العدد — (لم يقم ماكس هرز بهذه الدراسة ، انظر المقدمة) .

(٤) انظر ما ذكره فى هذا الصدد عبد اللطيف البغدادى، والمقريزى وغيرهما من الكتاب العرب .

يبدو — على السور الأول منه . ففى هذا الصدد يقول (وزاد « قراقوش » فى سور القاهرة قطعة مما يلى باب النصر ممتدة إلى باب البرقية وإلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة (الجبل) فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة لموته ، وإلى الآن آثار الجدار ظاهرة لمن تأملها فيما بين آخر السور إلى جهة القلعة) p. 703 p. 543 (١) .

وقد سبق لى أن لاحظت أن هذه الطريقة فى التعبير : من ... إلى ... وإلى ، تعنى — فيما يبدو — تغييرا فى الاتجاه . فاذا كان هذا الفهم لطريقة التعبير لدى المقريزى صحيحا ، فان السور يمتد من باب النصر إلى باب البرقية ، ومن هناك يغير اتجاهه ليمتد حتى درب بطوط ، ثم أخيراً يغير اتجاهه ليمتد خارج باب الوزير .

فاذا ما افترضنا لحظة أن برج الظفر الحالى يعتبر جزءا من السور الذى يصفه المقريزى، فان ذلك السور ابتداء من باب النصر حتى باب البرقية يكون ثلاثة أضلاع من أضلاع المربع (الضلع الثالث قد اختفى تماما الآن)، ومن باب البرقية يمتد من الشمال إلى الجنوب فى خط مستقيم تقريبا حتى باب الوزير (وهو على هذه الصفة حتى الآن) ومن باب الوزير يغير اتجاهه غربا بشرق حتى القلعة .

ولو لم يكن يوجد بالسور الشمالى فى امتداده شرقا وقبل اتصاله ببرج الظفر نقطة اتصال واضحة المعالم من بقايا أحد الأبراج أو قطعة من جدار ، ولو لم تكن خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ قد أعطت تخطيطا على درجة كبيرة من الدقة والوضوح يحدد مكان الأبراج فيما بين نقطة الاتصال هذه وباب البرقية (الذى يعرف (الآن) بباب الغريب (٢) — لو لم يكن كل هذا واضحا لما ترددت البتة (فى أن أرى أن المقصود من عبارة المقريزى) (... ... ...) ال (قطعة مما يلى باب النصر (ال) ممتدة إلى باب البرقية) هو برج الظفر الحالى . ومع ذلك فانى أتساءل مرة أخرى ، ما الداعى إلى إقامة السور على هذا النحو ؟ إن الإجابة على هذا السؤال — فيما يبدو لى — توجد فيما سبق أن ذكرته ، وهو أنه كان لدى صلاح الدين مشروعان : أحدهما مجرد ترميم للسور وعمارته ، والثانى لتوسيعه وزيادته . فالى المشروع الأول (مشروع سنة ٥٦٦ هـ) تنسب القطعة من باب القنطرة إلى باب الشعرية ، والقطعة التى رآها المقريزى تهدمت فيما بين باب زويلة وباب الفرج والتى ينسب بناؤها — فيما يبدو — إلى بدر الجمالى ، ثم أخيرا القطعة بالزاوية الشمالية الشرقية التى لا تزال موجوده حتى اليوم . وفى المشروع الثانى مشروع سنة ٥٧٢ هـ ، فان الزاوية الشمالية الشرقية للسور المنقولة بعيدا عن مكانها الأول (٣) قد أصبحت بحكم موقعها تجاه القلعة بمثابة حصن أمامى يتمتع بمركز دفاعى ممتاز .

وبعد ،فهذا هو الرأى الذى أستطيع أن أختم به هذه المناقشة . وقد رأينا من قبل أن السور الأول كان به بابان فى جهته الشرقية وهما : باب البرقية وباب المحروق . وبالإضافة إلى هذين البابين يذكر المقريزى بابا ثالثا ، هو باب الجديد (٤) أو باب الحديد كما يجب أن يقرأ . وعلى الرغم من أنه لا يمدنا بأية معلومات عن هذا الباب

---

(١) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٨٠ ، س ١ — عن الصوة انظر فيما بعد ، الفصل الثالث عشر .

(٢) (هذا الباب يوجد بالسور الشرقى فى جزئه الذى اختفى تحت الكيمان الموجودة بهذا الجانب من مدينة القاهرة. وقد كشفه المرحوم على بهجت — انظر :
CRESWELL : The Muslim Architecture of Egypt, II, Chap. III, p. 59.
— الدكتور عبد الرحمن زكى : القاهرة ، تاريخها وآثارها ، ص ٦٩ — ٧٠) .

(٣) (يمتد السور من باب النصر الى الشرق فى مسافة طولها ٣٠٠ متر ، وينقطع فى نهاية تلك المسافة عند شارع برج الظفر) .

(٤) (التسمية الصحيحة لهذا الباب هى «الباب الجديد» — وقد كشفه الأثرى المعروف الأستاذ كرسويل — انظر :
CRESWELL : Op. cit., II, Chap. III, p. 59.
— الدكتور عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٦٩ — ٧٠) .

فانى أميل إلى الاعتقاد بأنه يرجع إلى عهد صلاح الدين، هذا وقد سبق أن أشرت إلى باب الوزير ، وبذلك يكون عدد الأبواب فى الجهة الشرقية من السور أربعة أبواب .

والآن لنرى كيف يمكن — حسبما أعتقد — تحديد مكان هذه الأبواب فباب الغريب الحالى هو من غير شك باب البرقية وذلك أن وجود هذا الباب بجوار الجامع الأزهر ، وما ذكره المقريزى عن المقابر الموجودة خارج باب البرقية، ثم حديث الجبرتى عن هذا الباب الذى سبق أن أشرت إليه (ص ٥٣١ ، حـ ٤) كل هذا لايدع مجالا للشك فى هذا الصدد .

وأما باب المحروق فقد كان يعرف قديما بباب القراطين ، ثم عرف بهذا الاسم منذ سنة ٦٥٢ هـ وذلك بعد الفتنة التى قام بها المماليك وقتذاك وأحرقوا أثناءها هذا الباب(١) . وفضلا على ذلك فان درب المحروق الذى تشير إليه خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ ، والذى لايزال موجودا حتى اليوم ، لايدع مجالا للشك بالنسبة لهذا الباب .

وأما الباب الجديد ، أو باب الحديد، فيبدو لنا أنه لابد أن يكون هو ذلك الباب الذى لا يزال قائما حتى اليوم ، والذى يختفى تماما وراء البيوت الملتصقة بالسور .

وأما باب الوزير فلا يزال قائما، غير أنه ليس ثمة شك فى أنه حديث البناء ويرجع — على أقل تقدير — إلى عصر سلاطين المماليك. والدليل على ذلك أن الجدار الذى فتح فيه هذا الباب يوجد عليه كتابة تاريخية طويلة غير واضحة المعالم الآن،وهى من غير شك ترجع إلى العصر المملوكى (٢). وهذه الكتابة التاريخية تتعلق بالسبيل الذى (لايزال) (٣) موجودا بالجدار على يمين من يخرج من القاهرة من هذا الباب. والماء بهذا السبيل يتدفق من فم برأس سبع نحت فى الحجر بطريقة غريبة .

وعلى هذا النحو نكون قد وصلنا فى تتبعنا للسور حتى القلعة . فأما القلعة فلنترك الحديث عنها لنعود اليه فيما بعد مع مزيد من التخصيص ، ولنحاول الآن إحياء معالم السور (فى قطاعه) الممتد من القلعة إلى النيل تجاه الفسطاط .

وفى هذا الصدد يخبرنا المقريزى أن المنية حالت دون أن يصل قراقوش القلعة بسور القاهرة وبسور مصر (٤). غير أنه فى موضع آخر فى كتابه يعود فيناقض نفسه — حسب عادته — إذ يؤكد أن قراقوش (مد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة خارج مصر) (٥). وسنرى فيما بعد أن باب القنطرة هذا كان يقع بجانب النيل جنوبى الفسطاط — أى أن السور لابد أن يكون قد تم بناؤه .

هذا وإن المقريزى يعود للكلام مرة أخرى عن السور الذى يفصل القرافة عن مدينة القاهرة (٦) . وهذا السور لاتزال بعض معالمه قائمة؛ كما لايزال يوجد بجانبها حى يعرف بحى تحت السور (٧) (خريطة القاهرة عام ١٧٩٨

(١) الخطط الجزء الأول ، ص ٣٨٣ — قارن ذلك بماذكره QUATREMERE: Histoire des Sultans Mamlouks, I, Ière Partie, p. 249.

(٢) لم أستطع أن أقرأ من هذه الكتابة التاريخية سوى كلمتى « الأميرى الكبيرى » اللتين توجدان عند زاويه الباب تماما ، كما لم أستطع أن أميز بعد هاتين الكلمتين ، سوى معالم عدد كبير من النسب التى كثيرا ما نصادفها فى كتابات هذه الفترة .

(٣) كان ذلك فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأما الآن فلا وجود لهذا السبيل .

(٤) الخطط الجزء الأول ، ص ٣٨٠ ، س ٣ (وكذلك لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مصر) .

(٥) الخطط الجزء الأول ، ص ٣٤٧ ، س ٣٦ .

(٦) الخطط الجزء الأول ، ص ٣٤٣ ، س ٧ —

(٧) (بالأصل الفرنسى للكتاب رقم ١٥ ، وصححته كما ورد بالمتن) .

القسم الثانى رقم ٤٥).ومن ثم فان هذا السور – وفقا لهذه الشواهد الناطقة – كان يمتد من القلعة فاصلا بين القرافة والمدينة . وبالإضافة إلى هذا فهناك باب، لايزال يعرف إلى اليوم بباب القرافة (١) (خريطة القاهرة سنة ١٧٩٨ القسم الثانى رقم ٥١)، وعلى الرغم من أن هذا الباب قد جددت عمارته زمن الأتراك العثمانيين ، فلا يزال يوجد عليه «خرطوشتان » باسم قايتباى ، السلطان الحادى والأربعين من سلاطين المماليك . وكثيرا ما يتحدث المقريزى عن هذا الباب ؛ ومما هو جدير بالذكر أنه لا يخلط بينه وبين أحد أبواب القلعة الذى يعرف بهذا الاسم أيضا (انظر فيما بعد) .

ثم يستمر السور فى امتداده من الشمال إلى الجنوب إلى أن يلتقى بمجرى المياه التى لا يزال معظم أجزائها سليما حتى الآن ؛ وهذه المجرى أنشأها محمد بن قلاوون حوالى سنة ٧٣٠ ﻫ ثم أعاد عمارتها قانصوه الغورى السلطان السادس والأربعون من سلاطين المماليك حوالى سنة ٩١١ﻫ(٢). وفى هذا السور فتحت فتحات على هيئة عقود ، وهذا مما يدعو إلى القول بأن هذا الجزء قد استخدمه الغورى لمد مجرى المياه الذى أنشأه لنقل ماء النيل إلى بساتين القلعة كما سنرى فيما بعد . وأحد هذه العقود ، الذى يقع مباشرة – كما يبدو لنا – قبل نقطة اتصال السور بمجرى المياه ذاته يوجد على واجهتيه نقش باسم السلطان قايتباى . ونظرا لأن النقش الذى يوجد على واجهته الأمامية على حالة جيدة من الحفظ فقد تمكنت من نقله . هذا وعلى الرغم من أن هذا النقش متأخر كثيرا عن عهد صلاح الدين إلا أنه يمدنا بوثيقة نافعة .

فعلى يمين وعلى شمال واجهة العقد يوجد « خرطوشتان »نقش داخل كل منهما سمة السلطان قايتباى ونصها :

الأولى – أبو النصر قايتباى

الثانية – عز لمولانا السلطان الملك الأشرف عز نصره

وعلى الواجهة توجد عصابة نقش بها بحروف كبيرة جدا :

(أمر بانشاء هذا الباب المبارك (؟) مولانا ومالك رقابنا (؟) السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره بتاريخ شهر ربيع الآخر (؟) سنة ... وثمانين وثمانمائة .)

فهذا العقد إذا هو أحد الأبواب ، وهو فيما يبدو لنا – الباب الذى يسميه المقريزى باب الصفا ، والذى يصفه بقوله – (باب الصفا : هذا الباب كان هو فى الحقيقة باب مدينة مصر وهى فى كمالها ، ومنه تخرج العساكر وتعبر القوافل ، وموضعه الآن بالقرب من كوم الجارح ، وهدم فى أيام الملك الظاهر بيبرس (رابع سلاطين المماليك (٣)) .

حقا إنه يوجد على مسافة غير بعيدة من هذا الباب كوم يتميز تماما عن غيره من بقية الكيمان المتراكمة (الآن) بين المساكن ومجرى المياه، وهذا الكوم ينطبق عليه تماما قول المقريزى فى عبارة أخرى ونصها (فحدها

---

(١) (باب القرافة مازال موجودا بالسور ، وقد كشف عنه ، المرحوم المهندس عباس بدر مدير هندسة الآثار الاسلامية والقبطية بمصلحة الآثار سابقا) .

(٢) (عن هذه المجرى وماتوالى عليها من اصلاح وتعمير ، انظر مقال الدكتورة سعاد ماهر : مجرى مياه فم الخليج ، مجلة الجمعية المصرية التاريخية ، المجلد السابع ، ١٩٥٨ ، ص ١٣٤ وما يليها) .

(٣) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٤٧ ، س ٢٥ .

(أى مصر) الشرقى اليوم من قلعة الجبل وأنت آخذ إلى باب القرافة فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر إلى كوم الجارح ، وتمر من كوم الجارح وتجعل كيمان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهى إلى الرصد. (١) والرصد هو ذلك الجانب من جبل المقطم الذى يعرف اليوم بجبل الجيوشى (انظر خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨).

وفضلا على ذلك فإن باب الصفا كان ينتهى عنده درب الصفا . وهذا الدرب كان امتدادا للشارع الأعظم الذى يبدأ من باب زويلة، وذلك حسبما يفهم من عدة نصوص مختلفة ليس هذا مجال إثباتها نظرا لطولها. ويكفينا أن نشير من هذه النصوص إلى ذلك النص الذى يصف موكب الخليفة وهو يشق القاهرة ، إذ ما زال فى امكاننا تتبعه فى يسر وسهولة على إحدى خرائط القاهرة، ففى هذا يقول أبو المحاسن: (فيشق الخليفة القاهرة إلى جامع أحمد بن طولون، إلى المشاهد ، إلى درب الصفا ويقال له الشارع الأعظم) (٢) . وكان هذا الحى يعرف بخط الصفا، ويحدثنا عنه المقريزى بقوله: (هذا الخط دثر جميعه ولم يبق له أثر وهو قبلى الفسطاط ، أوله بجوار المصنع وخط الطحانين ،أدركته كأن صفين طواحين متلاصقة متصلة من درب الصفا إلى كوم الجارح ، وأدركته به جماعة من أكابر المصريين عدول. وكان المار بين هذين الصفين لا يسمع حديث رفيقه إذا حدثه لقوة دوران الطواحين وكان من جملتها طاحونة واحدة فيها سبعة أحجار . دثر جميع ذلك ولم يبق له أثر) (٣) وليس فيما ذكره المقريزى أية غرابة، ففى جميع الأزمنة كان يستفاد من الكيمان لإقامة الطواحين فوقها ، وما زلنا نلاحظ (حتى الآن) (٤) عددا كبيرا من الطواحين التى أقامها جنود نابليون بونابرت فوق هذه الكيمان . وكيفما كان الأمر فإنه يبدو لى أن هذا الباب الذى هدمه بيبرس هو الذى أعاد قايتباى بناءه وفى نفس المكان على الأرجح(٥) .

وهكذا نكون قد تمكنا من معرفة مكان بابين من أبواب السور (فى هذه الجهة) وهما بابا القرافة والصفا .

هذا ويتحدث المقريزى عن باب ثالث ، إلا أن التفاصيل الكثيرة التى يمدنا بها عن هذا الباب يتعذر علينا التوفيق بينها ، ولذلك فقد آثرت أن أنقل إلى القارىء وصفه الكامل لهذا الباب :

(باب مصر — هذا الباب هو الذى بناه قراقوش ومنه يسلك الآن من يدخل إلى مدينة مصر من الطريق التى تعرف بالمراغة وهو مجاور للكوم الذى يقال له كوم المشانيق ، ويعرف اليوم بالكباره . وكان موضع هذا الباب غامرا بماء النيل ، فلما انحسر الماء عند ساحل مصر صار الموضع المعروف بالمراغة والموضع المعروف بغيط الجرف إلى موردة الحلفاء فضاء لا يصل إليه ماء النيل البتة، فأحب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يدير سورا يجمع فيه القاهرة ومصر وقلعة الجبل، فزاد فى سور القاهرة على يد قراقوش من باب القنطرة إلى باب الشعرية وإلى باب البحر ، يريد أن يمد السور من باب البحر إلى الكوم الأحمر الذى هو اليوم حافة خليج

---

(١) الخطط للمقريزى ، الجزء الأول ص ٣٤٣ ، س ٧ — وعن الرصد قارن ما جاء فى كل من :
CAUSSIN DE PERCEVAL : Le Livre de la Grande Table Hakémite (Notices et Extraits manuscrits, III.
VAN BERCHEM : Une Mosquée du Temps des Fatimides (Mém. de l'Institut Egyptien, II, Le Caire, 1888).

(٢) النجوم الزاهرة ، طبعة JUYNBOLL ، الجزء الثانى ، ص ٤٧٢ .

— (النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، الجزء الرابع ص ٩١ — انظر كذلك الحاشية رقم ٣ بهذه الصفحة حيث أورد لنا محقق هذا الجزء ، نقلا عن ابن دقماق ، وصفا لهذا الدرب ولباب الصفا) .

(٣) الخطط الجزء الأول ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ . (آثرت نقل النص كاملا حتى يستقيم فهم المتن) .

(٤) (كان ذلك فى نهاية القرن التاسع عشر) .

(٥) كان بجوار هذا الباب سبيل باسم السلطان قايتباى ، وقد أزيل فى التنظيمات الأخيرة لمدينة القاهرة .)

مصر تجاه خط بين الزقاقين ليصل أيضا من الكوم الأحمر إلى باب مصر هذا ، فلم يتهيأ له هذا ، وانقطع السور من عند جامع المقس. وزاد فى سور القاهرة أيضا من باب النصر إلى قلعة الجبل فلم يكمل له ، ومد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة خارج مصر فصار هذا الباب غير متصل بالسور . (١)

ولكى نفسر فى وضوح كل ما ذكره المقريزى عن موضع هذا الباب يتعين علينا أن نقوم بدراسة مطولة لجميع النصوص المتصلة بالأماكن المختلفة التى وصفت فى هذا النص ، وهذا مما يبعدنا كثيرا عن موضوعنا . ولكيلا يختلط على الأمر وسط مثل هذا الاستطراد الطويل فإنى أرجو القارىء أن يثق فى قولى وأن يأخذه مأخذ الصدق . لقد قمت بهذه الدراسة وهأنذا أقدم له ، فى بضع كلمات ودون الدخول فى أية مناقشة ، هذه النتيجة التى توصلت إليها . (٢)

لقد كان النيل فيما سلف يجرى أمام جامع عمرو بن العاص ، ومن هناك كان يمتد محاذيا تقريبا لمجراه الحالى وعلى مقربة جدا من الخليج . وكل هذه المنطقة الحالية للخليج التى تقع فيما بين قناطر السباع (خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ القسم الثالث ، رقم ١٦٠) وفم الخليج ترجع إلى عهد الملك الصالح ، سابع سلاطين الأيوبيين (٣).

وأما المراغة فكانت تمتد بالقرب من جامع عمرو بن العاص حتى الشاطىء الجديد للنيل ،وقد وردت الإشارة إلى المراغة كثيرا فى كتاب وصف مصر (الجزء الثامن عشر ، القسم الثانى ، ص ٥٠٣) .

وغيط الجرف ، أو بستان الجرف ، كان يقع ناحية الشمال الغربى بالقرب من موردة الحلفاء التى كانت تقع عند فم الخليج .

وكوم المشانيق ، أو الكباره ، التى كانت تقع عند بداية طريق المراغة والتى تكونت بعد انحسار مياه النيل تقع وراء قصر الشمع الحالى (كتاب وصف مصر ، الجزء والقسم والصفحة أنفسها) .

من هذا كله يتضح أن باب مصر لا بد أنه كان على مقربة من قصر الشمع . فهل قصر الشمع الحالى هو نفسه حقا الذى يتحدث عنه المقريزى ؟ ان بوكوك POCOCKE يرى فى بناء هذا القصر بعض المعالم الرومانية (٤)، وإنه من الملاحظ حقا أن برجين من أبراج القصر قد بنيا بالحجر الدبش والآجر على التناوب. غير أن الجدار الذى يصل بين هذين البرجين قد استخدم فى بنائه الأحجار الضخمة ، وهى طريقة مخالفة تماما لطريقة بناء البرجين وتذكرنا فى الوقت نفسه بالطريقة التى بنى بها قراقوش أسوار القاهرة . وفضلا على ذلك فقد لاحظت أنه يوجد وسط هذا الجدار فوق « الفرونتون » الذى بنى على الطريقة البيزنطية مكان كتابة تاريخية . وليس فى وسعى أن أدلى برأى عن طبيعة هذه الكتابة التاريخية التى لا وجود لها الآن ، ومع ذلك فان المنظر العام وطراز العصابة التى نقشت بداخلها هذه الكتابة التاريخية تذكرنا بالكتابات التاريخية العربية—وعلى وجه التخصيص—بالكتابة المنقوشة على باب القلعة التى سأشير اليها فيما بعد .

---

(١) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٤٧ ، س ٢٨ — ٣٦ .

(٢) يمكننا أن نجـــد بعض التفاصيل عن هذا الموضوع فيما ذكره سلفستر دى ساسى (نقلا عن المقريزى) فى كتابه Chrestomathie Arabe — كما توجد النصـــوص الرئيســية الخاصة به بالخطط طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ابتداء من ص ٣٣٩ (ذكر ما قيل فى مدينة فسطاط مصر) حتى ص ٣٤٧ — (ذكر أبواب مدينة مصر) .

(٣) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ١١٣ ، س ٣٧ .

(٤) Pococke : Description of the East, Vol. I.

وإني لأتساءل — في ضوء هذه الظروف — عما إذا كان قراقوش قد استفاد من وجود هذين البرجين ليقيم بينهما بابا ، وأن هذه الكتابة التاريخية ليست سوى الكتابة التاريخية الخاصة بباب مصر . إني لأكتفي بإثبات هذا الرأى دون أن ألح على القارىء فى تقبله. وكيفما كان الأمر فإن الباب الذى نحن بصدد الحديث عنه لا بد أن يكون قريبا من هذا المكان .

هذا ويذكر المقريزى (فى وصفه لباب مصر) أنه كان من المفروض أن يمتد السور من الكوم الأحمر إلى باب مصر ، وأن الكوم الأحمر كان (فى زمانه) على حافة خليج مصر ، غير أنه فى موضع آخر من خططه يذكر أن مكانه اليوم (فى زمانه) هو منشاة المهرانى (١) ، التى كانت تقع بأول الخليج من غربيه (٢) .

ومن هذه الأقوال يتضح أن الكوم الأحمر هو على وجه التقريب الكوم الذى أقيم عليه فى عام ١٧٩٨ الحصن الذى كان مقرا للمعهد العلمى (خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ القسم الثالث ، رقم ٢٨٣) .

ولكن هل هذا الكوم هو الذى أقيم فوقه برج صلاح الدين ؟

إنى لأنكر ذلك انكارا تاما على الرغم مما ذكره المقريزى ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا — ان مخطط بناء السور فى عام ٥٧٢ هـ ، كما وصفه لنا عماد الدين، يحدد مكان هذا البرج عند طرف السور الغربى. ثانيا — إن موقع مثل هذا البرج يعتبر مكانا غير مناسب على النيل بين القاهرة ومصر، وإنما — على العكس من ذلك — فان مكانه يصلح تماما لأن يكون به أحد أركان السور. ثالثا — إن الكوم الأحمر، حيث حدد مكانه المقريزى ، يقع على أقل تقدير على بعد ٤٠٠٠ متر من جامع المقس، غير أنه حسب مخطط بناء السور فى عام ٥٧٢ هـ يجب أن يكون على بعد ٥٦٦٨ مترا تقريبا من هذا الجامع. رابعا — إن ابن عبد الظاهر، الذى نقل عنه أبو المحاسن، يتكلم عن برج يقع على مقربة من باب القنطرة ، والراجح أن هذا البرج هو برج صلاح الدين .

ولكى نقدر مدى صحة هذا الرأى الأخير علينا أن نحدد فى دقة تامة موضع باب القنطرة هذا .

وإلى القارىء النصوص المختلفة المتعلقة بهذا الباب التى ذكرها المقريزى : (قنطرة بنى وائل ؛ حيث الوراقات الآن ، قريبا من باب القنطرة خارج مدينة مصر .) (٣)

(الكنيسة المعروفة بميكائيل التى عند خليج بنى وائل ، وهذا الموضع اليوم وراقات يعمل فيها الورق بالقرب من باب القنطرة خارج مصر) (٤)

(بر الجيزة تجاه باب القنطرة خارج مدينة مصر .) (٥)

(وكان ماء النيل يدخل إلى بركة الحبش من خليج بنى وائل ، وكان خليج بنى وائل مما يلى باب مصر من الجهة القبلية الذى يعرف إلى يومنا هذا باب القنطرة من أجل أن هذه القنطرة كانت هناك) (٦) .

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٨٣ ، س ٢٩ (الكوم الأحمر حيث منشاة المهرانى اليوم) .

(٢) الخطط الجزء الثانى ، ص ١١٤ ، س ٣ (وأول هذا الخليج الآن من غربيه منشاة المهرانى) .

(٣) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٥ ، س ٥ .

(٤) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٢٩٧ ، س ٢٣ .

(٥) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٤٥ ، س ٧ .

(٦) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ١٥٥ ، س ٢١ .

(خليج بني وائل عليه قنطرة بها عرف باب القنطرة بمصر) (١) .

(بركة شطا — هذه البركة موضعها الآن كيمان على يسرة من يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر طالباً جسر الأفرم ورباط الآثار ، كان الماء يعبر اليها من خليج بنى وائل ، وموضعه على يمنة من يخرج من باب القنطرة المذكورة ، وكان عليه قنطرة بناها العزيز بالله بن المعز وبها سمى باب القنطرة هذا .) (٢)

كما أن الخريطة التي قام برسمها POCOCKE على الرغم مما بها من عيوب وأخطاء — تشير إلى وجود معالم خليج فى هذه المنطقة بالقرب من SARONEBY (آثار النبي) أى « رباط الآثار » الذى يتحدث عنه المقريزى (والذىيعرف أيضا بالآثار النبوية) . ولا يزال رباط الآثار « جامع أثر النبي » موجودا حتى الآن (انظر كتاب وصف مصر ، الجزء الثامن عشر ، القسم الثانى ص ٥٠٤ واللوحة الملحقة) .

ومن هذه النصوص التي ذكرها المقريزى أيضا :

(باب القنطرة — هذا الباب فى قبلى مدينة مصر عرف بقنطرة بنى وائل التى كانت هناك ، وهو أيضا من بناء قراقوش . (٣))

ويمكننا أن نستخلص من كل هذه الأوصاف المختلفة لهذا الباب أنه كان يقع عند نقطة التقاء السور الغربى بالسور الجنوبى وفقا لمخطط عام ٥٧٢ هـ ، وأن برج الكوم الأحمر يتعين أن يكون بالقرب من هذا الباب .

ومما ذكره أبو المحاسن فى وصف هذا الباب نقلا عن ابن عبد الظاهر : (قال (ابن عبد الظاهر) وبنى (قراقوش) باب الجامع (جامع المقس ؟) والقلعة التى بالجبل والبرج الذى بمصر قريبا من باب القنطرة المسمى بقلعة بازكوح (٤)) .

ومن هذه العبارة يتضح أن هذا البرج قد أقيم فوق هذا الصف من الصخور التي تستخدم الآن كمحاجر ، ففى نهاية هذا الصف كوم عظيم الارتفاع يشرف على جميع السهل الممتد أمامه . وليس ثمة شك فى أن هذا الكوم هو الكوم الأحمر ، إذ أنه يقع على البعد المحدد له من جامع المقس . ومن ثم فإن المقريزى يكون قد خلط بين كومين يعرفان بالاسم نفسه .

وكيفما كان الأمر ، فقد كان هناك برج على مقربة من باب القنطرة ، وإن موقع هذا البرج يتفق تماما مع موقع برج الكوم الأحمر كما حددته ، وهذا ما أستطيع أن أجزم به .

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ١٥٩ ، س ١ .

(٢) الخطط ، الجزء الأول ، ص ١٦١ ، س ٦ .

(٣) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٤٧ ، س ٣٧ .

(٤) النجوم الزاهرة ، طبعة Juyn Boll ، الجزء الثانى ص ٤١٤ .
— (هذا النص لم يرد فى النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، الجزء السادس ، الذى يتضمن الحديث عن عهد صلاح الدين) .

الفصل الرابع

ملخص الفصلين السابقين

لقد كان لزاما على — نظراً لوجود بعض الثغرات والمتناقضات — أن أخوض هذه المناقشة فى الفصلين السابقين ، غير أن النتائج التى توصلت إليها ربما أحاط بها بعض الغموض والإبهام ، ولذلك أرى من واجبى تلخيصها (فى هذا الفصل) حتى تصبح أكثر وضوحا .

فالسور الأول الذى بناه جوهر (فى عام ٣٥٩ هـ) كان من الطوب النيء ، وقد اختفى ولم يعد له أى وجود وقت أن زارناصرى خسرو مصر . والمقريزى الذى يذكر أن هذا السور كان مبنيا بالطوب النيء ، يعود فيذكر أنه رأى قطعة كبيرة منه مبنية بالطوب اللبن ، وهذا هو أول المتناقضات . وكان بهذا السور بالجهة الجنوبية بابا زويلة ، وبالجهة الغربية باب الفرج وباب سعادة ثم أضيف إليهما فيما بعد باب القنطرة وباب الخوخة ، وبالجهة الشمالية باب الفتوح وباب النصر ، وبالجهة الشرقية باب البرقية وباب القراطين الذى عرف فيما بعد بالباب المحروق .

وأما السور الثانى ، سور بدر الجمالى (فى عام ٤٨٠ هـ) فكان من الطوب اللبن وكانت أبوابه فقط من الحجر . والمقريزى نفسه الذى يحدثنا بهذا ، يدعى أنه قد أدرك قطعة من هذا السور من الحجر ، وهذا هو ثانى المتناقضات . وأبواب هذا السور هى الأبواب نفسها التى كانت بالسور الأول ، وكل ما فى الأمر أن كلا من باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر قد تغير مكانه عن موضعه الأول .

والسور الثالث ، سور صلاح الدين (فى عام ٥٦٦ هـ) كان مبنيا من الحجر ، ولم يكن هذا السور — فى حقيقة الأمر — سوى مجرد ترميم للسور الثانى .

وأما السور الرابع ، سور صلاح الدين أيضا (فى عام ٥٧٢ هـ) فكان مخططه يختلف تمام الاختلاف عن السور السابق ، وكان يتكون من أربعة أقسام واضحة وهى :

أولا— السور الغربى ممتدا بحذاء النيل من برج المقس إلى الكوم الأحمر ، وهذا الجانب لم يتهيأ بناؤه أبدا ، وكان من المقدر أن يكون طوله حوالى سبعة كيلو مترات .

ثانيا — السور الشمالى والشرقى ويتضمن جانبا من السور القديم بأبراجه وبدناته والأبواب التالية : باب البحر وباب الشعرية ، وباب الفتوح وباب النصر فى موضعهما القديم ، وباب البرقية بعد أن تغير موضعه ، وباب القراطين (الباب المحروق) بعد أن تغير موضعه أيضا ، والباب الجديد أو الحديد ، وباب الوزير . وقد اكتمل بناء هذا السور فيما عدا قطعة منه عند طرفه المجاور للقلعة ، وبلغ امتداده زهاء خمسة كيلو مترات

ونصف . ولا يزال باقيا من هذا السور بعض المعالم والأطلال ذات الأهمية الكبرى ؛ وهى التى سيقدم لنا هرز HERZ فى نهاية هذا العدد (١) وصفا مفصلا عنها .

ثالثا– السور الجنوبى الذى يصل القلعة بالكوم الأحمر ، والذى يتم به اقفال حلقة الدفاع التى تدور حول القاهرة والفسطاط . وبهذا السور الجنوبى : باب القرافة ، وباب الصفا ، وباب مصر ، وباب القنطرة (بمصر) . وليس فى إمكاننا أن نعرف إذا كان هذا السور قد تم بناؤه أم لا ، وكل ما يمكننا قوله – فى هذا الصدد – أن البابين الأخيرين به قد بنيا ، وأن بعض أجزاء من هذا السور لا تزال باقية حتى الآن . (٢)

فالمقريزى يؤكد أن هذا السور قد تم بناؤه ، إلا أنه يعود فى مواضع أخرى من خططه فيذكر أن وفاة قراقوش حالت بينه وبين أن يصل القلعة بالفسطاط ، وهذا هو ثالث المتناقضات . وكان مقدرا لهذا السور أن يبلغ امتداده كيلو مترين .

رابعا – القلعة وهى الموضوع الرئيسى فى دراستنا هذه .

هذا وقد خلط المقريزى بين مخطط بناء السور فى عام ٥٦٦ هـ ومخطط بنائه فى عام ٥٧٢ هـ – وهذا الخلط أدى به إلى أن يؤرخ أحيانا بناء القلعة فى عام ٥٦٦ هـ ، وأحيانا أخرى فى عام ٥٧٢ هـ ، وهذا هو رابع المتناقضات .

وهكذا تكون قد اتضحت لنا معالم السور فى جميع أجزائه ، فيما عدا نقطة واحدة منه . وبالاضافة إلى هذا فإن المقريزى يذكر أن الكوم الأحمر يقع على بعد ٥,٦٦٨ من المتر من برج المقس ، غير أنه فى موضع آخر من خططه يحدد موقعه على بعد أقل من ٤٠٠٠ متر من هذا البرج ، وهذا هو خامس المتناقضات . وواضح – فيما يبدو لى – أن هذا الكوم يتعين أن يكون جنوبى مصر قريبا من باب القنطرة .

وبعد ، فهذه هى أسس إحياء معالم السور – وفقا للمخطط الكبير لبنائه فى عام ٥٧٢ هـ – أضعها أمام أعين القراء .

---

(١) (المقصود بذلك العدد هو Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire, T. VI. الذى نشرت به هذه الدراسة عن القلعة) .

(٢) (لاتزال توجد بعض أجزاء متقطعة من هذا السور تبدأ من مجرى العيون (عند انقطاعها نحو الشرق الى القلعة) ثم تتجه نحو الجنوب شرقى تلال عين الصيرة ، وشرقى الموقع القديم لمدينة الفسطاط ، ثم تميل الى الغرب حيث تنقطع أجزاء السور فى الجنوب الشرقى لقصر الشمع تجاه كوم غراب بمصر القديمة –انظر : –
– النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، الجزء السادس ، ص ١٧٧ .
– الدكتور عبد الرحمن زكى : قلعة الجبل ، ص ١٢٤ – ١٣٢ .

الفصل الخامس

موقع القلعة

إن السلسلة الجبلية الطويلة (سلسلة الجبال العربية) التى تمتد بحذاء النيل من جهته الشرقية أكثر من خمسمائة فرسخ تتوقف عند خط عرض ٣٠° تقريبا ، وهى بتوقفها عند هذه النقطة تترك نهر النيل يبلغ راحته فى الانبساط وسط سهول الدلتا الفسيحة . وعند السفح الشمالى لهذه السلسلة قامت مدينة من أقدم المدن المصرية ، ألا وهى مدينة «أونو» الشمالية (١) ، مدينة الشمس التى عرفها الاغريق باسم هليوبوليس، وعرفها العرب باسم عين شمس . وغير بعيد منها كان يوجد حصن بابليون ، وتجاهه على الضفة الأخرى للنيل كانت توجد مدينة منف .

وهذا الجانب من هذه السلسلة الجبلية يعرف بصفة عامة بجبل المقطم . وقد جاء فى ذكر سبب تسميته بهذا الاسم وما اشتهر به من قداسة روايات كثيرة ، واليك نصها : (قيل إنه عرف بالمقطم نسبة إلى مقطم بن مصرايم (بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام) . وقيل له جبل المقطم من أجل أن مقيطام الحكيم كان يعمل فيه الكيمياء فى غابر الزمان . وذكر العلماء أن المقطم مأخوذ من القطم وهو القطع (فكأنه لما كان منقطع الشجر والنبات سمى مقطما . والعرب المقيمون بمصر يحيطون جبل المقطم بهالة من القداسة ، وفى هذا الصدد يروون عدة روايات . ومن هذه الروايات أن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، سار فى سفح جبل المقطم ومعه المقوقس ، فقال له : ما لجبلكم هذا أقرع ليس به نبات كجبال الشام ، فلو شققنا فى أسفله نهراً من النيل وغرسناه نخلا . فقال المقوقس : وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر الجبال أشجاراً ونباتا وفاكهة وكان منزل المقطم بن مصرايم بن بيصر بن خاتم بن نوح عليه السلام، فلما كانت الليلة التى كلم الله فيها موسى عليه السلام أوحى الله إلى الجبال أنى مكلم نبيا من أنبيائى على جبل منكم فسمت الجبال كلها وتشامخت الا جبل بيت المقدس فانه هبط وتصاغر ، فأوحى الله اليه لم فعلت ذلك وهو به أخبر؟ ، فقال: اعظاما وإجلالا لك يارب . قال: فأمر الله سبحانه الجبال أن يحبوه كل جبل بما عليه من النبت ، فجاد له المقطم بكل ما عليه من النبت حتى بقى كما ترى ، فأوحى الله إليه انى معوضك على فعلك بشجر الجنة أو غراس الجنة . ومن هذه الروايات أيضا « أن المقوقس سأل عمرو بن العاص أن يبيعه سفح جبل المقطم وعرض عليه ، فى مقابل ذلك مبلغا كبيرا من المال ، فتعجب عمرو من ذلك وقال: أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين. فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه ، فكتب

---

(١) (هذه هى القراءة الصحيحة لاسم هذه المدينة المصرية القديمة ، وقد كتبها كازانوفا بالأصل الفرنسى لهذا الكتاب مدينة آن ـ An) .

إليه عمر : سله لم أعطاك به ما أعطاك وهى لاتزرع ولا يستنبط بها ماء . فسأله فقال : انا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة : فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب اليه : إنا لا نعلم غراس الجنة الا المؤمنين فأقبر بها من مات قبلك من المؤمنين ولا تبعه بشيء . ويقال : إن المقطم مقدس من القصير إلى الجبل الأحمر . (١))

وقد أطلق العرب على هذا الجبل عدة أسماء مختلفة ، فالشعبة التى تقع بأقصى طرفه الشمالى تعرف بالجبل الأحمر ، إذ أن لونه حقا له لون الحمرة . وأما الشرف الذى يمتد قليلا ما ناحية الغرب فهو الذى يعرف — على وجه التخصيص — بالجبل . وعلى هذا الشرف أقيمت القلعة ، ومن هنا كانت تسميتها بقلعة الجبل ، والشرف الذى يشرف على هذا الجبل ويتحكم فيه يعرف بالرصد ؛ وقد عرف بهذا الاسم منذ أن قام الوزير الأفضل (بن بدر الجمالى) ببناء مرصد فوقه(٢). وكان أبوه قد بنى بالقرب من الرصد جامعا نسب إليه وعرف بجامع أمير الجيوش ، أو على سبيل الاختصار جامع الجيوشى ؛ وأما الآن فيعرف هذا الجبل بجبل الجيوشى .

وعلى مسافة بعيدة توجد الشعبة المعروفة بجبل يشكر الذى أقيم فوقه جامع ابن طولون وقصر الكبش (٣) . وكان هذا الجبل— فيما سلف — يشرف على النيل وليس بينه وبين النيل شيء ، ويفصل بينه وبين الكتلة الصخرية التى تمتد بحذاء النيل إلى القرب من حلوان وموازية في الوقت نفسه للسلسلة الجبلية الرئيسية التى تعتبر جزءاً منها من الناحية الجيولوجية ، سهل فسيح كان فيما يبدو مجرى لنهر النيل فى عصور ما قبل التاريخ .

ويذكر المقريزى أن الفسطاط كانت تمتد حتى الرصد ، كما كانت الخواضر التالية لها ، وهى: العسكر والقطائع تمتد حتى سفح الجبل ، وأما القاهرة، رابعة هذه الحواضر، فقد امتدت كثيرا ناحية الشمال ولم تقترب من الجبل، وأصبح هذا الفضاء الذى تخلف فيما بينها وبين الجبل مملوءا بالمقابر. وقد احتوى سور القلعة على بعض هذه المقابر ، بل لا تزال إحداها موجودة بداخله كما سنرى فيما بعد .

ولنترك سياق الحديث إلى المقريزى الذى يمدنا ببعض التفاصيل التى تتصل بتاريخ الجبل قبل بناء القلعة (فوقه) .

(اعلم أن أول ما عرف فى خبر موضع قلعة الجبل أنه كان فيه قبة تعرف بقبة الهواء . قال أبوعمرو الكندى فى كتاب أمراء مصر : وابتنى حاتم بن هرثمة القبة التى تعرف بقبة الهواء ، وهو أول من ابتناها وولى مصر إلى أن صرف عنها فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومائة(٤) . قال: ثم مات عيسى بن منصور أمير مصر فى قبة الهوا (ء) بعد عزله لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين ومائتين . ولما قدم أمير

---

(١) P. RAVAISSE ,op. cit., 1ère Partie, p. 418.
(هذا الجزء الذى ينقله كازانوفا عن رافيس لا يعدو أن يكون ترجمة فرنسية لملخص الفصل المخصص عن جبل المقطم بالخطط ، الجزء الأول ، ص ١٢٣ — ١٢٥ . وقد رجعت الى هذا الفصل عند ارجاع هذه الترجمة الى الأصل العربى . كما اقتضت ضرورة المحافظة على روح النص وسلامته نقل عبارات المقريزى كما هى ، وعدم التقيد حرفيا بقيود الترجمة .)

(٢) انظر : C. DE PERCEVAL : Le Livre de la Grande Table Hakémite (Notices et Extraits des manuscrit, VII).

(٣) انظر : L'Egypte de Murtadi, fils du Gaphiphe, traduction de Pierre Vattier, Paris, 1656.
— (لم يرد بالأصل الفرنسى لكتاب كازانوفا الاسم الكامل لهذا الكتاب . ولما لم يكن هذا الكتاب واردا فى قائمة المراجع التى أوردها كازانوفا فى نهاية كتابه ، فقد أثرت كتابة اسم المؤلف وعنوان الكتاب) .

(٤) ولى هذا الأمير مصر فى شهر شوال سنة ١٩٤ هـ ، قارن ذلك بما ذكره أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة، طبعة Juyn Boll ، الجزء الأول ص ٥٥٠ .

المؤمنين المأمون إلى مصر فى سنة سبع عشرة ومائتين جلس بقبة الهواء هذه وكان بحضرته سعيد بن عفير. فقال المأمون: لعن الله فرعون حيث يقول: (أليس لى ملك مصر(١)) فلو رأى العراق وخصبها! فقال سعيد ابن عفير: يا أمير المؤمنين لاتقل هذا فإن الله عز وجل قال: (وَدَمَّرْنا ما كان يَصْنَعُ فرعون وقومُهُ وما كانوا يَعْرِشُونَ) (٢) فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله وهذا بقيته، ثم قال سعيد: لقد بلغنا أن أرضا لم تكن أعظم من مصر وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها ... ...)

(وفى قبة الهواء حبس المأمون الحارث بن مسكين.

قال الكندى فى كتاب الموالى: قدم المأمون مصر ... ... وحبسه فى رأس الجبل فى قبة ابن هرثمة ... ... ولما بنى أحمد بن طولون القصر والميدان تحت قبة الهواء هذه كان كثيرا ما يقيم فيها، فانها كانت تشرف على قصره، واعتنى بها الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وجعل لها الستور الجليلة والفرش العظيمة فى كل فصل ما يناسبه. فلما زالت دولة بنى طولون وخرب القصر والميدان كانت قبة الهواء مما خرب كما تقدم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب (٣) ثم عمل موضع قبة الهواء مقبرة وبنى فيها عدة مساجد. (٤))

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الفقرة الأخيرة من ذلك النص توضح لنا أنه يجب ألا نخلط بين قبة الهواء هذه وبين قبة أخرى تعرف بالاسم نفسه ورد ذكرها على لسان المقريزى فى حديثه عن مناظر الخلفاء الفاطميين (انظر الخطط، الجزء الأول، ص ٤٨١، س ٥، ٢٥ وما بعده).

وفى موضع آخر من خططه يحدثنا المقريزى أن قبة الهواء كانت فى سطح الجرف الذى عليه قلعة الجبل (٥). وهذا الوصف ينطبق تماما على الربوة التى تنصب عليها (الآن) مجموعة المدافع الموجهة ضد المدينة (٦). وأن الواقف حقا فى ذلك المكان ليجد نفسه مسحورا بروعة المنظر العام الممتد أمام ناظريه، ذلك المنظر الذى أثار خيال جميع الرحالة فخلدوا لنا وصفه فى كتاباتهم (٧).

---

(١) سورة الزخرف، آية رقم ٥١.

(٢) سورة الأعراف، آية رقم ١٣٧

(٣) الخطط الجزء الأول، ص ٣١٣ ـ قارن ما جاء فى الخطط عن القطائع بما ذكره كترمير فى كتابه Mémoires sur l'Egypte, II

(٤) الخطط، الجزء الثانى ص ٢٠٢.

(٥) الخطط، الجزء الأول، ص ٣١٣، س ٢٠.

(٦) (كانت هذه المدافع منصوبة فى هذا المكان وقت أن كانت قوات الاحتلال الانجليزية تعسكر بالقلعة، وقد تم جلاء القوات الانجليزية عنها وسلمت لقوات الجيش المصرى.)

(٧) ان جميع الذين قدر لهم الوقوف فى هذا المكان يتأملون السهل الفسيح الممتد أمام ناظريهم، لم يستطيعوا أن يكبحوا جماح مشاعرهم وأحاسيسهم المختلفة التى أخذت بروعة هذا المنظر. وها نحن قد سبق أن رأينا مدى تأثير ذلك على الخليفة المأمون، ومن الطريف أن نجد أن مثل هذا الشعور والاحساس الذى أحس به ماريت MARIETTE وهو واقف هناك، كان بمثابة (الوحى الذى انطلق به نحو) اكتشافه العظيم للسيرابيوم (وليس هناك أبلغ من أن ننقل الى القارىء ما ذكره ماريت فى هذا الصدد.)

(ان منظر القاهرة، من أعلى القلعة، لهو من أروع المناظر التى تخطر على البال. وهأنذا قد وجدت نفسى، غداة زيارتى للبطريرك، أقف فى هذا المكان أتمتع بهذا المنظر قبيل الغروب. هذه هى المدينة تمتد أمامى، وقد خيل الى كما لو أن غلالة كثيفة من الضباب تخيم عليها وتغرق فى بحرها جميع المنازل، من سمت الأرض الى ما فوق الأسقف. وفى خضم هذا البحر من الضباب الكثيف تعلو سامقة فى السماء ثلاثمائة من المآذن، كما لو أنها أشرعة أسطول ضخم تطفو فوق سطح الماء بعد أن غاصت سفنه فى قاع البحر. واذا ما جال المرء بنظره جهة الجنوب، يجد =

وبعد هذه المعلومات الموجزة للغاية — فى رأينا — عن قبة الهواء يعدد لنا المقريزى أسماء المساجد والترب التى كانت تشغل هذا المكان ، غير أن ذلك النص الذى يعدد فيه هذه الأسماء يبدو على درجة كبيرة من الغموض والإبهام ، ولذلك فإن الأمر يستوجب إثباته لنتناوله بالشرح والتفسير ، عسى أن نوفق فى إيضاحه .

يحدثنا المقريزى ، (قال الشريف محمد بن اسعد الجوانى النسابة فى كتابه « النقط فى الخطط والمساجد المبنية على الجبل المتصلة باليحاميم (١) المطلة على القاهرة المعزية التى فيها المسجد المعروف بسعد الدولة والترب التى هناك » . تحتوى القلعة التى بناها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجميع وهى التى نعتها بالقاهرة ، وبنيت هذه القلعة فى مدة يسيرة . وهذه المساجد هى مسجد سعد الدولة ، ومسجد معز الدولة والى مصر . ومسجد مقدم بن عليان من بنى بويه الديلمى ، ومسجد العدة بناه أحد الأستاذين الكبار المستنصرية وهو عدة الدولة وكان بعد مسجد معز الدولة ، ومسجد عبد الجبار بن عبد الرحمن بن شبل بن على رئيس الرؤساء وكافى الكفاه ، ... ... ، ومسجد قسطه ... ... وكان مسجده بعد شقيق الملك ، ومسجد الديلمى كان على قرنة الجبل المقابل للقلعة من شرقيها إلى البحرى وقبره قدام الباب ، وتربة ولخشى الأمير والد السلطان رضوان ... ... وكانت هذه التربة آخر الصف ، ومسجد شقيق الملك الأستاذ خسروان صاحب بيت المال ، أضيف إلى سور القلعة البحرى إلى الغرب قليلا ، ومسجد أمين الملك صارم الدولة مفلح صاحب المجلس الحافظى ، كان بعد مسجد القاضى أبى الحجاج المعروف بمسجد عبد الجبار وهو فى وسط القلعة ، وبعد تربة لاون أخى يانس ، ومسجد القاضى النبيه ... ...) (٢)

= على بعد بعيد منه ، غابات النخيل كما لو أن جذورها قد غاصت فى جدران مدينة منف (المتداعية) . واذا ما اتجه جهة المغرب ، يجد شفق الشمس وهى فى المغيب بحمرته وخيوطه الذهبية تلف الأهرامات وهى راسخة كالطود الشامخ . ياله من منظر رائع ، ملك على لبى وهز كل مشاعرى فى عنف لا يخلو من الألم . انى لأرجو القارىء أن يغفر لى تصوير هذه الأحاسيس والمشاعر التى ربما بدت شخصية بحتة ، فاذا كنت قد ألححت فى ذكرها فذلك لأن اللحظة كانت من اللحظات الحاسمة فى حياتى . فهأنذا أجد أمام ناظرى الجيزة ، وأبو صير ، وسقارة ، ودهشور ، وميت رهينة . انه حلم الحياة وهأنذا أراه قد تحقق الآن . هناك على مقربة منى وفى متناول يدى عالم آخر بكل ما فيه من مقابر ولوحات ونقوش وتماثيل .. ماذا أقول أكثر من هذا !! غداة ذلك اليوم استأجرت بغلتين أو ثلاثة (بغال) لحمل حقائبى ، وحمارا أو حمارين لأركبهما الى هناك . كما اشتريت خيمة وبعض الصناديق لملئها بما يلزم من مئونة وزاد . وموجز القول فقد أعددت كل ما يلزم لمثل هذه الرحلة فى الصحراء . وفى عصر يوم ٢٠ من اكتوبر كنت أعسكر (أنا والقافلة) عند سفح الهرم الأكبر (Le Sérapeum du Memphis, p. 4.)

— وبعد هذا الوصف هل لنا تعليق عليه أبلغ من هذه الاجابة الخطيرة لسعيد بن عفير على الخليفة المأمون (فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله هذا بقيته !)

(١) اليحاميم هى الجبل الأحمر . وفى طبعة بولاق توجد هذه العبارة « الجبل المتصلة باليحاميم » وصحتها (الجبل المتصل باليحاميم » كما وردت فى النسخة الخطية رقم ٦٨٢ بالمكتبة الأهلية بباريس .

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣ — قارن ذلك النص بالعبارة التالية (وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة فاشتملت القلعة عليها ودخلت فى الجملة) التى وردت على لسان عماد الدين فى الروضتين الجزء الأول ، ص ٢٦٨

— (لقد اختلط الأمر على المؤلف فى فهم العبارات الأولى من نص المقريزى ، ولاسيما العبارة التى تقول (تحتوى القلعة التى بناها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجميع) أى على جميع المساجد والترب التى يأتى ذكرها فى النص بعد ذلك . وقد أسقط من المتن الجزء المضطرب الذى حاول فيه المؤلف تفسير هذا اللبس . كما رأيت ، زيادة فى الايضاح ، اثبات النص كاملا حتى يتيسر للقارىء متابعة الشرح دون عناء) .

يتضح لنا من هذا النص أن مسجد سعد الدولة هو أول هذه المساجد (١) فاذا ما تذكرنا مشروع صلاح الدين لبناء السور فى عام ٥٧٢ هـ لأمكننا أن ندرك مدى الفائدة التى يمكنه أن يحققها إذا ما عرف قيمة هذا الموقع الدقيق لهذا المسجد، إذ أن موقعه يعتبر أفضل نقطة يمكن أن يتصل بها السور بالقلعة. ومع ذلك فهذا القول لا يعدو مجرد فرض لا يرقى إلى مرتبة الحقائق ، وذلك بسبب افتقارنا إلى النصوص المؤيدة .

وثانى هذه المساجد مسجد معز الدولة والى القاهرة ، ثم يليه مسجد عدة الدولة (انظر النص) .

ومن الملاحظ أن كلمة « بعد » هذه التى يتكرر ذكرها فى النص مجرد كلمة عامة لا تحدد المكان بالضبط. وكيفما كان الأمر فان كل ما يمكننا أن نفهمه بوجه عام من هذا النص هو أن معظم هذه المساجد كانت تقع على صف واحد ، وأن بعضها — مثل مسجد الديلمى على وجه التخصيص — كان يقع خارج هذا الصف. فالمقريزى فى تعداده لهذه المساجد يقول : (وكان مسجد سعد الدولة ، ومسجد معز الدولة ، ومسجد الديلمى ، ومسجد عدة الدولة بعد مسجد معز الدولة) ، ثم ينكر مسجد عبد الجبار ، وبعد ذلك بخمسة عشر سطرا يعود فيذكر أنه كان فى وسط القلعة قبل مسجد أمين الملك صارم الدولة ، وبعد هذا المسجد تأتى تربة لاون أخى يانس ، وبعدها مسجد القاضى النبيه . كما يذكر أن تربة ولخشى كانت آخر الصف .

وهكذا يمكننا — فيما يبدو لى — ترتيب موقع هذه المساجد فى صف واحد مستقيم على هذا النحو : — ،

١ — مسجد سعد الدولة .
٢ — مسجد معز الدولة .
٣ — مسجد عدة الدولة .
٤ — مسجد عبد الجبار (فى وسط القلعة)
٥ — مسجد أمين الملك .
٦ — تربة لاون
٧ — مسجد القاضى النبيه .
٨ — تربة ولخشى

وأما خارج هذا الصف فكان يوجد مسجد الديلمى الذى سبق أن أشرنا اليه ، وكان معه أيضا — أغلب الظن — مسجد قسطه ، ومسجد شقيق الملك . ومسجد الردينى الذى يضيفه المقريزى شخصيا إلى هذه القائمة .

فاذا فرضنا أن مسجد سعد الدولة كان يقع عند نقطة اتصال سور القاهرة بالقلعة ،أى فى الطرف الشمالى الغربى بالقلعة ، وأن الصف الذى كانت تقع عليه هذه المساجد والترب ، مارا بوسط القلعة ، كان يقطعها فى خط مستقيم من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، إذا فرضنا هذا فان تربة ولخشى (التى تقع فى آخر الصف) تكون بالطرف الجنوبى الشرقى .

وأيا كان الأمر ، يكفينا هذا القدر الآن . إذ طالما نحن عاجزون عن أن نحدد بصفة قاطعة موقع مسجد سعد الدولة — وهو أهم هذه المساجد — فإن الاستمرار فى هذه المناقشة لن يؤدى إلى نتيجة ذات بال .

---

(١) يتحدث المقريزى (الخطط ، الجزء الثانى ، ص ١١٤) عن شخص يدعى سعد الدولة كان واليا للقاهرة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، سادس الخلفاء الفاطميين • ومن المحتمل أن يكون سعد الدولة هذا هو الذى جاء ذكره فى هذا النص •

وأما بعض المساجد الأخرى فمن الممكن تحديد موقعها – أو على أقل تقدير – يمكن أن يكون تحديد موقعها قابلا للمناقشة. وفى مقدمة هذه المساجد مسجد قسطة ، إذ نحن على بينة تامة بالنسبة لموقعه، فلا يزال يوجد (بالقلعة) حتى الآن مسجد يعرف بمسجد سارية ، وقد رأيت داخل هذا المسجد قبوا ضخما يضم بعض الترب وبأعلى باب هذا القبو توجد رخامة نقش عليها النقش التالى : –

١ – بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ

٢ – فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا

٣ – بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ

٤ – وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

٥ – وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(١) أنشأ هذا المسجد المبارك الأمير

٦ – المرتضى المنصور مجد الخلافة عمدة الإمامة فخر الدين عز

٧ – المجاهدين ذى الفضيلتين خالصة أمير المؤمنين أبى المنصور قسطة

٨ – كان الله له وليا وحافظا وأثابه فى الآخرة جنات ورضوانا ابتغاء

٩ – مرضاة الله سبحانه وذلك فى رجب فى شهور سنة خمس وثلاثين وخمس مائة(٢)

وليس هناك ثمة شك فى أن هذا النقش هو النقش الأصلى لمسجد قسطة ، ولحسن الحظ فان الكاتب الذى ينقل عنه المقريزى سيرة هذا الأمير يمدنا ببعض التفاصيل عنه ، فيذكر أنه : « كان غلاما أرمنيا من غلمان المظفر بن أمير الجيوش مات مسموما من أكلة هريسة ، وقال الحافظ أبو الطاهر السلفى سمعت أبا منصور قسطة الأرمنى (٢) والى الاسكندرية ... ... (يروى الكاتب قصة لا تتصل بالموضوع) ، وكان قسطة هذا من عقلا(ء) الأمرا(ء) المائلين إلى العدل، المثابرين على مطالعة الكتب وأكثر ميله إلى التواريخ وسير المتقدمين.(٣)

من هذه المعلومات تعرف كنية « أبو منصور » التى عرف بها ، وهى الكنية نفسها التى توجد بالنقش ، كما نعرف منها – على وجه التقريب – الفترة التى عاش فيها . فالمظفر ، الذى كان أبو منصور غلاما له ، هو ابن بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر الشهير الذى بنى سور القاهرة الثانى. ويقدم لنا المقريزى أيضا (الخطط) الجزء الثانى ، ص (٤٨) سيرة المظفر هذا ، غير أنه لا يهمنا – فى هذا المجال – سوى تاريخ وفاته ، وهو : ٧ من جمادى الثانى ٥١٤ هـ .

---

(١) سورة النور آية رقم ٣٦ – ٣٨ .

(٢) لقد تفضل ماكس فان برشم – فى أوقات فراغه – باعادة النظر فى هذا النقش ، كما تمكن من أن يأخذ له صورة على الجبس ، وانى لمدين له بتصحيح قراءة السطرين : السابع والثامن اللذين لم أستطع قراءتهما بصورة واضحة تماما . فالخط الذى كتب به هذا النقش من أصعب الخطوط ، كما أن الأسلوب الذى كتبت به هذه الألقاب الفخرية أسلوب غير عادى . واذا كنت أعترف بعجزى أمام هذا النقش فان قدرة ماكس فان برشم على قراءته لتبرهن لنا على مدى الكفاية العلمية التى يتمتع بها صديقى العالم . وانه لما يسعدنى أن أعترف فى هذه المناسبة وفى مناسبات أخرى كثيرة بسماحته وبفضله العلمى الكبير .

(٣) « الأموى » كما تقرأ بالنسخة الخطية من السلوك رقم ٦٨٢ .

(٤) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٣ ، س ٧٢١ .

وأخيرا ، فلكى نكون على يقين — ما دام الأمر يتطلب ذلك — من أن مسجد سارية الحالى هو مسجد قسطة، علينا أن نلاحظ أن المسجد المجاور له ، وهو مسجد شقيق الملك ، (أضيف إلى سور القلعة البحرى إلى الغرب قليلا (١) . وإن مجرد النظرة إلى موقع جامع **Al-Charyeh** أى « السارية » على خريطة عام ١٧٩٨ (القلعة ، رقم ٣١) تكفى لكى تتأكد من أنه يقع بالقرب من السور البحرى الغربى وهو المكان الذى حدده له المقريزى . وبذلك نكون قد عرفنا — على وجه اليقين — موقع مسجد قسطة ، وموقع مسجد شقيق الملك على وجه التقريب .

وأما مسجد الديلمى فان تحديد موقعه ، ليس بالأمر اليسير . فقد سبق أن لاحظنا أنه كان يقع خارج الصف الذى تقع عليه بقية هذه المساجد. غير أن الكاتب الذى ينقل عنه المقريزى يذهب إلى أبعد من هذا ، إذ يقول فى وضوح : (ومسجد الديلمى كان على قرنة الجبل المقابل للقلعة من شرقيها إلى البحرى. (٢)) ومن المعروف أن الحافة البحرية للمقطم تمتد محاذية للجهة الشرقية للقلعة وتنتهى بنتوء بارز ، ويبدو أن هذا النتوء البارز هو قرنة الجبل الذى يتحدث الكاتب عنها. ولكن كيف نستطيع أن نوفق بين هذا الوصف وبين ماجاء فى ذلك النص الصريح ، الذى أثبتناه من قبل ، من أن جميع هذه المساجد كانت قائمة فوق مكان القلعة ذاتها ؟ وإننا إذا ما أخذنا بذلك الوصف الأخير فان مسجد الديلمى كان يقع حتما خارج القلعة .

غير أننا نتساءل — أولا وقبل كل شىء — ما مدى صحة « كلمة » « قرنة » الجبل التى وردت فى ذلك الوصف الموجود بالخطط طبعة بولاق ؟ إننا إذا مارجعنا إلى ذلك الوصف فى النسخة الخطية للخطط المحفوظة بالقسم العربى بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٦٨٢ (رقم ١٧٣٦ فى كتالوج دى سلين) نجد أن هذه الكلمة تقرأ « قرية » بدلا من « قرنة » — وإذا ما أسقطنا النقط من فوق حرف « القاف » فى هذه الكلمة فانها يمكن أن تقرأ « فرية ». غير أن النص ، فى كلتا الحالتين ، يفقد معناه . وإنما الأقرب إلى الصواب أن تقرأ هذه الكلمة « قربة » ، وفى هذه الحالة يزول ذلك التناقض الذى سبق أن أشرنا إليه . وهذا من الممكن أيضا أن نفترض سقوط بعض الكلمات سهوا من الناسخ (أو من المؤلف نفسه ، أثناء قيامه بنسخ هذه المخطوطة عن نسخة أخرى) وأن النص يجب أن يقرأ على النحو التالى (على قرنة الجبل (تجاه الجبل) المقابل ... ...) . إن أعظم النساخين عرضة لمثل هذا السهو ، وإنى لأميل إلى الأخذ بهذا الفرض كما لو أنه حقيقة . فاذا ما سلمنا بذلك ، فان مسجد الديلمى موضوع هذه المناقشة — كان قائما بأقصى الطرف البحرى للقلعة فوق ذلك النتوء البارز الذى يلحظ فى وضوح فيما بين برج الرملة وبرج الحداد (انظر خريطة القلعة فى عام ١٦٩٨) ، إذ أن شكل هذا النتوء ينطبق تماما على كلمة « قرنة » العجيبة التى وردت على لسان الكاتب .

فاذا ما انتهينا من ذلك فاننا نكون قد وصلنا إلى المسجد الذى يصفه المقريزى بنفسه : (قال مؤلفه ، رحمه الله ، وبالقلعة الآن مسجد الردينى ، وهو أبو الحسن على بن مرزوق بن عبد الله الردينى الفقيه المحدث المفسر . كان معاصرا لأبى عمرو عثمان بن مرزوق الحنفى ، وكان ينكر على أصحابه، وكانت كلمته مقبولة عند الملوك . وكان يأوى بمسجد سعد الدولة، ثم تحول منه إلى مسجد عرف بالردينى ، وهو الموجود الآن بداخل قلعة الجبل ... ... وفى هذا المسجد قبر يزعمون أنه قبره . وفى كتب المزارات بالقرافة أنه توفى ودفن بها فى سنة أربعين وخمسمائة بخط سارية شرقى تربة الكيروانى واشتهر قبره باجابة الدعاء عنده . (٣)) .

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٣ ، س ٨ — (فى المتن « الى المغرب » وصححتها « الى الغرب »)
(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٣ ، س ٩ .
(٣) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٣ ، س ١٧ .

ويبدو ان الاشارة إلى خط سارية فى وصف المقريزى لهذا المسجد جعلت على باشا مبارك يفكر فى احتمال وجود صلة ما بين مسجد الرديني ومسجد سارية الحالى . غير أن هذا المسجد الأخير لايقع البتة بمدخل القلعة ، وما سبق أن قلناه عن مسجد قسطة يعتبر فصل الحديث فى هذا الصدد . ولا يقل أهمية عن ذلك أن نلاحظ أن اسم « سارية » قد اقترن ذكره بجزء من أجزاء القلعة ؟. فكما سنرى فيما بعد فان أحد أبوابها يعرف بباب سارية . وحيث إن خط سارية كان يقع عند مدخل هذا الباب ، فليس هناك من شك فى أنه كان مجاورا تماما له . وبهذه المناسبة ، يجدر بنا أن نشير إلى ما يذكره لنا على باشا مبارك عن قصة سيدى سارية (الخطط التوفيقية ، الجزء الخامس . ص ١٤ . « جامع سيدى سارية) : وفى هذا يقول (وعد ابن جبير مشاهد الصحابة ، رضى الله عنهم ، التى بمصر فى رحلته فذكر فيها مشهد سارية الجبل ، رضى الله عنه . ولكن لم نر فى كتب التواريخ الصحيحة أن سيدنا سارية صاحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، جاء إلى مصر ، فضلا على أنه مات بها والذى وجدناه فى كتاب « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، نادى وهو يخطب على المنبر : يا سارية الجبل . الجبل من استرعى الذئب ظلم . فسأله على بن أبى طالب ؛ كرم الله وجهه ؛ عن سبب قوله ذلك . فقال : وهل كان منى ذلك ؟ قال : نعم . قال : وقع فى خلدى أن المشركين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم وأنهم يمرون بجبل ، فان عدلوا اليه قاتلوا من وجدوا وقد ظفروا ، وان جاوزوا هلكوا ، فخرج منى ماتزعم أنك سمعته . قال : فجاء البشير بالفتح بعد شهر ، فذكر أن سارية سمع فى ذلك اليوم فى تلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر رضى الله عنه : « ياسارية الجبل . الجبل » — وهو سارية بن زنيم بن عمرو بن عبد الله ابن جابر بن محميه ، ينتهى إلى كنانه ، وذكر قبله سارية بن أوفى الذى ... ...)

إنه من الجائز أن يقال إن قصة سيدى سارية قد اقترنت بالقلعة عن طريق التشابه فى الأسماء . فقد قال البعض فى روايته لهذه القصة « الجبل » ، وقال البعض الآخر فيما بعد « قلعة الجبل » ، وبما أن قصة سيدى سارية قد شاعت على الألسن ووقرت فى أذهان الناس بمصر بدرجة كبيرة للغاية ، فقد كان من الطبيعى أن توضع سارية الجبل على ما يعرف بالجبل . ثم أين كان يوجد مشهد سارية الجبل ، أو هذا المشهد المزعوم له ؟ نحن لا نعرف شيئا على وجه اليقين . وكيفما كان الأمر فانه من الملاحظ أن المقريزى الذى يحدثنا عن خط سارية ، وعن باب سارية ، يجهل تماما — فيما يبدو — هذه القصة .

وبعد ، فهذه هى كل ما أمكننى جمعه من معلومات عن المنطقة التى أقيمت القلعة فوقها .

والآن يحق لنا أن نتساءل لماذا اختار صلاح الدين هذه المنطقة ؟ لقد سبق أن رأينا ما قاله عماد الدين عن السور الذى أراد صلاح الدين أن يديره على مصر والقاهرة من الشاطىء إلى الشاطىء ، انه أراد بيناء القلعة فى الوسط (عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم) أن تكون بمثابة المفصل القوى الذى يشد هذه الأسوار بعضها ببعض ، أو بمثابة نقطة ارتكاز قوية فى هذه التحصينات وقد عاب عليه البعض (ومن هؤلاء مييه MAILLET وجومارد JOMARD وغيرهما) اختياره نقطة كهذه من الجبل تتحكم فيها نقطة أخرى لإقامة قلعته . ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن إقامة مثل هذه القلعة فوق قمة جبل المقطم لايعتبر معقلا منيعا فى ذلك العصر ، وذلك لأن هذه القلعة ستكون بعيدة كل البعد عن المنطقة السكنية المجاورة لها . ومنفصلة عنها تماما بحيث يصبح من العسير امدادها بالزاد والمؤن . ثم إن وجود مثل هذه القلعة على قمة المقطم يحتم احتلال الشرف المقابل لهذه القمة وتحصينه ، وإلا فان العدو المهاجم سيكون فى قدرته — إذا ما نجح فى السيطرة على هذا الشرف — أن يعزلها عزلا تاما . ولم يكن هذا بالأمر العسير ، فان مجرد حفر خندق عميق حول هذا الشرف ، ليفصله عن بقية أجزاء المقطم كان كافيا

فى ذلك الوقت لحل هذه المشكلة حلا بارعا ، وإذا ما سلمنا جدلا بنجاح الأعداء فى احتلال هذه القلعة ، فإذا يستطيعون أن يفعلوا وهم فوق جبل المقطم ، وهو على ما هو عليه من فقر وجدب ؟. إنحرارة الشمس الملتهبة واستحالة العثور على الماء سوف تشل حركتهم وتجعلهم فى حالة عجز تام . هذا فضلا على أنهم ، وهم فى هذا الوضع ، يكونون بعيدا جدا بحيث لا يمكنهم استخدام المكاحل الضعيفة فى ذلك العصر ضد هذه الأسوار الضخمة . فهل ينزلون من قمة الجبل إلى ما تحت السور؟. انهم سيعرضون أنفسهم ، إذا ما أخفقوا فى اختيار المنطقة الواقعة بين قمة الجبل والشرف المقابل لهم ، لمأزق رهيب قد يعرضهم لخطر الموت . وكيفما كان الأمر ، فان استخدام البارود أفقد جميع هذه الوسائل الدفاعية أهميتها ، غير أن ذلك لا يعنى أن نعتبر صلاح الدين مسئولا عن ذلك .

إن تأسيس المدن غالبا ما يرتبط بنشأة بعض القصص التى تحكى أسباب وظروف بنائها فى هذا الموقع أو ذاك ، ومن هذه القصص ما هو صحيح ومنها ما يفتقر إلى الصحة . وكذلك الأمر بالنسبة للقلعة ، ومن ثم فانه يجدر بى الاشارة إلى قصة بنائها . يقول المقريزى : (فيقال : إن السبب الذى دعاه إلى اختيار مكان قلعة الجبل أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة ، فعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين (١)

غير أن هذا السبب يفتقر إلى عنصر الأصالة ، فقد لاحظ المقريزى أن هناك مكانا أفضل من هذا المكان لبنائها به . إذ يقول فى موضع آخر من خططه (ويقال إن اللحم علّق بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة ، وعلّق بقلعة الجبل فتغير بعد يومين وليلتين ، وعلّق فى موضع الرصد فلم يتغير ثلاثة أيام ولياليها لطيب هوائها . (٢))

وأخيرا ، فلنذكر هذه الحكاية التى تروى — كما لو أنها أسطورة — عن بناء القلعة فى هذا المكان ، وهى التى يرويها المقريزى عن ابن عبد الظاهر ، ونقلها عنه مييه **MAILLET** فى كتابه : —

(قال ابن عبد الظاهر : وسمعت حكاية تحكى عن صلاح الدين أنه طلعها ومعه أخوه الملك العادل ، فلما رآها التفت إلى أخيه وقال : يا سيف الدين ، قد بنيت هذه القلعة لأولادك . فقال : يا خوند ، من الله عليك أنت وأولادك وأولاد أولادك بالدنيا ، فقال : ما فهمت ما قلت لك ، أنا نجيب ما يأتى لى أولاد نجباء وأنت غير نجيب فأولادك يكونون نجباء ، — فسكت (٣) .) ثم يعلق المقريزى على ما ذكره صلاح الدين من انتقال الملك عنه إلى أخيه وأولاد أخيه بأن ذلك ليس خاصا بدولته فقط ، ويذكر فى معرض التدليل بعض الأمثلة والتأملات عن مصائر الأسر الحاكمة المسلمة التى لم يقدر لمؤسسيها أن يورثوا ملكهم لأبنائهم من صلبهم ، وهذه التأملات والأمثلة ينسبها إلى نفسه فى جرأة وجسارة ، بينما هو ينقلها نصا وحرفا عن ابن الأثير .

ونحن لا يثيرنا فى هذه الحكاية سوى ذلك الطابع الحزين لذلك الشعور الذى أحس به صلاح الدين وهو فوق ذلك الشرف حيث تشكك المأمون — من قبل — فى مدى ملك مصر ولعن فرعون وهو جالس فى قبة الهواء ، وحيث تملك ماريبت **MARIETTE** هذا الشعور الفياض بالحماسة . فجميع هذه الأحاسيس المتباينة من ريبة وتشكك ،

---

(١) نقلا عن الخطط ، ترجمة سلفستر دى سساسى (عبد اللطيف البغدادى ، الافادة والاعتبار ، ص ٢١٠) . وبهذه المناسبة ، فاننا نلاحظ أن المستشرق اللامع الذكر قد التبس عليه الأمر حيث أشار الى مكان هذا النص بالنسخة الخطية للخطط رقم ٦٨٢ ، ورقة ٣٩٠ و ٣٩٢ ، وصححها ورقة ٤٠٥ و ٤٠٧ — انظر أيضا الخطط ، الجزء الثانى ص ٢٠٣ ، س ٣٦ .

(٢) نقلا عن الخطط ترجمة : CAUSSIN DE PERCEVAL, Le Livre de la Grande Table Hakémite (Notices et Extraits des manuscrits, III, p. 46).

— انظر أيضا الخطط ، الجزء الأول ، ص ١٢٨ ، س ١٥ .

(٣) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

ونشوة وحماسة ، وتحسر وحزن ، لتشهد بما لهذا الموقع الفريد من أثر عميق على جميع الرجال . فلم يحدث لانسان قط أتيحت له فرصة الوقوف على هذا الشرف أن خلا من مثل هذه الأحاسيس والمشاعر . وصلاح الدين لابد أن يكون قد تملكه هذا الشعور العميق بالأسى والحسرة الذى ينتاب عظماء الرجال من بناة الدول ، فيتساءلون وهم ينظرون إلى ماشيدوه من ملك ، عما إذا كان هذا الملك سيقدر له البقاء والخلود من بعدهم ، وعما إذا كان سيقدر لأبنائهم أن يرثوه من بعدهم . ليس ثمة شك فى أن كل هذه الأفكار قد طافت بخياله وهو يرى أرض مصر ، والمدينة الكبيرة –مدينة القاهرة – ممتدة أمام ناظريه وفى قبضة يده . ولا بد أن يكون قد أدرك فيما بينه وبين نفسه بأن أولاده ليسوا جديرين بأن يخلفوه فى هذا الملك ، وما إن حانت منه التفاتة نحو أخيه – الذى يعرف فيه علو الشأن والهمة – حتى تنبأ له بهذا الملك الذى ينتظره هو وأولاده من بعده ، إما بدافع الحسرة التى انتابته على الرغم منه ، أو بدافع هذا الاعتراف فى قرارة نفسه بمدى مقدرة أولاده من بعده .

وبعد ، فإنه يحق لنا أن نتساءل عما إذا كانت هذه الحكاية تروى حقا عن صلاح الدين فى ذلك الوقت . أم أنها نشأت فيما بعد ؛ أى بعد أن آل هذا الملك إلى أخيه وإلى أولاده من بعده فعلا . وأيا كان هذا الأمر فإنه يحلو لنا أن نعتقد أن صلاح الدين قد أخذ بروعة هذا المنظر الفريد ، وأن ماطاف بذهنه من أفكار كان مطبوعا بذلك الشعور الحزين الذى يتملك ذوى النفوس المرهفة الحس . وإننا لنجد – حقا – الكثير من أمثال هذه الشواهد فيما نعرفه عن سيرة هذه الشخصية الجذابة ، وما كانت تتصف به من اللطف ودماثة الخلق والتواضع الجم .

الفصل السادس

القلعة منذ صلاح الدين إلى الملك الكامل

(٥٧٢ - ٦٠٤ هـ)

لقد خصص المقريزى بضع صفحات من خططه لوصف القلعة (١) . وهأنذا أكرس جهدى ، بادىء ذى بدء ، لترجمة العبارات الرئيسية فى هذا الوصف وبعد ذلك سأحاول جاهداً إيضاحها ، وذلك فى ضوء مقارنتها ببعض النصوص الأخرى ، وبنتائج الفحص الدقيق الذى قمت به للأماكن التى ورد وصفها .

يقول المقريزى : (قال ابن سيّده فى كتاب المحكم : القلعة بتحريك القاف واللام والعين وفتحها هى الحصن الممتنع فى جبل ، وجمعها قلاع وقلع . وأقلعوا بهذه البلاد بنوها فجعلوها كالقلعة . وقيل القلْعة بسكون اللام حصن مشرف وجمعه قلوع (٢) . وهذه القلعة على قطعة من الجبل وهى تتصل بجبل المقطم وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة ، فتصير القاهرة فى الجهة البحرية منها ، ومدينة مصر والقرافة الكبرى وبركة الحبش فى الجهة القبلية الغربية ، والنيل الأعظم فى غربيها ، وجبل المقطم من ورائها فى الجهة الشرقية . وكان موضعها أولا يعرف بقبة الهواء ثم صار من تحته (٣) ميدان أحمد بن طولون ، ثم صار موضعها مقبرة فيها عدة مساجد إلى أن أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أول الملوك بديار مصر على يد الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة (٤) ، وصارت من بعده داراً للملك بديار مصر إلى يومنا هذا . وهى ثامن موضع صار دار المملكة بديار مصر ، وذلك أن دار الملك كانت أولا قبل الطوفان مدينة أمسوس ، ثم صار تخت الملك بعد الطوفان بمدينة منف إلى أن خربها بخت نصر . ثم لما ملك الاسكندر ابن فيليبس سار إلى مصر وجدد بناء الاسكندرية فصارت دار المملكة من حينئذ ، بعد مدينة منف ؛ الاسكندرية

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠١ – ٢٠٧ – قام سلفستردى ساسى بترجمة هذا النص فى ترجمته لرحلة عبد اللطيف البغدادى (ص ٢٠٩ وما يليها) ، وقد استفدت فائدة تامة من هذه الترجمة – (هذه الترجمة لنص المقريزى توجد بالأصل الفرنسى للكتاب – وقد رأيت الابقاء على عبارة المؤلف لأن سياق الكلام – فيما بعد – يقتضى ذلك) .

(٢) سميت مدن كثيرة بالقلعة ، ويكفينا فى ذلك أن نتذكر التسمية الأسبانية المعروفة Alcala

(٣) فى ترجمة سلفستر دى ساسى نجد « من فوقه » وهذا خطأ مطبعى واضح .

(٤) سنة ٥٦٢ هـ فى ترجمة سلفستر دى ساسى ، وهذا خطأ مطبعى آخر .

– وأما عن قراقوش ، فليس لدى ما أقوله سوى الاشارة الى البحث السابق المنشور فى هذا العدد نفسه (ص ٤٤٧ – ٤٥١) .

إلى أن جاء الله تعالى بالاسلام وقدم عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، بجيوش المسلمين إلى مصر وفتح الحصن واختط مدينة فسطاط مصر . فصارت دار الامارة من حينئذ بالفسطاط إلى أن زالت دولة بنى أمية وقدمت عساكر بنى العباس إلى مصر وبنوا فى ظاهر الفسطاط العسكر . فصار الأمراء من حينئذ تارة ينزلون فى العسكر ، وتارة فى الفسطاط إلى أن بنى أحمد بن طولون القصر والميدان وأنشأ القطائع بجانب العسكر . فصارت القطائع منازل الطولونية إلى أن زالت دولتهم (٢٩٢ هـ) ، فسكن الأمراء بعد زوال دولة بنى طولون بالعسكر إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب (بعساكر المعز لدين الله) وبنى القاهرة المعزية (٣٥٩ هـ). فصارت القاهرة من حينئذ دار الخلافة ومقر الامامة ومنزل الملك إلى أن انقضت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف ابن أيوب . فلما استبد بعدهم بأمر سلطنة مصر بنى قلعة الجبل هذه (ومات فسكنها من بعده الملك الكامل (١)) محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب واقتدى به من ملك مصر من بعده من أولاده إلى أن انقرضوا على يد مماليكهم البحرية وملكوا مصر من بعدهم فاستقروا بقلعة الجبل إلى يومنا هذا)

ثم يمدنا المقريزى بعد ذلك بالمعلومات التى جمعتها فى الفصل السابق عن موقع القلعة ، التى رأيت أن المنطق وطبيعة البحث يقتضى تقديمها على هذه الدراسة المباشرة للقلعة . ومن ثم فلا داعى للحديث عنها مرة أخرى .

وهذا النص الذى أثبته فى بداية هذا الفصل لايضيف جديداً قط إلى معلوماتنا عن القلعة ، وكل ما فى الأمر أنه يلخص لنا فى دقة متناهية كل ما سبق لى قوله عنها . غير أنه يجدر بى أن أثير انتباه القارىء — على وجه التخصيص — إلى هذه العبارة قبل الأخيرة التى وردت به وهى (ومات فسكنها من بعده الملك الكامل) . فقد اعتقد البعض ، استنادا الى الترجمة التى قام بها سلفستر دى ساسى لهذا النص، أن صلاح الدين قد سكن القلعة ، وهو اعتقاد خاطىء سأحاول إثباته فيما يلى بالوثائق المختلفة .

ويأتى فى مقدمة هذه الوثائق ، ذلك النقش الذى عثرت عليه بالقلعة فوق باب مسدود « (الآن) بجدار حديث البناء . وليس ثمة شك فى أن هذا الباب كان الباب الرئيسى للقلعة : أى باب سارية كما سأثبت ذلك فيما بعد . (٢)

وإلى القارىء نص هذا النقش : —

١ — بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرحيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا

٢ — تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا

٣ — وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا(٣) أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة الجوارة المحروسة

---

(١) لقد قام سلفستر دى ساسى بهذه الترجمة نقلا عن نص تشوبه بعض الأخطاء . وهذا النص فى هذا الموضع بالذات غير صحيح البتة ، وصحته كما جاء بين الحاصرتين نقلا عن الخطط ، طبعة بولاق والنسخة الخطية بالقسم العربى بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٦٨٢ ، ورقة ٤٠٦ أ .

(٢) كان مهرن MEHREN (Câhirat og Kerâfat, p. 8) أول من اكتشف هذا النقش وقرأه ، غير أنه يجدر بنا أن ننوه هنا أن هذا الأستاذ العالم ، على الرغم من منزلته العلمية الكبيرة ومن قدرته التى لا تبارى فى قراءة النقوش العربية الصعبة ، فانه لم يوفق تماما فى قراءة الجزء الثانى من هذا النقش . هذا وقد قمت شخصيا باعادة قراءة الجزء التاريخى منه — وهو أهمها — قراءة صحيحة مؤكدة ، وأما بعض النقاط المشكوك فى صحتها فسأناقشها فيما بعد .

(٣) سورة الفتح ، آية رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، — هذه الآيات القرآنية مناسبة للمقام ، وقد نزلت على الرسول بعد فتح مكة ، وظل جميع الفاتحين المسلمين يستشهدون بها ويتبركون بها .

— القاهرة بالعرمة (١) (؟) التى جمعت نفعا وتحسنا وسعة على من التجى الى ظل

٥ — ملكه وتحصنا (٢) (؟) مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين (٣) أبو

٦ — المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى

٧ — عهده الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد خليل أمير المؤمنين

٨ — على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكى

٩ — الناصرى (٤) فى سنة تسع وسبعين وخمس مائة .

إن تاريخ هذا النقش يثبت أن القلعة — أو على أقل تقدير — الجانب الأكبر منها لم يتم بناؤه إلا فى عام ٥٧٩هـ. هذا ومن المعروف أن صلاح الدين غادر مصر إلى (الشام) فى عام ٥٧٨ هـ . ولم يقدر له أن يعود منها (٥) . ومن ثم فإن القول بأن القلعة كانت صالحة لتكون سكنا له قبل ذلك التاريخ أمر قليل الاحتمال .

فابن عبد الظاهر يذكر لنا — نقلا عن والده — هذه العبارة التى نقلها المقريزى بدوره عنه . قال : (كنا نطلع إليها ، يعنى إلى المساجد التى كانت موضع قلعة الجبل قبل أن تسكن فى ليالى الجمع نبيت متفرجين .)(٦) فهذه العبارة ، إن دلت على شىء ، فانما تدل على أن القلعة لم تكن قد سكنت فترة من الزمن ، وواضح أن هذه الفترة كانت قبل سنة ٥٧٩ هـ .

وأما الاحتمال الثانى ، احتمال سكناها قبل ذلك التاريخ ، فانه سيسمح لنا باختيار بعض النصوص التى جاءت على لسان المقريزى فى هذا الصدد ثم مقارنتها بعضها ببعض ، وذلك على الرغم من أن المقريزى — كعادته التى يؤسف لها — يناقض نفسه نوعا ما . وإلى القارىء هذه النصوص أولا : —

١ — (وصارت القاهرة دار خلافة ... ... ، فسكنها من بعدهم السلطان صلاح الدين يوسف بن

---

(١) كلمة « العرمة » — كما يجب أن تقرأ — تعنى الجسر أو الحاجز الذى يعترض السبيل .

(٢) هذه العبارة المسجوعة بألفاظها ومترادفاتها الجزيلة (تحصنا ، تحسنا ، القاهرة ، الباهرة) تذكرنا من غير شك بأسلوب عماد الدين كاتب صلاح الدين ومؤرخ سيرته ، ولذلك فانى أميل الى الاعتقاد بأنه هو الذى حرر صيغة هذا النقش . وليس ثمة شك فى أن من مهام وظيفته — على وجه التخصيص — تحرير صيغة النقوش ، شأنها فى ذلك شأن الأوامر والمكاتبات السلطانية . هذا ومن المحتمل أن يكون القاضى الفاضل الذى عرف ، كعماد الدين ، بطول الباع فى صناعة الانشاء هو الذى حرر صيغته .

(٣) هذه الألقاب المختلفة التى تنتهى بكلمة « الدين » يقترن ذكرها — فيما يبدو — بأسماء الملوك والسلاطين القائمين بالحكم . فلقب « صلاح الدنيا والدين » يعنى حرفيا أن صاحبه تمتع بالسلطتين : الزمنية والروحية . وأما الملك العادل الذى جاء ذكره بالنقش بعد صلاح الدين ، فيلقب باللقب البسيط « سيف الدين » ، غير أنه على قطع النقود التى سكت باسمه (بعد سلطنته) نجده يلقب « سيف الدنيا والدين » . وقياسا على ذلك فاننا نلاحظ أن قراقوش ، وهو الشخصية التالية لهما فى هذا النقش ، لم يلقب بلقبه المعروف « بهاء الدين » . ويبدو أن تحرير هذه النقوش ، كما هو الحال فى الأوامر والمكاتبات السلطانية ، يخضع لقواعد ونظم معينة فى صناعة الانشاء . ومما يؤيد هذا الرأى أن ذلك النقش قد حرر صيغته أحد الكتاب الذين على صلة وثيقة بالبلاط السلطانى وبنظم العمل به .

(٤) جميع مماليك الأسرتين : الأيوبية والمملوكية تقترن أسماؤهم بذكر النسبة الى الأمير الذى ينسب اليه كل منهم — انظر فى هذا الصدد البحث الذى سبقت الاشارة اليه لفان برشم

VAN BERCHEM, Eine Arabtsche Inschrift aus dem Ostjordanlande.

(٥) قارن ما جاء فى أقوال المؤرخين عن حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

(انظر السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٧٧ — ٨٠) .

(٦) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٣ .

أيوب ، وابنه الملك العزيز عثمان ، وابنه الملك المنصور محمد ، ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، وابنه الملك الكامل محمد وانتقل من القاهرة إلى قلعة الجبل فسكنها بحرمه وخواصه وسكنها الملوك من بعده إلى يومنا هذا (١))

٢ — (ونزل السلطان فى دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل فكان السلطان صلاح الدين يتردد إليها ويقيم بها ، وكذلك ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر . فلما كان الملك الكامل تحول من دار الوزارة إلى القلعة وسكنها . (٢))

٣ — (فاستقر سكن الملك الكامل بقلعة الجبل) .

٤ — (... ... سكنوا بدار الوزارة ... ... فاستقر بها السلطان صلاح الدين وابنه من بعده الملك العزيز عثمان، ثم ابنه الملك المنصور ، ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، ثم ابنه الملك الكامل ، وصاروا يسمونها الدار السلطانية . وأول من انتقل منها من الملوك وسكن بالقلعة الملك الكامل . (٣))

٥ — (انتقل الملك الكامل محمد بن العادل بن أبى بكر بن أيوب من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل (٤) .)

٦ — وكان سبب بنائها أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما أزال الدولة الفاطمية فى مصر واستبد بالأمر لم يتحول من دار الوزارة بالقاهرة ، ولم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر ومن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى سلطان الشام ، رحمة الله عليه . فامتنع أولا من نور الدين بأن سير أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب فى سنة تسع وستين وخمسمائة إلى بلاد اليمن لتصير له مملكة تعصمه من نور الدين ، فاستولى شمس الدولة على ممالك اليمن . وكفى الله تعالى صلاح الدين أمر نور الدين ومات فى تلك السنة فخلا له الجو وأمن جانبه وأحب أن يجعل لنفسه معقلا بمصر . فإنه كان قد قسم القصرين بين أمرائه وأنزلهم فيهما (٥) ... ... وقصد أن يجعل السور يحيط بالقاهرة والقلعة ومصر فمات السلطان قبل أن يتم الغرض من السور والقلعة ، فأهمل العمل إلى أن كانت سلطنة الملك. (العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب اسكن ابنه الملك) الكامل فى قلعة الجبل واستنابه فى مملكة مصر وجعله ولى عهده، فأتم بناء القلعة وأنشأ بها الآدر السلطانية ، وذلك فى سنة أربع وستمائة . وما برح يسكنها حتى مات فاستمرت من بعده دار مملكة مصر إلى يومنا هذا . وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يقيم بها أياما، وسكنها الملك العزيز عثمان فى أيام أبيه ، ثم انتقل منها إلى دار الوزارة (٦) .

وأخيرا ، إليك هذا النص الذى جاء على لسان مؤرخ آخر موثوق به :

(وفى أيامه (الملك العادل) انتقلت السلطنة من دار الوزارة بالدرب الأصفر إلى قلعة الجبل فى سنة أربع وستمائة ، وأول من سكنها الملك الكامل نائبا عن أبيه . (٧))

---

(١) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٤٨ ، س ٥ .

(٢) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٦٤ ، س ٣٥ .

(٣) المرجع نفسه والجزء ، ص ٤٣٨ ، س ١٩ .

(٤) المرجع نفسه والجزء والصفحة ٤٣٨ ، س ٢٤ .

(٥) المرجع نفسه والجزء ، ص ٤٩٧ ، س ٨ .

(٦) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٣ ، س ٢٤ ـ العبارة التى جاءت بين الحاصرتين توجد بالنسخة الخطية للخطط بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٦٨٢ ، ورقة ٤٠٧ أ.

(٧) البكرى الصديقى : الكواكب السايرة فى أخبار مصر والقاهرة ، مخطوطة ملك بعثة الآثار الغرنسية بالقاهرة (التى يعتمد عليها كازانوفا) ، ورقة ١٤ ب .

من كل هذه النصوص ، يمكنني أن أستنتج بأن القلعة لم يسكنها أحد ، بل لم تكن صالحة للسكنى قبل الملك الكامل ؛ وأن صلاح الدين وخلفاءه (حتى الملك الكامل) كانوا يسكنون دار الوزارة دون غيرها (١) ؛ وأن صلاح الدين كان ينوى أن يقيم بها وأنه طالما تردد عليها لمتابعة سير البناء (٢) ، غير أن القلعة لم يكن قد كمل بناؤها عندما أدركته الوفاة — أو على أقل تقدير — عندما غادر مصر (إلى الشام) ؛ وأن الملك الكامل هو الذى بنى أول المنشآت السكنية بها وأكمل خطة عمه . وموجز القول ، فإن ما قام به صلاح الدين يقتصر فقط على بناء السور الرئيسى (وسأوضح فيما بعد ما الذى أقصده بهذه الكلمة) ، وإنشاء البئر المشهورة ببئر يوسف التى سأتحدث عنها فيما بعد . والتى جاءت الاشارة إليها لأول مرة على لسان عبد اللطيف البغدادى أحد معاصرى صلاح الدين .

وقبل أن ننتقل إلى الدراسة المباشرة لما تبقى من القلعة مما ينسب إلى صلاح الدين يجب علينا — لكيلا نعود إلى ذلك فيما بعد — أن نبادر أولا بأن نزيل بصورة قاطعة ما وقر فى الأذهان من لبس حول قصة سيدنا يوسف التى يقترن ذكرها بعدة مواضع بالقلعة . ومصدر هذا اللبس أن هذه المواضع تسمى باسم يوسف . فهل سيدنا يوسف هوالمقصود بهذه التسمية أم أنها على سبيل الذكرى لاسم صلاح الدين (يوسف) . إن التأويل الأول ، وهو ماكان مقبولا وسائغا بصفة عامة فيما مضى ، قد استبعده سلفستر دى ساسى ؛ وأما التأويل الثانى فهو الذى يميل الناس إلى الأخذ به فى هذه الأيام . غير أنى أرى أن التأويل الأول مقبول وجدير بالتصديق ، وذلك لا لأنى أعتقد فى صحة هذه الأسطورة (فهذا لا فائدة من الكلام فيه) ، — وانما لأنى أؤكد أن الأسطورة ترتبط بسيدنا يوسف ، وأنه لم يكن لها أية صلة قط باسم صلاح الدين .

وأول الأدلة على ذلك ، هو أن هذا الأسلوب فى تسمية منشآت صلاح الدين باسمه الشخصى يعتبر فريداً فى بابه . إن إطلاق صفة من صفاته مثل « الصلاحى » أو « الناصرى » المشتقة من ألقابه « صلاح الدين » أو « الملك الناصر » أمر يمكن فهمه إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أساليب اللغة العربية فى التعبير . ولست أعرف — فيما أعتقد — أى أثر آخر يسمى بالاسم الشخصى لمنشئه (٣) — وثانى هذه الأدلة ، هو أنه من الطريف حقا أن نقرر مع ابن خلكان أن صلاح الدين بنى عدة مدارس ليس فيها شىء منسوب إليه فى الظاهر (٤) — وأما ثالث هذه

---

(١) عن هذه الدار انظر : P. RAVAISSE, op. cit., Plans et Texte

(٢) هذا هو تفسيرى لتعبير المقريزى « يقيم بها » وهو مقابل — فيما يبدو لكلمة « سكنها » .

(٣) ربما يعترض البعض على ذلك بأن مسجد السلطان الملك الناصر حسن بالقاهرة يعرف باسمه الشخصى . لكن يرد على هذا الاعتراض بأن هذا السلطان ورد ذكره دائما على لسان المؤرخين باسم « السلطان حسن » . وأما فى حالة صلاح الدين فلا أعتقد أنه ورد ذكره فى كتب التاريخ باسم « السلطان يوسف »

(٤) Hist. Or. des Croisades III, p. 429. — Cf. traduction DE SLANE, IV, p. 548.

— (فيما يلى النص الكامل لابن خلكان ، رأيت اثباته زيادة فى الايضاح . وفى هذا يقول : « ولقد فكرت فى نفسى من أمور هذا الرجل وقلت انه سعيد فى الدنيا والآخرة. فانه فعل فى الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شىء منسوب اليه فى الظاهر . فان المدرسة التى بالقرافة ما تسميها الناس الا بالشافعى ، والمجاورة للمشهد لا يقولون أيضا الا المشهد ، والخانقاه لا يقولون الا سعيد السعداء . والمدرسة الحنفية لا يقولون أيضا الا مدرسة السيوفية . والتى بمصر لا يقولون الا مدرسة زين التجار ، والتى بمصر أيضا لا يقولون الا مدرسة المالكية . وهذه صدقة السر على الحقيقة . والعجب أن له بدمشق فى جوار البيمارستان النورى مدرسة يقال لها أيضا الصلاحية ، فهى منسوبة اليه وليس بها وقف ، وله بها مدرسة للمالكية أيضا ولا تعرف به. وهذه النعم من ألطاف الله تعالى به) .

الأدلة فهو أن أسطورة سيدنا يوسف ، وهى على هذه الدرجة القوية من الشيوع فى مصر ، قد علقت بكثير من الأماكن المجاورة للقلعة (١) .

وأخيرا ، فى وسعنا أن نحدد بصفة قاطعة تقريبا الفترة التى علق فيها اسم يوسف ببعض المنشآت بالقلعة . لقد كان الناس يقولون زمن الحملة الفرنسية بئر يوسف ، وديوان يوسف ، وبيت يوسف . هذا ومن جهة أخرى فإن كلا من المقريزى ، والبكرى الذى أشرت إليه منذ هنيهة ، لم يعرفا هذه الأسماء . فبئر يوسف تعرف لدى المقريزى « البئر التى بالقلعة » (٢) ، وتعرف لدى البكرى « بئر الحلزون » (٣) . وإنما كان مييّه **MAILLET** ، حوالى سنة ١٦٩٢ م ، هو أول من ذكرها منسوبة إلى يوسف . وبما أن كتاب البكرى يتوقف به مؤلفه عند حوادث سنة ١٠٦٢ هـ / ١٦٥٢ م فان قصة سيدنا يوسف — وهى حية من غير شك بأذهان المصريين منذ القدم — تكون قد أخذت تعلق بهذه المنشآت فى الفترة الواقعة بين عام ١٦٥٢ وعام ١٦٩٢ م (٤) . وأما بيت يوسف فليس شيئا آخر سوى القصر الأبلق ، كما سأوضح ذلك فيما بعد بإسهاب . وديوان يوسف ، الذى ينسبه كل من مييّه **MAILLET** وجومار **JOMARD** خطأ إلى صلاح الدين ، ليس فى حقيقة الأمر سوى «الديوان» أو «الإيوان» الذى يتكلم عنه البكرى دون أن يعرف — فيما يبدو — تسميته بهذا الاسم . وسنعود ، فيما بعد ، إلى الحديث عن هذه المسائل عند ما يحين الوقت والمكان المناسبان لذلك .

ولهذا كله ، فإنه يتضح لى أن قصة يوسف هى وحدها سبب هذه الظاهرة ؛ كما يجب علينا أن ننظر بعين الاعتبار — فى تفسير هذه الظاهرة — لذلك الرأى الصائب الذى قال به مييّه **MAILLET** والذى أراد أن يطبقه على جميع الآثار (التى لا يعرف اسم منشئها) ، إذ يقول : « إن التقديس العظيم الذى يكنه المصريون لذكرى هذا النبى العظيم لايزال حيا حتى اليوم فى قلوبهم ، لدرجة أن كل ما أبدعته يد الفن من منشآت عظيمة يفخر بها هذا البلد ، والتى لا يعرف أفراد الشعب أسماء منشئيها ، يجمعون على نسبتها اليه (٥) » . ومن ثم فان ما جاء فى كتاب وصف مصر من نسبة هذه المنشآت (بالقلعة) إلى صلاح الدين يعتبر خطأ فاحشا ، وعندما تحين لنا الفرصة لدراسة هذه المنشآت المنسوبة خطأ إليه ، لن يكون من العسير علينا دحض النتائج الفجة التى توصل إليها فان برشم فيما كتبه عن العمارة العربية فى مصر . وإنى لأعود فأكرر أنه لم يكن يوجد زمن صلاح الدين سوى السور الرئيسى للقلعة والبئر . فماذا نعنى بهذا السور الرئيسى ؟

إن أول ما يدور بخلد الناظر إلى المخطط العام للقلعة هى أنها تنقسم إلى سورين (أونطاقين) : أحدهما بالشمال

---

(١) قارن ذلك بما جاء فى الخطط ، الجزء الثانى . ص ٤٦٥ (بركة يوسف) ، ص ٤٦٨ (تابوت يوسف) الجزء الأول ، ص ٤٨٩ والجزء الثانى ص ١٦٩ (جب يوسف)، الجزء الأول ص ٣٤٧ (سوق يوسف) . كما جاء على لسان القزوينى (عجائب المخلوقات ، طبعة وستنفيلد ، ص ١٦٠) هذه العبارة (على باب الشعارين مسجد ذكر أن يوسف الصديق عليه السلام بيع هناك) . — وقارن ذلك بما ذكره فان برشم ، المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٤ ، س ٢٥ .

(٣) البكرى الصديقى ، المرجع السابق ، ورقة ١٤ أ — هذا اسم آخر من الأسماء التى عرفت به هذه البئر ، كما سنرى فيما بعد .

(٤) وقبل مييه بزمن طويل ، قال فرسكوبالدى FRESCO BALDI الذى زار مصر فى عام ١٣٨٤ م ، : « Nella cité del Cairo e di Babilonia abita il soldano. Il suo castello è appunto dove fu quello del rè faraone rè d'Egitto, e dove fu allatato Moyses ». Du nom de Pharaon à celui de Joseph, il n'y a qu'un pas, que la légende de à dú faci:ement franchtir.

(٥) MAILLET, Description de l'Egypte, p. 211

والثانى بالجنوب ، وكل منهما يختلف عن الآخر تمام الاختلاف . فأما السور الشمالى فهو عبارة عن مستطيل تدور عليه أبراج ضخمة ، ويفصل بينه وبين السور الجنوبى جدار سميك جداً تعلوه طرقات محصنة بالشرفات وبأبراج ضخمة . وأما السور الجنوبى فينفصل عن السور الشمالى على شكل زاوية قائمة ثم يدور فى غير انتظام . كما يبدو أن جدرانه — وفقا للمخطط الأصلى لبنائه — لم تكن محصنة بأية أبراج ، أو على أقل تقدير فى جزء كبير منها . ولكى يكون الأمر أكثر وضوحا ، إليك هذا الرسم التخطيطى لذلك الوضع . وذلك الوضع هو مايصفه المقريزى فى عبارات غامضة نوعا ما ، غير أن هذا الغموض سرعان ما يزول عندما يتحقق المرء من وصفه على الطبيعة . فنى هذا الصدد يقول : « وصِفَةُ قلعة الجبل أنها بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر بأبراج وبدنات حتى تنتهى إلى القصر الأبلق ، ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج القلاع (١) »

فمن هذا الوصف يتضح فى جلاء أن سور القلعة بأبراجه وبدناته بدلا من أن يدور حولها كلها فانه يتوقف عند الدور السلطانية ، وهو وضع غير طبيعى يهدم كلية وحدة القلعة . بل إنه لما يجدر الاشارة اليه أن هذا الوضع جاء مخالفا تماما للملاحظة التى تردد ذكرها كثيراً ، وهى أن القلعة كانت محصنة — على وجه التخصيص — ضد مدينة القاهرة . إن هذا ما حدث فعلا فيما بعد ، وإلى (اليوم) ما زلنا نجد المدافع موجهة ضد المدينة ، بل إن هذه المدافع نصبت — على وجه التحديد — مكان هذه الدور السلطانية (٢) . ويمكننا أن نؤكد أن القلعة ، فيما سلف ، لم تكن منيعة قوية إلا من الخارج ، وأن اقتحامها من جانب المدينة كان أمرا عسيرا للغاية وذلك بسبب المنشآت العديدة التى سنعددها فيما بعد ، وموجز القول : فيبدو لنا أن القلعة الحقيقية ليست سوى ذلك السور الشمالى ، فهو وحده العمل الحربى الذى يعتبر جزءاً متمما للمخطط الكبير لمشروع بناء الأسوار فى عام ٥٧٢ هـ . غير أن صلاح الدين ، بعد أن شغله توطيد مركزه فى مصر ، فكر فى أن يقيم فى حماية القلعة وأن يبنى قصره بجوارها ؛ فإذاحانت ساعة الخطر يمكنه أن يجد بالقلعة ملاذاً يعتصم به . إلا أن الملك الكامل هو الذى قدر له أن ينفذ ذلك المشروع ، وهو شيء آخر غير المشروع الأول (أى بناء القلعة فقط) .

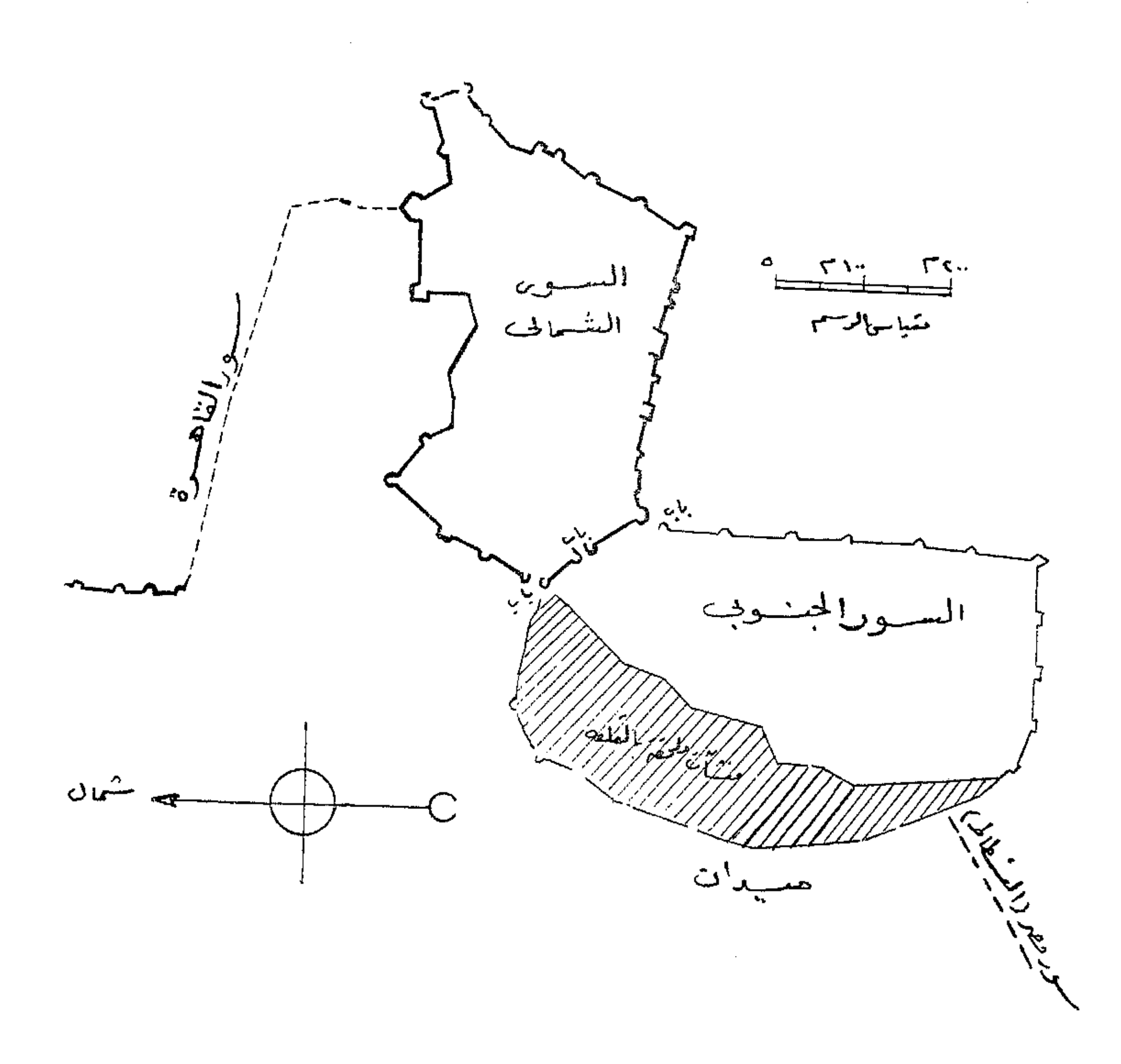
ومما يؤكد هذه النظرة أن المساحة الكلية للقلعة الحالية تفوق بدرجة ملحوظة المساحة التى قدرها لها عماد الدين . فهى حسب تقديره ٢١٠٣ أمتار (انظر من قبل) ، وهى — حسبما جاء فى كتاب وصف مصر — تبلغ ٣٠٠ متر . فاذا ما تذكرنا أن الرقم الذى قدره عماد الدين لمساحتها يشمل أيضاً مساحة الأبراج (وهى بالسور الشمالى كثيرة العدد وغالباً ما تكون متسعة جداً) فإن ذلك يجعلنا ننظر إلى السور الشمالى الذى تبلغ مساحته حوالى ١٨٠٠ متر باعتباره يمثل وحده السور الأصلى للقلعة .

بل إن هذا الوضع غير العادى يتضح تماماً إذا ما قورن ببعض النصوص الأخرى . ويتلخص هذا الوضع فى أن القلعة تتكون من قسمين : القسم الأول هو القلعة بمعناها الحقيقى (السور الشمالى) ، والقسم الثانى هو الذى أقيمت به الدور السلطانية ، وهو أشبه ما يكون بمدينة ملكية صغيرة (مثل فرساى) أو بوتسدام أقيمت فى حمى القلعة . وبذلك تتلاشى غرابة هذا الوضع إذا ما أعدنا رسم المخطط الأصلى للقلعة على هذا النحو .

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٤ ، س ٣٣ — بدلا من كلمة «القلاع» الأخيرة بهذا النص ، كما ورد بالنسخة الخطية للخطط رقم ٦٨٢ بالمكتبة الأهلية بباريس نجد بالخطط طبعة بولاق ، كلمة «الغلال» ، وهى كلمة لامعنى لها على الاطلاق فى هذا المجال — انظر أيضا ، فيما بعد ، وصف القلعة كما جاء على لسان شهاب الدين بن فضل الله العمرى (الفصل الحادى عشر) .

(٢) (نعود فنلفت نظر القارىء الى أن المؤلف يتكلم عن القلعة وقت أن كانت تحتلها قوات الاحتلال الانجليزى، وقد زال هذا الوضع منذ جلاء هذه القوات عنها) .


السور الشمالي
السور الجنوبي
سور القاهرة
سور مصر (الفسطاط)
باب
باب
باب
منشآت تخدم القلعة
ميدان
شمال
٥
١٠٠م
٢٠٠م
مقياس الرسم

وإذا كان هذا الأمر لايزال يقتضى أن نقدم دليلا آخر – فيما يختص بهذا الوضع – فإن هذا الدليل نجده على لسان المقريزى . فالمقريزى بعد أن ذكر للقلعة ما بين خمسة أو ستة أبواب يقول : « ويدخل إلى القلعة من بابين أحدهما (بابها الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له) الباب المدرّج ... ... والباب الثانى باب القرافة (١) وهذان البابان – كما سأوضح فيما بعد – يوجدان بالسور الشمالى . كما يجدر بنا أن نوضح أن هذا التناقض الجديد على لسان المقريزى له ما يبرره ، إذ جاء نتيجة للخلط بين السورين . وليس ثمة شك فى أن المقريزى قد نقل هذا النص عن أحد الكتّاب الذى لم يثر انتباهه سوى هذه العمارة العسكرية (القلعة بمعناها الحقيقى أو السور الشمالى) ، وبالتالى لم يكن هناك مايدعوه لأن يتكلم عن الأبواب الأخرى الموجودة بالمدينة الملكية .

بل أكثر من هذا ، فقد خطر لى أن أتحقق مما إذا كان هناك أى أثر لهذا التقسيم الواضح فى هذه التسمية المزدوجة للقلعة ؛ فهى تارة تسمى « قلعة الجبل » وتارة أخرى تسمى « القلعة » . فهل المقصود « بقلعة الجبل » القلعة ذاتها La Forteresse ، كما سبق أن رأينا فيما يختص بقلعة المقس ، وقلعة بازكوح وغيرها من القلاع ؟ وهل المقصود « بالقلعة » المدينة الملكية ؟ لقد سبق لى أن أوضحت أن كلمة « القلعة – Alcala » اسم لمدينة أسبانية . وكيفما كان الأمر فإنى أثبت هذا الرأى نظراً لقيمته ، وذلك على الرغم من أنى لم أتمكن من أن أجد أى أثر لهذا التحديد فيما قمت بجمعه من النصوص المختلفة التى ورد فيها هاتان التسميتان بخطط المقريزى وبعد مقارنتها بعضها ببعض . غير أنه لا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا اللبس الذى يحدث بسبب الخلط بين القسمين كان أمراً مفروغاً منه زمن المقريزى ، كما سبق أن رأينا . ولذلك فإن هذا التفسير الذى أثبته يظل له وجاهته ، هذا إن لم تكن قد ثبتت صحته بطريقة مباشرة . وكيفما كان الأمر ، فانه مع احتفاظى بهذا التفسير الذى لا أشك مطلقاً فى صحته ، فإنى سأتخذ هذا التقسيم الذى أشرت إليه كقاعدة تجنباً لأى لبس. ومن الآن فصاعداً سأقول قلعة الجبل La Citadelle de la Montagne عندما أعنى السور الأصلى (الشمالى) ، وسأقول القلعة al-Kala'at عندما أعنى المدينة الملكية (الدور السلطانية) ، والقلعة La Citadelle – حسب التعبير الحديث – عندما أعنى قلعة الجبل والمدينة معاً .

ولما كنت بصدد الكلام عن هذه التسميات المختلفة للقلعة ، فإنه يجدر بى أن أشير – فى كلمة عابرة – لما قاله فى وصف القلعة الشريف محمد بن أسعد (الجوّانى) الذى سبق ذكر اسمه ، إذ يقول : « ... ... القلعة التى بناها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ... ... وهى التى نعتها بالقاهرة (٢) » . فهذه هى العبارة الوحيدة – على قدر ما يصل إليه علمى – التى تصف القلعة بهذه الصفة. وإذا ماقابلنا بين هذه العبارة والنقش الذى ذكرناه من قبل (الخاص بانشاء القلعة والموجود فوق باب سارية) ، فإننا نجد أن القلعة وصفت فى ذلك النقش بهذه الصفة ، ولكن بألفاظ أخرى مشابهة ومترادفة تطلبتها – فيما يبدو – مقتضيات السجع وجزالة العبارة . غير أنه نظراً لافتقارنا إلى نصوص أخرى من هذا القبيل فإننا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا الحد ؛ هذا فضلا على أن وصف القلعة بمثل هذه الصفة لايعدو أن يكون ذا أهمية ثانوية .

وبعد ، فقد آن لنا أن ننتقل إلى صميم الموضوع ، ألا وهو قلعة الجبل ذاتها . يقول المقريزى :

« ويدخل إلى القلعة من بابين : أحدهما بابها الأعظم المواجه للقاهرة يقال له الباب المدرّج ، وبداخله

---

(١) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٤ .

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٢ ، س ٣٥ .

بجلس والى القلعة ومن خارجه تدق الخليلية قبل المغرب ؛ والباب الثانى باب القرافة . وبين البابين ساحة فسيحة فى جانبها بيوت ، وبجانبها القبلى سوق للمآكل (١) » .

وبعد ذلك بعدة أسطر يعود المقريزى إلى تكملة وصفه للباب الأول فيقول :

« باب الدرفيل — هذا الباب بجانبه خندق القلعة ، ويعرف أيضاً بباب المدرّج . وكان يعرف قديما بباب سارية ، ويتوصل إليه من تحت دار الضيافة وينتهى منه إلى القرافة (وهو) فيما بين سور القلعة والجبل(٢) . »

ولا يستوقفنا الآن من هذا النص سوى قوله : إن الباب الرئيسى للقلعة ،كان يعرف قديماً بباب سارية . وقد رأينا من قبل سبب تسميته بهذا الاسم . كما عرف هذا الباب أيضاً بباب الدرفيل ، وهو ما سأتناوله بالشرح فيما بعد . وأخيراً عرف هذا الباب —زمن المقريزى— بالباب المدرج . فمن أين جاءت تسميته بهذا الاسم الأخير؟ إن المقريزى لا يفسر لنا ذلك ، ومع ذلك ففى وسعنا أن ننوب عنه فى تفسير هذه التسمية . فكلمة « المدرّج » من الناحية اللغوية تعنى « الذى نحتت درجاته (٣) » . كما يحدثنا المؤرخون المصريون فى مناسبات عديدة عن سلم المدرّج الذى كانت تخرج منه المواكب المختلفة . وأخيراً ، فعلى مقربة من هذا الباب ، حيث عثرت على النقش الخاص بصلاح الدين ، اكتشفت وجود سلم (أشير إليه أيضاً على خريطة عام ١٧٩٨) ، وأن هذا السلم يؤدى إلى هذا الباب . ومن هذا يتضح أن الباب الذى يوجد أعلاه نقش صلاح الدين ، والذى يصعد إليه بسلم ، إنما هو فى حقيقة الأمر باب سارية أو باب المدرّج . فاذا كان لا يزال لدينا ظل من شك ، فان هذا الظل سرعان ما يختفى ويزول عند ما نقرأ على السور الذى يقع على مقربة من هذا الباب النقش الآتى : —

(أمر بتجديد هذا السلم المدرّج بباب القلعة الشريفة ... ... (٤)) . وبما أن موقع هذا الباب قد تحدد على أكمل وجه (٥) ، فسأنتقل إلى محاولة إيضاح نص المقريزى الذى عودنا دائماً مثل هذا الغموض فى أقواله . وقبل أن أبدأ هذه المحاولة يتعين على أن أوضح أننا إذا كنا سنعتمد على النص الذى ورد فى طبعة بولاق ؛ فاننا سنجد أنفسنا أمام حالة من الغموض المغلق ولهذا حذفت عامداً متعمداً فى ترجمتى الفرنسية لهذا النص الكلمة التى وضعت بين الحاصرتين والتى لم ترد بالنسخة الخطية رقم ٦٨٢ بالمكتبة الأهلية بباريس . فالنص ، كما ورد فى طبعة **بولاق** ، يختم وصفه لهذا الباب بهذه الجملة « وهو فيما بين سور القلعة والجبل » . غير أنه من الاستحالة بمكان أن يكون الباب الرئيسى لإحدى القلاع فيما بين سور هذه القلعة وجهة ما كيفما اتفق . ولهذا فضلت قراءة ذلك النص كما ورد بالنسخة الخطية رقم ٦٨٢ ، إذ أن إسقاط كلمة (وهو) يسمح لنا بأن نفهم أن الكلمات الأخيرة فى النص وهى (فيما بين سور القلعة والجبل) . تتعلق بالجزء الأخير من العبارة وليست بالباب نفسه (٦) .

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ص٢٠٤ ، س٣٤ — مصطلح «الخليلية» الذى ورد فى هذا النص ليس من السهل تفسيره فضلا على أهميته ، وأرجو أن تتاح لى الفرصة فيما بعد لشرحه — انظر فيما بعد .

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص٢٠٥ ، س١٥ —— ماجاء بين الحاصرتين سقط فى وصف هذا الباب بالنسخة الخطية للخطط رقم ٦٨٢ بالمكتبة الأهلية بباريس .

(٣) انظر شرح كلمة «المدرج» فى معجم الأدباء لياقوت (طبعة وستينفيلد ، الجزء الرابع ، ص٤٤٩) .

(٤) سأقدم النص الكامل لهذا النقش فى حينه .

(٥) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذا الباب انظر الدراسات المعمارية التى قام بها هرتز **HERTZ** .

(٦) وكيفما كان الأمر ، فانى سأعود الى الحديث عن هذه النقطة فيما بعد ، وأرجو آنذاك أن أكون اكثر توفيقا فى تفسير هذا التضارب .

وعلى الرغم من هذا التصحيح فلا يزال نص المقريزى يبدو لى غامضا . ولهذا أرجو القارىء أن يأذن لى بخوض هذه المناقشة ، التى قد تبدو طويلة مسهبة نوعاً ما ، ولكنها ضرورية للغاية .

فهناك ثلاث نقاط تثير انتباهنا حسبما يفهم من هذه النصوص السابقة ، وهى : —

١ — أن باب سارية (أو الباب المدرّج) كان قريبا لباب القرافة (طالما أنه لا يفصل بينهما سوى ساحة فسيحة) .

٢ — وأن هذا الباب ينتهى منه إلى القرافة .

٣ — وأن النقطة التى ينتهى منها إلى القرافة تقع فيما بين سور القلعة والجبل .

والآن نبحث هذه النقاط الثلاث : —

فإذا ما أراد المرء أن يذهب إلى القلعة فإنه يتعين عليه أن يدخل إليها — إذا كان قادماً من جهة القاهرة — فى باب يقع عند نقطة التقاء السورين : الشمالى والجنوبى . وإلى الغرب من السور الجنوبى توجد بعض المنشآت الملحقة التى تعتبر بمثابة نطاق ثالث ، وهى التى نتبينها على الرسم التوضيحى الذى قدمناه من قبل . وهذا النطاق الثالث يدخل إليه الآن ، إما من الجهة الجنوبية الغربية من باب يعرف بباب العزب ، أو من الجهة الشمالية الغربية فى باب أنشأه محمد على (وهو الباب الذى يعرف على خريطة جراند بك بالباب الجديد) . وقد كان هذا الباب ، زمن الحملة الفرنسية ، يقع فى مكان آخر غير هذا المكان .

وفى الحقيقة فإنه لا يوجد الآن سوى باب واحد ، وهو الباب الذى يقع عند نقطة التقاء السورين . وهذا الباب يقع على مسافة غير بعيدة من باب سارية ، أو على وجه الدقة ، على مقربة من الدرجات الأولى للسلم الذى يؤدى إلى هذا الباب . ففى هذا المكان يوجد مدخل القلعة الموجّه للقاهرة .

ولكن إذا ما أردنا الخروج من القلعة إلى الصحراء — أو حسب تعبير المقريزى — الى الجهة فيما بين سور القلعة والجبل (المقطم) ، فاننا نخرج من باب يقع عند نقطة الالتقاء الثانية للسورين : الشمالى والجنوبى . وعلى الرغم من أن هذا الباب قد تغير مكانه منذ عهد الحملة الفرنسية على مصر ، إلا أنه واضح أنه يعتبر مقابلا ومناظراً للمدخل الرئيسى للقلعة . فالمنطقة التى ينتهى إليها هذا الباب هى جانب من المقبرة الكبيرة لمدينة القاهرة ، التى تعرف فى مجموعها بالقرافة وتقسمها القلعة بحكم موقعها إلى قسمين : القرافة الصغرى إلى الشمال (١) ، والقرافة الكبرى إلى الجنوب (٢) . ويعرف هذا الباب الآن بباب الجبل ، وهو من غير شك — بعد كل الذى رأيناه — باب القرافة لقلعة الجبل .

وإذا كان هذا هو الواقع ، فإن الجزء الأخير من هذا النص يجب أن يقرأ على هذا النحو « وينتهى منه إلى باب القرافة (٣) » بدلا من « وينتهى منه إلى القرافة » . فهذا التصحيح البسيط للغاية يقضى على جميع جوانب الغموض لهذا النص ، بل يجعله لا يتعارض مع بقية النصوص الأخرى التى يحدثنا فيها المقريزى عن باب القرافة .

---

(١) تعرف هذه المقابر الآن بمقابر الخلفاء .

(٢) تعرف هذه القرافة الآن بمقابر الامام الشافعى . ولمزيد من التفصيل انظر :
MEHREN, Kairo, Og. Karafat

(٣) لقد ذهبت فى تصورى لدرجة أن هذا اللبس نتيجة للسهو التام من جانب الناسخ ، وفى هذه الحالة فان العبارة لابد أن تقرأ على هذا النحو : وينتهى منه الى (باب القرافة والى) القرافة فيما بين سور القلعة والجبل . أو أن الكلمات التى بين الحاصرتين قد حذفت لتجنب تكرار كلمة (الى) .

غير أنه يجب علينا أن نتذكر أنه يوجد باب آخر للقرافة (وهو الذى احتفظ بهذا الاسم) بسور القاهرة ، وهو الذى سبق أن تحدثنا عنه فى الفصل الثالث (ص ٥٤) . وبما أن هذا الباب يقع على مقربة من القلعة ، وجب علينا أن نتحفظ ضد أى لبس محتمل بينه وبين القرافة بالقلعة. بل إن هذا اللبس كان من العسير — فيما يبدو — تجنبه ، ولولا وجود بعض الأوصاف المحددة له فيما ورد فيه من نصوص مختلفة لامتنعت عن الإدلاء بأى رأى عنه . ولهذا علينا أن نعى تماماً ما نعرفه من أن بين باب سارية وباب القرافة كانت توجد ساحات فسيحة . فاذا ما وعينا ذلك استحال علينا أن نرى فى باب القرافة الحالى (الذى استبعد تماماً) باب القرافة بقلعة الجبل .

هذا ومن جهة أخرى ، فلابد أن يكون للقلعة فى كل وقت وزمان باب للخروج يفضى إلى الخلاء . وبعد كل الذى سبق أن قلته يصبح من اليسير علينا أن نعرف أن باب القرافة هو ذلك الباب الذى وصفه القلقشندى بقوله « هذا الباب بجانب القرافة والمقطم وهو قلما يطرقه أحد والطريق إليه شاق وعسير (١) » . فهذا الوصف لا يمكن أن ينطبق على باب القرافة الحالى الذى يتوصل منه إلى المقابر والطريق إليه سهل ميسر للغاية ، وكان مطروقا على الدوام . وإنما على العكس من ذلك ينطبق تماماً على باب الجبل الحالى ، وليس فى تسميته بهذين الاسمين مايدعو للدهشة والغرابة . فهذا الباب الذى يواجه القرافة والجبل (المقطم) من الجائز أن يعرف تارة «بباب القرافة» ، وتارة أخرى بباب الجبل . ومما يجدر الإشارة إليه أننى لم أعثر — فيما عدا هذا النص للقلقشندى — على أية نصوص أخرى محددة تتعلق بهذا الباب . وذلك راجع — فى الحقيقة — إلى أن القلعة لم تحاصر قط من الخارج ؛ ولما كان هذا الباب لايفضى إلا إلى الصحراء فانه — كما يذكر لنا القلقشندى — لابد أن يكون استخدامه فى القليل النادر جداً من الأحوال . ومن ثم ، فلم يقدر له أن يقوم بأى دور فى تاريخ القلعة ، وذلك بخلاف أبوابها الأخرى التى طالما تردد ذكر أسمائها فى روايات المؤرخين .

وكيفما كان الأمر فإنى أعتقد أنى قد تمكنت من التعرف على هذين البابين اللذين ذكرهما المقريزى ، كما أن مكانهما على مخطط القلعة يبدو أمراً مقبولا للغاية . فأحد هذين البابين يؤدى إلى المدينة ، وثانيها يؤدى إلى الخلاء . وليس هناك ما يمنع من أن يتصور المرء ذلك الفضاء الواقع بين هذين البابين كما لو أنه ساحة من الساحات ، فلا يزال حتى اليوم الجزء الأكبر من ذلك الفضاء يشغله حوشان كبيران . ولا يزال هذان الحوشان — كما كانا زمن المقريزى — تحيط بهما البيوت والمخازن وغيرها من المنشآت . وأما فيما مضى فقد كان ذلك الفضاء ، أو هذه الساحة ميداناً عسكريا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وهو ما سنتحدث عنه فيما بعد فى مزيد من التفصيل. وهكذا نرى أن هذين البابين يقعان — على وجه التقريب — عند طرفى السور الجنوبى للقلعة .

وأما الخندق فإنه كان يبدأ عند باب سارية فالمقريزى فى وصفه لباب الدرفيل — الذى سبقت الإشارة إليه — يذكر أنه « بجانب خندق القلعة » ، وهو ما ينطبق أيضاً على باب سارية الذى كان يعرف به قديماً هذا الباب . وربما تبدو هذه الملاحظة تافهة لا تستحق عناية الباحث ، إذ أن الباب الرئيسى للقلعة لابد أن يكون بالضرورة بجانب خندق . غير أن هذه الملاحظة تصبح لها أهميتها ودلالتها إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وضع القلعة الذى سبق

---

(١) WUESTENFERD : Calcaschandi. Die Geagraphie und Verwaltung von Aegypten, p. 87.

— القلقشندى : صبح الأعشى • طبعة دار الكتب • الجزء الثالث ، ص ٣٧٣) ، ويلاحظ أن القلقشندى يذكر للقلعة ثلاثة أبواب ، بينما لم يذكر المقريزى لها سوى بابين.

— فأما الباب الثالث الذى لم يذكره المقريزى فى وصفه للقلعة فطالما ذكره هو نفسه فى مواضع أخرى • وهذا الباب وهو «باب السر» الذى كان ضمن المنشآت التى أنشئت فى القلعة فى فترة متأخرة ، كما سنثبت ذلك فيما بعد • وهذه الحقيقة تعتبر دليلا آخر يؤكد صحة آرائنا •

أن أوضحته . وذلك أنه إذا كان سور القلعة يتوقف امتداده جهة الجنوب ، فان الخندق لابد أن يتوقف امتداده أيضا فى هذه الجهة ، وهذا ما حدث فعلا بجوار باب سارية . وبعبارة أخرى فان الخندق لم يكن يبدأ إلا بالقرب من باب سارية ، وأنه لم يكن يدور إلا على جانب واحد من جوانب القلعة ، وهو الجانب الشمالى .

ولايزال المرء يجد إلى اليوم بعض معالم هذا الخندق بامتداد السور الشمالى ، فنى هذه الجهة قطعت الصخرة بيد الإنسان إلى عمق كبير جدا وأدى ذلك إلى مضاعفة ارتفاع السور . وأما فى الجهة الشمالية الغربية للسور فليس هناك خندق حقيقى ، إذ يمكن للمرء أن يبلغ وهو واقف على قدميه القاعدة الصخرية ذاتها التى أقيم فوقها السور . بل على هذه القاعدة الصخرية يقوم الآن كثير من المبانى والعمائر التى تعتبر بمثابة حى سكنى كامل تحددت مساحته — فيما يبدو — فيما بين سور القلعة ومكان سور القاهرة (وهو كما رأينا لم يكمل بناؤه فى هذه الجهة) .

غير أننا نعتقد أنه كان يوجد خندق حقيقى عند نقطة ما فى هذه الجهة الشمالية الغربية ؛ وذلك أنه يوجد فى مواجهة السور شرف يقال له : الصُّوه (١) طالما تحدث عنه الكتاب العرب ، وأن هذا الشرف لابد أنه كان يفصل بينه وبين القلعة ذلك الخندق . فعن طريق هذا الشرف ، الذى شق به منذ عهد محمد على طريق صاعد يصلح لمرور السيارات والعربات ، يدخل الإنسان اليوم إلى القلعة . وهذا الطريق الصاعد يبدأ بالقرب من باب الوزير ، وهو طريق ملىء بالحصى والحجارة يعرف بالمحجر وكان يسلك منه إلى القلعة فيما مضى . ومن ثم فإنه لابد أن يكون الإنسان قد أحدث قطعا بالصخرة فيما بين هذا الشرف وباب سارية ، وأنه على هذا النحو تفسر ملاحظة المقريزى .

ولابد أن يكون قد حدث قطع آخر عميق بالصخرة شمالى السور ليفصل بين قلعة الجبل وبقية جبل المقطم ولهذا يرى بوكوك POCOCKE — وهو على حق فى ذلك — بأن هذا الفصيل الواقع بين القلعة والجبل إنما هو من صنع الإنسان (٢) . وهذا — فيما يبدو — هو ما يعبر عنه عماد الدين ، وإنما بأسلوبه المتكلف . إذ يقول فى هذا الصدد (وقطع الخندق وتعميقه وحفر واديه وتضييق طريقه (٣)) . وإذا كان من الممكن أن نرى فى تعبير عماد الدين شيئاً آخر غير ما يتطلبه السجع ، فإن المرء لايتردد فى أن يرى أن المقصود بكلمة « واديه » هو ذلك الفصيل الذى يقع بين الجبلين . فهذا الفصيل هو — فى حقيقة الأمر — واد حفرته يد الإنسان ، وإنى لأعتقد — دون ما تردد — أن هذا الجبل الذى أقيمت فوقه القلعة كان جزءاً لا يتجزأ من المقطم وأن صلاح الدين قام بفصله عنها بأن حفر هذا الفصيل بينهما . وقد سبق لنا أن لاحظنا أن اتساع هذا الخندق جعل هذه الميزة الظاهرية التى يتميز بها المقطم بسبب ارتفاعه الشاهق عديمة الفائدة ، إن لم تكن خطرة بالنسبة لعدو من الخارج .

ويبدو أن سور القلعة قد احتفظ بطابعه القديم. وإنى إذ أنقل هنا عن فان برشم VAN BERCHEM هذا الوصف الموجز له ، أترك لهرز HERZ مهمة ذكر التفاصيل . وفى هذا يقول فان برشم : (إن البدنات بسور القلعة أكثر ارتفاعا — بطبيعة الحال — منها بسور القاهرة ، والأبراج التى بزوايا السور ضخمة جدا وذات موقع استراتيجى ممتاز ، وأما الطريقة التى اتبعت فى بنائه فهى نفسها التى اتبعت فى بناء سور القاهرة ، مع فارق بسيط هو أن الأحجار التى استخدمت فى بنائه أكثر ضخامة ، وأن مداميك البناء به أكثر بروزا . كما أن أساس الجدران (الأبراج والبدنات)

---

(١) هذا الشرف ينطبق عليه تماما معنى كلمة «صوة» و «معناها» «المكان المرتفع عن الارض الذى يقع عند سفح الجبل» — انظر : KAZIMIRSKI, Dictionnaire arabe-français

(٢) تقع قلعة القاهرة على تل صخرى ، وهو فيما يبدو قد فصلته يد الانسان من التل أو الجبل المعروف بجبل الجيوشى ، وهو الاسم الذى يعرف به الطرف الشرقى لجبل المقطم (Description of the East, p. 32)

(٣) الروضتين ، الجزء الأول ص ٢٦٨ .

ينحدر انحدارا شديدا فى جوف الصخر . وهذا الوضع من شأنه أن يقوى القاعدة ويحول دون نقب السور فى أسفله ، وهو ما نلاحظه فى أسوار عدد كبير من القلاع التى أقامها الصليبيون بسورية ، مثل قلعة صُبَيْبَة ببانياس . كما يرى ، من جانب المقطم ، خندق واسع حفر فى جوف الصخر (١)) .

وهكذا فإننا إذا اقتصرنا على ما ينسب بناؤه فعلا إلى صلاح الدين لوجدنا أنه عمل ضخم للغاية وإن سبقه أعوام (من ٥٧٢ إلى ٥٧٩ هـ) ليست شيئاً يذكر بجانب ضخامة هذا العمل . حقا إن الشريف محمد بن أسعد الجوانى – الذى ينقل عنه المقريزى – على صواب حين قال « وبنيت هذه القلعة فى مدة يسيرة (٢) » .

وأما الأحجار التى استخدمت فى بناء القلعة فقد نقلت إليها من الأهرامات الصغيرة بمدينة منف كما يروى لنا عبد اللطيف البغدادى (٣) ، ومن بعده ، بقية الكتاب العرب . وهذه الطريقة فى الحصول على الأحجار تفسر لنا السرعة التى تم بها البناء وقتذاك . هذا ويخبرنا أبو المحاسن ، نقلا عن ابن عبد الظاهر ، أنه قد استخدم فى بناء سور القاهرة وحفر البئر التى بالقلعة آلاف من أسرى الفرنج (٤) . وهى حقيقة تجرنا إلى الحديث عن الأثر الأخير من آثار صلاح الدين ، ألا وهى البئر المشهورة التى يقال لها بئر يوسف . ولا يسترعى انتباهنا من بين الأوصاف العديدة التى جاءت على لسان الرحالة والكتاب فى وصف هذه البئر سوى وصف ابن عبد الظاهر (الذى نقله عنه المقريزى) ، والوصف الذى جاء فى كتاب « وصف مصر » .

وإليك وصف ابن عبد الظاهر كما أورده المقريزى . (قال ابن عبد الظاهر : وهذه البئر من عجائب الأبنية تدور البقر من أعلاها – فتنقل الماء من نقالة فى وسطها ، وتدور أبقار فى وسطها فتنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز . وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء . وقيل : إن أرضها مسامتة أرض بركة الفيل وماؤها عذب . سمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت جاء ماؤها حلواً ، فأراد قراقوش أونوابه الزيادة فى مائها فوسع نقر الجبل فخرجت منه عين مالحة غيرت حلاوتها . وذكر القاضى ناصر الدين شافع بن على فى كتاب عجائب البنيان أنه ينزل إلى هذه البئر بدرج نحو ثلاثمائة درجة (٥)) .

وأما وصفها كما جاء فى كتاب « وصف مصر » فهذا نصه : –

(لقد قام جميع الرحالة « الذين زاروا مصر » بوصف البئر التى تعرف ببئر يوسف ، غير أن وصفهم لها طالما كان يفتقر إلى دقة الملاحظة ولهذا رأيت أن أستفيد من إقامتى بالقاهرة ، التى امتدت إلى ما يقرب من شهرين بقصد القيام برسم هندسى لها ، لأقوم بفحص هذه البئر فحصاً دقيقاً وأضع الرسومات والمقاييس الخاصة بها . لقد نزلت إلى هذه البئر ثلاث مرات وقمت بقياس محيطها فى عدة نقط منها . وفى أعلى البئر يقوم ثوران بإدارة ساقية عادية لرفع سلسلة من القواديس التى تمتلىء بالماء من حوض أول يقع فى منتصف البئر ، وفى هذا المكان توجد ساقية أخرى يديرها حصان لرفع الماء من قاع البئر إلى هذا الحوض . وهذان القسمان بالبئر لا يقعان على مستوى عمودى واحد ، فأولهما يبلغ حجمه خمسة أمتار مربعة ، وثانيهما يبلغ حجمه مترين وثلاثة أعشار المتر . والمسافة بين كل قادوس

---

(١) VAN BERCHEM, Notes d'Archéologie Arabe (tirage à part), p. 64.

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٢ ، س٣٥ .

(٣) (الافادة والاعتبار) ABDALLATIF, Relation de l'Egypte, trad. par S. de Sacy, p. 171.

(٤) النجوم الزاهرة (éd. JUYNBOLL, II, p. 414) واعانه على عمله وحفر البئر التى بقلعة الجبل أسارى الفرنج وكانوا ألوفا .

(٥) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٣ ، س ٢٥ – لقد نقل المؤلف الترجمة الفرنسية لهذا الوصف والموجودة بالمتن عن ترجمة سلفستر دى ساسى لرحلة عبد اللطيف البغدادى (Traduction Française, p. 212)

وآخر تقدر بحوالى ثمانية عشر عشراً من المتر (متر وثمانين سنتيمتراً) كما يبلغ عددها بالقسم الأول من البئر (أو بالبئر الأولى) مائة وثمانية وثلاثين قادوساً ، وأما قطر الساقية فيبلغ مقاسه متراً وثمانية وتسعين سنتيمترا . ويستغرق رفع أحد هذه القواديس بالماء من الحوض الأول إلى مستوى سطح القلعة أربع دقائق وعشرين ثانية . ويمكننا أن نستنتج من هذه الأرقام التى ذكرناها الحقائق التالية : — أولا : أن كمية الماء التى يحتويها كل قادوس تبلغ ٤٠٠٠ر٠ من المتر المكعب . ثانيا : أن المائة والثمانية والثلاثين قادوساً تمدنا فى مدة أربع دقائق وعشرين ثانية بكمية من الماء تقدر بمقدار ٥٥٢ر٠ من المتر المكعب . ثالثا : إن مقدار ما ترفعه هذه القواديس فى الدقيقة الواحدة (عدا ما يفقد من هذه المياه أثناء رفعها) يقدر بمقدار ١٢٧ر٠ من المتر المكعب . ويذكر الحراس الذين يقومون على حراسة بئر يوسف أن القسم الأول أو الأعلى من البئر يبلغ عمقه ٧٥ بكساً Pyks استامبولى ، وهو ما يقدر بحوالى ٥٠ متراً وثلاثة أعشار المتر ، وأن القسم الثانى منها يبلغ عمقه ٦٠ بكساً (١) Pyks أى حوالى ٤٠ مترا وثلاثة أعشار المتر . ويبلغ طول الحلقة الأولى من الحبال التى تتعلق بها القواديس — حسبما يقول الحراس — مائة وخمسين باعا ، وأما الحلقة الثانية فيبلغ طولها مائة باع . وإذا ماتركنا حجراً يسقط من أعلى البئر إلى القاع فإن الوقت الذى يستغرقه منذ اللحظة التى يسقط فيها حتى تسمع الأذن صوت ارتطامه بالقاع يبلغ حوالى خمس ثوان ، وأما المنحدر الذى ينزل الإنسان عليه إلى الحوض الأول من البئر فقد نحت فى الصخر فى مدار حلزونى ذى خطوط مستقيمة وينحدر انحداراً مريحاً ، ويبلغ ارتفاع هذا المنحدر مترين وعشرين سنتيمتراً ، كما يبلغ عرضه مترين . وينفذ نور النهار ضعيفاً باهتاً إلى هذا القسم الأول من البئر عن طريق طاقات أربع ، فتحت فى جوانبه الأربعة . ومما يثير الدهشة والتعجب هذا السمك الرقيق للغاية لذلك الحاجز الذى يدور حوله هذا المنحدر والذى يفصل بينه وبين الحائط الداخلى للبئر : فالعامل الذى قام بنحت هذا المنحدر يجب أن يكون على درجة فائقة من المهارة واليقظة لكى يتمكن من الاحتفاظ بهذه الطبقة الصخرية الرقيقة (يبلغ سمك هذا الحاجز ١٦ سنتيمتراً . أما سمك الطاقات فأقل من ذلك إذ يبلغ ٤ بوصات ، ولذلك فإن المرء يخشى الاقتراب منها)

وتبلغ درجة الحرارة بقاع البئر ما بين ١٧ ، ١٨ درجة (ترمومتر Réaumur) (٢) (إذا كان الترمومتر موضوعاً بالماء . وهذه الدرجة هى درجة الحرارة العادية نفسها بالقاهرة .

وقد سبقت الإشارة إلى الخطأ الذى وقع فيه كل من ميّيه MAILLET وبوكوك POCOCKE اللذين ينسبان هذه البئر إلى أحد وزراء السلطان محمد بن قلاوون يسمى باسم يوسف . فإلى صلاح الدين ، وإلى عهد صلاح الدين ينسب شرف حفر هذه البئر وشرف بناء القلعة . ويذكر عبد اللطيف البغدادى من بين عجائب مصر البئرين بالقلعة . وعلى الرغم من صدق ملاحظته فى هذا الصدد ، إلا أنه مخطىء — وكذلك المقريزى — فى قوله إنه ينزل إليهما بدرج نحو ثلاثمائة درجة ، اللهم إلا إذا لم تكن هذه الدرجات قد مسحت مع مرور الزمن وأصبح الدرج مجرد منحدر أملس . غير أن هذا الاحتمال مشكوك فيه ، وذلك لأنه فى هذه الحالة يتعذر على الأبقار التى تقوم بادارة الساقية بالبئر الثانية أن تنزل أو تصعد هذا المنحدر فى سهولة ويسر . وأما ماء البئر فإنه يميل إلى الملوحة على الرغم من أن مستوى الماء بها أقل من مستوى مياه النيل ، بل أقل من مستوى المياه الجوفية حسبما يرى

---

(١) (يمكن تقدير الوحدة القياسية للبكس بمقارنتها بوحدة المتر . أى ٧٥ بكسا = ٣ر٥ من المتر ٦٠ بكسا = ٣ر٤٠ من المتر .

(٢) (يتكون هذا الترمومتر من ٨٠ درجة تبدأ من درجة الصفر) .

(جراسيان الأب Gratien Le Père ، وهذا يدل على أن البئر تستمد مياهها من هذه المياه الجوفية، إلا أنها تمر أثناء جريانها بطبقات أرضية محملة بالملح (١) .

وليس هناك ما أضيفه إلى هذا الوصف الدقيق للبئر سوى هاتين الملاحظتين : فأما الملاحظة الأولى ، فهى أنى قد تحققت من وجود درجات الدرج المنحوتة فى الصخر. وكل ما فى الأمر أنه نظراً لأن الأبقار لم تعد تستخدم الآن فى إدارة ساقية البئر ، إذ أن القلعة أصبحت تزود بالمياه من إحدى محطات المياه الواقعة بالشمال الشرقى منها ؛ فان هذا الوضع أدى إلى إهمال صيانة الدرج ، الأمر الذى ترتب عليه تراكم الأتربة على درجاته فبدا كما لو أنه منحدر من الأرض . ومن ثم وجب القول أنه لا عبد اللطيف البغدادى ، ولا القاضى ناصر الدين شافع بن على (الذى ينقل عنه المقريزى) ، ولا عماد الدين — وثلاثتهم معاصرون لحفر البئر — مخطئون فيما يروونه عن هذا الدرج .

وأما الملاحظة الثانية فلا تستند إلى حقائق ثابتة ، وإنما تستند إلى اعتبارات ذات طابع فرضى ؛ أرجو القارىء أن يأذن لى بشرحها .

فلنلاحظ أولا أن البئر تقع خارج السور الأصلى ، أى خارج ما أسميه بقلعة الجبل . وربما يعترض أحد على هذه الملاحظة الأولية بأنه من المحتمل أن تكون البئر قد حفرت بعد بناء هذا السور ، أى عندما بدىء فى وضع الجزء الثانى من مشروع صلاح الدين موضع التنفيذ ، وهو الخاص ببناء مقر سلطانى لإقامته فى حمى القلعة . وهذا الفرض يتمشى مع النص الذى سبقت الإشارة إليه ، والذى يذكر أن آلافاً من أسرى الفرنج قد استخدموا فى بناء سور القاهرة وحفر البئر التى بالقلعة . فهذه الآلاف من أسرى الفرنج لا يمكن أن يكونوا قد وقعوا فى الأسر إلا أثناء الحملة الكبرى التى قام بها صلاح الدين سنة ٥٨٣ ﻫ واستولى فيها على عدد كبير من المواقع من الصليبيين. ومما هو جدير بالذكر أن هذا النص لم يشر إلى أن هؤلاء الأسرى قد استخدموا فى بناء القلعة ؛ وذلك أن القلعة كان قد تم بناؤها فى عام ٥٧٩ ﻫ . ومن ثم فإنه من الراجح — فيما يبدو — أن البئر قد حفرت بعد أن انتهى العمل فى بناء قلعة الجبل (٢) .

وليس هناك من شك فى أن الحكمة كانت تقتضى اختيار مكان هذه البئر داخل السور المحصن (٣) . ومن هنا كان الشك فى أن هذه البئر كانت موجودة من قبل . إذ كيف كانت قبة الهواء والمساجد التى كانت قائمة مكان القلعة تزود بالماء ؟ ربما يرد أحد على هذا الاعتراض بأن ذلك كان يتم عن طريق بعض الآبار التى تقع بالقرب من هذه المنطقة . غير أن هذا الشك لا يلبث أن يزداد ويقوى إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن البئر — كما يقال لنا — كانت

---

(١) Description de l'Egypte, XVIII, 2ème Partie, p. 356-359.
(كشف الدكتور سامى جبرة بتونة الجبل عن بئر مشابهة تماما للبئر الموجودة بالقلعة . وهذه البئر ترجع الى العصر اليونانى الرومانى — أنظر حفريات سامى جبرة بتونة الجبل).

(٢) ابو شامة : الروضتين ، الجزء الأول ، ص ٢٦٨ .

(٣) على الرغم مما ذكره جومار JOWARD فى الفصل الذى كتبه عن بئر يوسف فى كتاب « وصف مصر» فانه من غير المعقول أنه كان هناك عدة آبار فى هذه المنطقة منذ القدم . فالكتاب العرب لايتحدثون الا عن بئر واحدة وهى «البئر التى بالقلعة» بصورة لاتدع مجالا للشك فى أنه لم يكن يوجد الا هذه البئر الواحدة فقط . حقا ان عبد اللطيف البغدادى يتحدث عن «البئرين» غير أنى أعتقد ، ويؤيدنى فى ذلك سلفستر دى ساسى ضد جومار ، أن المقصود بهذين البئرين هما القسمان (أو البئران) ببئر القلعة . وليس أدل على ذلك من أنه يذكر أنه ينزل الى هذين البئرين بدرج نحو ثلاثمائة درجة . فاذا كانت توجد فعلا بئران منفصلتان الواحدة عن الأخرى ، وينزل الى كل واحدة منهما بدرج نحو ثلاثمائة درجة ، فكيف نفسر أن كلا من ابن عبد الظاهر ، وعماد الدين على وجه التخصيص (وهو معاصر لصلاح الدين) لم يذكر سوى بئر واحدة ، وكيفما كان الأمر ، فان البئر التى ينظر اليها جومار باعتبارها البئر الثانية ، انما هى من انشاء الأتراك كما سنرى فيما بعد .

ضيقة جداً ، وأن قراقوش هو الذى وسعها . ألا يفهم من ذلك أنه كانت توجد هناك بئر من قبل ، وأن قراقوش قام بتوسيعها عند ما تطلبت المنشآت الجديدة التى أقيمت هناك مزيداً من الماء ؟

وأخيراً ، هذه الدرجات المنحوتة فى الحجر والتى لم يرها جومار JOMARD قط ، والتى يصفها ابن عبد الظاهر بذلك الوصف الذى سبقت الإشارة إليه ، ألا يحتمل أن يكون قراقوش هو الذى حولها إلى هذا المنحدر (المجاز) المريح ، وأن هذا المنحدر لم يكن موجودا قبل قراقوش ؟ إننا لا نعرف سوى القليل من الأمثلة عن مدى أمانة أصحاب العمائر بالشرق وعن مدى اعترافهم بالفضل لذويه، إنهم ينسبون إلى أنفسهم فى جرأة وجسارة بناء عمائر أسلافهم (١) ، وغالبا ما نقرأ على العمائر كلمة « أنشأ construire » حيث يجب أن نقرأ كلمة « جدّد reconstruire » أو كلمة « رمّم restaurer » . وكيفما كان الأمر ، فليس بوسعى أن أدلى برأى قاطع فيما يختص بهذه البئر ، وقد اكتفيت فقط بابراز جوانب المشكلة التى على الرغم من أهميتها فإنها لا تمس موضوعنا الأساسى إلا عن طريق غير مباشر .

ولكى ننهى الحديث عن هذه البئر ، لا يفوتنا أن نذكر أن أفراد الشعب لا يزالون يسمونها بهذا الاسم العجيب «بئر الحلزون» ؛ وقد رأينا من قبل أن البكرى يسميها أيضاً بهذا الاسم . هذا فضلا على أننا نرى على خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ برج الحلزون بالقرب من هذه البئر (القلعة ، رقم ٤٨) . وأخيراً ، فبالإضافة إلى معلوماتنا هذه عن البئر فهناك حقيقة أخرى نرويها على سبيل الطرافة . هذه الحقيقة هى أن البئر زمن الأتراك كانت متصلة بالنيل عن طريق سرداب (كان أصلا مجراة للماء تأتى من بحر النيل) ، وأنه فى إحدى الفتن روى الذين اشتركوا فيها كيف أنهم تمكنوا من دخول القلعة خفية عن طريق هذا السرداب الذى يتصل بالبئر (٢) .

وبعد ، فيجمل بنا أن نلخص ما توصلنا إليه من نتائج قبل أن ننتقل إلى الحديث عن نقطة أخرى فى هذا الموضوع . وأما هذه النتائج فهى : —

أن القلعة — حسب المشروع الكبير الخاص بإقامة الأسوار حول القاهرة ومصر فى عام ٥٧٢ هـ — تعتبر جزءاً من السور فى هذا المكان ، وهو وضع شائع فى قلاع الصليبيين (٣) . وهى فى موضعها هذا من السور تعتبر بمثابة

---

(١) (يغالى المؤلف كثيرا فى قوله هذا . حقا ان التاريخ يحفظ لنا بعض الأمثلة التى يتنكر فيها بعض الخلفاء أو السلاطين أو الأمراء لبناة العمائر الأصليين من أسلافهم ، وهى أمثلة قليلة لا تصل بنا الى أن نعمم القول على هذا النحو (انظر فان برشم : جامع الكتابات التاريخية) .

وفى رأينا أن التفسير الحقيقى لهذه الظاهرة — فى أغلب الأحيان — أن هؤلاء الخلفاء أو السلاطين أو الأمراء الذين أقدموا على هذا العمل انما أقدموا عليه لأنهم لايعترفون بشرعية حكم أسلافهم الذين قاموا ببناء هذه العمائر) .

(٢) ابن زنبل: كتاب فتوح مصر وذكر ما وقع بين السلطان الغورى والسلطان سليم ، المخطوط بالمكتبة الملكية بميونخ ، القسم العربى ، رقم ٤١٣ ، ورقة ٨٨ ب . (ذكر لى بركات البيطار من فمه أنهم دخلوا السرداب صفارى شمس قبل الغروب بنحو عشرين درجة فماطلعنا منه الى وقت الضحى . وأصل هذا السرداب انما هو مجراة للماء التى تأتى من بحر النيل الى بئر الحلزون الذى فى القلعة ، فلما انطرد ماء النيل من ذلك الجانب بطل عمل ذلك السرداب وبقى على حاله ولكنه مبنى بناء متقنا تقوم عليه القيامة . قال : فلما وصلنا الى البئر قعدنا وأخذنا لأنفسنا راحة وأكلنا ما تيسر أكله ثم أسرعنا فى الطلوع وتفرقنا (فى الأصـــل « دفرنا ») فى داخل القلعة فلما رآنا الينكجريه ظنوا أن العسكر كسر باب القلعة وطلع لهم فأخذهم الرعب .. الخ) .

وأما البئر الآن فمهملة تماما ، بل انه مما يثير التعجب أنها تستخدم الآن كمقبرة . ففى المكان الذى يتصل فيه قسما البئرين يوجد فعلا مقبرة لأحد المشايخ المحدثين الذى لم استطع أن أعرف شيئا عنه . ومما لا شك فيه أن قصة هذا الشيخ ودفنه فى هذا المكان لابد أن تكون على درجة كبيرة من الأهمية .

(٣) انظر على سبيل المثال مخطط قلعة الكرك فى كتاب : REY : Architecture Militaire des Croisés

قمة القبو أو نقطة الارتكاز بالقبو . وأن قلعة الجبل عبارة عن نطاق (أو سور) واسع تبلغ مساحته أكثر من ١٧٠٠ متر (بما فى ذلك مساحة الأبراج والبدنات) . وأن هذا النطاق أو السور على هيئة مستطيل ، أو بمعنى أدق على هيئة مستطيل جانبان من جوانبه غير متساويين Trapézoidale . وأن الجانب الشمالى من هذا النطاق على هيئة نتوء كثير البروز ويفصل بينه وبين المقطم خندق عميق . وأما الجانب الغربى منه فموجّه تجاه القاهرة . وفى مواجهة الزاوية الجنوبية الغربية للسور يقع الشرف الذى يعرف بالصُوّة . وبالجانب الجنوبى منه ، حيث نجد أنفسنا وسط الربوة التى أقيمت فوقها القلعة ، يقع باب سارية أو الباب المدرّج الذى يصعد إليه بدرج منحوت فى الصخر . وأما باب القرافة الذى يفضى إلى الخلاء فيوجد بالزاوية الجنوبية الشرقية من هذا السور .

وكان صلاح الدين — خشية الفتن والثورات التى كان يقوم بها أتباع الفاطميين — ينوى أن يتخذ له مقراً فى حمى قلعة الجبل (بدلا من دار الوزارة) ، ولكنه لم يتهيأ له ذلك .

كما اقتضت ضرورة تزويد قلعة الجبل بالماء حفر بئر بها ، ومن المحتمل أن هذه البئر كانت موجودة قبل ذلك وأن كل ماحدث أنها وسعت وطهرت مما بها من الردم .

وأن الجانب الأكبر من قلعة الجبل قد كمل بناؤه فى عام ٥٧٩ هـ ، كما يشهد بذلك النقش المثبت بأعلى باب سارية ، وأن ذلك كان تحت رعاية الملك العادل المفوض لذلك من قبل أخيه السلطان وتحت إشراف قراقوش .

هذا ومن المحتمل أن تكون البئر قد حفرت بعد سنة ٥٨٣ هـ ، وهى السنة التى أرسل فيها صلاح الدين (من سورية إلى مصر) عدداً كبيراً من أسرى الفرنج الذين استخدموا فى حفرها وإنشائها .

وأما تسمية هذه البئر « بئر يوسف » عن طريق الرواية الشعبية بعد مرور خمسة قرون على عهد صلاح الدين ، فمصدرها هذه القصة القديمة لسيدنا يوسف التى لا تزال حية شائعة إلى اليوم فى مصر ، وليس اسم صلاح الدين الشخصى .

وأما الآن فلم يتبق من هذه المنشآت سوى : أولا — المظهر العام للأسوار والأبراج وبقايا من مواد البناء القديمة. ثانياً — الخندق الذى يوجد بالجهة الشمالية منها . ثالثاً — باب سارية وهو على هيئته الأصلية تقريباً ، والدرج الذى يؤدى إليه ، وعدة نقوش أثرية سنقوم بدراستها فيما بعد حسب ترتيبها الزمنى . رابعاً — البئر التى بالقلعة كما كان يسميها الكتاب العرب الأوائل ، أو بئر يوسف أو بئر الحلزون كما تسمى فى أيامنا هذه .

الفصل السابع

منشآت الملك الكامل
(٦٠٤-٦٣٥ هـ)

يذكر المؤرخون العرب أن القلعة لم يكن قد تم بناؤها بعد وفاة صلاح الدين ، وأن الملك الكامل هو الذى استأنف بناءها وأكمله (١) . وعلى الرغم من ذلك علينا أن نتذكر ذلك النص السابق الذى يقول : إن القلعة قد بنيت فى مدة يسيرة (٢) ، وأن نتذكر أيضا ذلك النقش الأثرى (باسم صلاح الدين والمثبت بأعلى باب سارية) المؤرخ فى عام ٥٧٩ هـ ، والذى يحدد ، فيما يبدو ، تاريخ الانتهاء من بنائها . ولكن على الرغم من ذلك التناقض بين هذه الحقائق المختلفة ، فإنه من اليسير التوفيق فيما بينها إذا ما فسر الأمر على النحو التالى : أن الملك الكامل كان أول من اتخذ القلعة مقراً له ، أو بمعنى أدق ، هو الذى قام ببناء القصور بجوار القلعة . هذا ومن المعروف أن الملك الكامل ، كما يقول ابن عبد الظاهر ، هو الذى بنى الأبراج ومن بينها البرج الأحمر (٣) . فهل يجوز لنا أن نفهم من ذلك أن زمن صلاح الدين لم تكن الأبراج قد بنيت بعد ، أو أن الأبراج التى يتحدث عنها ابن عبد الظاهر كانت جزءاً من هذا البناء الجديد الذى نسميه القلعة تمييزاً لها عن القلعة الأصلية ، أو بمعنى آخر قلعة الجبل . إن مما يؤكد هذا الفرض ، بطريقة ضمنية ، هو أن الكاتب نفسه يقول عقب هذه العبارة مباشرة أن السلطان قلاوون أنشأ فى عام ٦٨٢ هـ برجاً كبيراً بالقرب من باب السر . وذلك أن باب السر — كما سنرى فيما بعد — هو أحد أبواب القلعة . ولهذا فإنى أميل إلى الاعتقاد ، على الرغم من عدم وجود أدلة محددة ، بأن هذه الأبراج كانت بالمقر الجديد للسلاطين (القلعة) .

ويبدو لى أن هذا المقر السلطانى كان فى بادىء الأمر عبارة عن قصر واحد يقوم فوق الساحة الكبيرة التى تقع على يمين باب سارية (لمن يسلك إلى القلعة من القاهرة .) وأما فيما يختص بهذا القصر

---

(١) بعد أن توفى صلاح الدين (عام ٥٨٩ هـ) كانت مصر من نصيب ابنه الملك العزيز . وبعد أن توفى الملك العزيز فى عام ٥٩٥ هـ آل العرش الى ابن صغير له تولى قراقوش الوصاية عليه . غير أن أخاه الملك الأفضل نصب نفسه وصيا على هذا السلطان الطفل ، ولكن لم يلبث أن انتزع منه مصر عمه الملك العادل وجعل حكمها من نصيب ابنه الملك الكامل . وقد حكم الملك الكامل مصر نيابة عن أبيه من ٥٩٦ حتى ٦١٥ هـ ، وباسمه من ٦١٥ حتى ٦٣٥ هـ .

(٢) انظر من قبل ص ٥٧٨ .

(٣) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٤ ، س ٢٠ (قال ابن عبد الظاهر : والملك الكامل هو الذى اهتم بعمارتها وعمارة أبراجها البرج الأحمر وغيره فكملت فى سنة أربع وستمائة وتحول اليها من دار الوزارة) — فى هذا البرج سجنت شجرة الدر بعد أن تآمرت على قتل زوجها الملك المعز سنة ٦٥٥ هـ .
(انظر : QUATREMERE, Histoire des Sultans Mamlouks, I, 1ère Partie, p. 72)

فإن الكتاب العرب يلوذون بالصمت ، غير أن أحد الكتاب القبط يمدنا عنه ببعض الأدلة القيمة الجديرة بالاعتبار . وقد لاحظ كترمير فى كتابه : Mémoires sur l'Egypte, II, p. 50 أن الكلمة القبطية HIBAN (الإيوان) قد ذكرت مرتين فيما ذكره هذا الكاتب القبطى عن هذا القصر ؛ ثم يضيف إلى ذلك قائلا : (إنى لا أشك فى أن كلمة IBAN التى ذكرت مضافاً إليها أداة التعريف القبطية لا علاقة لها بالكلمة العربية « ايوان » التى تعنى على وجه التحديد « القصر » أو « الرواق » ؛ وإنما تعنى على وجه التخصيص — لدى المقريزى وغيره من المؤرخين المصريين — القاعة التى كان يجلس بها الخلفاء والسلاطين أياما معينة فى الأسبوع للنظر فى مظالم الرعية . وكان يوجد بالقاهرة عدد من هذه القاعات تعرف كل منها بالإيوان . وأول هذه القاعات هى التى كانت تعرف بالإيوان الكبير — وهو من غير شك ذلك الإيوان الذى يتحدث عنه الكاتب القبطى — والذى بناه الخليفة العزيز بالله سنة ٣٦٩ هـ . وأما الإيوان الثانى — وهو شىء آخر غير القصر الذى نتحدث عنه — فهو الذى أمر بانشائه ، فيما بعد ، السلطان الملك المنصور قلاوون) . غير أنى على العكس من كترمير أرى أن ذلك الإيوان الثانى ليس شيئاً آخر سوى القصر الذى جدد قلاوون عمارته . إذ أنه واضح مما جاء فى وصف هذا الكاتب القبطى (١) أن عرش ذلك الإيوان كان بالقلعة . هذا ومن المعروف أن الإيوان الكبير الذى بناه الخليفة العزيز بالله ، ثانى الخلفاء الفاطميين ، (٣٦٥ — ٣٨٧ هـ) كان بأحد القصرين الفاطميين . وفضلا على ذلك فان المقريزى يذكر فى حديثه عن « الإيوان » أن « قلاوون » هو الذى أنشأه ؛ غير أنه قال قبل ذلك ببضعة أسطر (وهو مافات كترمير) هذه العبارة (وما برحت دار العدل هذه باقية إلى أن استجد السلطان الملك المنصور قلاوون الإيوان ... ... (٢)) . ومن ثم فلم يعد لدينا أى احتمال للشك . فقد كان هناك إيوان منذ عهد الملك الكامل ، وأغلب الظن أن هذا الإيوان كان يوجد مكان إيوان قلاوون الذى هدم وأعيد بناؤه من جديد بعد توسعته — كما سنرى فيما بعد — على يد ابنه الناصر محمد . وأن هذا الإيوان هو الذى عرف فيما بعد بالديوان Diwan أو بالديفان Divan ، ثم أصبح يعرف بديوان يوسف . وهذا الديوان لا وجود له الآن ؛ غير أننا نعرف موقعه على وجه التحديد بفضل الخريطة التى رسمها للقلعة علماء الحملة الفرنسية .

وأما فيما يختص ببقية منشآت الملك الكامل فنحن لا نعرف عنها شيئا على وجه اليقين ، ومن ثم فان التعرف عليها لا يعدو أن يكون مجرد افتراضات بحتة . وأول شىء ينسب إليه — فيما نعتقد — هو إنشاء باب السر الذى يسميه المقريزى فى خططه « باب سر القلعة » و « باب السر الكبير » (٣)

---

(١) هذا النص نشره وترجمه الزميل AMELINAU فى (Journal Asiatique, VIIIe Série, 9, p. 113) — وقد وقعت الحوادث التى يتكلم عنها هذا الكاتب أثناء سلطنة العادل أبوبكر وكان ابنه الكامل نائبا عنه فى حكم مصر . ومما يدعوالى الغرابة ذلك التشابه بين هذه القصة التى وردت على لسان الكاتب القبطى التى تتعلق بأحد الأقباط الذى تحول الى الاسلام ثم عاد الى المسيحية مما أدى الى استدعائه الى القلعة والحكم عليه بالاعدام ، وبين قصة مشابهة لها تماما لأحد المسيحيين الذى تقلب بين المسيحية والاسلام حدثت بعد ذلك بعدة قرون وأوردها لنا MAILLET فى كتابه ص ٩٣ ومايليها .

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ٢٠٤ ، س ٢٥ (آثرت نقل عبارة المقريزى كاملة) — كما يذكر المقريزى فى كتابه السلوك أن بيبرس جلس بالايوان فى عام ٦٥٨ هـ . (انظر : QUATREMERE, Histoire des Sultans Mamlouks, I, 1ère Partie, p. 117 — السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٤٣٨ .

(٣) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٢ ، س ٢٩ (باب سر القلعة) ، ص٢٠٤ ، س٢٣ (باب السر الكبير) . جاء ذكر هذا الباب لأول مرة على لسان أبى المحاسن . اذ يذكر فى حوادث سنة ٦٥٥ هـ أنه بعد مقتل الملك المعز أيبك طلبت شجرة الدر ابن مرزوق على لسان الملك المعز فركب حماره وبادر وطلع القلعة من باب السر .. (النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٦٧٠ Ancient Fonds ورقة ١٣١ أ — (طبعة دار الكتب ، الجزء السادس ، ص ٣٧٥ — آثرت نقـل عبـارة أبى المحاسن كاملة) .

وفى المرة الأولى يصفه بقوله « المطل على سوق الخيل » ولا يضيف شيئاً إلى ذلك . غير أن أهمية هذا الباب السرى قد أوضحها لنا القلقشندى الذى يعدد للقلعة — كما سبق أن رأينا — ثلاثة أبواب رئيسية ، هى : —

أولا : الباب المطل جهة القرافة والجبل المقطم ، وهو الذى يسميه المقريزى باب القرافة .

ثانياً : باب السِّر ، وهو الذى يسميه المقريزى بهذا الاسم أيضاً .

ثالثا : الباب الذى يرقى إليه فى درج (متناسبة حتى يكون مدخله فى أول الجانب الشرقى من القلعة) ، وهو من غير شك الباب الذى يسميه المقريزى باب المدرّج .

وإليك وصف القلقشندى لهذا الباب الثانى : (باب السر ، ويختص الدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخواص الدولة : كالوزير وكاتب السِّر ونحوهما ، ويتوصل إليه من الصوّة : وهى بقية النشز الذى بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة بتعريج يمشى فيه مع جانب جدارها البحرى حتى ينتهى إليه بحيث يكون مدخله منه مقابل الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أيام الموكب ، وهذا الباب لا يزال مغلقا حتى ينتهى إليه من يستحق الدخول أو الخروج منه فيفتح له ثم يغلق (١) .)

ومن هذا الوصف لذلك الباب ، ومما جاء عنه فى نص آخر استوجب الأمر إرجاء تعليقنا عليه إلى فصل آخر ، نستنتج أنه كان يفتح فى مواجهة الإيوان على وجه التقريب ، وأنه أغلب الظن كان يوجد مكان الباب الحالى الذى يعرف بالباب الوسطانى (خريطة Grand-Bey) أو باب الشِّرك (خريطة عام ١٧٩٨) . ولنترك هذه النقطة الآن إلى أن تحين فرصة وصف المنشآت التى أنشئت فى الفترة المتأخرة بالقرب من هذا الباب فنبحثها بحثا مستفيضا .

وموجز القول ، يمكننا أن نؤكد أن باب السِّر الذى كان مخصصا لخدمة البلاط السلطانى ، كان بابا ثالثا أنشىء خارج السور الأصلى للقلعة (قلعة الجبل) ؛ وهو بهذا الوضع لابد أن يكون من منشآت الملك الكامل . وهذا مما يفسر قول المقريزى أن للقلعة بابين ، وقول القلقشندى أن لها ثلاثة أبواب . فالمقريزى لم يكن فى متناول يده — فيما يبدو — سوى نص لا يصف إلا قلعة الجبل فقط ، بينما كان القلقشندى ينظر إلى القلعة كلها بقسميها : الحربى والسلطانى . وإنى لأستميح القارىء عذراً إذا ماعدت إلى هذا الإيضاح الذى كثيرا ما أشير إليه . فهذا الإيضاح على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لنا ، لأنه يجنبنا الوقوع فى هذا اللبس الذى يسهل الوقوع فيه بسبب المعلومات المتناقضة التى يمدنا بها من نسترشد بهم من المؤرخين .

هذا ولم يكن مسموحاً لعامة الناس باستخدام باب السر ، كما أن باب سارية لم يكن يسمح بالدخول إلا إلى قلعة الجبل (النطاق الحربى) . وكان هناك باب ثالث ، يعرف بباب القلّة كان يصل بين قسمى القلعة . وكان هذا الباب ، كما سنرى فيما بعد ، يوجد على أقل تقدير منذ عهد بيبرس ثالث سلاطين المماليك . وإنى أرى أن إنشاء هذا الباب

= — ثم بعد بضع سنوات ورد ذكر هذا الباب على لسان المقريزى (انظر : QUATREMERE : Op. Cit., I, 2ème Partie, p. 65

— (وانظر أيضا السلوك : طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٥٤٤ — حوادث سنة ٦٦٤ هـ .

— وكذلك : W. POPPER : Egypt and Syria under the circassian Sultans (The Citadel), p. 20.

اورد جميع الأسماء التى عرف بها هذا الباب)

(١) مخطوطة جوته ، رقم ٦١٩ ، ورقة ٤٢ ب ، ترجمة وستنفيلد ، ص ٨٧ .

— (صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب ، الجزء الثالث ، ص ٣٧٣ — ٣٧٤) .

فى هذا الموضع (بين قسمى القلعة) إنما جاء نتيجة لتنفيذ مشروع الملك الكامل ، غير أنه ليس لدى أى نص يسمح بتعزيز هذا الرأى الشخصى البحت .

كما لا يجانبنا الصواب إذا ما نسبنا ثانياً إلى الملك الكامل بناء الإسطبل السلطانى ، الذى يعتبر أحد مرافق القصر . غير أن المؤرخين الذين يحدثوننا عنه لا يعرفون شيئا عن الفترة التى بنى فيها ، ومع ذلك فاننا نجد الإشارة إليه تأخذ فى التواتر منذ عهد بيبرس (١) . وإنى لأعتقد أنه من الممكن أن نثبت بالأدلة أن بناءه يرجع إلى عهد الملك الكامل .

فأول هذه الأدلة أن إسطبلات الخيل لابد أن تكون على أهبة الاستعداد ورهن إشارة الأمراء الأيوبيين وتحت تصرفهم ، فذلك أمر حيوى بالنسبة لهم وهم الذين قضوا سنوات حياتهم على صهوات الخيول فى حروب عديدة ضد الصليبيين . لقد كانت القلعة فى عام ٦٠٤ هـ منعزلة تماماً عن القاهرة ، ولم يكن من المعقول ولا من المنطق فى شىء والحالة هذه ، وفى الوقت الذى رأى فيه الملك الكامل أن يجمع بالقلعة جميع دواوين الحكم المدنية والعسكرية ألا يفكر فى أن تكون اسطبلات خيله على مقربة منه وفى متناول يده . ومما يعزز هذا الرأى العبارة التالية التى أنقلها عن المقريزى ، والتى تقول (فلما كان الملك الكامل ... ... تحول من دار الوزارة إلى القلعة وسكنها ونقل سوق الخيل والجمال والحمير إلى الرميلة تحت القلعة (٢) .) . وقد جاءت هذه العبارة على لسان المقريزى فى تعداده لسكن الخلفاء والسلاطين والولاة فى مصر وهكذا لم يخل هذا العرض المسهب من فائدة ، إذ أنه أوضح لنا مدى الأهمية التى كانت للخيل فى نظر السلاطين . وكانت سوق الخيل وقتذاك أشبه بما نسميه اليوم بسلاح الإمداد والتموين . وإذا كان الملك الكامل حرص على أن ينقل هذه السوق إلى الرميلة تحت القلعة ، فقد كان من الأحرى أن يحرص على أن تكون الإسطبلات السلطانية على مقربة منه وفى متناول يده ورهن إشارته .

وأما فيما يختص بموقع الإسطبل السلطانى فسأذكر — فيما بعد — الدلائل التى أمكن لى جمعها عنه ، وإنما يكفينى الآن أن أذكر فقط أنها كانت تقع أسفل الربوة الواسعة التى أقيم عليها القصر السلطانى ، وفيما بين الرميلة — الذى لا يزال يعرف بهذا الاسم والذى ظل حتى زمن الحملة الفرنسية على مصر سوقاً للخيل — والميدان الذى يسمى حتى الآن قراميدان (ومعناه باللغة التركية الميدان الأسود) . وقد كان الاسطبل السلطانى زمن القلقشندى يتصل بالقلعة La Citadelle عن طريق باب مخصص لذلك (٣) . ويبدو أن هذا الباب كان موجوداً منذ عهد السلطان بيبرس (٤) ، كما أن وجوده زمن الملك الكامل يبدو أمراً كبير الاحتمال .

وأغلب الظن أن الميدان السلطانى كان أيضاً من إنشاء الملك الكامل . وذلك أن الميدان السلطانى والإسطبل السلطانى وسوق الخيل كانت كلها تكون وحدة واحدة تشغل جميع الأرض الفضاء التى تقع تحت القلعة .

---

(١) QUATREMERE, op. cit., I, 2ème Partie, p. 64-65.

(٢) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٦٤ ، س ٣٧ .

(٣) مخطوطة جوته ، رقم ٦١٩ ، ورقة ٤٤ ب — ترجمة وستنفيلد ، ٩٠ —

(صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب ، الجزء الثالث ، ص ٣٧٤ — واليك النص كاملا زيادة فى الايضاح — يقول القلقشندى : وتحت مشترف هذه القلعة مما يلى القصور السلطانية ، ميدان عظيم يحول بين الاصطبلات السلطانية وسوق الخيل .. وفيه يصلى السلطان العيدين على ما سيأتى ذكره وفيه تعرض الخيول السلطانية فى أوقات الاطلاقات ،ووصول التقادم والمشترى ، وربما أطعم فيه الجوارح السلطانية ، واذا أراد السلطان النزول اليه خرج من باب ايوان القصر وركب من درج تليه الى اصطبل الخيول الخاص ، ثم نزل اليه راكبا وخواص الأمراء فى خدمته مشاة ، ثم يعود الى القصر كذلك) .

(٤) QUATREMERE : Op. cit., I, 1ère Partie, p. 64.

كما أنى أنسب إلى الملك الكامل بناء القاعة التى تعرف بقاعة الصاحب . وذلك أن لقب « الصاحب » كان يلقب به الوزراء ، وكان أول من لقب به صفى الدين بن شكر الذى كان — على وجه التخصيص — وزيرا للكامل (١) .

وكان يوجد بالقلعة على عهد السلطان بيبرس جامع ؛ وهو الجامع الذى خطب فيه الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله (٢) . ومن المحتمل أن يكون هذا الجامع قائما منذ عهد الملك الكامل وفى المكان نفسه الذى يقوم عليه الآن الجامع الذى استجده الناصر محمد بن قلاوون .

وليس هناك ثمة شك فى أنه إلى الملك الكامل ينسب إقامة (أبراج) الحمام الزاجل بأبراج القلعة . وفى هذا الصدد يمدنا المقريزى بمعلومات مفصلة وعلى قدر كبير من الأهمية. ويضيف كترمير فى إحدى تعليقاته المسهبة إلى هذه المعلومات تفاصيل أخرى يرويها عن غيره من المؤرخين (٣) .

وإنى إذ أقدم للقارىء ملخص هذا التعليق الذى كتبه كترمير . أقدم له فى الوقت نفسه النص الكامل للأجزاء التى تتعلق بموضوعنا مباشرة من وصف المقريزى لأبراج الحمام .

فأما كترمير فيذكر فى تعليقه أن الكتاب العرب ينسبون إلى سيدنا سليمان طريقة استخدام الطيور فى نقل البطائق . ومنذ ذلك الحين والملوك يعيرون أهمية كبرى لطريقة التراسل هذه . وفى هذا الصدد كان الحمام هو الطائر المفضل دائما ؛ ومن ثم فان كلمة « طاير » أو « طير » إنما تعنى « الحمام » ما دام الأمر يتعلق بارسال البطائق . والمكان الذى يطير منه الحمام يعرف « بالمطار » (٤) وجمعه « مطارات » ، كما يسمى الرجل المكلف باطلاقه « المطير ». وكان نور الدين أتابك الموصل المشهور وسيد صلاح الدين ومولاه يستخدم الحمام الهوادى فى إرسال رسائله .

وقد كتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر (٥) عن استخدام الحمام فى إرسال البطائق كتابا سماه « تمايم الحمام ». ويذكر ابن عبد الظاهر أن السلطان، سواء أكان على سفر أم خارجا للصيد ، كان يأخذ معه عددا من حمائم الرسائل ، وكان كاتب السر هو المكلف بالاشراف عليها .

وأما المقريزى فيقول : (كان بالقلعة أبراج برسم الحمام التى تحمل البطائق ، وبلغت عدتها على ما ذكره ابن عبد الظاهر فى كتاب تمايم الحمام إلى آخر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وستمائة ألف طائر وتسعمائة طائر . وكان بها عدة من المقدمين ؛ لكل مقدم منهم جزء معلوم . وكانت الطيور المذكورة لا تبرح فى الأبراج بالقلعة ماعدا طائفة منها ، فانها فى برج بالبرقية (٦) خارج القاهرة يعرف ببرج الفيوم رتبه الأمير فخر الدين عثمان بن قزل أستادار الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وقيل له برج الفيوم ؛ فان جميع الفيوم كانت فى إقطاع ابن قزل . وكانت البطائق ترد إليه من الفيوم ويبعثها من القاهرة إلى الفيوم من هذا البرج ، فاستمر هذا البرج يعرف بذلك . وكان بكل مركز حمام فى سائر نواحى المملكة ، مصراً وشاماً ، ما بين أسوان إلى الفرات ، فلا تحصى

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٣ (قاعة الصاحب).

(٢) QUATREMERE, op. cit, I, 1ère Partie, p. 148.

(٣) Ibid, II, 2ème Partie, p. 115

(٤) على خريطة عام ١٧٩٨ يسمى أحد أبراج القلعة ببرج المطر ، ومن الجائز أن تكون هذه التسمية محرفة ، وصحتها «برج المطار» .

(٥) عن هذا الكاتب انظر ما سبق أن ذكرناه عنه فى هذا الصدد

(٦) عن خط البرقية أنظر من قبل

عدة ماكان منها فى الثغور والطرقات الشامية والمصرية ، وجميعها تدرج وتنقل من القلعة إلى سائر الجهات . وكان لها بغال الحمل من الاصطبلات السلطانية ، وجامكيات البراجين والعلوفات تصرف من الأهراء السلطانية ، فتبلغ النفقة عليها من الأموال ما يحصى كثرة . وكانت ضريبة العلف لكل مائة طائر ربع ويبة فول فى كل يوم ... ... قال مؤلفه : قد بطل الحمام من سائر المملكة الا ما ينقل من قطيا إلى بلبيس ، ومن بلبيس إلى قلعة الجبل(١)) .

وعلى الرغم من أن المقريزى لم يذكر صراحة أن الملك الكامل هو الذى أقام أبراج الحمام ، فإن وجود هذه الأبراج زمن أستاداره ابن قزل ، وكذلك الأهمية التى كان يعلقها يكل تأكيد الملك الكامل — شأنه فى ذلك شأن جميع الملوك — على هذه الطريقة من التراسل السريع ، كل هذا من شأنه أن يؤكد أن إقامة الحمام بأبراج القلعة إنما كانت على يده . بل ما يدرينا أن هذا هو ما يعنيه فعلا ابن عبد الظاهر فى عبارته التى سبق لنا ذكرها من قبل. هذا وقد ترجمت كلمة « برج » فى النص السابق للمقريزى بالكلمة الفرنسية **Colombier** وذلك وفقاً للتفسير الذى جاء فى تعليق كترمير . وربما كان من الأصوب أن تترجم هذه الكلمة ذاتها التى وردت فى عبارة ابن عبد الظاهر بالكلمة الفرنسية السابقة نفسها .

ولكى نختم هذا الفصل الخاص بالمنشآت التى تنسب إلى الملك الكامل بالقلعة لا يفوتنا الحديث عن خزانة الكتب التى أحرقت فى الحريق الذى شب بالقلعة سنة ٦٩١ هـ . وكان الجانب الأكبر من هذه الخزانة قد نقل إليها من خزانة القاضى الفاضل . وفى هذا يقول المقريزى فى كتابه السلوك فى حديثه عن سنة ٦٢٦ هـ ، (فى خامس جمادى الأول ، وهو يوم الأحد ، وقعت الحوطة على دار القاضى الأشرف أحمد بن القاضى الفاضل ، وحملت خزانة الكتب جميعا إلى قلعة الجبل فى سادس عشرينه ، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلد . وحمل من داره فى ثالث جمادى الآخرة خشب خزائن الكتب مفصّلة ، (وحملها) تسعة وأربعون جملا . و (كانت) الجمال التى حملت الكتب تسعة وخمسين جملا ، ثلاث دفعات .

وفى يوم السبت ثانى عشر رجب منها ، حملت الكتب والخزائن من القلعة إلى دار الفاضل ، وقيل إن عدتها أحد عشر ألف كتاب وثمانمائة وثمانية كتب ، ومن جملة الكتب المأخوذة كتاب الأيك والغصون ، لأبى العلاء المعرى ، فى ستين مجلدا (٢)) .

وليس هناك من شك فى أن هذا النص يحيط به بعض الغموض وبخاصة فى جزئه الأخير . فهل يجوز لنا أن نفهم أن الملك الكامل عدل نهائيا عن هذه الغنيمة القيمة ، وأنه أعاد الكتب جميعها إلى دار القاضى الفاضل . أغلب الظن أنه اختار منها ما يروقه ثم أعاد ما تبقى إلى داره . لقد كان الملك الكامل — كما يروى المؤرخون عنه — شغوفا للغاية بالعلوم والمعرفة (٣) . وكانت حقاً خزانة كتب القاضى الفاضل ثروة علمية ضخمة ، فقد كانت تتكون من مخلفات

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٢) السلوك ، النسخة الخطية بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٦٧٢ (كتالوج De Slane رقم ١٧٢٦) ، ورقة ٧٦ أ — (النص كما أورده كازانوفا به كثير من الأخطاء ، ومن أهم هذه الأخطاء أنه كان من جملة الكتب المأخوذة كتاب «الأتابك والعصور» وقد رجع كازانوفا الى كتاب حاجى خليفة «كشف الظنون» للتحقق من اسم هذا الكتاب فلم يجد شيئا عنه. والنص الذى جاء بالمتن هو الذى ورد بالسلوك طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣) .

(٣) لم يتحدث ابن واصل عن الحوطة على خزانة القاضى الفاضل (انظر مفرج الكروب ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٧٢٥ ، ورقة ٣١١ حتى ورقة ٣١٣) .
— قارن ذلك بما ذكره ابو الفداء (انظر مجموعة : (Hist. Or. des Croisades, I, p. 114)

مكتبة الخلفاء الفاطميين التى بيعت بأثمان بخسة بالمزاد العلنى بأمر صلاح الدين(١) . هذا ومعروف أن هذه المكتبة كانت ذات شهرة خاصة .

ولم ينج من خزانة الكتب بالقلعة التى احترقت فى عام٦٩١ هـ سوى شيء واحد لعبت المقادير دوراً فى حفظه سليما حتى اليوم . وهذا الشيء الذى أتحدث عنه ليس كتابا من كتب هذه الخزانة ، إنما هو احدى التحف التى لا تقل عنه فائدة وأهمية . وهذه التحفة عبارة عن كرة من النحاس صورت عليها السماء بأبراجها ونجومها ، وقد سبق أن أتيحت لى فرصة الحديث عنها فى مكان آخر من هذا العدد (٢) . غير أنى أرجو القارىء أن يسمح لى فى هذا المجال باضافة بعض التفاصيل الجديدة عنها . فهذه الكرة المحفوظة بمتحف بورجيا بمدينة Velletri (٣) بايطاليا قد نقشت عليها النقوش الآتية : —

أولا : (برسم خزانة مولانا السلطان الكامل الملك العالم العادل ناصر الدنيا والدين محمد بن أبى بكر بن أيوب عز نصره .)

وكلمة «خزانة» التى وردت بهذا النقش التى ترجمتها بالكلمة الفرنسية « Cabinet » تعنى — فيما يبدو — مكتبة . وإذا كان يوجد حقاً بالقلعة مكتبة من إنشاء الملك الكامل — وهو ما استطعت اثباته فيما أعتقد — لأمكننا أن ندرك مدى الفائدة من وجود هذه الكرة بها .

ثانياً — (برسم قيصر بن أبى القاسم بن مسافر الأشرفى (٤) الحنفى ٦٢٢ هجرية الخ .)

فأما قيصر هذا فقد جاء ذكره على لسان كثير من المؤرخين . ومن هؤلاء أبو الفدا الذى يقول : إن الملك المظفر تقى الدين ، أمير حماه ، قد ألحق بخدمته « الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف »، وهو الذى صنع له كرة من الخشب مدهونة رسم عليها جميع الكواكب المرصودة . . . . وكان مهندساً فاضلا فى العلوم الرياضية (٥) »

---

(١) الخطط ، الجزء الاول ، ص ٤٠٩ . QUATREMERE, Mém. sur l'Egypte, II, p. 388.
مما يجدر الاشارة اليه أن مييه MAILLET لمس بمصر — بعد انقضاء خمسة قرون ذكرى بيع هـــــذه المكتبة بالمزاد (انظـــــر Description de l'Egypte, p. 190) ويأخذ مييه على صلاح الدين هذا العمل ، وهو محق فيما أخذه عليه ، وقد كان ابن أخيه الملك الكامل أكثر رقة منه وأكثر منه تذوقا للمعرفة — (كان صلاح الدين مدفوعا فى ذلك بعدائه للمذهب الشيعى — انظر ماكتبه عن هذه الخزانة الدكتور السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ٢٢٩ — ٢٣١) .

(٢) العدد نفسه ، ص ٣٢٠ .

(٣) ASSEMANI : Globus coelestis cufico-arabicus, etc., Patavii.

(٤) بعد قراءتى لهذا النقش للمرة الثانية أعتقد أن هذه الكلمة تقرأ «الأشرفى» بدلا من قراءتها «الأبرقى» كما قرأها ASSEMANI وهذه النسبة «الأشرفى» تعنى أن صاحبنا كان فى بادىء الأمر من خاصة رجال الملك الأشرف . وفى هذه الحالة ، فان الأمير المقصود هو — فيما يبدو — أخ الملك الكامل ، الذى توفى فى العام نفسه الذى توفى فيه الملك الكامل ، أى فى عام ٦٣٥ هـ .

(٥) أبو الفداء ، فى مجموعة Hist. Or. des Croisades, I, p. 122-123
— (النص الموجود بالمتن ترجمة حرفية لما جاء بالأصل الفرنسى لكازانوفا . وقد رأيت اثبات النص كاملا زيادة فى الايضاح . يقول ابو الفداء : فى هذه السنة (٦٤٢ هـ) توفى جدى الملك المظفر تقى الدين محمود .. وكان يحب أهل الفضائل والعلوم ، واستخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف ، وكان مهندسا فاضلا فى العلوم الرياضية فبنى للملك المظفر المذكور أبراجا بحمـــــاه وطاحونا على النهر العاصى ، وعمل كرة من الخشب مدهونة رسم فيهـــا جميع الكواكب المرصودة . وعملت هذه الكرة بحماه . قال القاضى جمال الدين بن واصل وساعدت الشيخ علم الدين على عملها وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسألنا عن مواضع دقيقة فيها ..)

ومن هؤلاء المؤرخين أيضاً المقريزى الذى يحدثنا فى كتاب السلوك بمناسبة وفاته سنة ٦٤٩ هـ . بقوله (علم الدين قيصر بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن مسافر المعروف بتعاسيف ، الفقيه ، الحنفى ، وهو أحد الأئمة فى العلوم الرياضية (١)) . كما نجد ترجمة لحياته على لسان ابن حبيب ، غير أنه لا يذكره مقروناً بالكنية التى عرف بها تعاسيف « وإنما يعرّفه بالمصرى ، وأنه توفى بدمشق بعد أن بلغ من العمر خمسة وسبعين عاما ، أى أنه ولد حوالى سنة ٥٧٤ (٢) هـ . وهذا صحيح لأن ابن خلّكان — وكان فيما يبدو على صلة ومودة به — يذكر أنه ولد فى سنة ٥٧٤ هـ بقرية أصفون بالوجه القبلى وأنه توفى بدمشق يوم الأحد ١٣ من رجب سنة ٦٤٩هـ(٣) . ومن ثم فإنه يمكن القول بأنه ظل فى خدمة الملك الكامل حتى وفاته فى سنة ٦٣٥ هـ . هذا ومن جهة أخرى ، فإن لقب « مهندس » الذى وصفه به أبو الفدا يجعلنا نعتقد أنه لابد أن يكون قد قام بدور ما فى بناء منشآت القلعة . وأخيرا ، بعد كل الذى ذكرناه عن علم الدين قيصر ، نسأل أنفسنا كيف انتقلت إلى إيطاليا هذه الكرة التى صنعها وصورها . إننا إذا ما تذكرنا علاقات الود والصداقة التى كانت تربط بين الملك الكامل والامبراطور فردريك الثانى الذى تنازل له عن بيت المقدس ، الذى كان يعرف عنه — كما عرف عن الملك الكامل — شغفه بالعلوم العربية ، إننا إذا ما تذكرنا كل هذه الحقائق فليس هناك ما يثير الدهشة إذا ما افرضنا أن السلطان المصرى قد أهدى هذه الكرة إلى حليفه الامبراطور . وعلى هذا النحو تكون الكرة قد نقلت من القلعة إلى بلاط الامبراطور بصقلية .

وإنى لأرجو القارىء أن يغفر لى هذا الاستطراد البسيط عن هذه النقطة التى تتصل آخر الأمر ، بموضوع البحث . ثم أليست هذه الكرة — بصرف النظر عن صلتها بموضوع البحث — هى أثمن ما تبقى لنا من التحف والذخائر التى كانت تزخر بها القلعة ؟

وأخيرا فهذه هى النتائج التى توصلنا إليها فى هذا الفصل . إن المقريزى لم يذكر لنا عن الملك الكامل ومنشآته سوى عبارتين أو ثلاث عبارات لا تشفى الغلة ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد تمكنا — بفضل ما استقيناه من معلومات عن طريق الصدفة من هنا وهناك — أن نقرر بما لا يدع مجالا للشك أن الملك الكامل هو الذى أنشأ المنشآت الآتية :

١ — الإيوان

٢ — باب السر الخاص بالدور السلطانية .

٣ — باب القلة . وهو الباب الذى يصل بين قلعة الجبل (المدينة العسكرية) وبين القلعة (المدينة السلطانية)

٤ — الإصطبلات السلطانية .

٥ — أبراج

٦ — أبراج الحمام

٧ — خزانة الكتب .

وأخيراً ، وإنما كمجرد افتراض بحت :

٨ — قاعة الصاحب .

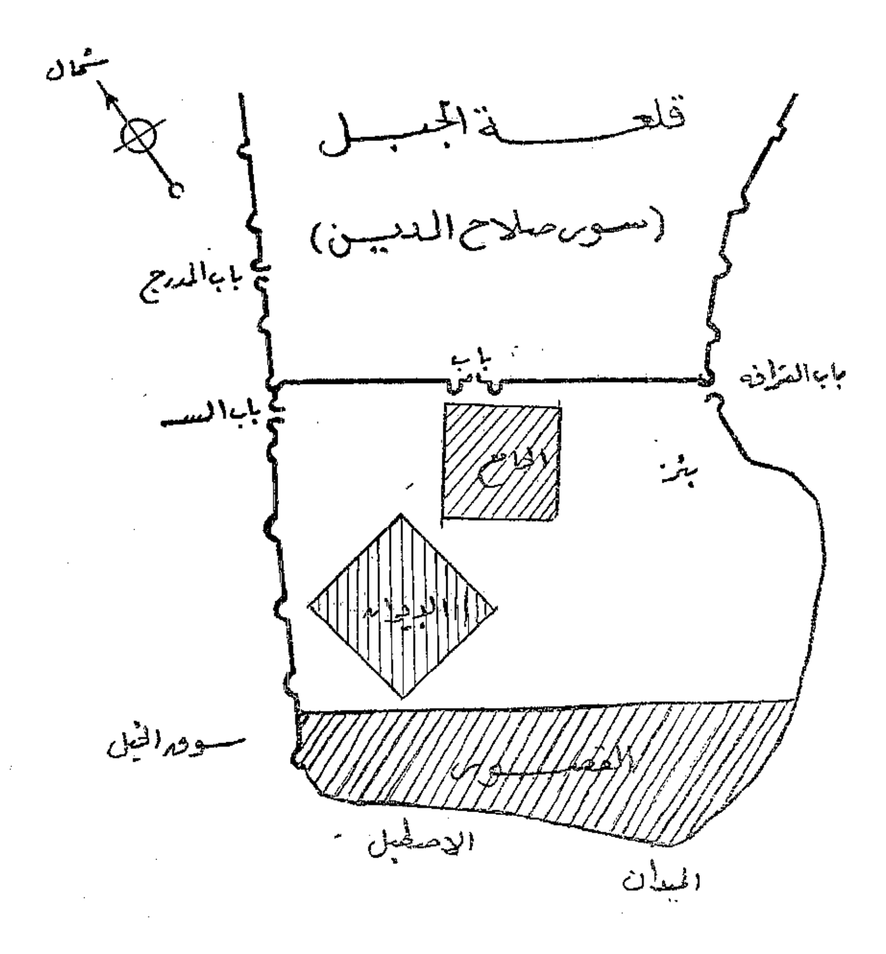
٩ — الجامع .

---

(١) السلوك النسخة الخطية بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٦٧٢ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦) ، ورقة ١١٩ ب . —(السلوك : طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٣٨٢ — فى هذه النسخة المطبوعة ورد النص كالآتى : وفيها (٦٤٩ هـ) توفى علم الدين قيصر بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن مســـافر ، المعروف بتعاسيف ، الفقيه الحنفى ، بدمشق فى ٠٠ رجب ، ومولده بأصفون من صعيد مصر سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، وهو أحد الأئمة فى العلوم الرياضية) .

(٢) ابن حبيب : درة الأسلاك فى تاريخ الأتراك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٦٨٨ ، ورقة ٤ أ (انظر الحاشية السابقة) .

(٣) وفيات الأعيان ، ترجمة دى سلين ، الجزء الثالث، ص ٤٧٣ .


شمال
قلعة الجبل
(سور صلاح الدين)
باب المدرج
باب السر
باب القرافة
بئر
الإيوان
القصور
سور الخيل
الإصطبل
الميدان

وجميع هذه المنشآت لم يكن قد تبقى منها زمن المقريزى سوى الشيء القليل للغاية ، بل إن هذا القليل لم يتبق منه الآن سوى مواقع الأبواب التى لم يتغير موضعها قط . وعندما سأعالج فى إسهاب وصف القلعة فى عهد المقريزى ، فإنى سأعود إلى الحديث فى شيء كثير من التفصيل عن المنشآت المختلفة التى كانت لا تزال قائمة وقتذاك . وكل ما قصدته من حديثى الآن عن هذه المنشآت هو أن أحدد الفترة التى بنيت فيها حتى أتجنب التكرار الممل فى حديثى عنها فيما بعد .

الفصل الثامن

القلعة منذ عهد الملك الكامل حتى بداية عهد الناصر محمد بن قلاوون

(٦٣٥-٦٩٣ هـ)

نحن لا نعرف شيئاً البتّة عما آل إليه حال القلعة فى عهود سلاطين الأيوبيين الذين خلفوا الملك الكامل مباشرة على عرش السلطنة . وقد سبق أن قلت فى مقدمة هذا البحث إن الملك الصالح أيوب ترك القلعة ليقيم بقلعة الروضة . وليس لدى شيء ذو بال أضيفه إلى ذلك القول ، وكل ما فى الأمر أنى سأقتصر فى هذا الفصل على الحديث عن بعض التفاصيل التى لا تتعلق بالجوهر بقدر ما تتعلق بالظروف والأحوال التى مرت بها القلعة التى يمدنا بها مؤرخو عصر سلاطين المماليك (١) . وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن القلعة فى عصر سلاطين المماليك ، لا يفوتنا ذكر القاعة الصالحية التى أنشأها بها الملك الصالح أيوب ، التى سكنها السلاطين من بعده حتى سنة ٦٨٤ هـ ، وهى السنة التى احترقت فيها هذه القاعة (٢) .

فبعد زوال ملك الأيوبيين أقام الملك المعز (نجم الدين أيبك) بالقلعة ، وقد أصبحت القلعة منذ ذلك الحين مقراً دائماً للسلطنة . وليس لدينا أية إشارة تفيد بأن الملك المعز قد قام ، أثناء سلطنته ، بأية منشآت جديدة بالقلعة . بل يبدو أنه ترك الجلوس بإيوان الملك الكامل ، إذ من المعروف أنه كان يجلس للنظر فى المظالم بالمدرسة الصالحية (٣) ، وبصحبته نوّاب دار العدل (٤) . ولم تكن دار العدل هذه — كما سنرى فيما بعد — شيئاً آخر غير الإيوان .

---

(١) ابتداء من هذه الفترة حتى عام ٧٠٨ هـ ، يعتبر كتاب كترمير (Histoire des Sultans Mamlouks) وهو ترجمة فرنسية لكتاب السلوك للمقريزى ، بمثابة مرشد قيم لنا فى هذه الدراسة ، وسأشير اليه فى الحواشى التالية بالحرفين S.M. .

(٢) S.M. II, 2ème Partie, p. 81

(٣) فيما يختص بهذه المدرسة ، انظر الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٣٧٤ .

(٤) نقل بيبرس دار العدل الى مكان آخر ، كما سنرى فيما بعد .

ومن الجائز أن ننسب إليه بناء « قاعة العواميد » (١) التى تعرف أيضاً « بقاعةالعمد (٢) » أو « بقاعة الأعمدة » (٣) . أو أن إنشاء هذه القاعة الخاصة ينسب — على أقل تقدير — إلى زوجته شجر الدر (٤) ، التى كانت السلطانة الحقيقية لمصر لفترة من الوقت . وفى هذا الصدد يقول ابن إياس : (وإلى شجر الدر تنسب مرتبة خاتون التى فى قاعة الأعمدة (٥)) . وكانت هذه القاعة — كما سنرى فى فرصة أخرى — تتصل بدور الحريم . وأما « المرتبة Le règlement » التى يتحدث عنها ابن اياس فى هذه القاعة فكانت خاصة بالعرش المخصص للحريم (٦) ، إذ أننا سنرى أن إحدى خوندات السلطان كانت تجلس بهذه القاعة . وأخيراً ، فان هذه القاعة يتعين ألا تكون بعيدة جداً عن مدخل القلعة ، لأنها كانت بمثابة الدهليز الذى يؤدى إلى الأجنحة الخاصة بالسلطان . فهذا هو ما يفهم من هذه العبارة التى وردت على لسان المقريزى ، والتى يقول فيها : « وبعث (المعز) إليه (أقطاى) وقت القائلة فى يوم الأربعاء ثالث شعبان ، ليحضر إليه بقلعة الجبل فى مشور يأخذ رأيه فيه . فركب (أقطاى) على غير أهبة ولا اكتراث ، فعندما دخل من باب القلعة ، وصار إلى قاعة العواميد ، أغلق باب القلعة ومنع مماليكه من العبور معه . فخرج عليه جماعة بالدهليز أعدوا لقتله (٧) » . ولنترك الآن هذه القاعة ، وسأعود فيما بعد إلى الحديث عن موقعها على وجه الدقة .

هذا ويذكر ابن إياس أيضاً عن شجر الدر ، : « وكذلك تنسب إليها نوبة خاتون التى تدور فى القلعة بعد العشا(ء) بالطبل والخليلية (٨) » . وقد جاء ذكر هذه النوبة أيضاً على لسان غيره من المؤرخين . وما ذكره هؤلاء المؤرخون عنها يلخصه لنا كترمير فى إحدى حواشيه بقوله : « نوبة خاتون هى حفل تقليدى جرى العرف على إقامته كل مساء بقلعة الجبل ، حيث كان يجتمع هناك عدد كبير من الطبالين والزمارين . وكان يترأس هذه النوبة أحد مماليك والى القلعة وهو بلباسه الرسمى الكامل ، كما كان يمسك بيده عصاً مذهبة وأمامه يقف أحد حملة المشاعل وبيده مشعل صغير يلعب به فى خفة ورشاقة على أنغام الطبول والزمور (٩) » .

---

(١) انظر ما ذكره عن هذه القاعة كل من المقريزى (كتاب السلوك) ، وأبو المحاسن (النجوم الزاهرة) . — (كان بالقلعة عدة قاعات ، وكلها مخصصة لحاجات السلطان المنزلية ولاقامة حريمه وسراريه . ومن هذه القاعات ، القاعة الكبرى ، التى تعرف بالعواميد وكانت برسم خوند الكبرى، أى الزوجة الأولى للسلطان — انظر زبدة كشف الممالك ، ص ٢٦ — ٢٧) .

(٢) المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٨٠٣ ، ورقة ١٩ أ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٥٩٥ أ ، ورقة ٩٣ أ — (طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ٩٠) .

(٤) (بالأصل الفرنسى « شجرة الدر » وهى التسمية الشائعة لهذه السلطانة ، وصححتها «شجر الدر» وقد سمحت لنفسى أيضا بتصحيح هذه التسمية فيما ورد من نصوص على لسان ابن اياس والتى استشهد بها كازانوفا) .

(٥) ابن اياس ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٩٣ أ .

(٦) (أعتقد أن «المرتبة» كانت بمثابة عرش ، أو تخت أو سرير مخصص لجلوس خوند الكبرى ، أى الزوجة الأولى للسلطان) .

(٧) S.M., I, 1ère Partie, p. 47 (جريا على عادته لم يستشهد كازانوفا بالنص كاملا ، وقد آثرت اثبات النص كله كما ورد بالسلوك طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٣٩٠) .

(٨) ابن اياس ، المخطوطة السابقة نفسها والصفحة نفسها — (لم أستطع أن أعثر على هذا النص فى طبعة بولاق ، فلم يرد لا فى ترجمة شجر الدر ولا فى ترجمة المعز أيبك — انظر الجزء الأول ، ص ٨٩ — ٩٠ ، ٩٠ — ٩٣) .

(٩) S.M., I, 1ère Partie, p. 139 et note — يقصد بكلمة «النوبة» الموسيقا العسكرية ، والى (اليوم) لاتزال تضرب هذه النوبة بالجزائر بعد العشاء — (كان هذا — يحدث بالجزائر في أواخر القرن التاسع عشر ، وابان الإحتلال الفرنسي للجزائر) .

وجدير بالذكر أن النص الذى أشرت إليه لابن اياس يعتبر على درجة كبيرة من الأهمية ، لأنه يساعدنى فيما أعتقد فى إيضاح مشكلة صغيرة أثارها فان برشم (١) فالمقريزى يقول: إنه فى عهد (الناصر) محمد بن قلاوون أقيمت على باب زويلة خليليّة تدق كل مساء عقب صلاة العصر . وكلمة « الخليليّة » التى ذكرها المقريزى يترجمها فان برشم بكلمة جرس Cloche ، وذلك حسب فهمه لمضمون العبارة . وقبل فان برشم ترجم روزيه Rouzée فى كتاب « وصف مصر » هذه الكلمة بأنها «نوع من أنواع الطبول الضخمة (٢) » . وقد سألت شخصياً — أثناء إقامتى بالقاهرة — عن مدلول هذه الكلمة ، غير أنى لم أهتد إلى أى جواب شاف . ولما يئست من ذلك ظننت أن الأمر لايعدو أن يكون مجرد خطأ فى النسخ ، فقرأت هذه الكلمة « طبليّة » بدلا من « خليليّة » ، إلا أنى سرعان ما عدلت عن هذا الظن بعد أن رجعت إلى بعض المخطوطات الأخرى . ففى هذه المخطوطات عثرت على بعض النصوص التى وردت بها هذه الكلمة . فالمقريزى فى وصفه للباب المدرج الذى أوردت نصه من قبل يقول : «ومن خارجه تدق الخليليّة قبل المغرب » . والجوهرى يقول فى حوادث عام ٨٠٢ هـ إن السلطان ، «رسم بأن يعلق (رأسا الأميرين اللذين قاما بالفتنة) على باب القلعة عند الخليليّة (٣) » . وأخيرا ، يخبرنا ابن اياس ، بما لايدع مجالا للشك ، بأن الخليلية عبارة عن « آلة » شبيهة بالطبول تدق كل مساء عند حلول وقت النوبة غير أن عبارة الجوهرى يفهم منها أن الخليلية اسم تعرف به إحدى الأبنية . وقياساً على ذلك فلنتذكر أن كلمة « طبلخانه » تعنى مجموعة الطبول التى يدق عليها ، كما تعنى الدار التى يقيم بها الضاربون على الطبول . وهذا ما سأتحدث عنه فيما بعد .

ومن ثم ، فإنه يتضح من كل هذه الأقوال أن « الخليليّة » إنما هى نوع معين من الطبول . فمن أين جاءت هذه التسمية ؟ إن كليرمونت جانو CLERMONT-GANNEAU ، الذى كتب لى بصدد هذه النقطة ، يقرّب لنا معنى هذه الكلمة تقريباً جميلا . فيذكر أن مجير الدين فى كتابه « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» يقول : إن سيدنا إبراهيم هو أول من مد السماط ، وأن هذا السماط كان يعلن عنه كل مساء على دقات الطبول . ثم يتساءل المستشرق العالم عما إذا كانت هذه الكلمة التى تحيرنا قد اشتقت مما ذكره مجير الدين عن مد السماط ببلد الخليل ، إلا أنه يعود فيتحفظ ويرى أن هذه الكلمة ، فى هذه الحالة . لابد أن تكون معروفة لدى الكتاب الذين تكلموا عن الآلات الموسيقية . وقد كتب لى فان برشم يخبرنى بأن جولد زيهر يرى الرأى نفسه الذى يراه كليرمونت جانو. غير أنى أتساءل — بعد قراءة عبارة ابن إياس — أليس من الأصوب أن نقابل بين هذا الاصطلاح وبين اللقب الرسمى الذى لقبت به شجر الدر ، وهو « والدة خليل (٤) » ، وأليس من الجائز أن تكون هذه النوبة قد تقررت تشريفاً لابنها خليل .

وكيفما كان الأمر ، فإن اشتقاق هذه الكلمة يظل على مابه من غموض . ومع ذلك ، فإنى أرى أنه لم يعد هناك — على الأقل — ثمة صعوبة فيما يختص بمعناها ، فالخليلية هى نوع من الطبول . ويبدو أن هذه الكلمة مصرية النشأة وأن أصلها لابد أن يكون مستمداً من التقاليد الحربية لسلاطين المماليك .

(١) Archéologie Arabe, tirage à part, pp. 45 et 46; et deuxième article, tirage à part, p. 31.

(٢) Description de l'Egypte, 2ème éd., XVIII, 2ème Partie, p. 528

(٣) الجوهرى : نزهة النفوس والأبدان ، الجزء الأول، ورقة ٣٩٥ .

(٤) قارن ذلك بما ذكره : STANLEY LANE POOLE, Catalogue ef Oriental Coins, IV, Introduction, p. XVII et p. 136

وشجر الدر هى التى دفعها حقدها على زوجها الملك المعزّ — الذى يدين لها بعرش السلطنة — إلى التآمر على قتله بالحمّام بالقلعة بعد أن عرفت أنه ينوى التزوج عليها . وقد نالت بدورها جزاء ما اقترفت يداها فقام بتعذيبها مماليك زوجها إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة ، ثم ألقيت جثتها وهى نصف عارية فى خندق القلعة حيث ظلت بضعة أيام نهباً للكلاب (١) . وبعد شجر الدر ، والملك المعزّ . نمر مر الكرام على الملك المنصور ، ثانى سلاطين المماليك الذى لم يترك عهده أى أثر فى تاريخ السلطنة المملوكية ، وكذلك السلطان الثالث ، الملك المظفرّ (قطز) لقصر عهده وانشغاله بمحاربة المغول فى سورية . وبذلك نكون قد وصلنا إلى سلطنة الملك الظاهر (ركن الدين بيبرس) رابع سلاطين المماليك وأعظمهم شهرة ، والذى لا تزال ذكراه حية خالدة فى نفوس المصريين تغذى قريحة القصاص الشعبيين بما يروونه عنه (٢) . لقد كان هذا السلطان مشغوفاً بالعمارة إلى حد كبير ، وإليه تنسب المنشآت الأولى التى استجدت بالقلعة .

ويلخص لنا أبو المحاسن كل ما أنشأه بالقلعة فى هذه العبارة : (وعمر بقلعة الجبل دار الذهب وبرجيه ، الخارج فيه قبة محمولة على اثنى عشر عمود (آ) من الرخام الملون ، وصور فيها سائر حاشيته وأمرائه على هيئتهم . وعمرّ بالقلعة أيضاً طبقتين مطلتين على رحبة الجامع . وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة وأخرج منه رواشن وبنى عليه قبة وزخرف سقفها ، وأنشأ جوار (ه) طباقاً لمماليكه أيضاً . وأنشأ تجاه برجيه بباب القلعة دار (آ) كبيرة لولده الملك السعيد ، وكان فى موضعها حفير فعقد عليه ستة عشر عقداً .) (٣)

ولنبدأ بدراسة هذه المنشآت المختلفة . فأما دار الذهب فيبدو لنا أنها هى نفسها «القاعة الظاهرية» أو «الدار الجديدة» . ففيما يختص بالقاعة الظاهرية إليك ما يذكره لنا شافع بن على الذى لخص فى كتابه (المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية) ماكتبه ابن عبد الظاهر عن سيرة الظاهر بيبرس (وكان ابن عبد الظاهر كاتباً للظاهر بيبرس) . يقول شافع بن على ، «وفيه (أى فى عام ٦٦٤ ه) أنجزت عمارة القاعة الظاهرية المجاورة لباب سر قلعة الجبل المحروسة ، المتولى عمارتها الأمير عز الدين أيبك الفخرى . وهى قاعة عظيمة قد تفنن فى عمارتها وزخرفتها وتنوهى فيها إلى الغاية والنهاية . ولما أنجزت جلس بها السلطان ومد سماطاً وخلع على عز الدين الفخرى مشدها (٤) ...

ومما أنشده الصاحب محيى الدين (ابن عبد الظاهر) جامع سيرته (٥) ... »

وعن الدار الجديدة يحدثنا المقريزى بقوله :

---

(١) S.M., I, 1ère Partie, p. 70-72 — اقرأ عن شجر الدر البحث القيم الذى كتبه عنها DE MERIONEC فى مجلة المعهد المصرى Bull. de l'Institut Egyptien سنة ١٨٨٨ ، ص ٩١ ومايليها — (انظر أيضا السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٣٦٢) .

(٢) انظر LANE, The Modern Egyptians, 5ème éd., 1860, p. 400 sq.

(٣) فيما يختص بطباق المماليك انظر : S.M., II, 2ème Partie, p. 14, note

(٤) النجوم الزاهرة، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٦٧٠ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٨١) ، ورقة ١٨١ أ . — (يوجد خلاف كبير بين هذا النص الذى أورده كازانوفا عن النسخة الخطية للنجوم الزاهرة الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس ، والنص الذى ورد بالنسخة المطبوعة ، طبعة دار الكتب ، الجزء السابع ، ص ١٩٠ — ١٩١ . ولذلك فقد عدلت عن اثباته هنا ، وعلى القارىء أن يرجع اليه والى التعليقات التى أثبتها محقق هذا الجزء عليه) .

(٥) عن كلمة «مشد» انظر : S.M., I, 1ère Partie, p. 110, note

(٦) المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٨٠٣ ، ورقة ٨١ ب — لقد أشفقت على القارىء من ذكر الأبيات الشعرية التى أنشدها ابن عبد الظاهر والتى تستعصى على الفهم . وانى لأعترف بأنى لم أتمكن من تحقيق نص هذه الأبيات التى أصابها التحريف فى هذه المخطوطة بدرجة كبيرة، هذا ان لم يكن الأمر قد اختلط على .

« الدار الجديدة : هذه الدار عند باب سر قلعة الجبل المطل على سوق الخيل ، عمرها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فى سنة أربع وستين وستمائة ، وعمل بها فى جمادى الأولى منها دعوة للأمراء عند فراغها (١) . »

ومن هذين النصين يتضح لى أن القاعة الظاهرية والدار الجديدة ليستا سوى اسمين مختلفين لمبنى واحد . هذا ومن جهة أخرى فإن التفنن والمغالاة فى زخرفة القاعة الظاهرية ، وكذلك دار الذهب ، لا يدع مجالا للشك فى أنهما مبنى واحد وإن اختلفت أسماؤهما . ومن ثم يمكن القول بأن دار الذهب ، والقاعة الظاهرية ، والدار الجديدة ، ماهى إلا أسماء ثلاثة لدار واحدة .

وبعد دار الذهب نستأنف الحديث عن بقية منشآت بيبرس حسب ترتيب ذكرها فى نص أبى المحاسن . إن كلمة « برجيه » التى وردت بهذا النص ، بعد دار الذهب ، يحيط بها الغموض ، وذلك أن الضمير فى هذه الكلمة لا يمكن أن يكون عائداً على كلمة « دار » لأنها مؤنث . هذا ومن جهة أخرى فإن كلمة « برجيه » يرد ذكرها بالنص مرة ثانية . والظاهر أن المقصود من هذه الكلمة هو « البرجان اللذان أنشأهما بيبرس » . ويبدو أيضاً أن الكاتب عندما ذكر كلمة « برجيه » للمرة الثانية ، يريد أن يقول : إن هذين البرجين تجاه باب القلعة . ومن المعروف أنه عندما يقال باب القلعة فإن المقصود هو باب القلعة الرئيسى ، أى باب سارية . كما يشير أبو المحاسن ، فى نصه ، إلى وجود منخفض عميق بالأرض « حفير » فى هذه النقطة ، فأين يوجد ذلك الحفير ؟

لكى نعرف شيئاً عن هذا الحفير علينا أن نلاحظ — بادىء ذى بدء — أن باب سارية يقع على ارتفاع كبير من سطح الأرض بحيث لا يتوصل إليه إلا عن طريق درج طويل (انظر خريطة عام ١٧٩٨) . فإذا ما فرضنا أن هذا الحفير الذى يتحكم فى مدخل الباب كان يشطره سور القلعة إلى شطرين ، فإن أحد هذين الشطرين سيكون داخل سور القلعة ، وأن الدار التى تبنى فى هذا المكان تكون بباب القلعة تماماً .

هذا ويذكر أبو المحاسن أن هذين البرجين كانا تجاه الدار . غير أنه بناء على ما ورد على لسان غيره من المؤرخين ، فإن مجموعة المنشآت التى تشتمل فيما تشتمل عليه على هذين البرجين كانت على مقربة من باب السر . وهذا مما يجعلنى أحدد موقع هذين البرجين بالقرب من إيوان الملك الكامل — أو على وجه التحديد — فيما بين هذا الإيوان وباب السر . وذلك أنه إذا ما نظرنا إلى مخطط القلعة كما رسمته على عهد الملك الكامل فإننا نرى أن موقع هذين البرجين ، كما حددته ، ينطبق عليه — على وجه التقريب — كلمة « تجاه » المطاطة . كما يفهم من النص أن دار بيبرس (دار الذهب) ودار ولده (الملك السعيد) كان كل منهما تجاه الآخر . هذا ومن الجائز أن يفهم أيضاً أن هذه الدار الثانية لم تكن داخل سور القلعة ، وهو ما يتمشى بصورة أفضل مع ما افترضناه من أن الحفير ينقسم إلى قسمين ، وأن هذه الدار كانت تجاه دار الذهب . ومع ذلك فإنه واضح تماماً من مضمون النص أن الدارين كانتا داخل السور .

هذا ويتحدث شافع بن على عن برج يقال له « برج العافية » . ومن جهة أخرى ، فإنه أحياناً ما يصادفنا ذكر « برج السباع » . وبما أن السباع كانت الرنك الخاص ببيبرس ، فمن المحتمل أن يكون هذا البرج الأخير أحد الأبراج الثلاثة التى أنشأها السلطان ، غير أننا لا نعرف أيهما يكون .

وأما برج « الزاوية المجاورة لباب القلعة ، فإنى لأرى — دون ما تردد — أنه ليس سوى القلة التى أنشأها بيبرس ،

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٢ ، س ٢٩ — وقارن ذلك بما ورد فى :
S.M., I, 2ème Partie, p. 26

كما يذكر المقريزى (١)]. وهى التى عرف بها الباب الذى يصل بين سورى القلعة (انظر من قبل وفى هذه الحالة ، فإن الزاوية التى أقيم بها هذا البرج تشغل – على وجه التقريب – زاوية السور ، فيما بين باب سارية وباب القلة (٢) .

وإذا ما فرضنا أن الجامع كان بالمكان نفسه الذى يوجد به الآن جامع محمد بن قلاوون (انظر فيما بعد ، الفصل التاسع) : فإن رحبة الجامع كانت تشغل ذلك الفضاء الواقع فيما بين باب القلة والجامع المذكور . وما دام قد اتضح لنا موقع الرحبة فإنى أحيل القارىء إلى المخطط الذى أوضحت عليه موقع هاتين الطبقتين (المطلتين عليها) واللتين عمرهما بيبرس (٣) .

وينسب المقريزى ، فى خططه ، فى وضوح تام إلى بيبرس إنشاء أحد المبانى الملحقة الهامة بالقلعة ، وهذا المبنى هو دار العدل . غير أنه لا أبو المحاسن ، ولا صاحب سيرة الظاهر بيبرس ، يذكران شيئاً عن ذلك . ومن جهة أخرى ، فإن المقريزى فى كتاب السلوك يذكر أن بيبرس جدد هذه الدار ، إذ يقول « وفى هذه السنة (٦٦١ ﻫ .) جددت دار العدل تحت قلعة الجبل ، وجلس بها السلطان فى يومى الخميس والإثنين (من كل أسبوع) لعرض العساكر (٤) » . هذا ومن المؤكد أن دار العدل هذه هى شىء آخر غير الإيوان ، إذ أننا نجد شافع بن على يشير إليها فى إحدى عباراته بقوله « دار العدل السفلى » ثم يضيف موضحاً : « وهى تربة بنى المهتار من أمراء المصريين (٥) » . وبعد قوله هذا ببضع صفحات يحدثنا عن « الإيوان الكبير المجاور لجامع القلعة (٦) » . ويتضح من هذه التفاصيل – فيما يبدو لى – وجود كل من الإيوان ودار العدل فى آن واحد ، وبما أن الإيوان كان يعرف أيضاً بدار العدل فقد عرفت دار العدل الثانية بدار العدل السفلى . غير أننا نتساءل هل كان الإيوان ودار العدل السفلى يوجدان منذ عهد الملك الكامل ؟ لقد سبق أن أثبتنا ذلك بالنسبة للإيوان ، وأما دار العدل السفلى هذه فليس لدينا أية معلومات عنها سوى عمارتها من جديد وتوسيعها – على الأرجح – على يد بيبرس .

وإليك ما يذكره المقريزى عن هذه الدار ، « دار العدل القديمة » : هذه الدار موضعها الآن تحت القلعة يعرف بالطبلخاناه ، والذى بنى دار العدل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فى سنة إحدى وستين وستمائة . وصار يجلس بها لعرض العساكر فى كل اثنين وخميس ، وابتدأ بالحضور فى أول سنة اثنين وستين وستمائة .... .

ويعقب المقريزى على ذلك برواية بعض النوادر المتصلة ببعض الأحكام الهامة التى قضى بها السلطان وهو فى مجلسه بهذه الدار ، وبما أن هذه النوادر لا تتصل بموضوع بحثى مباشرة فقد رأيت حذفها . وإنما يكفينى ، فى هذا المجال ، أن أنوه إلى أن هذه الأحكام تتعلق بمشاكل الساعة على اختلاف ألوانها ، من تظلم المقطعين من ديوان

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٢ ، س ٣٦ (باب القلعة عرف بذلك من أجل أنه كان هناك قلة بناها الملك الظاهر بيبرس) .

(٢) القلة معناها البرج القائم بمفرده . وحتى (الآن) لايزال الناس فى استانبول يطلقون هذه الكلمة على أبراج المراقبة بحيى غلطة وبيره . هـذا يلاحظ على خريطة عـام ١٧٩٨ (القلعة ، رقم ٦٢) برج كبير قائم بمفرده يقال له « برج خزنة قلة» ، فهل يمكن أن نعتبر هذا البرج احدى الذكريات المتصلة بالقلعة التى بناها بيبرس .

(٣) (انظر المخطط رقم ٩) .

(٤) S.M., I, 1ère Partie, p. 223 _ (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الاول ، ص ٥٠١).

(٥) المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٨٠٣ ، ورقة ٤٠ أ .

(٦) المخطوطة السابقة ، ورقة ٦٠ أ .

الجيش ، والنظر فى شكاوى الأفراد ، والتخفيف من آلام الشعب عندما حل القحط والمجاعة بالبلاد ، وتحديد سعر العملة ..... وغيرها من شئون الحكم . وفى هذه الأحكام يتمثل لنا الخلط التام بين السلطتين : الإدارية والقضائية ، وهو نظام الحكم المطلق الذى كان متبعاً على الدوام بالشرق . — ثم يعود المقريزى إلى الكلام عن هذه الدار ، فيقول : « وما برحت دار العدل هذه باقية إلى أن استجد السلطان الملك المنصور قلاوون الإيوان ، فهجرت دار العدل هذه إلى أن كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة فهدمها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وعمل موضعها الطبلخاناه (١) . » — فأما الطبلخاناه هذه فسأترك تحديد موقعها على وجه الدقة إلى أن تحين لى فرصة الحديث عنها فيما بعد :

وكانت القلعة ، على عهد السلطان بيبرس ، مسرحاً لحدث تاريخى عظيم الأهمية . وفيما يختص بتفاصيل هذا الحدث التاريخى فإنى أحيل القارىء إلى كتاب السلوك للمقريزى ، ترجمة كترمير (٢) ، وأما هنا فإنى ألخص لهذا الحدث فى بضعة سطور .

فبعد سقوط بغداد فى يد التتار (٦٥٦ هـ) ومقتل العباسيين على أيديهم ، تمكن الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة العباسى الظاهر (٦٢٢ — ٦٢٣ هـ) من النجاة بنفسه والاختفاء بضع سنوات لدى عرب العراق . وفى سنة ٦٥٩ هـ قرر الالتجاء إلى مصر حيث استقبله بيبرس فى حفاوة بالغة . وفى الثالث عشر من شهر رجب من هذه السنة احتفل بيبرس رسمياً بتنصيبه خليفة للمسلمين ولقب بالمستنصر بالله . وفى السابع عشر من الشهر نفسه ، وهو يوم جمعة ، خطب الخليفة فى الناس فى جامع القلعة ، ثم قام بدوره وعهد بالسلطنة إلى بيبرس . ثم أمده بيبرس بجيش لاستعادة بغداد من التتار ، غير أن نهاية هذه الحملة ، كانت مفجعة ، فقد أبيد رجالها عن آخرهم وعلى رأسهم الخليفة الجديد . ثم خلفه أحد أقاربه ، وهو الأمير أبو العباس أحمد ، الذى تلقّب بالحاكم بأمر الله ، ووصل إلى القاهرة فى السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ستمائة وستين . (فاحتفل السلطان للقائه ، وأنزله فى البرج الكبير داخل قلعة الجبل ، ورتب له ما يحتاج إليه (٣) . .)

ومنذ ذلك الحين والخلفاء العباسيون يقيمون بمصر . وقد اقتصر نفوذهم — فيما عدا بعض الفترات القصيرة — على تمتعهم بالسلطة الروحية فقط وببعض الوظائف الشرفية التى منحت لهم ، وهكذا عاشوا فى سلام ووئام مع سلاطين المماليك . وكانوا يسكنون فى بادىء الأمر بقلعة الجبل ، ثم تحولوا منها إلى مناظر الكبش وظلوا يسكنونها إلى أن تنازل آخرهم (المتوكل على الله بن المستمسك) عن الخلافة للسلطان سليم فى سنة ٩٢١ هـ (٤) .

ويبدو لى أن هذا البرج الكبير الذى نزل به الخليفة الحاكم بأمر الله هو الذى أشار إليه المقريزى فى حديثه

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٥ ، س ١٩ ، ص ٢٠٦ ، س ٢٥ .

(٢) انظر : S.M., I, 1ère partie, p. 146 sq. — وقارن ذلك بما ذكره : WEIL, Geschichte der Chalifen in Aegypten

(انظر أيضا السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٤٤٨ ومايليها)

(٣) S.M., I, 1ère Partie, p. 172. —(السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص٤٦٨).

(٤) (فيما يختص بالخلفاء العباسيين بمصر وعلاقتهم بسلاطين المماليك انظر : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ١٧٩ وما يليها ، والدكتور ابراهيم على طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة . ص ٥١ ومايليها) .

عن حوادث سنة ٧٢٤ هـ بقوله : « البرج المرسوم للمصادرين بباب القرافة من القلعة (١) » ، إذ أن هذا البرج ضخم حقاً .

ولا يفوتني أن أترك عهد بيبرس دون أن أتحدث في بضع كلمات عن إحدى النقاط ، وذلك على الرغم من أنها لا تتعلق بعهده إلا بطريق غير مباشر . وهذه النقطة ، هي تسمية باب سارية أو باب المدرّج ، بباب الدرفيل ، نسبة لأحد أمراء بيبرس الذي كان يعرف بهذا الاسم . وتفسير ذلك لا يعدو أن يكون في غاية البساطة إذا كان الأمر لا يقتضي سوى الرجوع إلى النص الذي أورده المقريزي في خططه عن هذا الباب . غير أن هذه البساطة لا تلبث أن تتبدد في ضوء ما ذكره الكاتب نفسه في كتابه الثاني : السلوك ، إذ أنه يناقض نفسه تناقضاً تاماً فيما ذكره عنه في الخطط .

وإليك أولا ما جاء عن هذا الباب بالخطط ، « باب الدرفيل : هذا الباب بجانب خندق القلعة ويعرف أيضاً بباب المدرّج وكان يعرف قديما بباب سارية ويوصل إليه من تحت دار الضيافة وينتهي منه إلى القرافة وهو فيما بين سور القلعة والجبل ... ... والدرفيل هو الأمير حسام الدين لاجين الأيدمري المعروف بالدرفيل ، دوادار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ، مات في سنة اثنتين وسبعين وستمائة (٢) » . وقد حاولت من قبل تفسير هذا النص ، غير أنه قد آن الأوان لأعود إلى تفسيره في شيء من الدقة .

فإذا ما أخذنا بهذا النص فإننا نتوصل إلى أن باب الدرفيل كان يقع خارج القلعة . وهذه النتيجة تبدو أكثر وضوحاً في أحد الأسطر بكتاب السلوك حيث يخبرنا المقريزي بأنه ، « بنى حائطا بين باب الدرفيل وسور القلعة وابتنى أيضاً حائطاً من جوار باب الدرفيل إلى الجبل (٣) » . وقد تبين لي استحالة مثل هذا الوضع بالنسبة لباب الدرفيل في حالة ما إذا كان هو الباب الرئيسي للقلعة ، فضلا على أن ما نعرفه عن باب سارية يدفعنا إلى القول — على الرغم مما يؤكده المقريزي في خططه — أن باب الدرفيل ليس هو قطعاً باب سارية .

هذا وقد ورد أيضاً في كتاب السلوك ، في الصفحة نفسها العبارة التالية ، « وسُدّ باب الدرفيل بجوار القلعة ، والباب المجاور للقلعة المعروف قديماً بباب سارية يعرف اليوم بباب المدرّج (٤) » . وإني لأعتقد أن الأمر لم يعد يتطلب ، بعد هذا القول ، أي مزيد من الإيضاح .

غير أننا نتساءل كيف بلغ الأمر بالمقريزي أن يقع في مثل هذا التناقض الصارخ في وصفه لهذا الباب في كتابيه ، الخطط والسلوك ؟ إن هذا هو ما سأقوم بتفسيره ، وإني لأعتقد أن ذلك التفسير هو أقرب التفسيرات إلى الصحة .

فإذا ما نظرنا إلى مخطّط القلعة في عام ١٧٩٨ فإننا نلاحظ وجود درج طويل جداً يصعد إلى المكان الذي يوجد به الباب الرئيسي للقلعة ، وهو الباب الذي نقش أعلاه صلاح الدين النقش التذكاري الخاص ببنائها والذي يحمل اسمه (نظراً لأن محمد على قد غيّر معالم هذه المنطقة تغييراً كلياً فقد اختفى الآن الجزء الأسفل من هذا الدرج) .

---

(١) (سقط سهوا من المؤلف رقم النسخة الخطية للسلوك الذى ورد بها هذا النص وان كان قد أشار الى رقم الورقة ، ولذلك تعذر علينا تحقيق هذه العبارة. وقد رجعت الى السلوك، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثانى ، ص ٢٥٥ فوجدت هذه العبارة ، «حضر .. فعوق ببرج باب القرافة») .

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٥ ، س١٥ ــ عن هذا الأمير انظر : S.M., I, 2ème Partie, p. 119

(٣) النسخة الخطية من السلوك بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٦٧٢ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦) ورقة ١٨١ أ .

(٤) النسخة الخطية السابقة نفسها ، الورقة نفسها ــ هذا ويذكر لنا الجوهرى أيضا (نزهة النفوس ، الجزء الأول، ورقة ١١٣ ، أنه قد سد «الباب المجاور للقلعة المعروف قديما بباب سارية ويعرف الآن بباب المدرج» .

وإذا ما فرضنا أنه كان يوجد باب عند بداية هذا الدرج ، فإن هذا الباب يكون بهذا الوضع خارج القلعة ومجاورا لها في الوقت نفسه . وهذا الوضع لا يزال قائماً حتى الآن . فالباب الذي يدخل منه إلى القلعة متصل تماماً بسوري القلعة (سور صلاح الدين وسور الملك الكامل) وذلك عن طريق جدار يصل بينهما ، غير أنه لا يعتبر ، بأي حال من الأحوال ، جزءاً من بناء القلعة . وهذا الباب نفسه أقيم عوضاً عن باب آخر مسدود الآن ، ويبدو لي أن هذا الباب المسدود هو — على وجه التقريب — باب الدرفيل . وبما أن هذا الباب كان يفتح على هذا الدرج (الذي يعرف بسلم المدرّج) فإنه من الممكن أيضاً أن يسمى باب المدرّج ، ومن الممكن أيضاً أن يسمى بالاسم نفسه باب سارية ، الذي يطل أيضاً على نفس السلم . ومن هنا كان هذا الغموض الذي أدى إلى ذلك التناقض في أقوال المقريزي :

ولكي ألخص رأيي هذا ، أقول إنه كان يخلط بين البابين اللذين كانا يقعان عند طرفي سلم المدرّج . فكان يعرف كل منهما بباب المدرّج ، وكان يجب أن يسمى كل منهما على النحو الآتي : الباب الأعلى باب سارية ، والباب الأسفل باب الدرفيل . وقد عرف الباب الأسفل بهذا الاسم في عهد بيبرس ، فليس هناك شك في أن الأمير حسام الدين لاجين ، المعروف بالدرفيل ، كان ذا صلة ما بموضوع إنشاء أو تجديد عمارة هذا الباب . غير أنه ليس لدى أي دليل لبيان كنه هذه الصلة .

وليس لدى ما أذكره عن عهد ابنه القصير الأمد سوى وجود برج يقال له برج الرفرف ، كان يشرف على الاسطبل (١) . وستتاح لنا الفرصة عن قريب لنعود إلى الحديث عن « الرفرف » .

وأما عهد قلاوون فهو الذي يستحق أن نتوقف عنده كثيراً . فقد رأينا أن المقريزي ينسب إليه تجديد عمارة الإيوان . ولئن أثير دهشة القارىء — أكثر من ذي قبل — إذا ما أوضحت له مزيداً من المتناقضات والغموض في أقوال هذا الكاتب . وها أنذا أحاول ، مرة أخرى ، إيضاح عباراته التي وردت في هذا الصدد في كتابه الخطط . فبعد أن حدثنا عن دار العدل التي أنشأها بيبرس خارج القلعة ، يضيف إلى ذلك قوله ، « وما برحت دار العدل هذه باقية إلى أن استجد السلطان الملك المنصور قلاوون الإيوان فهجرت... ... الخ(٢) » ويفهم من هذه العبارة أن الإيوان هجر في عهد بيبرس واستعيض عنه بدار العدل ، وأن دار العدل هذه ما لبثت أن هجرت بدورها بعد أن استجد قلاوون الإيوان . وهذا ما يؤكده ، فيما يبدو ، المقريزي في الصفحة نفسها من خططه بقوله ، « الإيوان المعروف بدار العدل : هذا الإيوان أنشأه السلطان الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي النجمي ، ثم جدده ابنه السلطان الملك الأشرف خليل ...... (٣) » . غير أنه يتضح مما جاء على لسان الكاتب نفسه ، في هذا الصدد ، في كتابه السلوك ، أنه لا الإيوان ولا دار العدل قد هجرت في عهد بيبرس أو في عهود خلفائه .

في سنة ٦٦٧ هـ ، أي بعد خمس سنوات من إنشاء دار العدل ، وجدنا الملك السعيد بركه بعد أن خلف أباه بيبرس ، يتخذ مجلسه بالإيوان حيث جددت الأيمان له وحلف له سائر العسكر والقضاة والمدرسون والأعيان (٤) . وبالإيوان أيضاً استقبل الأمراء ومماليكهم وألزامهم وأجنادهم وأتباعهم ومن انضم إليهم من العساكر ، وكانوا قد تخوفوا منه ... فلاطفهم في الحوار .... (٥) ، وفي سنة ٦٧٨ هـ ، ورد نبأ وفاة الملك السعيد بركة بالكرك ،

---

(١) S.M., I, 2ème Partie, p. 170

(٢) (ايضاحا للمتن رأيت ذكر عبارة المقريزي كاملة كما وردت بالخطط ، الجزء الثاني ، ص ٢٠٦) .

(٣) الخطط ، الجزء الثاني ، ص ٢٠٦ ، س ٣٠ .

(٤) S.M., I, 2ème Partie, p. 61 — (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٦٤٢) .

(٥) Ibid, p. 156 — (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٦٤٦) .

فعمل له السلطان قلاوون عزاء بالإيوان (١) . وفى سنة ٦٨٧ هـ مات الملك الصالح (بن قلاوون) فجلس أبوه بالإيوان يتقبل عزاء الناس فيه (٢) . هذا ومن جهة أخرى فإن قلاوون ، منذ الأيام الأولى لسلطانته ، قد لازم الجلوس بدار العدل فى يومى الإثنين والخميس (٣) ، وواضح أن دار العدل هذه هى دار العدل التى أنشأها بيبرس . وفى المحرم من سنة ٦٨٢ هـ يذكر المقريزى ما نصه : « فيه ، استخرجت الجوالى من الذمة ، وكانت العادة أن تستخرج فى شهر رمضان ، فأخر استخراجها إلى المحرم رفقاً بهم ، وحضر الصاحب نجم الدين الأصفونى بدار العدل تحت القلعة لاستخراجها (٤) » . هذا فضلا على أن المقريزى ، فى كتابه السلوك . لم يتعرض لإنشاء (السلطان قلاوون) للإيوان .

ومن ثم فإنه يمكن القول بأن العبارات التى جاءت على لسان المقريزى بالخطط مبالغ فيها ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون قلاوون ، وكذلك ابنه خليل ، لقد قاما ببعض الإصلاحات الطفيفة بالإيوان ، وأن قلاوون كان يجلس به للنظر فى المظالم بعد أن كانت تعقد ، منذ عهد بيبرس ، بدار العدل السفلى خارج القلعة .

وفى عام ٦٨٥ هـ بنى قلاوون قبة بالقلعة ، وهى التى يحدثنا عنها ابن عبد الظاهر فى شىء كثير من الدقة والتفصيل ، فيقول : « كان فى غيبته هذه المدة (فيما بين رجب وشوال) رسم ببناء قبة فى الرحبة الحمرا(ء) بالقلعة المحروسة بمباشرة الأمير علم الدين المنصورى . فجاءت من عجائب الأبنية التى ما عمّر مثلها ملك فى مملكة من الممالك . ومن عارض فى هذا القول فليقل : فلان فى المكان الفلانى فنسلم له ذلك . والذى بهذه القبة خاصة من العمد الكبار والصغار ، الملونة والمذهبة ، أربعة وتسعون عموداً خارجاً عن الرواقات . والذى ألصق بها من الذهب ألفان وثلاثمائة دست ذهباً مصرياً ، وأما من الرخام فما لا تحصى قيمته (ولا يحصى عدده) . وفى جدران رواقاتها صفة قلاع مولانا السلطان ، قلعة قلعة ، وحصناً حصنا ، ببحارها وأنهارها وسهولها وجبالها . وكتب على لوح رخام منها أن الشروع فيها كان فى مستهل شعبان من هذه السنة . ومما نظمه المملوك (٥) فيها :

شيّـــدت للملك كـــل قصر ... يربى اعتـــلاء عـــلى البرابى (٦)
فصرح بقليس فى انقضــــــاض ... وصرح هامان فى انقضــــــاب
وقصر غمـــدان فى انقـــــلاء ... وشعب بـــوّان فى انقـــلاب
يا حسنهـــا قبـــة تعالـــت ... حتى تنـــاهت إلى السحـــاب

ولما وصل مولانا السلطان جلس بهذه القبة فاستجلى جمالها واستحسن كمالها واستقبل إقبالها . وحضر صاحب حماه (٧) وعمه والأمرا(ء) جميعهم بها ... ... الخ (٨) . »

---

(١) Ibid, p. 162 _ (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٦٦٩).

(٢) S.M., II, 1ère Partie, p. 9 _ (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٧٤٤).

(٣) **Ibid, p. 99** _ (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٦٢٤).

(٤) S.M., I, 1ère Partie, p. 5 _ (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الاول ، ص٧١٢).

(٥) فيما يختص بهذا اللفظ ، أنظر ما سبق أن ذكرته من قبل فى هذا العدد نفسه .

(٦) فيما يختص بهذا اللفظ الذى يطلقه العرب على معابد مصر القديمة انظر عبد اللطيف البغدادى (الافادة والاعتبار ، ترجمة سلفستر دىَ ساسى) ، ص ١٨٢ ، ٢٣٠ .

(٧) السلطان الأيوبى الملك المظفر الثالث ، الذى خلف أباه ثم عمه الملك الأفضل على ، على عرش حماه ، فى عام ٦٨٣هـ. والملك الأفضل على هو والد المؤرخ المشهور أبو الفدا .

(٨) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة السلطان الملك المنصور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٨١٠ (Suppl.) ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٠٤ ، ورقة ٢٨٤ .

وبالإضافة إلى هذا الوصف المفصّل ، يمدنا المقريزى بحقيقة أخرى هامة . فهذه القبة — كما يذكر — قد بنيت مكان قلّة بيبرس ، التى سبق أن تحدثنا عنها . وإليك نص عبارته كما وردت فى وصفه لباب القلّة ، يقول : « عرف بذلك من أجل أنه كان هناك قلّة بناها الملك الظاهر بيبرس ، وهدمها الملك المنصور فى اليوم الحادى عشر من شهر رجب سنة خمس وثمانين وستمائة ، وبنى مكانها قبة فرغت عمارتها فى شوال منها ... ... (١) »

وبما أن هذه الحقيقة واضحة تماماً ، فإنه يمكننا أن نستخلص منها أن « الرحبة الحمراء » التى بنيت بها هذه القبة إنما هى الرحبة التى تقع فيما بين باب سارية وباب القرافة (انظر من قبل) .

كما ينسب إلى قلاوون أيضاً بناء دار النيابة ، وهى ما سنعود للحديث عنها فيما بعد . ويحدثنا المقريزى عن هذه الدار ، فى خططه ، بقوله : « دار النيابة : كان بقلعة الجبل دار النيابة بناها الملك المنصور قلاوون فى سنة ، سبع وثمانين وستمائة ، سكنها الأمير حسام الدين طرنطاى ، ومن بعده من نواب السلطنة . وكانت النواب تجلس بشباكها حتى هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ... ... (٢) »

وقام قلاوون أيضاً ببناء بعض المنشآت الخاصة باقامة مماليكه بالقلعة (٣) .

وفى ختام حديثى عن عهد قلاوون لا يفوتنى أن أذكّر القارىء بأنه أنشأ برجاً بالقلعة بالقرب من باب السّر وأن الحريق الذى شب بالقلعة سنة ٦٨٤ هـ . دمر القاعة الصالحية

وقد شبت النيران مرة ثانية بالقلعة فى سلطنة ابنه الأشرف خليل (٦٨٩ — ٦٩٤ هـ) ، وأحدثت كثيراً من الخسائر يفوق ما أحدثه الحريق الأول . وإلى القارىء وصف هذا الحريق الثانى كما جاء على لسان ابن عبد الظاهر المؤرخ الرسمى لكل من بيبرس وقلاوون وابنه خليل . يقول ابن عبد الظاهر : « فى ليلة الجمعة سابع عشر صفر (سنة ٦٩١ هـ) وقعت نار بالآدر الشريفة السلطانية قريب الخزائن المعمورة والذخائر وخزانة الكتب وغير ذلك . فقوى فعلها واستطار لهبها وارتفع وقدها وعلت حتى كادت تذهب بالأبصار ، فتكون الليل فى الإنارة كالنهار . (و) فى الوقت حضر مولانا السلطان لذلك معاجلا . وفتحت الأبواب وحضرت المماليك السلطانية من الأمرا(ء) كلهم وغيرهم واقتحموا تلك النيران بنفوسهم . ونقلت المياه من ذخاير الصهاريج وفتحت الأبواب ، فقالت سعادة مولانا الإلهية وبركاته الخليلية (٤) (يا نار كونى برداً وسلماً) ، فلوقتها صارت كذلك ودفع الله من المخاوف العظيمة) ما هنالك (٥) » .

= — (ماجاء بين الحاصرتين ، فى هذا النص ، كان قد سقط من النسخة الخطية ، وقد صحح النص نقلا عن النسخة المطبوعة — انظر :

— ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، ص ١٣٩ — ١٤٠ ، حققه الدكتور مراد كامل، طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومى ، القاهرة ١٩٦١) .

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٢ ، س ٣٧ — (يقتصر كازانوفا فى ايراد هذا النص ابتداء من كلمة «وهدمها» ، وقد آثرت نقل النص بأكمله زيادة فى الايضاح).

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٤ ، س ٣٣ — (أضفت العبارة الأخيرة فى النص زيادة فى الايضاح) .

— فيما يختص بالنائب انظر : S.M., I, Ière Partie, p. 95.

(٣) من بين هذه المنشآت السجن الرهيب الذى عرف بالجب ، وستتاح لى الفرصة ، فيما بعد ، لأتحدث عنه فى بضع كلمات .

(٤) كلمة «بركاته» Benedictions جاءت مصحوبة بالصفة «الخليلية» ، ولذلك استعصى على كازانوفا ترجمتها الى اللغة الفرنسية ، اذ أنها مجرد تلاعب بالالفاظ حول كلمة «الخليل» اسم سيدنا ابراهيم وسميه السلطان . وأما الآية الكريمة التى تلت ذلك ، فتشير الى قصة سيدنا ابراهيم عندما ألقى به فى النار (سورة الأنبياء ، آية رقم ٦٩) .

(٥) ابن عبد الظاهر : الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية، مخطوطة ميونيخ، القسم العربى=

ومما ينسبه المقريزى إلى الأشرف خليل القصر المعروف بالأشرفية – نسبة إلى لقبه – الذى بناه فى سنة ٦٩٢ هـ؛ ويذكر، فى هذا الصدد، أنه، «لما فرغ من بنائه صنع به مهماً عظيماً لم يعمل مثله فى الدولة التركية وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون (الذى خلفه على عرش السلطنة) وابن أخيه الأمير موسى بن الصالح على بن قلاوون». (الخطط، الجزء الثانى، ص ٢١١، س ٢٩).

وإليه ينسب المقريزى أيضاً عمارة الرفرف. وفى هذا يقول: «الرفرف عمّره الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وجعله عالياً يشرف على الجيزة كلها، وبيّضه وصور فيه أمرا(ء) الدولة وخواصها، وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها. وكان مجلساً يجلس فيه السلطان، واستمر جلوس الملوك به حتى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة، وعمل بجواره برجاً بجوار الإصطبل (و) نقل إليه المماليك (١)».

غير أن المقريزى قد سبق له ذكر «الرفرف» فى الفترة السابقة لعهد الأشرف خليل. ففى سنة ٦٧٨ هـ، أثناء حصار الأمراء للملك السعيد محمد بركة بن الظاهر بيبرس بالقلعة، يقول: «وصار السلطان يشرف من برج الرفرف المطل على الاسطبل ... ... (٢)». وبمقارنة هذه العبارة بالعبارة التى ذكرت آنفاً يتضح أن هذا البرج هو نفسه الذى ينسبه المقريزى إلى الناصر محمد. وهذا مثل آخر من أمثلة اللبس الذى كثيراً ما حدث بسبب الخلط بين هذه الكلمات: «بنى، جدّد، عمّر». غير أننا نستبيح للمقريزى عذراً فى ذلك، على الأقل بالنسبة للفترة السابقة عليه. فمنذ عهد بيبرس، والسلاطين قد انتابتهم حمّى البناء والتعمير، هذه الحمّى التى بلغت حدّتها على يد الناصر محمد بن قلاوون. إلا أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن هؤلاء السلاطين لم ينشئوا – اللهم فيما ندر – عمائر جديدة، وإنما كانوا يهدمون العمائر القائمة ليعيدوا بناءها من جديد، أكثر سعة وأجمل هيئة. وهذا هو ما نود أن نلفت نظر القارىء إليه. وأما فى الفترة المتأخرة، أى زمن الأتراك العثمانيين، فلم يكن أحد من الولاة يعمّر أو يرمّم ما هو قائم من عمائر، أو يهدمها ليبنى بدلا منها عمائر جديدة. وإنما كانوا يبنون بجانب العمائر القائمة وكثيراً ما تركوا ما بدءوا بناءه دون أن يقوموا بإكماله.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك بالقلعة وجود جامع محمد على بجانب جامع محمد بن قلاوون، وعلى بعد خطوات منها جامع الرفاعى الفخم الذى بدىء فى عمارته ثم توقف العمل به(٣). أفلم يكن من الأجدى والأولى لهذه الآلاف المؤلفة من الجنيهات التى أنفقت فى بناء هذا الجامع الجديد أن تنفق على عمارة جامع السلطان حسن القائم فى مواجهته بالضفة الأخرى من الشارع.

رقم ٤٠٥، ورقة ٦٠ أ.

– (صحح النص نقلا عن النسخة المطبوعة لهذا الكتاب انظر: من الجزء الثالث من الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية، ص ٤٢ – ٤٣، نشر موبرج MOBERG ليبزج سنة ١٩٠٢.

– كما جاء فى السلوك، طبعة الدكتور زيادة، الجزء الأول، ص ٧٧٧، أن هذا الحريق حدث فى رابع عشر من صفر).

(١) الخطط، الجزء الثانى، ص ٢١٢، السطر الأخير.

(٢) سقط سهوا من المؤلف الاشارة الى هذا النص بكتاب السلوك، ترجمة كترمير – (السلوك، طبعة الدكتور زيادة، الجزء الاول، ص ٦٥٤).

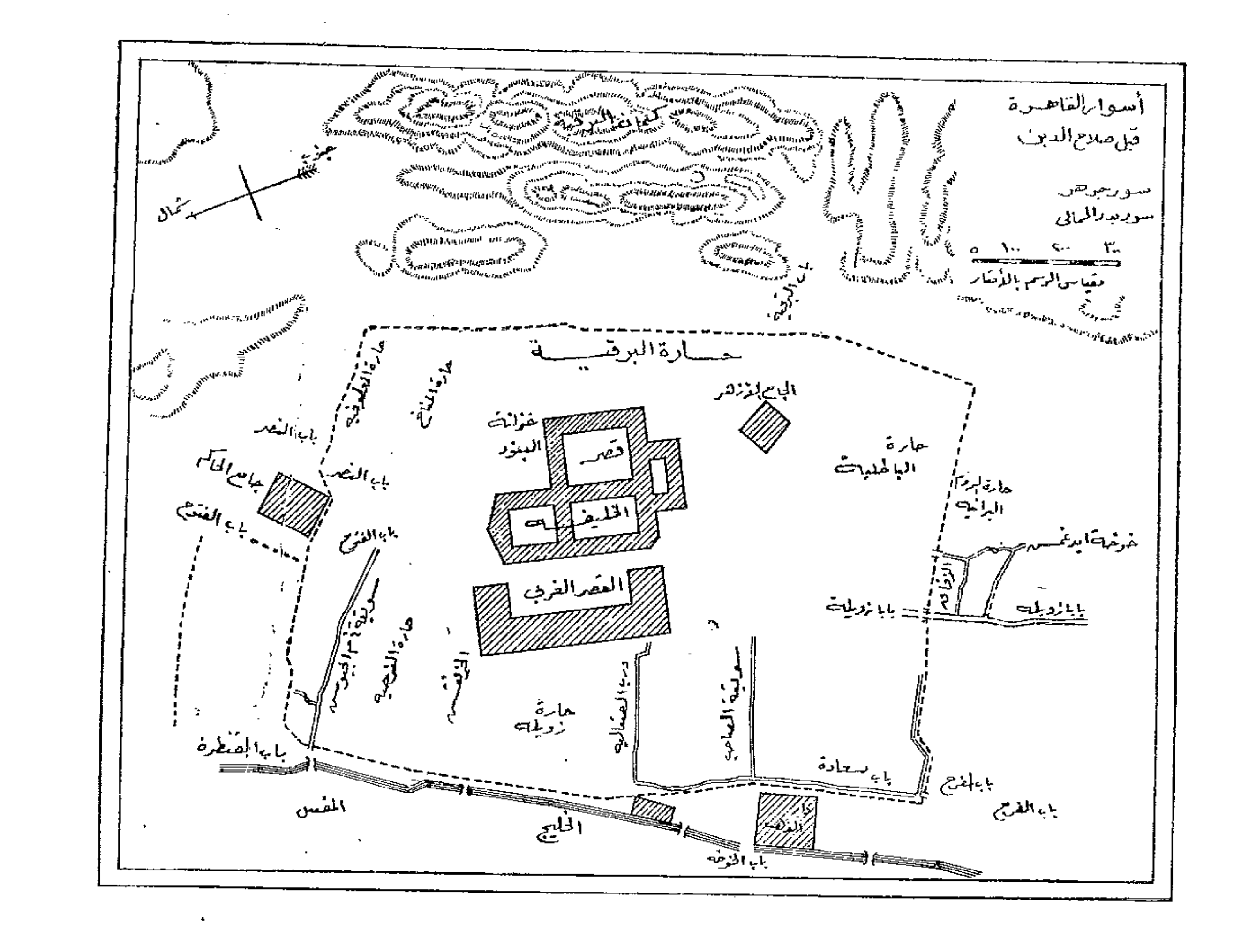
(٣) (جامع الرفاعى: أنشأته الأميرة خوشيار هانم والدة الخديو اسماعيل) سنة ١٢٨٦ هـ – ١٨٦٩ م، واشتهر باسم جامع الرفاعى لوجود ضريح الشيخ على أبو الشباك جد أحمد الرفاعى الصوفى المشهور به. وعندما وصلت المبانى الى جلسة الشبابيك توقف العمل، ثم تم بناء الجامع على عهد الخديو عباس حلمى الثانى سنة ١٣٣٠ هـ – ١٩١٢م. وقد بنى هذا الجامع ليكون مدفنا للعائلة المالكة السابقة الى جانب الأغراض الدينية الأخرى).

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الأسلوب الثانى فى حركة البناء الذى اتبع فى العصر التركى ، يعتبر بالنسبة لرجل الآثار أكثر فائدة — ونحن من جانبنا لنأسف أشد الأسف لأن محمد على لم يطبق تماما هذا الأسلوب الثانى ، وإنما هدم معظم عمائر محمد بن قلاوون لينشىء مكانها عمائره ، وهو فى ذلك لم يفعل إلا ما فعله محمد بن قلاوون بالنسبة لعمائر أسلافه من السلاطين . غير أنه لحسن الحظ — فيما يختص بدراستنا هذه ، فإن (علماء) الحملة الفرنسية قد تركوا لنا الرسوم والأوصاف الخاصة بالقلعة ، وهى ما سنستفيد منها من الآن فصاعدا .

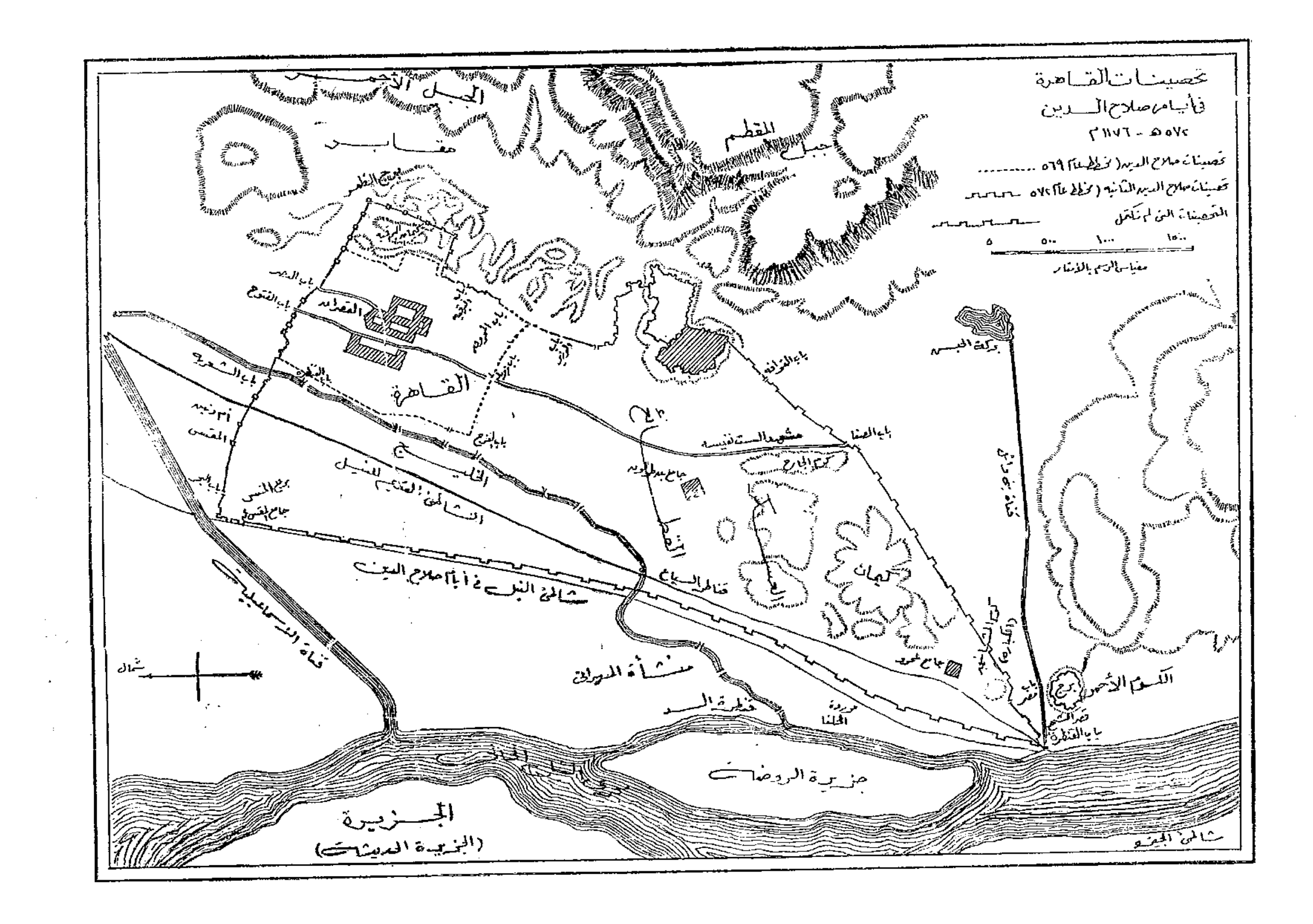
* * *

أثناء القيام بطبع الجزء الأول من هذه الدراسة ، نشر ماكس فان برشم الجزء الأول من كتابه « جامع الكتابات التاريخية العربية » . وبما أنه يدأ ، فى هذا الجزء ، بدراسة الكتابات التاريخية الخاصة بمصر ، فقد أتيحت له فرصة دراسة نقاط كثيرة ، منها ما تعرضت له فعلا فى دراستى هذه ، ومنها ما سأتعرض له فيما بعد . ومما هو جدير بالذكر أنه لم تتح لى — حتى الآن — فرصة الاستفادة من هذا الكتاب القيّم ، وأرجو أن يتاح لى ذلك أثناء دراسة الفصول التالية .

ومما يجدر التنويه به أيضاً أن جولد زيهر نشر (حديثاً) مقالا فذاً عن اصطلاح « الخليلية » فى مجلة Zeitschrift des Palastinavereins . كما أنبه القارىء إلى الحاشية الجديدة التى كتبتها عن هذا الاصطلاح ، والتى يجدها ملحقة فى نهاية هذا البحث .

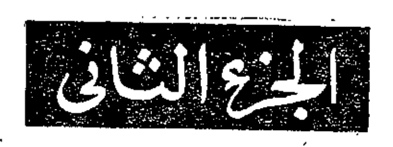


أسوار القاهرة
قبل صلاح الدين
سور جوهر
سور بدر الجمالي
مقياس الرسم بالأمتار
٥ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠
شمال
جنوب
كيمان البرقية
باب البرقية
حارة البرقية
الجامع الأزهر
خزانة البنود
قصر الخليفة
القصر الغربي
حارة الباطلية
حارة الروم البرانية
خوخة ابن عيسى
الزقاق
باب زويلة
باب زويلة
باب الفرج
باب الفرج
باب سعادة
سويقة الصاحب
درب الصقالبة
حارة زويلة
الزقاق
حارة العطوفية
حارة المناخ
حارة القيصرية
سويقة أم الغلام
باب القنطرة
المقس
الخليج
باب الزهرة
باب النصر
باب النصر
جامع الحاكم
باب الفتوح
باب الفتوح



تحصينات القاهرة
في أيام صلاح الدين
٥٧٢هـ - ١١٧٦م
تحصينات صلاح الدين (خط الأسوار) ٥٦٩
تحصينات صلاح الدين الثانية (خط الأسوار) ٥٧٢
التحصينات التي لم تكتمل
١٥٠٠ ١٠٠٠ ٥٠٠ ٥
مقياس الرسم بالأمتار
الجبل الأحمر
مقابر
جبل المقطم
القاهرة
القلعة
باب الفتوح
باب النصر
باب الشعرية
باب القنطرة
باب زويلة
باب الصفا
باب القرافة
الخليج
الخندق
بركة الحبش
الفسطاط
جامع عمرو
جامع ابن طولون
الكبش
كوم الجارح
قناطر السباع
شاطئ النيل في أيام صلاح الدين
الشاطئ القديم
منشأة المهراني
خليج الذكر
جزيرة الروضة
الجزيرة
(الجزيرة الحديثة)
قناة الإسماعيلية
اللوق
المقس
جامع المقس
جزيرة الفيل
قناة جديدة
شمال
شاطئ الجيزة

تاريخ ووصف
قلعة القاهرة



الفصل التاسع

منشآت محمد بن قلاوون

يعتبر عهد محمد بن قلاوون ، الطويل الأمد ، أعظم العهود قاطبة التى شهدها تاريخ سلاطين المماليك . فهذا السلطان الذى خلع مرتين عن عرش السلطنة (فى سنة ٦٩٤ وفى سنة ٧٠٨ هـ) قد عاد إلى التربع عليه دون منازع سنة ٧٠٩ هـ، وظل يحكم السلطنة المملوكية فى سلام وهدوء حتى أدركته المنية سنة ٧٤٦ هـ وقد ترك أولاداً عديدين قدر لهم جميعاً ، على وجه التقريب ، أن يعتلوا عرش السلطنة من بعده . وإليه يرجع فضل إتمام جهود صلاح الدين ، وبيبرس ، وقلاوون ضد الفرنج (الصليبيين) بسورية ، إذ على يديه تم إجلاؤهم عنها (الاستيلاء على جزيرة أرواد سنة ٧٠٢ هـ) (١) كما نجح فى أن يحمى ممتلكاته الواسعة من عدوان التتار وتخريبهم . ويمكننا القول بأنه كان أعظم سلاطين الإسلام وقتذاك ، وأعظمهم جاهاً وثروة . وفضلا على ذلك ، فقد كان رقيق الإحساس ذواقاً للحياة المترفة الناعمة ؛ فدفع بحاسته المرهفة وذوقه الفنى حركة الإنشاء والتعمير دفعة قوية جبارة . ففى كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن يجد المرء قائمة لا نهاية لها مما قام بإنشائه هو وأمراء مملكته من جسور ، وقنوات ، وقصور ، ومساجد ... وغيرها من المنشآت (٢) . . وبإرشاده وتشجيعه أنشئت خارج سور القاهرة الفاطمية أربعة أو خمسة أحياء جديدة (٣) ؛ وإلى هذه الفترة فقط تؤرخ ملامح مدينة القاهرة الجديدة التى كانت تعرف فى جميع أنحاء العالم قاطبة — كما سبق أن ذكرنا — بالعاصمة التى تتكون من ثلاث مدن .

(سور القاهرة الذى يضم ثلاث مدن)

---

(١) (انظر السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الاول، القسم الثالث ، ص ٩٢٨ — ٩٢٩) .

(٢) توجد هذه القائمة الطويلة فى أكثر من ثمانى صفحات بالنسخة الخطية للنجوم الزاهرة ، بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٦٢ (كتالوج دى سلين ، رقم ١٧٨٤) — (انظر النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، الجزء التاسع ص ١٧٨ — ٢١٠ ، وانظر أيضا الدكتور محمد مصطفى زيادة : حركة البناء والتعمير فى عصر الناصر «من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦٠ — ١٩٦١، ص ٢٤١ — ٢٥٠) .

— كما أن كاتب سيرته يذكر أن عدد المساجد التى بنيت فى عهده بلغ ستة وعشرين مسجدا (المخطوطة بمكتبة ميونخ ، القسم العربى رقم ٤٠٦ ، ورقة ٢٣٠ ب ومايليها).

(٣) (الاحياء التى عمرت فى أيام الناصر محمد هى : جزيرة الفيل ، وناحية بولاق ، وساحل النيل من منية السيرج الى جامع الخطيرى ، والقطعة التى فيما بين قبة الامام الشافعى الى باب القرافة ، والصحراء فيما بين القلعة وخارج باب المحروق الى قبة النصر — انظر الدكتور محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤) .

كما كان عصره من ألمع عصور ازدهار الفن العربى ؛ إذ أن معظم نماذج الصناعة الشرقية التى تحتويها متاحفنا (من نافورات ، وأباريق، وشمعدانات..... وغيرها من روائع الفن) تحمل اسم هذا السلطان (١) . وإذا لم تكن هذه النماذج من التحف تنسب إليه شخصياً ، فإنها تنسب – على أقل تقدير – إلى أمرائه . هذا ويمكن القول بأن هذه النماذج ، بما نقش عليها من نقوش فى دقة ومهارة التى تتشابك وتتعانق حروفها بطريقة تثير الإعجاب ، قد ظلت نموذجاً دائماً للفنانين والصناع بمصر والبندقية .

كما أن العمارة المملوكية التى تثير إعجاب الفنانين إنما ترجع – على وجه التخصيص – إلى هذه الفترة – فالسلطان قلاوون هو الذى أنشأ البيمارستان (المستشفى) الذى لا يزال قائماً حتى الآن والذى ظل – على مرور الزمن – إحدى العمائر الجميلة التى تزين القاهرة ؛ هذا ولابنه الناصر محمد نصيب من هذه العمائر الجميلة أكبر من نصيب أبيه .

والعمائر التى أنشأها الناصر محمد شخصياً ، توجد كلها تقريباً بالقلعة وتختص بها مباشرة من قريب أو من بعيد. وأما العمائر الأخرى مثل جامع ألماس ، وجامع قوصون ، وجامع الماردينى ... وغيرها من الجوامع فهى من إنشاء أمرائه (٢). ويمكن القول إنه قام بتغيير تام فى عمارة القلعة لدرجة أنه لم يتبق بها شىء على الإطلاق من إنشاء أسلافه سوى الوضع العام للسور . فعندما جاء الفرنسيون إلى مصر لم يجدوا شيئاً يثير إعجابهم بالقلعة سوى ما تبقى من أطلال عمائره ومنشآته. وكانت هذه العمائر والمنشآت من الروعة والجمال بحيث ذهب الخيال بالشعب إلى أن ينسب بناؤها – لا إلى يوسف صلاح الدين – وإنما إلى سيدنا يوسف الذى تنسب إليه الأسطورة كل ما هو رائع وجميل بمصر .

ولكى يتيسر لى القيام بدراسة عمائر محمد بن قلاوون ، فإنى سأقسمها إلى ثلاثة أنواع :

أولا – العمائر التى لا تزال قائمة حتى الآن .

ثانياً – العمائر التى كانت قائمة حتى زمن الحملة الفرنسية على مصر والتى وصفت وقتذاك .

ثالثاً – العمائر التى اندثرت والتى لا نتعرف عليها إلا بما ورد فى وصفها على لسان المؤرخين المسلمين (مثل شهاب الدين (بن فضل الله العمرى) : والقلقشندى ، والمقريزى) .

أولا

١ – الجامع

لا يزال جامع محمد بن قلاوون (الجامع الناصرى بقلعة الجبل) حتى أيامنا هذه قائماً على هيئته الأصلية تقريباً ، ولا ينقصه سوى القبة الكبيرة التى سقطت فى عام ٩٢٨ (٣) ه. فمئذنتاه قائمتان وأعمدته ذات التيجان المختلفة لا تزال

---

(١) أنظر : LANE POOLE, S.: The Art of the Saracens in Egypt, p. 189-192
– (وانظر أيضا : WIET: L'Egypte Arabe, p. 493-497

(٢) (أنافت الجوامع التى انشئت أيام الناصر محمـــد ، على ثلاثين جامعا – انظر الدكتور محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ، ص ٢٤٨ – ٢٥٠) .

(٣) (هذه القبة ، التى كانت توجد أمام المحراب ، سقطت فى عام ٨٩٣ هـ – ١٤٨٨ م ، وقد أمر السلطان قايتباى ببناء قبة أخرى بدلا منها . وقد سقطت هذه القبة مرة أخرى (ربما فى هذه السنة التى أشار اليها كازانوفا بالمتن) .. ولم تكن هذه القبة موجودة عندما قام كازانوفا بدراسته عن القلعة . وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية باعادة بنائها ، كما قامت اللجنة بعملية ترميم وتجديد شامل للجامع ، فأصلحت مئذنتيه ، وقومت عمده وجدرانه ، وأعادت جزءا من زخارف السقف الى حالته الأصلية – أنظر : محمود أحمد ، دليل الآثار العربية) .

جميعها فى أماكنها ، بل إن الزخارف المذهبة التى زخرف بها سقفه لا تزال موجودة فى بعض أجزائه . وفيما يختص بوصف هذا الجامع من الناحية الفنية فإنى أحيل القارىء إلى الدراسة التى قام بها هرز HERZ فى هذا الصدد .

وهذا الجامع يشار إليه على خريطة القاهرة التى رسمتها لجنة علماء الحملة الفرنسية تحت رقم ٥٤ (القلعة) ويسمى خطأ عليها «جامع سلطان قلون» ؛ كما يشار إليه على خريطة جراند بك Grand-Bey للقاهرة تحت رقم ١٥٣ (مع تكرار الخطأ السابق نفسه) .

وبهذا الجامع وجدت النقوش الآتية : —

على بابه البحرى المقابل لباب القلة (الذى يعرف على خريطة الحملة الفرنسية بباب المدافع — القلعة رقم ٥٦) ، توجد لوحة رخامية مستطيلة كسر جزؤها الأسفل ومنقوش عليها :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشا هذا الجامع المبارك

٢ السعيد سيدنا ومولانا السلطان الملك ال ... ...

ويوجد على الباب الغربى ، وهو مسدود الآن ، رخامة مستطيلة لا تزال على حالتها الأصلية ومنقوش عليها :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذا الجامع

٢ — المبارك السعيد لوجه الله تعالى سيدنا ومولانا السلطان

٣ — الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان

٤ — الشهيد قلاوون الصالحى فى شهور سنة ثمانية عشرة وسبع مائة من الهجرة النبوية .

وأخيرا ، فعلى بطن الإفريز المربع الذى كان يحمل (فيما مضى) القبة ، توجد كتابة كتبت بحروف جميلة من الخشب المذهب ، لا يزال معظمها على حالتها الأصلية . وقد قرأت على الجانب القبلى من هذا الإفريز النقش الآتى :

بسم الله الرحمن الرّحيم يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُم وافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ .(١)

وعلى الجانب الشرقى منه :

بسم الله الرحمن الرحيم إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وآتَى الزكَوٰةَ وَلَم يَخْشَ إِلاَّ اللهَ(٢) .

وعلى الجانب البحرى منه :

فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ(٣) مما أمر بانشا سيدنا

ومولانا الملك الناصر بن مو

(١) سورة الحج ، آية رقم ٧٧ .

(٢) سورة التوبة ، آية رقم ١٨ .

(٣) سورة التوبة ، بقية الآية رقم ١٨ .

وعلى الجانب الغربي منه :

لانا السلطان المرحوم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون تغمد(ه) الله برحمته وذلك في سنة (١) ...

وعلى مئذنتي الجامع ، التي غشيت قمة كل منهما بالقاشاني الأخضر ، يتبين المرء هذه الآية التي كتبت بحروف بيضاء :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . . . . (٢) (إلى آخر الآية)

وإليك الآن وصف المقريزي لهذا الجامع . :

الجامع بالقلعة

(هذا الجامع أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ثماني عشرة وسبعمائة (٣) . وكان قبل ذلك هناك جامع دون هذا ، فهدمه السلطان وهدم المطبخ والحوائجخاناه والفراشخاناه وعمله جامعاً ، ثم خربه في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وبناه هذا البناء . فلما تم بناؤه جلس فيه واستدعى جميع مؤذني القاهرة ومصر وجميع القراء والخطباء ، وعرضوا بين يديه ، وسمع تأذينهم وخطابتهم وقراءتهم ، فاختار منهم عشرين مؤذناً رتبهم فيه . وقرر فيه درس فقه ، وقارئاً يقرأ في المصحف ، وجعل عليه أوقافاً تكفيه وتفيض . وصار من بعده من الملوك يخرجون أيام الجمع إلى هذا الجامع ، ويحضر خاصة الأمراء معه من القصر ، ويجيء باقيهم من باب الجامع ، فيصلي السلطان عن يمين المحراب في مقصورة خاصة به(٤) ، ويجلس عنده أكابر خاصته ، ويصلي معه الأمراء ، خاصتهم وعامتهم ، خارج المقصورة(٤) عن يمنتها ويسرتها على مراتبهم. فإذا انقضت الصلاة دخل إلى قصوره ودور حريمه وتفرق كل أحد إلى مكانه . وهذا الجامع متسع الأرجاء، مرتفع البناء، مفروش الأرض بالرخام، مبطن السقوف بالذهب. وبصدره قبة عالية يليها مقصورة مستورة ، هي والرواقات بشبابيك الحديد المحكمة الصنعة ، ويحف صحنه رواقات من جهاته (٥) .)

---

(١) سقط من هذا النقش تاريخ انشاء الجامع .

(٢) سورة البقرة ، آية رقم ٢٥٥ — لمعرفة المزيد عن هذه النقوش انظر :

VAN BERCHEM : Corpus Inscriptionum Arabicarum 2ème fasc., Nos. 112, 113, 114

— (لهذا الجامع مئذنتان ، احداهما تجاور الباب الغربي بدنها اسطواني وقمتها مغشاة بالقاشاني ، والثانية في نهاية الواجهة البحرية للجامع قاعدتها مربعة ودورتها التالية مغشاة بالقاشاني المكتوب به الآية الكريمة السابقة — عن محمود أحمد : دليل الآثار العربية ، جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة .

— انظر أيضا مقـــال الأستاذ حسن عبد الوهاب : القاشاني في الآثار العربية ، مجلة الهندسة ، ديسمبر سنة ١٩٣٤ .

(٣) يذكر المقريزي في كتاب السلوك (النسخة الخطية بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربي رقم ٦٧٢ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦ ، ورقة ٣٦٨ أ) أنه بدىء في انشاء هذا الجامع في شهر صفر من هذا العام .

— (انظر : السلوك : طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثاني ، ص ١٨٤) .

(٤) فيما يختص بالمقصورة أنظر : Sultans Mamlouks, I, 1ère Partie, p. 164

(٥) الخطط ، الجزء الثاني ، ص ٢١٢ .

وأما القلقشندى، الذى يردد هذه الأسطر الأخيرة من نص المقريزى كلمة كلمة تقريبا (١)، فيضيف إلى ذلك : (ويتوصل من ظاهر هذا الجامع إلى باب الستارة ودور الحريم السلطانية (٢) .)

وأخيراً يخبرنا ابن إياس أن قبلة هذا الجامع ومئذنتيه خضراء (٣)؛ أى مغشاة بالقاشانى الأخضر، وهو ما يشاهده المرء الآن بالمئذنتين ويشاهد آثاره تجاه القبة بالايوان حسبما يذكر الكاتب .

وكما عودنا المقريزى، فإن وصفه لهذا الجامع يحتاج إلى شىء من الإيضاح فهو يقول : إن محمد بن قلاوون أنشأ الجامع فى سنة ٧١٨ هـ، ثم هدمه وأعاد بناءه فى سنة ٧٣٥ هـ . غير أننا رأينا أحد النقوش (الذى يوجد على الباب الغربى) يؤرخ بناءه فى سنة ٧١٨ هـ . فهل يمكن أن نفهم من ذلك أن هذا الجانب، أو على أقل تقدير، الجانب القبلى (الإيوان) قد ظل على حالته الأصلية ولم يهدم . إنه لمن سوء الحظ أن النقشين الآخرين (النقش المنقوش على الرخامة أعلى الباب البحرى، والنقش المنقوش على بطن افريز القبة) قد سقط منها تاريخ بناء الجامع . ومن ثم يستحيل علينا أن ندلى برأى قاطع بصدد ما جاء فى وصف المقريزى من بناء هذا الجامع، ثم هدمه وإعادة بنائه .

كما يتحدث المقريزى فى كتاب السلوك عن هاتين العمارتين للجامع . ففى حوادث سنة ٧١٨ هـ يعيد، كلمة كلمة تقريباً، الأسطر الأولى من النص الذى ذكره بالخطط (٤) . وفى حوادث سنة ٧٣٥ هـ يقول : « وفى صفر هدم السلطان الجامع بقلعة الجبل، وهدم المطبخ أيضاً، وجدد (السلطان) عمارة الجامع، وصار يقف بنفسه كل يوم؛ وندب لذلك الأمير آقبغا عبد الواحد، فحمل إليه العمد العظيمة من الأشمونين، ووسع موضعه، فأدخل فيه قطعة من حارة مختص والطشتخاناه، ورخمه جميعه، (وظل العمل جارياً فى هذا الجامع) حتى كمل فى آخر شعبان على أكمل هندام وأبدع ترتيب . ووقف عليه (السلطان) حوانيت القلعة وغيرها ... ... (وفيه جدد السلطان) عمارة المطبخ بالحجر، وزاد فى سعته (٥) . »

وليس من اليسير — فيما يبدو — أن نتشكك فى صحة هذه المعلومات التى تبدو على هذه الدرجة من الدقة . ومن ثم فإنى أرى أن الجانب الذى أعيد بناؤه من هذا الجامع فى سنة ٧٣٥ هـ إنما هو الجانب المواجه للجهة البحرية الذى يشمل قاعة الصلاة الفخمة المقامة على أعمدة عظيمة جلبت إليه من أماكن شتى، وهى القاعة التى يقرأ فى وسطها النقش الكبير الذى كتب بحروف من الخشب المذهب، والذى سبق أن تحدثت عنه . وهذا يعنى أن تاريخ البناء الذى سقط فى نهاية هذا النقش يتحتم أن يكون — حسبما ذكر المقريزى — سنة ٧٣٥ هـ . وواضح تماماً أن هذا الجانب الذى أعيد بناؤه هو الجامع فعلا (إيوان القبلة) . وأما الباب (الغربى) الذى قرأت أعلاه النقش الذى يؤرخ بناء الجامع فى سنة ٧١٨ هـ فإنه كان أحد الأبواب بالمبانى الملحقة، ولابد من أنه كان يؤدى بطريقة مباشرة،

(١) لقد نقل كل من القلقشندى والمقريزى وصف هذا الجامع عن شهاب الدين بن فضل الله العمرى : وهو الوصف الذى يجده القارىء فى نهاية الفصل الحادى عشر فى هـــذا الكتاب .

(٢) المخطوطة بمكتبة جوته، القسم العربى رقم ١٦١٩ (كتاب مختصر صبح الأعشا)، ورقة ٤٣ أ . — (صبح الأعشى، طبعة دار الكتب، الجزء الثالث، ص ٣٧٥) .

(٣) ابن اياس، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى رقم ٥٩٥ أ، ورقة ٢٤٢ ب — (ابن اياس، طبعة بولاق، الجزء الأول، ص ١٦٠، وهذا نص عبارته : وبنى به القبة الخضرا والمئذنة الخضرا .) — يؤرخ ابن اياس بناء هذا المسجد فى سنة ٧١٧ هـ . وليس فى سنة ٧١٨هـ . كما يذكر المقريزى .

(٤) المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى رقم ٦٧٢ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦) ورقة ٣٦٨ أ — (السلوك، طبعة الدكتور زيادة، الجزء الثانى، ص ١٨٤.)

(٥) السلوك، النسخة الخطية بالمكتبة الاهلية بباريس، القسم العربى رقم ٦٧٢ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦)، ورقة ٤١٩ أ — (النص الموجود بالمتن نقلا عن السلوك، طبعة الدكتور زيادة، الجزء الثانى ص ٣٨٠) —

أو غير مباشرة ، إلى الدور السلطانية . وليس هناك من شك فى أن هذا الباب كان يتوصل منه إلى باب الستارة الذى يتحدث عنه القلقشندى (١) . هذا ومن جهة أخرى ، علينا أن نتذكر عبارة المقريزى التى جاءت فى وصفه للجامع (ويجيء باقيهم (أى عامة الناس) من باب الجامع) . وواضح أن باب الجامع هو الباب الشرقى ، المواجه لباب القلة ، وأن الباب الآخر (الذى يدخل منه السلطان وخاصة الأمراء) ليس باب الجامع ، وإنما الباب الذى يصل بين الجامع ودور الحريم السلطانية . وأغلب الظن أن هذا الباب هو باب الستارة ، أو — على وجه التحديد — باب الساعات . فعن طريق هذا الباب كان يذهب (السلطان) من دور الحريم السلطانية إلى (باب) الجامع ، وذلك حسبما يشهد به قول عبد الله بن عبد الظاهر كاتب سيرة الأشرف خليل بن قلاوون (٢) . بل إن هذا الباب كان يتوصل منه إلى دور الحريم السلطانية عن طريق باب الستارة كما يتضح من عبارة وردت على لسان أبى المحاسن . فبعد وفاة الأشرف شعبان يقول . إن المماليك (قصدوا باب الستارة ، فغلق سابق الدين مثقال الزمام باب الساعات ووقف داخل الباب ... ... كسروا (أى المماليك) شباك الزمام المطل على باب الساعات ، ودخلوا منه ونهبوا بيت الزمام وقماشه ، ثم نزلوا إلى رحبة الستارة ، ومسكوا مثقال وفتحوا الباب (٣) .) .

ب — البرج

إن النقش المنقوش باسم محمد بن قلاوون على الرخامة المثبتة على ارتفاع كبير بجدار الرحبة الكبيرة ، لا يزال فى موضعه حتى الآن (يوجد هذا النقش قريباً جداً من الأثر الذى يشار إليه على خريطة الحملة الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ تحت رقم ٨٤ ، القلعة — بيت يوسف صلاح الدين) وعلى الرغم من الاستعانة بإحدى العدسات المكبرة فإنى لم أتمكن من قراءة التاريخ الذى يوجد بآخر النقش ، وذلك لأن الحروف التى كتب بها هذا التاريخ قد تداخلت وتشابكت بصورة معقدة للغاية ولم يكن فان برشم أسعد حظاً منى فى محاولة قراءة هذا التاريخ . وأما بقية النقش فمن اليسير قراءته إذا ما توافر للمرء بعض الخبرة بالمصطلحات التى تستخدم عادة فى صياغة مثل هذه النقوش الأثرية .

وإليك نص النقش كما هو منقوش على الرخامة المستطيلة المثبتة بالجدار :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشا هذا البرج المبارك السعيد مولانا وسيدنا .

٢ — السلطان المالك الملك الناصر الغازى فى سبيل الله الحاج إلى بيت الله وقبر رسول

٣ — الله ناصر الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور بدوه فى جمادى الأولى والفر (ا) غ... ... ثلاث ... ...

وقد قرأ فان برشم الكلمة الثانية من السطر الثالث وهى « حصن » بدلا من قراءتها « ناصر » (٥) . وإنى إذ أعترف أن قراءته لهذه الكلمة على هذا النحو تبدو للعين المجردة — والقارىء واقف على سطح الأرض — كأنها

(١) انظر من قبل ص ٦٢٣ ، ج رقم ٤ .

(٢) مخطوطة ميونخ ، رقم ٤٠٥ ، ورقة ٧ — جاء بهذا المخطوط العبارة الآتية : خرج (السلطان الملك الأشرف خليل ابن قلاوون) من باب الساعات راكبا الى باب الجامع .

(٣) النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى رقم ٦٦٥ ، (كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٦) ، ورقة ١٥٠ ب ، ١٥١ أ .

(٤) (هذا البرج لايزال باقيا الى الآن بالقرب من الناحية البحرية الشرقية لجامع محمد على ، وقبليه توجد بقـــايا الاصطبل السلطانى) .

(٥) CIA, Egypte I, 1ère fasc., p. 88 (No. 52)

أقرب القراءات إلى الصحة ، إلا أنني نظراً لتأكدي من صحة الحرفين الأخيرين بهذه الكلمة أفضل قراءتها «ناصر» ؛ وهو اللقب الذي يوجد في جميع النصوص والنقوش التي تتعلق بالسلطان محمد بن قلاوون . وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الخلاف البسيط ليس له أية أهمية تذكر في تفسير هذا النقش .

وأما تاريخ إنشاء هذا البرج ، فمن الممكن تحديده على وجه الدقة تقريباً . ولما كان السلطان محمد بن قلاوون قد أدى فريضة الحج في سنة ٧١٢ هـ ، وتوفي في سنة ٧٤١ هـ ، فليس أمامنا سوى الخيار بين سنة ٧١٣ أو ٧٢٣ أو ٧٣٣ لتحديد تاريخ هذا النقش (لاحظ كلمة «ثلاث» في نهاية هذا النقش) . فأما التاريخ الأول فهو الذي يجب أن نأخذ به ، فيما يبدو لي . فهذا البرج هو — أغلب الظن — الذي يتحدث عنه المقريزي عندما يصف «الرفرف» الذي عمره الملك الأشرف خليل ، ثم هدمه أخوه محمد بن قلاوون في سنة ٧١٢ هـ ، ليعيد بناءه . فالمقريزي يختم وصفه لهذا الرفرف بقوله : «وعمل بجواره برجاً بجوار الاصطبل ، نقل إليه المماليك (١) » وحيث إن شهر جمادى الأولى (المذكور بالنقش) من الشهور الأولى في سنة ٧١٣ هـ فان تاريخ هذا النقش يتفق تماماً مع هذا النص للمقريزي .

هذا ومن جهة أخرى ، فإن الفترة الواقعة بين سنتي ٧١٢ و ٧١٥ هي التي شهدت معظم العمائر التي قام بإنشائها محمد بن قلاوون في هذا الجانب من القلعة . فقد عمر ، بأعلى هذا الجانب ، الرفرف ثم الإيوان ، كما عمر بأسفله الميدان ومجرى المياه ... ... وغيرها فالمقريزي في كتاب السلوك يذكر في حديثه عن سنة ٧١٣ هـ هذه العبارة : «وأكثر (السلطان) من العمائر ؛ وولى آقسنقر أمير آخور شاد العمائر ، وأحضر العتالين من سائر البلاد الشامية ، وأفرد للعمائر ديواناً (٢) بلغ مصروفه في كل يوم اثني عشر ألف درهم إلى ثمانية آلاف ، وهي أول ما كان يصرف في اليوم الواحد (٣) ومن ثم فإني أرى أن يقرأ النقش على النحو الآتي :

فرغ في ... سنة ثلاث عشرة وسبعمائة .

جـ — نقوش باب سارية

ولا يزال يوجد أيضاً بباب سارية أثر «ثالث» من آثار عهد محمد بن قلاوون . فبطون أقبية هذا الباب كانت مغطاة بثلاث طبقات متتالية من الجص ، نقش على كل طبقة منها بأحرف كبيرة حمراء نقش باسم هذا السلطان . وقد تمكنت بفضل مساعدة هرز HERZ ، وبفضل المعونة التي قدمها لي (الكولونيل توماس) قائد القلعة (٤) ، في تنظيف هذه الأقبية مما علق بها من غبار ودخان . وبعد أن أزلت الطبقتين الأخيرتين من الجص ،

---

(١) الخطط ، الجزء الثاني ، ص ٢١٢ — ٢١٣ ، (وانظر قبل ص ٦١٤) — كانت الاصطبلات توجد — على وجه التحديد — بجوار هذا الجدار الذي يوجد عليه هذا النقش الذي نحن بصدده ، وستتاح لي فرصة اثبات ذلك فيما بعد .

(٢) هذا الديوان هو ما نسميه في مصطلحنا الحديث «ادارة المباني» ولابد أن يكون القارىء — بعد أن يقرأ هذا النص — قد طرأ على ذهنه فكرة المقارنة بين السلطان محمد بن قلاوون والملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا من حيث شغف كل منهما بالعمائر . هذا وان المبلغ الذي كان ينفقه السلطان على عمائره كل يوم ، والذي سيرد ذكره بعد ذلك بالنص (حوالي ٢٠ ألف فرنك في اليوم) لايعتبر مبلغا زهيدا بالنسبة لهذا العامل الشرقي — (يقدر كازانوفا هذا المبلغ بالعملة الفرنسية في زمانه ، أي في نهاية القرن التاسع عشر، وعلى القارىء أن يأخذ بعين الاعتبار تدهور قيمة العملة الفرنسية في الوقت الحاضر) .

(٣) السلوك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربي رقم ٦٧٢ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦) ، ورقة ٣٤٨ب — (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثاني ، ص١٣٠)

— لم أتمكن من قراءة اسم الشهر الذي فرغ فيه من بناء هذا البرج ، ويعتقد فان برشم (المصدر السابق نفسه) ، بعد قراءته لهذه الكلمة ، أن هذا الشهر هو «شوال» .

(٤) لقد ذكر فان برشم (المرجع السابق) بعض هذه الألقاب — نظرا لأن فان برشم قد زار هذا الجانب من القلعة =

اللتين كان قد تساقط معظمهما ، تمكنت من أن أبرز — على وجه الدقة تقريباً — النص الكامل لأقدم هذه النقوش الثلاثة فى صورتها الأصلية البراقة .

وإنى إذ أوفر على القارىء قراءة جميع الألقاب التى وردت بهذا النقش مقرونة باسم السلطان والتى بلغ عددها عشرين لقباً ، أثير انتباهه فقط إلى اللقب الآتى ذكره .

فعندما توجهت ، للمرة الأولى ، لرؤية الباب فى الداخل ، وجدت بواطن أقبيته مسودة مغبرة من أثر الدخان ، وقد أحصيت هنا وهناك ، قبل أن أصل إلى الحائط الأصلى ، زهاء ست عشرة طبقة من الجص . وعلى الرغم من ذلك فإن بعض حروف (هذا النقش) لا تزال ظاهرة بالجزء الجنوبى من القبو الذى يعلو مدخل الباب ، أى على الواجهة الخلفية للجدار الذى وجدت عليه نقش صلاح الدين (انظر قبل ص ٥٦٩ ، ٥٨٠) وبعد أن انتهيت من إزالة هذه الطبقات من الجص — وهو ما تم تحت إشراف هرز — قرأت فى وضوح على جدار الباب اسم محمد بن قلاوون (الملك الناصر ... ... إلخ) . غير أنه فوق هذا الاسم المكتوب بخط جميل وبحروف كبيرة ، يقرأ المرء الكلمات الآتية التى كتبت ، فى سطر واحد ، بخط ركيك وباللون الأحمر ، مما يجعلها تبدو كما لو أنها أضيفت إلى النقش فيما بعد . وإليك نص هذه الكلمات :

الغازى فى سبيل الله الحاج الا (هكذا) بيت الله وقبر رسول الله .

وأغلب الظن — فيما يبدو لى — أن هذا اللقب قد أضيف إلى بقية ألقاب الناصر محمد بعد تأديته فريضة الحج فى سنة ٧١٢ هـ ، وهذا اللقب هو الذى سبق أن رأيناه بالنقش المنقوش على البرج فى سنة ٧١٣ هـ . ومن الملاحظ أن محمد بن قلاوون لم يتلقب بهذا اللقب فى بقية النقوش الأخرى الخاصة به والمعروفة لدينا (١) — وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أنه لم يهتم بذكر هذا اللقب إلا فى الفترة التى تلت أداءه لفريضة الحج ، أى فى الفترة التى كانت لا تزال فيها حماسته الدينية متقدة . ومن ثم فإن هذا الجزء الآخر من النقش (النقش الأصلى) لابد أن يكون قد نقش قبل سنة ٧١٢ هـ .

غير أن المرء ليتساءل أيضاً : لماذا قام محمد بن قلاوون بوضع ثلاث طبقات متتالية من الجص ، ونقش هذا النقش على كل طبقة منها ؟ فأما فيما يختص بى ، وأنا الذى شاهدت هذه الطبقات الثلاث الواحدة بعد الأخرى وشاهدت مدى العناية والخط الجميل الذى كتب به كل نقش من هذه النقوش الثلاثة ، فإنى لم أستطع أن أفسر هذه الظاهرة إلا فى ضوء الاعتبارات التالية :

لقد تولى محمد بن قلاوون عرش السلطنة ثلاث مرات ، من ٦٩٣ حتى ٦٩٤ هـ ، ومن ٦٩٨ حتى ٧٠٨ هـ ، ومن ٧٠٩ حتى ٧٤١ هـ . فإذا كانت الطبقة الأولى من الجص ، بما نقش عليها من نقش ، قد وضعت عند اعتلائه عرش السلطنة للمرة الأولى ، فقد كان من اليسير على السلطان الذى اغتصب منه عرش السلطنة فى سنة ٦٩٤ هـ (٢) أن يمحو كل أثر لهذا النقش بأن يكتفى بتغطيته بطبقة ثانية من الجص دون أن يكلف نفسه مئونة إزالة الطبقة الأولى بما عليها من نقش . وعندما عاد محمد بن قلاوون للعرش للمرة الثانية فى عام ٦٩٨ هـ . عاد فنقش ، مرة ثانية ،

= بعد أن قمت بإزالة هاتين الطبقتين الأخيرتين من الجص، فانه لم يعرف شيئا عن النقشين اللذين كانا فوقهما ، واللذين تعين ازالتهما للوصول الى النقش الاول المنقوش على الطبقة الأولى من الجص .

(١) انظر النقوش الخاصة به التى جمعها كل من مهرن وفان برشم .

(٢) (فى هذا العام اغتصب منه العرش العادل زين الدين كتبغا ، غير أنه لم يلبث بعد سنتين (٦٩٦هـ) أن خلع واغتصبه منه المنصور حسام الدين لاجين) .

هذا النقش فوق هذه الطبقة الثانية من الجص . ثم اغتصب منه العرش، للمرة الثانية فى عام ٧٠٨ (١) ، فتكررت عملية تغطية النقش بطبقة ثالثة من الجص . وأخيراً ، عاد إلى عرش السلطنة فى العام التالى ، فنقش للمرة الثالثة جميع ألقابه مضافاً إليها — بعد أن أدى فريضة الحج فى سنة ٧١٢ هـ — لقب « الغازى فى سبيل الله الحاج » .

هذا هو رأيى الخاص ، وهو — فيما يبدو لى — لا يفتقر البتة إلى أى عنصر من عناصر الصحة . وكيفما كان الأمر ، فإنه يفسر فى وضوح تام ظاهرة تكرار النقش ثلاث مرات فوق ثلاث طبقات متتالية من الجص .

ثانيــاً

١ — الايوان

والإيوان هو أعظم عمائر محمد بن قلاوون ، أنشأه فى المكان الذى أقام فوقه محمد على مسجده الحالى . وكان الناس — حتى زماننا — يخطئون فيما يختص بأصل هذا الأثر ، فقد عرف فى الفترة المتأخرة بديوان سيدنا يوسف ، كما كان ينسب خطأ إلى صلاح الدين . وسأبدأ الحديث عنه بأن أقدم أولا وصف إيوان ابن قلاوون كما ورد على لسان المؤرخين المسلمين ، ثم وصف ديوان سيدنا يوسف كما دونه الرحالة الأوروبيون ، وسنرى بعد قراءة كلا الوصفين أنه ليس ثمة شك فى أن إيوان ابن قلاوون وديوان سيدنا يوسف ليسا سوى شىء واحد .

وإليك ما يذكره المقريزى عن الإيوان فى كتاب الخطط :

(الإيوان المعروف بدار العدل : هذا الإيوان أنشأه السلطان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى النجمى ، ثم جدده ابنه السلطان الملك الأشرف خليل ، واستمر جلوس نائب دار العدل به . فلما عمل الملك الناصر محمد ابن قلاوون الروك ، أمر بهدم هذا الإيوان ، فهدم وأعاد بناءه على ما هو عليه الآن ، وزاد فيه قبة جليلة ، وأقام به عمداً عظيمة نقلها إليه من بلاد الصعيد ، ورخمه ، ونصب فى صدره سرير الملك ، وعمله من العاج والأبنوس . ورفع سمك هذا الإيوان ، وعمل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة . وجعل بالإيوان باب سر من داخل القصر ، وعمل باب الإيوان مسبوكاً من حديد بصناعة بديعة تمنع الداخل إليه . وله منه باب يغلق فإذا أراد أن يجلس فتح حين ينظر منه ومن تخاريم الحديد بقية العسكر الواقفين بساحة الإيوان . وقود للجلوس فيه بنفسه يوم الإثنين ويوم الخميس ، فاستمر الأمر على ذلك ....

فلما مات الملك الناصر اقتدى به فى ذلك أولاده من بعده ، واستمروا على الجلوس بالإيوان إلى أن استبد بمملكة مصر الملك الظاهر برقوق ... ...

وجعل لنفسه يومين يجلس فيهما بالاصطبل السلطانى للحكم بين الناس ... ... وصار الإيوان فى أيام الظاهر برقوق ، وأيام أبناء الملك الناصر فرج ، وأيام الملك المؤيد شيخ إنما هو شىء من بقايا الرسوم الملوكية لا غير . (٢)

ويكرر المقريزى فى كتاب السلوك (٣) — أثناء حديثه عن حوادث سنة ٧١٥ هـ — الأسطر الأولى من وصفه لذلك الإيوان فى الخطط .

---

(١) (فى هذا العام اغتصب منه العرش المظفر ركن الدين بيبرس الثانى) .

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٣) (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثانى ، ص ١٤٨ — ١٤٩) .

كما يخبرنا مؤرخ مجهول أنهم فى اليوم السابع من شهر جمادى الآخرة سنة ٧٣٣ هـ ، (شرعوا فى هدم القبة بالإيوان بالقلعة وعمرو (ا) القبة والإيوان على ما هو عليه ، وفرغوا منه فى ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين . وجلس السلطان على الكرسى به فى اثنين وعشرين من ربيع الآخر المذكور . (١)

وهكذا نرى أن محمد بن قلاوون كان مصاباً بحمى الهدم والبناء من جديد . فقد عمر من جديد فى سنتى ٧٣٤ و ٧٣٥ هـ . كلا من الإيوان والجامع (٢) . ومن الجائز — بناء على هذه الشواهد — أن الأعمدة التى أقيمت بالجامع وبالإيوان قد جلبت إليها من مكان واحد وفى الوقت نفسه .

وأما القلقشندى فلا يضيف البتة إلى ذلك الوصف أية تفاصيل ، ومع ذلك فستتاح لنا الفرصة فيما بعد للاستفادة من وصفه للإيوان لكى نعين موقعه — على وجه التحديد — فى ضوء ما ذكره عن موقع بعض الأماكن الأخرى التى كانت مجاورة له .

وأما ابن إياس فإنه يمدنا — بطريقة عرضية — بوصف قبة الإيوان ، يجدر بنا نقله إلى القارىء . يقول الكاتب : (فى يوم السبت السادس عشر من (محرم ٩٢٨ هـ) سقطت القبة العظيمة التى كانت على الإيوان . سقطت باكر النهار ، وهذه القبة من إنشا(ء) الناصر محمد بن قلاوون . فلما سقطت تفاءل الناس بزوال ملك الأمرا (ء) عن قريب . وهذه القبة لها نحو مائتى سنة من حين عمرت . وكانت من خشب وفوقها رصاص ، وكانت مغلفة بقيشانى أخضر ، ولم يعمر فى مصر أكبر منها ، وكانت من نوادر الزمان (٣) .) — وقد سبق أن أشرنا من قبل إلى تغشية مئذنتى جامعه بالقلعة بهذا القاشانى الأخضر .

والآن ، لنترك الحديث عن هذا الإيوان إلى الكتاب الغربيين :

يقول مونكونيس MONCONYS الذى زار القلعة فى شهر فبراير سنة ١٦٤٧ م (١٠٥٦ هـ) ، أى بعد مضى أكثر من قرن على سقوط القبة ، « هأنذا بالقلعة التى تقع فوق جبل بطرف المدينة ، وهذا الجبل يشرف عليه من على جبل آخر : وليس هناك شىء أجمل من ضخامة وروعة هذه القلعة ، أو أجمل من الإيوان الذى يقال إنه يرجع إلى عهد الفراعنة . وهذا الإيوان مربع الشكل يقوم على صفين من الأعمدة الضخمة الشاهقة ، وما من شك فى أنها أعمدة قديمة جداً لدرجة أنها قد تآكلت بفعل الزمن » . (٤)

وأما مييه MAILLET (١٦٩٦) فأكثر دقة منه . فى هذا الصدد يقول ، « ويرى المرء داخل القلعة ذاتها ديوانا آخر أو قاعة أخرى للملوك مصر الأقدمين . وهذه القاعة ترتفع قبتها على ثلاثة وأربعين عموداً من الأعمدة الرخامية الضخمة الشاهقة الارتفاع إذ يبلغ ارتفاع كل منها ، فيما بين القاعدة والتاج ، خمسة وأربعين قدماً على أقل تقدير . وحيث إنه يوجد بين هذه الأعمدة عمود لاترى قاعدته ، كما يبدو — فى الوقت نفسه — أكثر ارتفاعاً

---

(١) سيرة محمد بن قلاوون ، المخطوطة بمكتبة ميونخ، القسم العربى رقم ٤٠٦ ، ورقة ٢٩٢ .

(٢) (فى الأصل الفرنسى للكتاب يذكر كازانوفا أن عمارتى الايوان والجامع كانتا فيما بين سنتى ٧٣٢ و ٧٣٤ . غير أنى صححت العبارة بالمتن فى ضوء ما ذكره كازانوفا من قبل (انظر ص ٦٢٢ — ٦٢٤) من أن الجامع أعيد بناؤه فى سنة ٧٣٥ هـ) .

(٣) بدائع الزهور ، المخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٥٩٥ ب كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٣ ورقة ٢٨٩ ب . — (لم يرد ذكر هذا الحادث لا فى طبعة بولاق (الجزء الثالث) ، ولا فى طبعة استانبول (الجزء الخامس) أثناء الحديث عن سنة ٩٢٨ هـ) .

— لم يرد ذكر هذا الحادث لا فى طبعة بولاق (الجزء الثالث) ، ولا فى طبعة استانبول (الجزء الخامس) أثناء الحديث عن سنة ٩٢٨ هـ .

(٤) Journal des Voyages de M. Monconys, Lyon, 1675, 1ère Partie, p. 168.

وضخامة من بقية الأعمدة ، فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يعتقد بأن هذه الأعمدة قد استخدمت — من قبل — فى بناء آخر غير هذه القاعة ، وأنها جلبت من المكان الذى كانت قائمة به لتستخدم بها. وحقيقة الأمر : أن هذه القاعة ، هى إحدى العمائر التى أنشئت وقت أن كان العرب يحكمون مصر ، أى أن تاريخ بنائها لا يتجاوز ستة أو سبعة قرون . ويلاحظ المرء فى صدر هذه القاعة ، وبدائر (رقبة) القبة — وهى مكشوفة للسماء حسبما جرت العادة به فى هذه البلاد — (لقد أخبرنا ابن إياس أن هذه القبة قد سقطت من نفسها) وجود كتابات عربية مختلفة ، حروفها من قطع خشبية ، غالباً ما يبلغ سمك كل حرف منها سمك ذراع الإنسان وارتفاعه مقدار قامة الرجل . وإنه لمن الصعب جداً لكتابة كتبت بهذه الطريقة ألا تبقى مدة طويلة من الزمن ، ومن ثم فلا تزال جميعها (حتى الآن) على حالتها الأصلية. غير أن المرء يجد نفسه عاجزا أمامها تمام العجز ، وذلك أن حروفها قد تداخلت وتشابكت مع بعضها البعض بطريقة عجيبة للغاية ، لدرجة أنه يتعذر عليه قراءتها . وهذه القاعة — كغيرها من القاعات التى تشاهد بالقاهرة — مفتوحة من الجهة البحرية لكى تتلقى ريح الشمال المنعشة ، وهى حالياً تستخدم بصفة غير دائمة... » (١).

ولنترك وصف ذلك الإيوان كما جاء على لسان كل من بوكوك POCOCKE (١٧٤٠ م) ونيبور NIEBUHR (١٧٧٤ م) لنتقدم — فى إسهاب — هذه الدراسة الدقيقة له التى قام بها (أحد) علماء الحملة الفرنسية :

« هأنذا أصل (فى وصفى للقلعة) إلى هذا المبنى الشهير ، الذى يسمى خطأ قصر يوسف وديوان يوسف : وهذه الشهرة التى يتمتع بها هذا المبنى لدى جميع الرحالة ، إنما ترجع — على وجه التخصيص — إلى ما به من أعمدة جرانيتية جميلة يبلغ عددها اثنين وثلاثين عموداً ، وإلى جدرانه الضخمة ، وهذه القطعة من سقفه التى لا تزال فى موضعها. فأما الأعمدة ، فإن كل عمود منها يتكون من قطعة واحدة (من الجرانيت) ، وجميعها لا تزال قائمة ، ويبلغ ارتفاع كل منها (فيما عدا التاج) حوالى ثمانية أمتار (أى ٢٥ قدماً) . وقواعد هذه الأعمدة من الحجر الرملى ، وقد نحتت فى غير دقة . وهذه الأعمدة لم تنحت خصيصاً لهذا الأثر ، وليس أدل على ذلك من أن محيط كل منها يختلف عن الآخر ، هذا ويبلغ محيط العمود العادى مترا ونصف متر. وأما تيجانها فتختلف أيضاً من عمود لآخر ، وهى فى طابعها العام أقرب إلى الطراز الكورنثى من غيره. غير أن زخارفها سطحية تقريباً ، فهى لا تعدو أن تكون مجرد رسوم خفيفة خطت فى الحجر تمثل سعف النخيل الأملس ، والأغصان المتشابكة ، والعقد ، وكذلك الحزم فى كل ركن من أركان التاج مع قليل من البروز . والجرانيت الذى نحتت منه هذه الأعمدة لونه أحمر جميل ، وإن المرء ليعجب لضخامتها ولصفاء لون الجرانيت الذى قدت منه ، وللوقت والجهد اللذين استغرقا فى نقلها وإقامتها على هذا الوضع بالإيوان . وهذه الأعمدة تحمل عقوداً من الحجر ، وأفاريز زخرفت بكتابات عربية ذات أحرف ضخمة . وبأركان السقف توجد زخارف خشبية مقعرة تتكون من عدة أدوار ، وهى أشبه — على وجه التقريب — بالمقرنصات التى توجد بعمائرنا . وأما مخطط الإيوان فإنه أكثر روعة من مخطط أجمل جوامع القاهرة ، مثل جامع (أحمد) بن طولون وجامع السلطان حسن (على الرغم من أنه أقل منهما اتساعاً) ، وأخيراً فإن الطابع الذى يبدو فى بنائه يختلف عن الطابع الذى يلاحظ فى العمائر العربية التى لا تزال باقية حتى الآن . فهذا الأثر إنما يدل على على أن العمارة العربية فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) كانت تتميز بالضخامة والروعة من حيث طراز البناء ، ذلك الطراز الذى اختفى فى عهود سلاطين الأيوبيين خلفاء صلاح الدين وفى عهود سلاطين المماليك ، على الرغم من أن هؤلاء السلاطين قد أقاموا عمائر جبارة ، وضحوا بالأموال الطائلة فى إبراز عظمتها وروعتها . وإذا كان

(١) MAILLET, Description de l'Egypte, Paris 1735, p. 191

فى إمكاننا أن نقارن ديوان يوسف بأى أثر آخر من آثار القاهرة (من حيث الطابع فقط ، وصرامة الطراز) ، فإن هذا الأثر هو باب النصر ، الذى أشرت من قبل إلى الطابع الأصيل الذى يبدو فى طراز بنائه ومن الجائز أن يقارن أيضاً بجامع الحاكم الذى يقع بجوار هذا الباب . وجامع الحاكم بأمر الله ، ثالث خلفاء الفاطميين (فى مصر) يرجع بناؤه إلى بداية القرن الحادى عشر الميلادى ، بينما صلاح الدين لم يحكم مصر إلا ابتداء من سنة ١١٧١ م. ووجه الشبه بين جامع الحاكم بأمر الله وديوان يوسف إنما يتمثل — بصفة رئيسية — فى هذه العقود النصف دائرية التى تشاهد فى كل منهما ، وذلك على الرغم من أن هذه العقود ترتكز فى جامع الحاكم على دعائم ، وترتكز فى ديوان يوسف على أعمدة . ومن الجائز أن جامع الأزهر الكبير ، وهو أقدم من جامع الحاكم (بنى سنة ٩٦٩ م) ، يتمثل فى أقدم أجزائه الطراز المعمارى نفسه ، غير أن ذلك لا يعدو — من جانبى — مجرد افتراض بحت ، إذ لم يحدث لى قط أن دخلت هذا الجامع .

وليس من اليسير أن نعرف الجهة التى جلبت منها هذه الأعمدة القائمة بديوان يوسف ، وكل ما يمكننى قوله هو أن حجم هذه الأعمدة إنما يسمح بالاعتقاد أنها لم تجلب من منف ، كما افترض البعض ذلك . وإنما الأقرب إلى الصواب — فيما يبدو لى — أنها جلبت من الإسكندرية ، حيث نجد مئات من الأعمدة ، من الأحجام نفسها ، مكدسة فوق بعضها البعض فى أساسات الميناء . هذا ومن جهة أخرى ، فإنه يوجد بالقرب من مجرى المياه عشرون عموداً من الجرانيت من الأحجام نفسها تقريباً ، ملقاة على سطح الأرض ، ويبدو أنها كانت بأحد الجوامع المجاورة وأنها كانت قد نقلت إليه من الجهة نفسها (سواء حصن بابليون أو الإسكندرية) التى نقلت منها الأعمدة الخاصة بالجامع الذى بناه صلاح الدين بالقلعة . لقد قلت الجامع ولم أقل القصر ، وذلك على الرغم من الشرافات التى ترى بقمة البناء ، وإنى لأعتمد فى تقديرى لذلك على وجود المحراب الذى يوجد عادة بالجوامع ، وكذلك على الشكل العام لمخططه . وهو ما يتضح أيضاً للمرء من النقوش التى توجد على الأفاريز ، وهى بقدر ما يتسنى للمرء أن يحكم على ما تبقى منها مجرد نقوش دينية . وهناك وجه شبه آخر أكثر دلالة فى هذا الصدد ، فكل من يقوم بزيارة الكنائس المسيحية بالوجه القبلى سيقتنع دون مشقة بأن مخطط ديوان يوسف لا يعدو أن يكون قد نقل من مخطط إحدى هذه الكنائس لدرجة تثير الدهشة : حقاً إن هذا يمكن أن يقال على الرغم من وجود هذه العقود والعناصر المعمارية الأخرى . فهل كان الديوان كنيسة ثم حولت إلى جامع على يد صلاح الدين ؛ أو على يد أحد خلفائه ؟ أو أن مهندساً مسيحياً هو الذى كلف بإنشائه ، وأنه اقتبس تخطيطه من تخطيط الكنائس المسيحية ؟ إن هذا الفرض الأخير ليس مستحيلا ، فنحن نعرف أن كثيراً من المهندسين الروم قد استخدمهم السلاطين فى بناء عمائرهم . وكيفما كان الأمر ، فليس هناك أى أثر إسلامى آخر يشبه إلى حد كبير كنائس مصر سوى ديوان يوسف ، غير أن الذى يجعلنى أميل إلى الأخذ بالرأى الأول هو أن المحراب لا يتجه جهة المشرق (١) .

إن المرء لا يملك إلا أن يدهش لهذا التشابه ، ولهذه المطابقة الكبيرة التى تتمثل فى وصف هذا الديوان مع كل ما نعرفه عن جامع ابن قلاوون إذ يكفى أن يشاهد المرء هذا الجامع لكى يقتنع فى التو واللحظة بأن الأثرين (الديوان والجامع) قد بنيا فى فترة واحدة . وإن المرء ليعجب أيما عجب من أن هذا الكاتب القدير ، الذى استطاع ببصيرته النفاذة أن يقوم بهذه المقارنة بينهما ، قد اختلط عليه الأمر تماماً . غير أن هذا الخطأ من الممكن تفسيره بسبب هذه التسمية الخاطئة للديوان « بديوان يوسف » ، وهى التسمية التى ليس لها سوى سند أسطورى لا قيمة له البتة ،

Description de l'Egypte, XVIII, 2ème Partie, p. 352-353. (١)

وذلك على الرغم من أن العالم الجليل سلفستر دي سا سي قد أعطاها — للأسف الشديد — دلالة تاريخية . وقد سبق أن أوضحت رأيي من قبل بصدد هذه الأسطورة ، (انظر ص ٥٧٤) ، ومن ثم فليس ثمة داع للعودة إلى الحديث عنها . ولكي يزداد المرء اقتناعاً بمدى التشابه بين الإيوان والجامع ، فإني أضع أمام عينيه الرسم الموجود بكتاب وصف مصر الديوان يوسف من الداخل ، وبجانبها صورة فوتغرافية لجامع ابن قلاوون من الداخل . إن التشابه بينهما يبدو واضحاً لمجرد النظرة الأولى . وفضلا على ذلك ، فإن الفنان الفرنسي قد استطاع أن ينقل في دقة وأمانة تامة حروف النقش الخشبي بالديوان ، وإنه لأمر يسير لكل من له بعض الخبرة بقراءة النقوش العربية أن يعيد كتابة الكلمات التالية من هذا النقش . :

١ — ... ...

٢ — ابن مولانا السلطان الملك المنصور المرحوم

٣ — سيف الدنيا والدين (قلاوون (؟)) تغمده الله برحمته .

ومن ثم فإني لعلى يقين تام من أنه لم يعد هناك أدنى شك في أن ديوان يوسف إنما هو إيوان محمد بن قلاوون .

وإني لأرجو القارىء أن يغفر لي الإشارة إلى هذه المقتطفات المطولة في وصف هذا الديوان نقلا عن أولئك الكتاب المختلفين . فقد كان يتعين علي ، لكي يزداد القارىء اقتناعاً ، أن أقدم له بجانب آرائي الشخصية التي تحتمل الصواب والخطأ ، أكبر قدر من الأقوال الموثوق بصحتها التي تشهد على مدى ما لهذا الأثر من عظمة وأهمية ، غير أن جامع محمد على الذي بني مكانه — للأسف الشديد — لن يسمح لنا بالحديث عنه أكثر من ذلك .

ب — القصر الأبلق

هذا القصر لا يبدو أن يكون — في رأيي — سوى الأثر الذي يعرف بقصر يوسف أو بيت يوسف (انظر خريطة عام ١٧٩٨ — القلعة رقم ٨٢ ، ٨٤) (١) . وكما تعرفنا على الإيوان ، فان التعرف عليه يتضح لنا من خلال بعض النصوص المختلفة ، وهي ما سأشير إليها فيما يلي :

فالمقريزي يذكر في خططه :

(القصر الأبلق : هذا القصر يشرف على الاصطبل ، أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون في شعبان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وانتهت عمارته في سنة أربع عشرة (٢) . وأنشأ بجواره جنينة .

ولما كمل ، عمل فيه سماطاً حضره الأمراء وأهل الدولة ، ثم أفيضت عليهم الخلع . وحمل إلى كل أمير من أمراء المائتين ومقدمي الألوف ألف دينار ، ولكل من مقدمي الحلقة خمسمائة درهم ، ولكل من أمراء الطبلخاناه عشرة آلاف درهم فضة ، منهما خمسمائة دينار . فبلغت النفقة على هذا المهم خمسمائة ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم .

وكانت العادة أن يجلس السلطان بهذا القصر كل يوم للخدمة ، ما عدا يومي الاثنين والخميس ، فإنه يجلس للخدمة بدار العدل كما تقدم ذكره ، وكان يخرج إلى هذا القصر من القصور الجوانية . فيجلس تارة على تخت الملك المنصوب بصدر إيوان هذا القصر المطل على الاصطبل ، وتارة يقعد دونه على الأرض والأمراء وقوف على ما تقدم ، خلا أمراء المشورة والقرباء من السلطان ، فإنه ليس لهم عادة بحضور هذا المجلس ، ولا يحضر هذا المجلس من الأمراء الكبار إلا من دعت الحاجة إلى حضوره . ولا يزال السلطان جالساً إلى الثالثة من النهار ، فيقوم ويدخل إلى قصوره

---

(١) (بالأصل الفرنسي يشير كازانوفا الى رقم ٨٣ . وهذا الرقم على خريطة القلعة يشير الى مخزن للبارود ، وأما قصر يوسف فيشار اليه برقم ٨٢ ، ويشار الى بيت يوسف صلاح الدين برقم ٨٤) .

(٢) (يذكر المقريزي في خططه أن هذا القصر أنشأه الناصر محمد في شعبان ٧١٣ هـ وانتهت عمارته في السنة التالية — غير أنه في كتابه السلوك (طبعة الدكتور زيادة الجزء الثاني ، ص ١٢٩) يقول : وفيها (٧١٣ هـ) ابتدىء بعمل القصر الأبلق على الاسطبل السلطاني في أول السنة ، فكمل في سابع عشر رجب) .

الجوانية، ثم إلى دارحريمه ونسائه . (ثم يخرج فى أخريات النهار إلى قصوره الجوانية ، فينظر فى مصالح ملكه ، ويعبر إليه إلى قصوره الجوانية خاصته من أرباب الوظائف فى الأشغال المتعلقة به ؛ على ما تدعوالحاجة إليه . ويقال لها خدمة القصر .) (١)

وهذا القصر تجاه بابه رحبة يسلك إليها من الرحبة التى تجاه الإيوان . فيجلس بالرحبة التى على باب القصر خواص الأمراء قبل دخولهم إلى خدمة القصر . ويمشى من باب القصر فى دهاليز مفروشة بالرخام ، قد فرش فوقه أنواع البسط إلى قصر عظيم البناء ، شاهق فى الهواء بإيوانين. أعظمهما الشمالى، يطل منه على الاصطبلات السلطانية ، ويمتد النظر إلى سوق الخيل والقاهرة وظواهرها إلى نحو النيل وما يليه من بلاد الجيزة وقراها . وفى الإيوان الثانى القبلى باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام الموكب .

ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية ... ... (سيأتى وصفها فيما بعد — القسم الثالث — من هذا الفصل) .

وهذه القصور جميعها ، من ظاهرها ، مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر ... ...
وكان بهذا القصر الأبلق رسوم وعوايد ... ...) (٢)

ولنتوقف لحظة عند هذه الظاهرة المعمارية الأخيرة . فليس ثمة شك فى أن هذه الطريقة العجيبة التى اتبعت فى بنائه هى سبب تسميته «القصر الأبلق» . فكلمة «أبلق» فى اللغة العربية تعنى «الأبيض والأسود» ، وتعنى بصفة عامة «الخليط من اللونين» . ولا يزال يوجد حتى الآن كمية كبيرة من الأحجار السوداء والصفراء التى تبقت من أطلال هذا القصر بعد أن هدم ليقام مكانه جامع محمد على . بل إن كمية من هذه الأحجار قد استخدمت فى تجديد بناء أعلى السور — وعلى وجه التحديد — القطعة من السور فوق النقش الذى عثرنا عليه ببرج (محمد) بن قلاوون (انظر القسم الأول — ب ، من هذا الفصل) . وهذا يعنى أنه فى هذه المنطقة أنشئت جميع هذه القصور . هذا ويذكر لنا ابن اياس بعض التفصيلات عن هذا القصر ، يجدر بى أن أقدمها للقارىء . إذ يقول :

(وفى هذه السنة (٧١٣ هـ) ، شرع السلطان فى عمارة القصر الأبلق ، وهو عبارة عن ثلاثة قصور متداخلة فى بعضها وفيهم ، خمس قاعات وثلاثة مراقد . قال بعض المؤرخين : إن الملك الناصر أكمل عمارة هذه الثلاثة القصور فى مدة عشرة أشهر ، وهذا من العجائب وقيل فيه :

قصر عليه تحية وسلام ... خلعت عليه شبابها الأيام
قرت به عين المليك وغردت ... بالبشر فيه بلابل وحمام

قيل : لما انتهى العمل من هذا القصر الكبير أولم السلطان فى ذلك اليوم وجمع القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، وقرأ ختمة ومد سماطاً حافلا ، وملأ الفسقية التى بالقصر سكر(أ) بماء الليمون . ووقف رءوس النوب على الفسقية يفرقو (ن) السكر على الناس بالطاسات .

وخلع السلطان فى ذلك اليوم على المهندسين والبنائين والمرخمين والنجارين والدهانين (فبلغ) مجموع ذلك

---

(١) (هذه العبارة الأخيرة فى هذه الفقرة قد أسقطها كازانوفا على سبيل الاختصار . غير انى رأيت اثباتها زيادة فى الايضاح) .

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

ألفين وخمسمائة خلعات ، (ما بين متمرت وكوامل وخلع حرير وأقبية) . وفرق على الفعلا (ء) كل واحد عشرة دنانير ، وفرق على الفقرا (ء) فى ذلك اليوم خمسين ألف دينار . ثم أحضر نحو آخر الليل المغانى وأرباب الآلات ، وقدت وقدة عظيمة بالقصر تلك الليلة ، وأحرق حراقة نفط بالرميلة . وكانت ليلة لم يسمح بمثلها . (١)

ومما هو جدير بالذكر أنه كان بدمشق قصر أبلق آخر ، وهو الذى اتخذ — فيما يبدو — نموذجاً فى بناء هذا القصر الأبلق بالقلعة ، ولهذا فإنى أرى أنه يتعين على أن أنقل إلى القارىء وصف القصر الأبلق بدمشق كما وصفه شهاب الدين (ابن فضل الله العمرى) . يقول الكاتب المذكور . :

(القصر الأبلق بناه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى (فى سنة ٦٦٥ هـ) وظاهر (ه) من وجه الأرض إلى نهاية أعلاه بالحجر الأسود والأصفر ، مدماكاً من هذا ، ومدماكاً من هذا ، بتأليف غريب وإحكام عجيب . ويدخل فى دركاة له على جسر ، راكباً بعقد على مجرى الوادى ، إلى إيوان برانى يطل على الميدان القبلى ، استجده آقوش زمن نيابته بها . ثم يدخل إلى القصر من دهليز فسيح مشتمل على قاعات ملوكية ، تستوقف الأبصار وتستوهب الشموس من أشعتها الأنوار ، بالرخام الملون قائماً ونائماً فى مفارشها وصدورها وأعاليها وأسافلها . مموهة بالذهب واللازورد والفص المذهب ، وآزر من الرخام إلى (ما) تحت السقوف . وبالدار الكبرى إيوانان متقابلان ، يطل شبابيك شرقيهما على الميدان الأخضر الممتد ، وغربيهما على شاطىء الوادى الخضر ، والنهار به كأنه ذائب الفضة . وله الرفارف العالية المناغية للسحب ، يشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغوطة والوادى ، كامل المنافع بالبيوت الملوكية ، والاصطبلات السلطانية ، والحمام والمنافع الملكية (٢) .

وهكذا يتضح لنا من هذين الوصفين للقصر الأبلق بالقلعة والقصر الأبلق بدمشق ، أن وجه الشبه بينهما كبير للغاية . ومن يدرى ، لعل هناك أوجه شبه أخرى بين قلعة القاهرة وقلعة دمشق ، إذ من المحتمل أن يكون صلاح الدين قد اقتبس تخطيط قلعته عن قلعة دمشق التى بناها أستاذه نور الدين محمود . وربما تتاح لى الفرصة يوماً ما لدراسة هذه القلعة عن كثب والبحث عما يمكن أن يكون هناك من أوجه المقارنة بينهما . وأما الآن فإنى أكتفى بأن أشير إلى بعض التسميات المتشابهة هنا وهناك . فباب الساعات بقلعة دمشق ، الذى احترق فى عام ٧٩٤هـ (٣) ،

---

(١) بدائع الزهور ، المخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٥٩٥ أ ، ورقة ١٤١ ب — (النص الموجود بطبعة بولاق (الجزء الأول ، ص ١٥٩) يختلف كثيرا عن هذا النص المنقول عن النسخة الخطية المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس — ولهذا فقد آثرت أن أنقل الى القارىء القسم الأول من هذا النص ، وهو الخاص بوصف القصر — يقول ابن اياس: «ثم دخلت سنة أربع عشرة وسبعمائة • فيها شرع السلطان فى عمارة القصر الأبلق الذى بقلعة الجبل ، وهو عبارة عن ثلاثة قصور متداخلة فى بعضها ، وهى خمس قاعات وثلاثة مراقد • وقال بعض المؤرخين ان الملك الناصر محمد هذا أكمل عمارة هذه القصور الثلاثة المتداخلة فى عشرة أشهر» • هذا فضلا على الاختلاف الكبير فى وصف الحفل الذى أقيم بهذه المناسبة ، كما أن بيتى الشعر قد سقطا من النص المطبوع • وقد استعنت بالنص المطبوع فى تصحيح بعض الكلمات بالنص المنقول عن النسخة الخطية ، وهى الكلمات التى توجد بين حاصرتين • ولعل من المفيد أن نعرف — نقلا عن النص المطبوع — أن ابن اياس نقل هذا الوصف لذلك القصر عن صاحب كتاب « زبدة الأفكار فى أخبار الملك الناصر ») •

(٢) مسالك الأبصار ، المخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى — رقم ٥٨٣ (كتالوج دى سلين رقم ٢٣٢٥) ، ورقة ٢١١ أ — أورد كترمير فى كتابه (Sultans Mamlouks, 1er Vol., 2ème Partie, p. 44, Note) ترجمة فرنسية لهذا النص ، وهى التى أوردها (كازانوفا) بالمتن • غير أن كترمير لم يشرح جميع النقاط الغامضة الصعبة فى هذا النص ، وانى لأعترف ، فى تواضع تام ، أنى لم أكن أكثر توفيقا منه فى هذا الصدد : **ولهذا فقد** رأيت من الحكمة أن أتقيد بهذه الترجمة ، كما أضيف الى ذلك أنه يتعذر تحقيق هذا النص نظرا لعدم وجود فواصل بين مقاطع العبارات •

(٣) QUATREMERE : Op. Cit., 1er Vol., 2ème Partie, p. 179

يذكرنا بباب الساعات بدور الحريم السلطانية بقلعة القاهرة ، وهو الذى سبق أن أشرت إليه من قبل (انظر ص ٦٢٥). والميدان الذى يمتد شمالى قلعة القاهرة يعرف — من بين ما عرف به من أسماء — بالميدان الأخضر (١) لميدان دمشق .

وفى عهد الاحتلال التركى كان العمال الذين يقومون بصناعة كسوة الكعبة يقيمون بالقصر الأبلق . وإلى هذا يشير البكرى بقوله ، « قصر الكسوة المعروف بالقصر الأبلق (٢) » . كما أن الكتاب الغربيين الذين تحدثوا عن قصر يوسف (مثل مييه MAILLET ، وبوكوك POCOCKE ، ونيبور NIEBUHR وغيرهم) يذكرون أن كسوة الكعبة كانت تصنع بهذا القصر .

وإليك على سبيل المثال ، ما يقوله مييه عن هذا القصر :

(ويرى المرء كذلك ، داخل سور القلعة ، قصراً فى غاية البهاء والجمال وبعض الإيوانات الفخمة ، وهى التى تقع فى مواجهة الساحة الكبيرة التى تعرف بالميدان . وهذا البناء الذى يرجع بناؤه — على أقل تقدير — إلى مالا يقل عن ستة قرون (يتضح من هذه العبارة أن مييه لم يكن على علم بقصة سيدنا يوسف التى ترتبط بها تسمية هذا القصر) ، والذى يأخذ جماله بالألباب ، يطل على رحبة مرتفعة جداً . وهذه الرحبة تنتهى بجدار ضخم يسند الصخرة ويحول دون تدحرجها وسقوطها . وذلك أن الصخرة فى هذا المكان عالية جداً وتنحدر إلى أسفل فى ميل رأسى شديد . وفى منتصف هذا الجدار — تقريباً بروز (أشبه بالشرفة) محمول على عقود عالية جداً ، وهذه العقود ترتكز على دعائم مربعة يبلغ محيط كل منها ما بين ثلاثين وأربعين قدماً . وفوق هذا البروز منظرة مفتوحة من جهاتها الأربع ، ولا سيما من الجهة البحرية . وأما سقف المنظرة فيرتكز على عدد من الأعمدة . ومن هذا المكان يرى الإنسان كل مدينة القاهرة ، فياله من منظر رائع لا يعادله فى روعته أى منظر آخر فى العالم . وفى هذا القصر كان يسكن — فيما سلف — باشوات مصر ، غير أنهم هجروه منذ أن شاء سوء الطالع لأحدهم أن يقتل به . وأما الآن فلا يقيم به سوى الصناع الذين يكلفون بتطريز كسوة الكعبة الفخمة التى يرسلها السيد الكبير (السلطان العثمانى) إلى مكة كل عام) (٣) .

ولا نزال نشاهد حتى الآن بقايا هذه العقود التى يتحدث عنها مييه . وأعلى هذه العقود توجد الأحجار السوداء والصفراء — التى تحدثت عنها من قبل — مبعثرة على الأرض . هذا ولا بد أن يكون القارىء قد لاحظ مدى التشابه بين عبارات مييه وعبارات المقريزى فيما يختص بوصف هذا القصر ، لدرجة أن الإنسان ليخيل إليه أن مييه لم يفعل سوى أن قام بترجمة عبارات المقريزى .

ولكى نختم هذا الفصل ، أقدم إلى القارىء التفاصيل الآتية عن هذا القصر كما جاءت على لسان أحد علماء الحملة الفرنسية :

« إن قصر يوسف الحقيقى هو ذلك المبنى الخرب المتداعى الذى يشرف على مدينة القاهرة . فهذا القصر الذى

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ١١١ (س٩) ، ص ٢٠٥ (س ١٥) — (عرف هذا الميدان بميدان القبق ، والميدان الأسود ، وميدان العيد ، والميدان الأخضر ، وميدان السباق .)

(٢) البكرى : الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة، مخطوطة البعثة الفرنسية للآثار الشرقية بالقاهرة ، ورقة ١٧١ أ ، سطر ١٥ .

(٣) MAILLET, Description de l'Egypte, p. 193.

يعرف الآن أيضاً باسم بيت يوسف ، لا تزال تبدو به آثار العظمة والفخامة التي كان عليها فيما مضى ، فحوائطه الضخمة التي بنيت بعناية كبيرة مغطاة (من الداخل) بالنقوش ، وبزخارف الفسيفساء ، بل بالزخارف المذهبة ، وبالتصاوير التي لا تزال باقية حتى الآن . كما لا يزال يوجد بقايا بعض الأقبية ، غير أنها على حال من التداعى والخراب بحيث يتعذر وصفها . ويوجد بهذا القصر قاعة مزينة باثنى عشر عموداً ضخماً من الجرانيت ، يعلوها قبة نقشت عليها نقوش بأحرف مذهبة » . (١)

وبعد ، فإنى أحدد موقع القصر الأبلق داخل كل المنطقة التى تمتد على خريطة (القلعة) عام ١٧٩٨ ابتداء من النقطة التى يشار إليها برقم ٨٤ (٢) (بيت يوسف صلاح الدين) حتى باب السبع حدرات بالجانب الغربى لجامع محمد على الحالى . فبيت يوسف ، لا يعدو أن يكون فى نظرى سوى الديوان الشمالى (بالقصر الأبلق) الذى يتحدث عنه المقريزى . وأما الأطلال الباقية فهى عبارة عن الأجزاء الأخرى للقصر الأبلق ، والقصور الجوانية ، وغيرها من المنشآت التى سنتحدث عنها فيما يلى.

ثالثا

(١) القصور الجوانية

ولنعد — فيما يختص بهذه القصور الجوانية — إلى الوصف العام للقلعة كما أورده المقريزى ؛ وهو الوصف الذى سبق أن ذكرت الأسطر الأولى منه (انظر ص ٥٧٦ — ٥٨٠)

ذكر صفة القلعة

(وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر ، بأبراج وبدنات ، حتى تنتهى إلى القصر الأبلق . ثم من هناك تتصل بالسدور السلطانية على غير أوضاع أبراج القلاع . ويدخل إلى القلعة من بابين (باب المدرج وباب القرافة) ... ... وبين البابين ساحة فسيحة ، فى جانبها بيوت ، وبجانبها القبلى سوق للمآكل . ويتوصل من هذه الساحة إلى دركاة جليلة ، كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول . وفى وسط الدركاة باب القلة ، ويدخل منه فى دهليز فسيح إلى ديار وبيوت وإلى الجامع الذى تقام به الجمعة . ويمشى من دهليز باب القلة ، فى مداخل أبواب ، إلى رحبة فسيحة فى صدرها الإيوان الكبير المعد لجلوس السلطان فى يوم المواكب وإقامة دار العدل . وبجانب هذه الرحبة ديار جليلة ، ويمر منها إلى باب القصر الأبلق . وبين يدى باب القصر رحبة دون الأولى ، يجلس بها خواص الأمراء قبل دخولهم إلى الخدمة الدائمة بالقصر . وكان بجانب هذه الرحبة محاذياً — لباب القصر — خزانة القصر . ويدخل من باب القصر ، فى دهاليز خمسة ، إلى قصر عظيم ؛ ويتوصل منه إلى الإيوان الكبير بباب خاص ، ويدخل منه أيضاً إلى قصور ثلاثة ثم إلى دور الحريم السلطانية ، وإلى البستان ، والحمام ، والحوش (٣) .)

---

(١) Description de l'Egypte, XVIII, 2ème Partie, p. 351-352
كما يتحدث مبيه (المرجع السابق ، ص ١٩٠) عن أحد القصور ، « الذى ترى فيه هذه القاعة الفخمة المحوطة باثنى عشر عمودا من أعمدة الجرانيت الضخمة الشاهقة الارتفاع ، والتى تحمل قبة مكشوفة للسماء » ، كما يتحدث عن نقش منقوش بداير هذه القبة من أحرف بارزة من الخشب المذهب . وهذا الوصف ينطبق تماما على أحد الايوانات بقصر محمد بن قلاوون .

(٢) (فى المتن رقم ٨٣ ، وصححته على الخريطة رقم ٨٤).

(٣) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

وبعد ذلك الوصف ببضع صفحات ، وبعد أن ينتهى المقريزى من وصف القصر الأبلق الذى سبق أن أشرت إليه ، يعود إلى الحديث عن هذه القصور الجوانية ، فيقول :

(ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية . منها واحد مسامت لأرض هذا القصر ، واثنان يصعد إليهما بدرج ، فى جميعها شبابيك حديد تشرف على مثل منظرة القصر الكبير . وفى هذه القصور كلها مجارى الماء ، مرفوعا من النيل بدواليب تديرها الأبقار ، من مقره إلى موضع ، ثم إلى آخر حتى ينتهى الماء إلى القلعة ، ويدخل إلى القصور السلطانية وإلى دور الأمراء الخواص المجاورين للسلطان . فيجرى الماء فى دورهم وتدور به حماماتهم ، وهو من عجائب الأعمال لرفعته من الأرض إلى السماء قريباً من خمسمائة ذراع ، من مكان إلى مكان .

ويدخل من هذه القصور إلى دور الحريم . وهذه القصور جميعها ، من ظاهرها ، مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر ، موزرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات . وسقوفها كلها مذهبة ، قد موهت باللازورد ، والنور يخرق فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرسى الملون كقطع الجوهر المؤلفة فى العقود . وجميع الأراضى قد فرشت بالرخام المنقول إليها من أقطار الأرض مما لا يوجد مثله (١) .)

وإنى لألخص جميع هذه التفاصيل الخاصة بهذه العمائر التى ورد ذكرها فى هذين النصين على هذا الرسم التخطيطى للقلعة :

ويتضح لنا من هذا الرسم أن كلا من الجامع ، والإيوان ، والقصر الأبلق يطل على الجهة البحرية ؛ أى يطل على السور الجنوبى لقلعة الجبل (سور صلاح الدين) . كما يتضح تماماً أن الأبراج بالسور تنتهى إلى القصر الأبلق . وكما سبق أن ذكرت من قبل فى عدة مواضع فان هذا الجانب الذى يبتدىء من هذه النقطة (حيث تتوقف الأبراج بالسور) ليس له من صفات القلاع شىء ؛ وإنما هو مجرد مقر سلطانى ، شبيه بقصر فرساى ، وإنما على النمط الشرقى . والثلاثة العمائر التى تقع بالصف الأول (الجامع ، والإيوان ، والقصر الأبلق) تعتبر من العمائر العامة للسلطنة وأما القصور ودور الحريم السلطانية ، والدور الخاصة بكبار أمرائه فتقع جنوبها وغربها . وسأقدم ، فيما بعد ، على المخطط العام للقلعة كما كانت عليه زمن المقريزى (٢) ، تفاصيل أكثر دقة عن موقع هذه العمائر .

(ب) السبع قاعات

وهذه القاعات يصفها المقريزى بقوله :

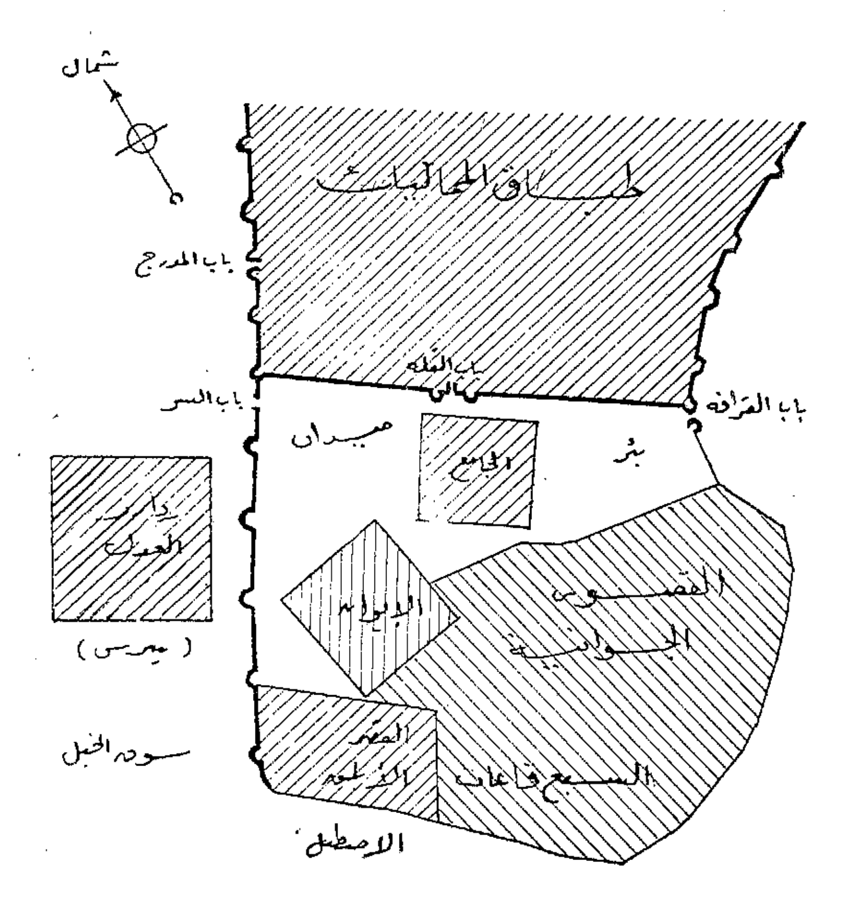
(هذه القاعات تشرف على الميدان وباب القرافة ، عمّرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها سراريه . ومات عن ألف ومائتى وصيفة مولدة ، سوى من عداهن من بقية الأجناس (٣) .)

والمقريزى لا يضيف على هذا الوصف شيئاً آخر ؛ غير أنى سبق أن ذكرت فى مقدمة هذا البحث أن اسم هذه القاعات لايزال باقياً ، وإنما بصورة أخرى مشابهة له إلى حد كبير . ففى الحقيقة يرى المرء على خريطة عام ١٧٩٨ (موقع) السبع حدرات بالركن الجنوبى من القلعة ، الذى يشرف على الميدان المعروف بقواميدان (القلعة — رقم ٧٢) . وكلمة «حدرة» لها نفس المعنى الذى لكلمة «قاعة» ومن ثم فليس هناك شك فى أن «السبع حدرات» ليس سوى اسم آخر ، أصابه بعض التحريف ، للسبع قاعات التى أنشأها محمد بن قلاوون ،

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٠ .

(٢) انظر المخطط رقم ٩ (الملحق بآخر الكتاب) .

(٣) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٢ ، س ١٦ .



شمال
طباق المماليك
باب المدرج
باب القلة
باب السر
باب القرافة
ميدان
الجامع
بئر
دار العدل
الإيوان
القصور الجوانية
القصر الأبلق
السبع قاعات
سور الجبل
الإسطبل

فموقعها هو الموقع نفسه ، الذى يحدده لنا المقريزى . وليكن معلوماً أن باب القرافة ، الذى تشرف عليه هذه السبع القاعات ، هو الباب الذى يوجد بسور القاهرة ، وليس باب القلعة الذى يعرف أيضاً بهذا الاسم (١) ، وأن هذا الباب يوجد فى نهاية الميدان (انظر خريطة عام ١٧٩٨) .

وقد قابلنى أثناء قراءاتى لكتب المؤرخين ذكر قاعة يقال لها « قاعة الفضة (٢) » ، وقاعة أخرى يقال لها « قاعة النحاس (٣) » . ومن الجائز أن يكون رقم « سبعة » قد أطلق على هذه القاعات على سبيل التفاؤل بالنجوم. وإذا كان هذا الرأى صحيحاً فإن السبع القاعات تكون قد سميت بأسماء المعادن المقابلة لأسماء الكواكب السبعة السيارة ، وهى : الذهب ، والفضة ، والحديد ، والزئبق ، والقصدير ، والنحاس ، والرصاص (٤) . وكيفما كان الأمر ، فإن هذا لا يعدو أن يكون مجرد رأى خاص أدلى به .

وكانت قاعة النحاس — حسبما يفهم من عبارة ابن إياس المثبتة بالحاشية السابقة — مجاورة للإيوان — وأغلب الظن أن باب النحاس هو باب هذه القاعة .

(جـ) باب النحاس

يقول المقريزى :

(هذا الباب من داخل الستارة ، وهو أجل أبواب الدور السلطانية عمّره الناصر محمد بن قلاوون وزاد فى سعة دهليزه (٥) .)

وليس ثمة شك فى أن المقريزى يقصد باب الستارة بقوله « من داخل الستارة » (قارن العبارة السابقة بالعبارة التى وردت من قبل ، ص ٦٢٥ ، جـ ٢) . وقد سبق أن قلت : إن باب الستارة كان يقابل الباب القبلى للجامع المواجه للجهة الشمالية الشرقية . ومن ثم فإن باب النحاس لابد أن يكون هو الباب الذى يجتازه السلطان وهو قادم من الدور السلطانية إلى الجامع ، وعند عودته إليها . كما كان يسلك من باب النحاس إلى درج الإيوان (٦) ؛ وهذا مما يؤكد رأيى بصدد هذا الباب .

---

(١) لقد سبق أن نبهت القارىء لما عسى أن يحدث له من لبس بسبب هذه التسمية المشتركة لهذين البابين (انظر ص ٥٨٢) .

(٢) يشير أبو المحاسن فى مناسبات عديدة الى هذه القاعة كما لو أنها كانت مخصصة لاقامة بعض الأمراء (النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٦٦ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٧) ، ورقة ٤٣ب وما يليها — (عن قاعة الفضة انظر النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء الخامس ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٩١ ، ٥٨٣) .

(٣) ابن اياس ، الذى كثيرا ما يشير الى هذه القاعة ، يذكر القارىء كل مرة بأنها « قاعة النحاس المطلة على الايوان» — انظر بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٥٩٥أ (كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٢) ، ورقة ١٨٨ أ ، ٢٣٥ ب ، ٢٥٧ ب وغيرها .

— (لم يرد ذكر قاعة النحاس بقلعة الجبل فى النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وانما ورد به « قاعة النحاس بالكرك » — انظر طبعة كاليفورنيا ، الجزء الخامس ، ص ٤٥٥ ، ص ٤٦٧) .

— عند قاعات القلعة انظر : W. POPPER: Op. cit., p. 21-22 (The Citadel)

(٤) قارن ذلك بما يذكره أحد الكتاب الفرس عن التسعة المناظر التى أنشأتها احدى الأميرات الهنديات وسمتها بأسماء مقابلة لأسماء الشمس والقمر والكواكب السبعة (انظر :

REINAUD, Monuments arabes du Cabinet Blacas, II, p. 388, Note.

(٥) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٢ ، س ٣٥ .

(٦) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٩ ، س ٢٣ .

— (انظر أيضا فى هذا الصدد : W. POPPER : Op. cit., pp. 20-21, (The Citadel)

(د) باب القلة

والقلة — كما رأينا من قبل — هى التى بناها بيبرس ، ثم هدمهاقلاوون فى ١١من رجب سنة ٦٨٥ هـ وبنى مكانها قبة . وهذه القبة هى التى هدمها — بدوره الناصر محمد ، وجدد باب القلة على ماكان عليه زمن المقريزى (١) . وقد سبق أن قلت : إن خريطة عام ١٧٩٨ تشير إلى برج كبير يقال له « خزنة قلة » : لا وجود له الآن . ويبدو لى أن هذا البرج سمى بهذا الاسم نسبة إلى باب القلة . كما أن اسم هذا الباب يتردد ذكره بالعصر التركى (٢) .

وليس هنالك من شك فى أن هذا الباب هو الذى لا يزال يشاهد تجاه الجامع . وقد سبق أن أوضحت أنه كان يقع فيما بين باب سارية وباب القرافة . هذا ومن جهة أخرى ، فإن العبارة التالية التى وردت على لسان أبى المحاسن أكثر إيضاحاً فى هذا الصدد ، إذ يقول : (قتل الأمير جانبك بقلعة الجبل ، داخل باب القلة تجاه باب الجامع الناصرى الشرقى (٣)) .

وقد سبق أن رأينا (ص ٦٤١ — ٦٤٢) أنه كان (بين البابين ساحة فسيحة ... . ويتوصل من هذه الساحة إلى دركاة جليلة ، كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول . وفى وسط الدركاة باب القلة ، ويدخل منه فى دهليز فسيح إلى ديار وبيوت ، وإلى الجامع ... . (٤)) كما أن أبا المحاسن يذكر أن باب القلة كانت له فى كل جهة عتبتان ؛ فاذا ما خرج المرء من هذا الباب فانه كان يجتاز العتبة اليمنى إذا كانت وجهته القصور السلطانية ، أو يجتاز العتبة اليسرى إذا كانت وجهته الجامع (٥) .

كما كان يوجد بباب القلة مساطب ، وكان الأمراء يجتمعون بها إلى أن يحين وقت ركوبهم فى الخدمة (٦) . ويفهم من عبارة المقريزى التى نقلت نصها بالحاشية السابقة ، أن هذه المساطب كانت — فيما يبدو — داخل قلعة الجبل !

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٢ ، س ٣٧ ، (ثم هدمها (القلة) الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وجدد باب القلة على ما هو عليه الآن وعمل له بابا ثانيا) — وأما المخطوطة بمكتبة ميونخ ، القسم العربى رقم ٤٠٦ (سيرة محمد بن قلاوون) فيبدو أنه يتحدث عن هذا الباب أثنـاء حديثه عن سنة ٧٠٠ هـ . ففى ورقة ١٧٥ب يقول (وفى شهر رجب انشا(ء) الباب المستجد خارج باب القلة ، وتوسيع الدركاة ، وفر (أ) غ ذلك جميعه فى رجب) .

(٢) ابن زنبل : كتاب فتوح مصر وذكر ما وقع بين السلطان الغورى والسلطان سليم ، المخطوطة بمكتبة ميونخ ، رقم ٤١٣ ، ورقة ٥٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس القسم العربى ، اضافة رقم ٨٠٩ (كتالوج دي سلين رقم ١٧٨٩) ورقة ١٢٦ ب .
— (النص كما ورد فى طبعة كاليفورنيا ، الجزء السابع ، ص ٧٧٥ ، يختلف قليلا عن النص المثبت بالمتن ، ولذلك آثرت نقله هنا . يقول أبو المحاسن : وتوفى عظيم الدولة ومدبر المملكة الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله الظاهرى الدوادار الكبير ، المعروف بنائب جده ، قتيلا بيد المماليك الأجلاب بباب القلة داخل قلعة الجبل وقت صلاة الصبح ..)

(٤) انظر من قبل ، ص ٦٤٢ — (أعدت كتابة نص المقريزى زيادة فى الايضاح) .

(٥) النجوم الزاهرة ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٣٧ أ وردت بها هذه العبارة : (وصل الى باب القلة ثم مشى الى أن جاوز العتبة الثانية من باب القلة ، والتفت عن يمينه الى الجهة الموصلة الى القصر السلطانى .. ثم مشى الى أن التفت نحو العتبة التى تكون على شماله تجاه باب الجامع الناصرى ، فرأى على درجات الباب المذكور جماعة من المماليك .) — (النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء الســابع ، ص ٧٧٥ — ٧٧٦) .

(٦) السلوك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٦٧٢ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦) ، ورقة ٢٤٣ ب ، حيث وردت بها هذه العبارة : اجتمع الأمراء بمساطب باب القلة من قلعة الجبل على العادة ، ينتظرون فتح باب القلعة ليركبوا فى خدمة الأمير كتبغا فى الموكب كما جرت به العادة .
— (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الأول ، ص ٧٩٩) . وقارن ذلك النص بنص القلقشندى المثبت فى صفحة ٦٨٧ من هذا الكتاب) .

نفسها (قلعة صلاح الدين) ، حيث كان الأمراء ينتظرون هناك إلى أن يفتح « باب القلعة » أي باب سارية . وكان باب القلة يسور قلعة الجبل (الضلع الجنوبي من السور) ؛ فهذا ما يتضح من العبارة المبهمة – نوعاً ما – التي وردت على لسان أبي المحاسن ، والتي تقول (باب القلة وهو الذي عليها (هكذا) المعتمد على صور (هكذا) القلعة (١) . وأخيراً ، يمكن القول – بناء على بعض الدلائل المؤكدة التي سأشير إليها فيما بعد – أن دار النيابة وشباكها (الذي يطل على الدركاة) كانت توجد بجوار باب القلة .

(هـ) دار النيابة

لقدسبق أن ذكرت من قبل (ص ٦١٥) أن هذه الدار بناها قلاوون سنة ٦٨٧ هـ . وعندما أبطل محمد ابن قلاوون وظيفة النيابة هدمها سنة ٧٣٧ هـ ؛ غير أنها بنيت مرة أخرى فيما بعد وعلى الرغم من أن هذه الدار لا تعتبر –على وجه الدقة– من بين العمائر التي أنشأها محمد بن قلاوون ، فإني أرجو القارىء أن يسمح لي بأن أخصها بالحديث في هذا الفصل في شيء من التفصيل .

يقول المقريزي : (وفيه (جمادى الأولى سنة ٧٤٢هـ) أنشأ الأمير قوصون قاعة مجلوسة مع الأمراء من داخل باب القلة ، وفتح لها شباكاً يطل على الدركاة ... ... وكان (قوصون) قبل ذلك يجلس بباب القلة موضع (دار) النيابة في موضع صنعه وأدار عليه درابزين يحجبه عن الزحمة من كثرة الناس(٢) .) كما يفهم من قبل قول المقريزي نفسه ، فيما بعد ، أثناء كلامه عن حوادث سنة ٧٥٢هـ ، أن دار النيابة كانت توجد بمدخل باب القلة (٣) . كما أن دار النيابة كان يتوصل منها إلى قاعة الصاحب التي سبق أن تحدثت عنها (انظر ص ٥٩٥ (٤)) وكيفما كان الأمر ، فقد كانت دار النيابة تجاه الإيوان بالجانب الآخر من باب القلة ، أي بالجانب الذي يوجد داخل سور صلاح الدين ، وذلك حسبما يفهم من هذا النص الصريح للمقريزي في كتاب السلوك الذي يقول : (ومشى سلار والناس بين يديه من دار النيابة بعد العصر حتى ركب ، وعبر من باب القلة إلى الإيوان ، وجلس على التخت ، ولقب بالملك المظفر ... ... (٥)) وهذا مما يسمح لنا بأن نحدد موقع قاعة الصاحب بهذا الجانب أيضاً بالقرب من باب القلة .

---

(١) النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربي ، رقم ٦٦٢ (كتالوج دي سلين رقم ١٧٨٤) ، ورقة ٥١١ ب .

(٢) (النص المثبت بالمتن ليس هو المنقول عن النسخة الخطية للسلوك التي اعتمد عليها كازانوفا (المكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربي رقم ٦٧٢ ، كتالوج دي سلين رقم ١٧٢٦ ، ورقة ٥١١ ب) ، وانما نقلا عن السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثاني ، ص ٥٨٠ . فالنص – كما ورد في النسخة الخطية – به كثير من الأخطاء . والجديد عليه كلمة « دار » التي توجد بين الحاصرتين ، اذ أضافها كازانوفا زيادة في الايضاح ، وقد رأيت الابقاء عليها) .

(٣) (يستشهد كازانوفا في هذه الحاشية بعبارة وردت على لسان المقريزي (النسخة الخطية السابقة ، ورقة ٦١٥ ب)، وقد رأيت عدم اثباتها هنا لما بها من أخطاء . وأما العبارة كما وردت بالسلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثاني ، ص ٨٤٦ ، فنصها : واذا بالنائب (بيبغا ططر حارس الطير) ومغلطاي ، ومنكلي بغا ، وبيغرا ، ومن معهم قد نزلوا وركبوا خيولهم . وكانوا لما أبطأ عليهم مجيء طاز وصرغتمش بعثوا في استعجالهما ، فاذا الأبواب مغلقة ، والصيحة داخل باب القلة ، فقاموا من دار النيابة يريدون الركوب ،فما ان توسطوا القلعة حتى سمعوا صيحة الغلمان وصياحهم ..)

(٤) السلوك ، النسخة الخطية السابقة ، ورقة ٣٠٨ أ ، حيث وردت بها هذه العبارة (وخرج من دار النيابة بالقلعة الى قاعة الصاحب) ، وهي توضح مجاورتهما لبعض ، وليس في هذا شيء من الغرابة – (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثاني ، ص ٢٦) .

(٥) السلوك ، النسخة الخطية السابقة ، ورقة ٣١٦ ب – (النص المثبت بالمتن نقلا عن السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثاني ، ص ٤٦ .)

وحيث إن موضع دار النيابة قد تحدد على هذه الصورة الواضحة ، فإنى أرى لزاماً على أن أنقل إلى القارىء هذا الوصف التفصيلى لها ، كما أورده المقريزى الذى سبق أن ترجمه كترمير ، وذلك حتى لانعود إلى الكلام عنها مرة أخرى . يقول المقريزى :

(دار النيابة — كان بقلعة الجبل دار نيابة بناها الملك المنصور قلاوون فى سنة سبع وثمانين وستمائة . سكنها الأمير حسام الدين طرنطاى ، — ومن بعده من نواب السلطنة . وكان النواب تجلس بشباكها حتى هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وأبطل النيابة ، وأبطل الوزارة أيضاً ، فصار موضع دار النيابة ساحة . فلما مات الملك الناصر أعاد الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره فى نيابة السلطنة ، فلم تكمل حتى قبض عليه . فولى نيابة السلطنة الأمير طشتمر حمص أخضر ، وقبض عليه . فتولى بعده نيابة السلطنة الأمير شمس الدين آق سنقر فى أيام الملك الصالح اسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون فجلس بها فى يوم السبت أول صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فى شباك دار النيابة . وهو أول من جلس بها من النواب بعد تجديدها ، وتوارثها النواب بعده ... ...
ثم إن الناصر فرج بن برقوق أقام الأمير تمراز فى نيابة السلطنة ، فلم يسكن دار النيابة فى القلعة (١) .

(و) الطباق (٢)

كما يذكر المقريزى أن محمد بن قلاوون بنى طباقاً جديدة بساحة الإيوان . « وأسكنها المماليك السلطانية وعمّر حارة تختص بهم (٣) » .

وفى سنة ٧٢٩ هـ أقام طباقاً مكان الجب الذى كان قد عمره أبوه فى سنة ٦٨١ (٤) هـ وقد رأيت فى هذا المكان ، حيث توجد (الآن) التكنات التى تقيم فيها (قوات الاحتلال الإنجليزية (٥)) ، والتى توجد على مسافة قريبة من باب سارية جهة الشمال الغربى ، جباً مكشوفاً داخل بعض الغرف المهجورة .

هذا ولا يفوتنا أن نشير — فى كلمة عابرة — إلى الحريق الذى شب بالقلعة يوم الجمعة سابع رمضان سنة

---

(١) الخطط — الجزء الثانى ، ص ٢١٤ ، س ٣٣ ، ص ٢١٥ ، س ٢٠ — هذا ويذكر المقريزى فى كتاب السلوك (النسخة الخطية السابقة ، ورقة ٤٥١ أ) أنها هدمت فى يوم الأحد ثامن ربيع الآخر سنة ٧٣٧ هـ . اذ يقول : (هدمت دار النيابة بالقلعة التى عمرت فى الأيام المنصورية قلاوون سنة سبع وثمانين وستمائة ، وأزيل الشباك الذى كان يجلس فيه طرنطاى النائب . وذلك فى يوم الأحد ثامن ربيع الآخر — (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثانى ، ص ٤١١) .

(٢) — فيما يختص بنواب السلطنة انظر تعليق كترمير ، (Sultans Mamlouks, I, 2ème Partie, p. 95) حيث قام بترجمة نص المقريزى ، الذى نقلت عنه بالمتن الجزء الخاص بدار النيابة .

(٣) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٣ ، س ٢٣ .

(٤) يقول المقريزى (الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٣ ، س ٣) عن هذا الجب : كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء ، وكان مهولا مظلما كثير الوطاويط كريه الرائحة ، يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه . عمره الملك المنصور قلاوون فى سنة احدى وثمانين وستمائة ، فلم يزل الى أن قام الأمير بكتمر الساقى فى أمره مع الملك الناصر محمد بن قلاوون ، حتى أخرج من كان فيه من المحابيس ونقلهم الى الأبراج ، وردمه وعمر فوق الردم طباقا فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة — وأما فى كتاب السلوك (النسخة الخطية السابقة ، ورقة ٤١٢ ب) فيذكر أن هذا الطباق عمرت فى اليوم السابع عشر من شهر جمادى الأولى من هذه السنة .

(٥) (يقيم بهذه الثكنات الآن قوات من الجيش المصرى)

— الطباق مفردها « طبقة » انظر تعليق كترمير على هذه الكلمة فى :
Sultans Mamlouks, I, 2ème Partie, p. 14

٧١٥ ﻫ ، وأحرق جانباً من الطباق (١) . وفى هذا الحريق احترق أيضاً البرج المنصورى ، ومن المحتمل أن يكون هذا البرج هو الذى أنشأه الملك المنصور قلاوون بالقرب من باب السر (انظر ص ٥٩١) . وبما أنه من المعروف أن باب السر كان يفضى إلى ساحة الإيوان ، فمن الجائز والمحتمل أن تكون الطباق التى احترقت هى التى بناها محمد بن قلاوون بهذا المكان .

(١) مخطوطة ميونيخ ، رقم ٤٠٦ (سيرة محمد بن قلاوون)، ورقة ١٦٨ ب ، حيث ورد (وفى ليلة الجمعة سابع رمضان احترق البرج المنصورى بالقلعة وطباق المماليك المجاورة له ، وعملت النار الى طلوع الشمس ثم أطفئوها) •

ـ وأما المقريزى (السلوك ، النسخة الخطية السابقة ، ورقة ٣٥٨ ب) فيذكر أن النار شبت فى ١٧ من شعبان ، وأن الطباق التى احترقت هى طباق الجمدارية (احدى فرق المماليك) • وفى هذا يقول : (وقعت نار فى البرج المنصورى فى قلعة الجبل وطباق الجمدارية وأحرقت شيئا كثيرا ، وذلك فى سابع عشر شعبان) • غير أن التاريخ الأصح هو الذى يذكره صاحب مخطوطة ميونيخ نظرا لأنه كان معاصرا لمحمد بن قلاوون •

ـ (السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثانى ، ص ١٥٧ ، يؤرخ وقوع ذلك الحريق فى التاسع عشر من شعبان)•

الفصل العاشر

منشآت محمد بن قلاوون
(بقية)

وفيما عدا هذه المنشآت التى أنشأها محمد بن قلاوون داخل سور القلعة ، والتى قمت بذكرها (فى الفصل السابق) ، فهناك منشآت أخرى له عظيمة الأهمية . وهذه المنشآت إنما تعتبر بمثابة مبان ملحقة بالقلعة ، بل إن بعضها يكون ما هو أشبه بنطاق ثالث للقلعة (ولا سيما فى عصر الأتراك) . وعلى الرغم من أن السلاطين الذين سبقوا محمد بن قلاوون على عرش السلطنة قد أولوا هذه المنشآت بعض العناية والاهتمام ، فإنى لم أقل عنها – حتى الآن – سوى بضع كلمات . وذلك أنى آثرت إرجاء الحديث عنها – إلى الوقت المناسب – حتى يتيسر لى دراستها دراسة جامعة شاملة . هذا ومن جهة أخرى ، فإن التغييرات التى قام بها هذا السلطان المشغوف بالبناء والعمارة بهذه المنشآت قد غيرت معالمها تماماً وأعطتها طابعاً جديداً كل الجدة .

وهذه المنشآت هى :

(١) الطبلخاناه ، (٢) الحوش ، (٣) الاصطبلات ، (٤) الميدان ، (٥) مجرى المياه .

١ – الطبلخاناه

والطبلخاناه ، كما رأينا من قبل (ص ٦٠٨) ، أقيمت مكان دار العدل التى أنشأها بيبرس . وفى هذه الأسطر التالية سأعود إلى الحديث عنها والتعليق على وصف المقريزى لها . يقول المقريزى فى خططه :

وهذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت القلعة ، فيما بين باب السلسلة وباب المدرج ، كانت دار العدل القديمة التى عمرها الملك الظاهر بيبرس وتقدم خبرها . فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة هدمها الناصر محمد ابن قلاوون ، وبنى هذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت قلعة الجبل ، فيما بين باب السلسلة وباب المدرج . وصار ينزل إلى عمارتها كل قليل ، وتولى شد العمارة بها آق سنقر شاد العمائر ... ... (١))

وفى كتاب السلوك يؤرخ المقريزى بناءها فى شهر رمضان من هذه السنة ، وهو ما يؤكده أبو المحاسن . ويضيف الكاتبان إلى ذلك ، أنه بينما كان يقوم العمال بحفر الأساس وجدت بعض الجثث التى لا يزال يشاهد بها آثار ضربات

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٣ .

السيوف . وكانت هذه الجثث لأناس طوال القامة عراض المناكب ، وكانت اثنتان منها عليهما عدة القتال (١) . وأغلب الظن أنها جثث بعض مقاتلة الفرنج الذين قتلوا فى المعارك التى نشبت بالقرب من باب البرقية فى سنة ٥٦٤ ﻫ (٢) .

وهكذا يتضح لنا من وصف المقريزى موقع الطبلخاناه على وجه التحديد فهى تقع تحت القلعة فيما بين باب المدرج وباب السلسلة . فأما الباب الأول فقد أصبح مما سبق الحديث عنه معروفاً لنا . وأما الباب الثانى فلم أتعرض للحديث عنه حتى الآن . غير أنه يتضح لنا من العبارات الكثيرة التى ورد ذكره بها كما لو أنه كان يقع تجاه مدرسة السلطان حسن . وحيث إن هذه المدرسة لا تزال قائمة فى موضعها . فليس هناك شك فى أن هذا الباب كان يقع — على وجه التقريب — موقع الباب الذى يسمى — منذ عهد الأتراك — باب العزب . . هذا وقلت « على وجه التقريب » وذلك لأنى سأحاول أن أثبت ، فيما بعد ، أن الموقع الحقيقى لهذا الباب لابد أنه كان بعيداً عن موقع باب العزب بمسافة قليلة . ومما يجدر الإشارة إليه أن أحداً من الكتاب ، الذين وصفوا القلعة ، لم يتعرض لوصف هذا الباب على الرغم من أنه طالما تكررت الإشارة إليه أثناء سردهم للحوادث التاريخية . ولقد سبق أن ذكرت حديث المقريزى والقلقشندى عن أبواب القلعة ؛ فأولها لا يذكرها سوى بابين : باب المدرج وباب القرافة ؛ وأما الثانى فيضيف إلى هذين البابين باباً ثالثاً وهو باب السر . فأما هذا الباب (باب السلسلة) فلابد أن يكون — على أى وجه من الوجوه — خارج القلعة ، كما هو الحال الآن بالنسبة لباب العزب ، وذلك أننا إذا ما رجعنا إلى مخططات القلعة ، يتضح لنا أنه لكى يدخل المرء إلى قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين) فلابد أن يكون ذلك دائماً عن طريق البابين المتقابلين : باب المدرج وباب القرافة . وأما باب العزب — شأنه فى ذلك شأن باب السلسلة — فلا يسمح بالدخول إلا للمنشآت الملحقة بالقلعة .

وكيفما كان الأمر ، فانه إذا ما قبلنا — إلى حين — أن الطبلخاناه كانت تقع فيما بين باب سلم المدرج ، الذى لا يزال موجوداً حتى الآن ، وباب العزب ، فان هذا المكان ينطبق — فيما يبدو — على الموقع الذى تشغله الآن دار المحفوظات (الدفترخانه — انظر خريطة جراند بك) . ولكى يكون هذا التحديد مطابقاً تماماً للموقع الذى حدده

---

(١) السلوك ، النسخة الخطية السابقة ، ورقة ٣٨٧ ب، (طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثانى ، ص ٢٣٦) — النجوم الزاهرة ، النسخة الخطية بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٦٢ ، كتالوج دى سـلين رقم ١٧٤٨ ، ورقة ١٤٩ أ .

— (وقد رأيت اثبات نص المقريزى فى هذا الصدد ، كما جاء فى السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، اذ يبدو أن هناك خلافا بينه وبين النص الذى ترجمه كازانوفا الى الفرنسية ، نقلا عن النسخة الخطية للسلوك المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس . يقول المقريزى ، (ولما هـدم (دار العدل) وجد فى أساسها أربعة قبور ، فلما نبشت وجد بها رمم أناس طوال عراض ، واحداها مغطاة بملاءة ديبقى ملونة اذا مس منها شىء تطاير ، وعليهم عدة القتال ، وبهم جراحات ، وفى وجه أحدهم ضربة سيف بين عينيه عليها قطن ، فلما رفع القطن نبع من تحته دم ، وشوهد الجرح كأنه جديد ، فنقلوا الى بين العروستين ، وعمل عليهم مسجد) .

— وأما عن العروستين فيعلق الدكتور زيادة على ذلك بقوله : ان هذا الاسم أطلق على خط من الأخطاط الواقعة على الطريق الواصل الى قلعة الجبل من القاهرة فى العصور الوسـطى ، وكان به مقـابر لبعض الأوليـاء ، وقد حدده محمد رمزى بك بالموضع الذى توجد به دار المحفوظات المصرية الحالية) .

(٢) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣٣٩ ، س ٧ ، حيث يقول المقريزى (رحل مرى من بركة الحبش ، ونزل بظاهر القاهرة مما يلى باب البرقية وقاتل أهلها قتالا كثيرا) — ويتضح من هذه العبارة أن المعارك التى نشبت بين المصريين والفرنج كانت بالقرب من القلعة (انظر المخطط) .

المقريزى للطبلخاناه ، ففى هذه الحالة يتعين علينا أن نلتزم جانب الدقة وأن يكون موقعها أقرب إلى باب العزب منه إلى باب سلم المدرج . غير أنه – كما سنرى فيما بعد – كانت هناك منشآت أخرى يتعين وجودها فى هذا المكان الذى يقع بين البابين ؛ ومن ثم فإنه يبدو لى أن أفضل موقع للطبلخاناه – بناء على ما وصل إلينا من أوصاف مختلفة لها – هو هذا المكان الذى توجد عليه الآن دار المحفوظات .

وبعد ، فماذا كان مصير هذه الطبلخاناه ؟ إن هذا هو ما نجهله تماماً . فهل ظلت قائمة بهذا المكان ، أم أنها هدمت ليبنى مكانها بعض المنشآت فى الفترة المتأخرة ؟ إن هذه الأسئلة لم أجد أية إجابة عنها . وقد حددت – على وجه التقريب – موقع هذه الطبلخاناه على المخطط الذى قمت بتخطيطه للقلعة (المرفق بآخر هذا الكتاب) كما كانت عليه فى ذلك الوقت (زمن المقريزى) داخل الزاوية التى توجد بين السورين ، فيما بين باب المدرج وباب السر . وهذا أقصى ما يمكن أن نصل إليه ؛ إذ يبدو من العسير أن تكون أكثر دقة بصدد تحديد موقعها .

٢ – الحوش

وأما الحوش فيصفه لنا المقريزى بقوله :

(ابتدىء العمل فيه على أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة . وكان قياسه أربعة فدادين ، وكان موضعه بركة عظيمة قد قطع ما فيها من الحجر لعمارة قاعات القلعة حتى صارت غوراً كبيراً . ولما شرع فى العمل ، رتب على كل أمير من أمراء المئين مائة رجل ومائة بهيمة لنقل التراب برسم الردم ، وعلى كل أمير من أمراء الطبلخاناه بحسبه . وندب الأمير أقبغا عبد الواحد شاد العمل . فحضر من عند كل من الأمراء أستاداره ، ومعه جنده ودوابه للعمل . وأحضر الأسارى ، وسخر والى القاهرة ووالى مصر الناس ، وأحضرت رجال النواحى ، وجلس أستادار كل أمير فى خيمة ووزع العمل عليهم بالأقصاب . ووقف الأمير أقبغا يستحث الناس على سرعة العمل .

وصار الملك الناصر يحضر فى كل يوم بنفسه ، فنال الناس من العمل ضرر زائد ، وأخرق أقبغا بجماعة من أماثل الناس . ومات كثير من الرجال فى العمل لشدة العسف وقوة الحر ، وكان الوقت صيفاً . فانتهى عمله فى سنة وثلاثين يوماً ، وأحضر إليه من بلاد الصعيد ومن الوجه البحرى ألفا رأس غنم ، وكثير من الأبقار البلق ، لتوقف فى هذا الحوش ؛ فصار مراح غنم ومربط بقر . وأجرى الماء إلى هذا الحوش من القلعة ، وأقام الأغنام حوله ، وتتبع فى كل سنة المراحات من عيذاب وقوص إلى ما دونها من البلاد حتى يؤخذ ما بها من الأغنام المختارة . وجلبها من بلاد النوبة ومن اليمن ، فبلغت عدتها بعد موته ثلاثين ألف رأس سوى أتباعها . وبلغ البقل الأخضر الذى يشترى لفراخ الأوز فى كل يوم خمسين درهماً ؛ عنها زيادة على مثقالين من الذهب (١) .)

وسنرى أن هذه المنشآت التى أقيمت بالحوش قد استخدمت – بعد أن أخليت طبعاً من ضيوفها الأوائل – لتكون مقراً لخلفاء السلطان الناصر محمد .

وأما الآن فإنى أكتفى بأن أوجه اهتمامى إلى ما ورد فى وصف المقريزى من ملاحظة بصدد موضع هذا الحوش ، وهى أنه كان من قبل بركة عظيمة قطع ما كان فيها من الحجر لاستخدامه فى عمارة قاعات القلعة . فإن المرء لا يزال يلاحظ حتى الآن بالمنطقة الجنوبية بالقلعة ، أسفل الرحبة العالية التى طالما تحدثت عنها ، أخاديد نحتت فى صلب الصخرة ؛ كما يمكن المرء أن يلمس أن الكثير من القطع الحجرية المستخدمة فى بناء المنشآت المجاورة إنما هى من أحجار الصخرة نفسها . وهذا يعنى أن الأحجار التى استخدمت فى بناء هذا الجانب من القلعة قد اقتطعت من الصخرة

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٩ .

ذاتها . وهذه الملاحظة لها أهميتها الخاصة ولاسيا إذا ماتذكرنا أن السور الأول للقلعة ، وهو السور الذى بناه صلاح الدين . قد استخدم فى بنائه الأحجار التى نقلت من أطلال الأهرامات الصغيرة (انظر ص ٥٤٢) . ومما يؤيد ما سبق أن قلته فى هذا الصدد ، أن السور الثانى الذى يحيط بالقصور (السلطانية) وبالمدينة السلطانية يختلف تمام الاختلاف عن السور الأول . ففى بناء هذا السور الثانى ، لم يكن ثمة داع لأن يتحمل المرء مشقة البحث عن هذه الأحجار التى قام الفراعنة القدماء بنحتها فى عناية تامة ، وإنما قام باقتطاع الأحجار التى استخدمت فى بنائه من هذا المحجر الطبيعى الذى يوجد تحت تصرفه . وفيما بعد ، لوحظ وجود غور بالصخرة (فى هذا المكان) بسبب هذا الاقتطاع المتواصل لهذه الأحجار ؛ الأمر الذى أدى إلى التفكير فى ردمه . وإلى هذه الفترة يرجع بناء المجموعة الثالثة من منشآت القلعة ؛ وهى المنشآت التى أصبحت ، بعد سلطنة محمد بن قلاوون ، المقر المفضل لسلاطين المماليك ثم للباشاوات من بعدهم فى العهد العثمانى . وكان إنشاء الحوش بمثابة نقطة البداية لانتقال مقر السلاطين إلى هذه المنطقة من القلعة . وذلك أنه مع مرور الزمن أهملت القصور السلطانية التى كانت تقوم على هذه الرحبة المرتفعة التى تطل على الميدان ، كما هجر الإيوان والجامع ليعمل فيهما الزمان معاول الهدم والتخريب .

٣ — الاصطبلات

لقد سبق أن تكلمت عن الاصطبلات فى عهد الملك الكامل وفى عهود خلفائه . غير أن نشاط محمد بن قلاوون قد امتد أيضاً إلى هذه الإصطبلات . إذ قام باجراء تعديلات جوهرية فيما قام ببنائه أسلافه لدرجة أدت إلى تغيير معالمها الأصلية وأصبحنا لا نستطيع أن نتعرف إلا على الصورة التى آلت إليها هذه الاصطبلات فى عهده ؛ وذلك على الرغم من أننا نعرف أن الأمر لم يعد أن يكون مجرد ترميمها وتجديدها ، أو زيادتها وتوسعتها ، وليس بناؤها من جديد .

وإلى القارىء هذا النزر اليسير الذى يتحدث فيه المقريزى عن هذه الإصطبلات والذى لا يمدنا فيه بشىء محدد عن موقعها . يقول : (نظر الإصطبلات — هذه الوظيفة جليلة القدر إلى اليوم ... ... وأول من استجدها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهو أول من زاد فى رتبة أمير آخور (١) .) . ويلى هذه العبارة من كلام المقريزى تفاصيل مطولة عن تنظيم سلاح الفرسان ، وهو ما أسقطه لأن هذه الدراسة التى أقوم بها تقتصر على وصف القلعة من الناحية الأثرية . وإنما الشىء الوحيد الذى يمكن أن نستخلصه من هذه التفاصيل المطولة هو أن محمد بن قلاوون قد قام بإجراء تعديلات هامة بالاصطبلات القديمة ؛ فهذا كل ما يمكن أن نعرفه . وفضلا على ذلك فلم يعد لهذه الإصطبلات أى أثر .

وكما سبق أن رأينا ، فان الإصطبلات كان يتوصل منها إلى القصور . كما كان يسلك إليها من باب السلسلة الذى كان يوجد فى مواجهة جامع السلطان حسن . ومن هذا فإنى أستخلص أن باب السلسلة لا يعدو أن يكون ذلك الباب الداخلى الذى يشار إليه على خريطة عام ١٧٩٨ تحت اسم باب الأربعين ، والذى يقع على مسافة غير بعيدة من الباب الحالى الذى يعرف بباب العزب . فهذا الباب يذكّرنا من حيث طريقة بناء أساسه ، ومن حيث موقعه ، بباب سارية . وإنى أرى أن باب السلسلة لابد أن يكون قد أنشىء على يد الملك الكامل ، غير أنه من العسير أن نؤكد هذه الحقيقة نظراً لكثرة ما أجرى به من عمليات الترميم والتعمير . وسأوضح ، فيما بعد ، أن باب العزب الحالى إنما يرجع بناؤه إلى عهد الأتراك العثمانيين . وأما باب الأربعين ، وهو أحد الأبواب الداخلية بالقلعة ، فإنه

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٤ ، س ٣٧ .

لا يؤدى الآن إلا إلى المخازن : وهو الآن لا يعدو أن يكون باباً قائماً فى الفضاء بمفرده ، وبالتالى فإنه لا يمكن أن ينظر إليه إلا باعتباره أثراً من آثار السور القديم للقلعة .

وعلى مقربة من هذا الباب — وهو باب السلسلة فيما أعتقد — يوجد جامع يرجع حسب طراز بنائه إلى العصر المملوكى ؛ وذلك على الرغم من أن العثمانيين قد أعادوا بناءه فيما بعد . وإنى أعتقد أن هذا الجامع هو جامع الاصطبل الذى ورد ذكره مرتين على لسان المقريزى (١) . وبجدار الجامع سبيل تمكنت من أن أقرأ عليه بعض أجزاء من نقش ترجع كتابته إلى عصر محمد بن قلاوون . وهذه الأجزاء التى تمكنت من قراءتها هى فقرات من بعض الآيات القرآنية التى كثيراً ما نجدها على هذا النوع من العمائر . ففى هذا النقش يقرأ المرء فى وضوح :

... ... الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (٢)

٤ — الميدان

ومن الطبيعى أن يكون هناك صلة بين الميادين ، التى كان يزاول فيها المماليك تدريباتهم العسكرية ، وبين هذه الإصطبلات ؛ وبالتالى بينها وبين القلعة ذاتها ، وأن تعتمد القلعة عليهما فى كل ما يتعلق بذلك . وقد كان هناك عدد من هذه الميادين (٣) ؛ غير أنى لن أتعرض فى حديثى هذا إلا لذلك الميدان الذى يتصل اتصالا مباشراً بالقلعة ، والذى لا يزال اسمه موجوداً حتى الآن ، وإنما باسمه التركى الذى عرف به ، وهو : قراميدان (أى الميدان الأسود) . وقد ذكر بهذا الاسم على خريطة عام ١٧٩٨ ، وهو (الآن) (٤) عبارة عن ميدان واسع مزروع بالأشجار .

وقد خصص له المقريزى هذا الوصف التالى :

(الميدان بالقلعة — هذا الميدان من بقايا ميدان أحمد بن طولون ، الذى تقدم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب . ثم بناه الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة إحدى عشرة وستمائة ، وعمّر إلى جانبه بركاً ثلاثاً لسقيه ، وأجرى الماء إليها . ثم تعطل هذا الميدان مدة . فلما قام من بعده ابنه الملك العادل أبو بكر محمد بن الكامل محمد اهتم به . ثم اهتم به الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل اهتماماً زائداً ، وجدد له ساقية أخرى وأنشأ حوله الأشجار ، فجاء من أحسن شيء يكون إلى أن مات ، فتلاشى أمر الميدان بعده . وهدمه الملك المعز أيبك سنة إحدى وخمسين وستمائة وعفت آثاره .

فلما كانت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ابتدأ الملك الناصر محمد بن قلاوون عمارته ، فاقتطع من باب الاصطبل إلى قريب باب القرافة ، وأحضر جميع جمال الأمراء فنقلت إليه الطين حتى كساه كله وزرعه ، وحفر الآبار وركّب

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٤٥ س ٣٣ ، ص ٣٢٧ — فى وصف المقريزى لجامع الاصطبل (ص ٣٢٧) نجد أن جميع النسخ الخطية للخطط تترك على بياض اسم منشئ الجامع .

(٢) سورة الفرقان ، آية رقم ١٠ (تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) .

(٣) انظر فى هذا الصدد ، الفصل الذى خصصه المقريزى عن الميادين (الخطط ، الجزء الثانى ، ص ١٩٧ وما يليها) .

(٤) (أى فى نهاية القرن التاسع عشر وقت أن ألف كازانوفا كتابه هذا عن القلعة . وقد تغيرت صورة الميدان الآن عما كان عليه فى القرن الماضى .)

عليها السواقى ، وغرس فيه النخل الفاخر والأشجار المثمرة ، وأدار عليه هذا السور الحجرى الموجود الآن ، وبنى حوضاً للسبيل من خارجه .

فلما كمل ذلك نزل إليه ولعب فيه الكرة مع أمرائه ، وخلع عليهم . واستمر يلعب فيه يومى الثلاثاء والسبت .

وصار القصر الأبلق يشرف على هذا الميدان ، فجاء ميداناً فسيح المدى يسافر النظر فى أرجائه . وإذا ركب السلطان إليه نزل من درج تلى قصره الجوانى ، فينزل السلطان إلى الاصطبل الخاص ، ثم إلى هذا الميدان وهو راكب وخواص الأمراء فى خدمته ، فيعرض الخيول فى أوقات الإطلاقات ، ويلعب فيه الكرة . وكان فيه عدة من أنواع الوحوش المستحسنة المنظر ، وكانت تربط به أيضاً الخيول الخاصة للتفسح . وفى هذا الميدان يصلى السلطان أيضاً صلاة العيدين ، ويكون نزوله إليه فى يوم العيد وصعوده من باب خاص من دهليز القصر ، غير المعتاد النزول منه. فاذا ركب من باب قصره ونزل إلى منفذه من الإصطبل إلى هذا الميدان ينزل فى دهليز سلطانى قد ضرب له على أكمل ما يكون من الأبهة ، فيصلى ويسمع الخطبة ، ثم يركب ويعود إلى الإيوان الكبير ويمد به السماط ... ...

... ...

إلى أن كانت سنة ثمانمائة ، فصلى الملك الظاهر برقوق صلاة عيد النحر بجامع القلعة لتخوفه بعد واقعة الأمير على باى ، فهجر الميدان ... ... (١))

٥ــ مجرى المياه

وأما أعظم عمائر محمد بن قلاوون شأناً خارج القلعة ، والتى لا يزال يوجد حتى الآن جانب كبير منها — فهو إنشاء القناطر الضخمة (التى تحمل مياه النيل إلى القلعة) ، والتى يمدنا المقريزى بهذه التفاصيل المشوقة عنها . إذ يقول تحت عنوان « المياه التى بقلعة الجبل » :

(وجميع مياه القلعة من ماء النيل ، تنقل من موضع إلى موضع حتى تمر فى جميع ما يحتاج إليه بالقلعة ، وقد اعتنى الملوك بعمل السواقى التى تنقل الماء فى بحر النيل إلى القلعة عناية عظيمة . فأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة أربع سواقى على بحر النيل ، تنقل الماء إلى السور ، ثم من السور إلى القلعة ، وعمل نقالة من المصنع الذى عمله الظاهر بيبرس بجوار زاوية تقى الدين رجب التى بالرميلة تحت القلعة إلى بئر الاصطبل .

فلما كانت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، عزم الملك الناصر على حفر خليج من ناحية حلوان إلى الجبل الأحمر المطل على القاهرة ليسوق الماء إلى الميدان الذى عمله بالقلعة ، ويكون حفر الخليج فى الجبل . فنزل لكشف ذلك ومعه المهندسون ، فجاء قياس الخليج طولا اثنين وأربعين ألف قصبة ؛ فيمر الماء فيه من حلوان حتى يحاذى القلعة . فإذا حاذاها بنى هناك خبايا تحمل الماء إلى القلعة ليصير الماء بها غزيراً ، كثيراً دائماً ، صيفاً وشتاء ، لا ينقطع ولا يتكلف حمله ونقله . ثم يمر من محاذاة القلعة حتى ينتهى إلى الجبل الأحمر ، فيصب من أعلاه إلى تلك الأرض حتى تزرع .

وعندما أراد الشروع فى ذلك طلب الأمير سيف الدين قطلوبك بن قرا سنقر الجاشنكير ، أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق ، بعدما فرغ من بناء القناة وساق العين إلى القدس . فحضر ومعه الصناع الذين عملوا قناة بيت المقدس على خيل البريد إلى قلعة الجبل ، فأنزلوا ثم أقيمت لهم الجرايات والرواتب . وتوجهوا إلى حلوان ووزنوا مجرى الماء ، وعادوا إلى السلطان وصوبوا رأيه فيما قصد ، والتزموا بعمله. فقال : كم تريدون ؟ . قالوا :

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

ثمانين ألف دينار . فقال : ليس هذا بكثير ! فقال : كم تكون مدة العمل فيه حتى يفرغ ؟ قالوا : عشر سنين ، فاستكثر طول المدة . ويقال : إن الفخر ناظر الجيش هو الذى حسن لهم أن يقولوا هذه المدة ؛ فإنه لم يكن من رأيه عمل هذا الخليج ، وما زال يخيل للسلطان من كثرة المصروف عليه ومن خراب القرافة ما حمله على صرف رأيه عن العمل وأعاد قطلو بك والصناع إلى دمشق . فمات قطلوبك عقيب ذلك فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، فى ربيع الأول .

فلما كانت سنة إحدى وأربعين وسبعمائة اهتم الملك الناصر بسوق الماء إلى القلعة وتكثيره بها لأجل سقى الأشجار وملء الفساقى ، ولأجل مراحات الغنم والأبقار . فطلب المهندسين والبنائين ونزل معهم ، وسار فى طول القناطر التى تحمل الماء من النيل إلى القلعة حتى انتهى إلى الساحل ، فأمر بحفر بئر أخرى ليركب عليها القناطر حتى تتصل بالقناطر العتيقة . فيجتمع الماء من بئرين ويصير ماء واحداً يجرى إلى القلعة فيسقى الميدان وغيره ؛ فعمل ذلك . ثم أحب الزيادة فى الماء أيضاً ، فركب ومعه المهندسون إلى بركة الحبش ، وأمر بحفر خليج صغير يخرج من البحر ، ويمر إلى حائط الرصد ، وينقر تحت الرصد عشر آبار يصب فيها الخليج المذكور ، ويركب على الآبار السواقى لتنقل الماء إلى القناطر العتيقة التى تحمل الماء إلى القلعة زيادة لمائها . وكان بين أول هذا المكان الذى عين لحفر الخليج وبين آخره تحت الرصد أملاك كثيرة وعدة بساتين ، فندب الأمير أقبغا عبد الواحد لحفر هذا الخليج وشراء الأملاك من أربابها . فحفر الخليج وأجراه فى وسط بستان الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وقطع أخشابه وهدم الدور ، وجمع عامة الحجارين لقطع الحجر ، ونقر الآبار . وصار السلطان يتعاهد النزول للعمل كل قليل ، فعمل عمق الخليج من فم البحر أربع قصبات ، وعمق كل بئر فى الحجر أربعين ذراعاً ، فقدر الله تعالى موت الملك الناصر قبل تمام هذا العمل ، فبطل ذلك وانطم الخليج بعد ذلك ، وبقيت منه إلى اليوم قطعة بجوار رباط الآثار . وما زالت الحيط قائمة من حجر فى غاية الإتقان ، من إحكام الصنعة وجودة البناء ، عند سطح الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد ، قائماً من الأرض فى طول الجرف إلى أعلاه ، حتى هدمه الأمير يلبغا السالمى فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، وأخذ ما كان به من الحجر فرم به القناطر التى تحمل إلى اليوم الماء حتى يصل إلى القلعة . وكانت تعرف بسواقى السلطان ، فلما هدمت جهل أكثر الناس أمرها ونسوا ذكرها (١) .)

ولا تزال القناطر العتيقة موجودة . ويتضح مما ذكره لنا المقريزى عنها ، أنها كانت موضع عناية السلاطين فى جميع العهود . ومن ثم فان نقل المياه من النيل إلى القلعة ، على هذه الصورة ، أمر سابق لعهد محمد بن قلاوون . كما أن جانباً كبيراً من هذه القناطر شبيه فى بنائه بأبنية القلعة ، وإنى لأترك إلى عناية هرز **HERZ** القيام بوصفها . وإذا كان هناك ثمة احتمال فى أن عملية إنشاء هذه القناطر تعزى إلى الملك الكامل ؛ فإن العناية المتواصلة بعمارتها وترميمها تعتبر أمراً مفروغاً منه . فقد سبق أن رأينا كيف تحول أحد عقودها إلى باب على يد السلطان قايتباى . كما وجدنا أيضاً اسم السلطان الغورى (منقوشاً على واجهة) هذا الباب (٢) . غير أنه يبدو من المتعذر على أن أحدد على — وجه الدقة نصيب — كل من هؤلاء السلاطين (الذين تعاقبوا على حكم مصر بعد الملك الكامل) فى عمارة هذه القناطر ، دون أن يؤدى بى ذلك إلى الدخول فى بحث مفصل دقيق يبعدنى كثيراً عن موضوع دراستى الأصلية (٣) .

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) انظر ، فيما يختص بهذا الباب ، نهاية الفصل الخامس عشر .

(٣) — لقد كتب الى صديقى فان برشم ، الذى طالما تحدثت اليه فى هذه المشكلة ، هذه الأسطر القليلة التى تؤيد آرائى . اذ يقول ، «لقد استخدم **(فى بناء القناطر)** طريقتان رئيسيتان . فأما الطريقة الأولى فهى طريقة البناء =

وبناء على ما ذكره لنا المقريزى ، فإنه لم يبق شيء يذكر من هذا المشروع الضخم الذى قام به محمد بن قلاوون (لسوق الماء إلى القلعة وتكثيره بها) . ومع ذلك ، فإنى أرى أنه من الخير أن أضع أمام القارىء بعض الأسطر التى كتبها مييه MAILLET عنه ، حتى يسهل مقابلتها بذلك الوصف الذى خصصه لها هذا المؤرخ العربى .

يقول مييه : « ... ... (إن بئر يوسف) ليست البئر الوحيدة من نوعها . فقد اكتشفت خمس آبار قريبة الشبه بها بين خرائب مصر القديمة ، وذلك أسفل الجبال التى يتوقف عندها امتداد المدينة منذ بدايته على ضفة النيل عبر مساحة من الأرض تبلغ ثلاثة أرباع فرسخ على وجه التقريب (هذه الجبال هى التى يعرفها المقريزى بالرصد) . وهذه الآبار محفورة أيضاً فى الصخر وعلى عمق يثير الدهشة وإذا كانت هذه الآبار تتميز بشيء ، فإنها لا تتكون البتة من قسمين كما هو الحال ببئر يوسف ؛ وإنما كل بئر منها عبارة عن حفرة واحدة ، ومحيط اتساعها واحد فى جميع أجزائها بحيث يطابق اتساع القاع اتساع الفتحة مطابقة تامة ، كما هو الحال فى جميع الآبار الأخرى فى جميع أنحاء العالم . هذا ومن جهة أخرى ، فإنها كلها — تقريباً — تقع على صف واحد يتجه صوب الجنوب ، وأنها تقع بجانب القصر ، بالمكان الذى يسمى بخط خدم ابن طولون (هذا الخط هو مدينة القطائع لدى المقريزى) . غير أن أربعة من هذه الآبار لم تعد تستخدم بعد ، وهذه الآبار الأربع هى أكثرها عمقاً وأكثرها قرباً من الجبل (هذه الآبار هى — على الأرجح — الآبار الأربع التى يشير المقريزى إلى وجودها تحت الرصد) . وذلك أن الأحجار والأتربة التى ألقيت بها قد جعلتها نصف مطمورة . وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الآبار لا تزال عميقة بدرجة كبيرة تذهل الناظر إليها . كما أن فتحة كل بئر منها ليست مربعة الشكل تماماً ، وإنما هى على هيئة مربع يبلغ طوله عشرة أقدام وعرضه ثمانية أقدام . وأما فيما يختص بالبئر الخامسة ، فإنها لا تزال على حالة جيدة وصالحة للاستعمال ، وتستخدم فى إمداد أحد الجوامع القديمة بالماء (أغلب الظن أن هذا الجامع هو جامع الجيوشى (١)) ، والذى تعيش حوله عدد كبير من الأسر فى هذا المكان المحصن الذى يقع فى بطن الجبل (هذه البئر الخامسة ، تبدو لى ، أنها تختلف تمام الاختلاف عن الآبار التى حفرها محمد بن قلاوون ، وأغلب الظن أنها حفرت وقت بناء هذا الجامع الذى بناه الوزير بدر الجمالى سنة ٤٧٨ هـ .) . ومياه هذه البئر عذبة باردة ، كمياه جميع الآبار بمصر ، اللهم إلا إذا استثنينا مياه بئر يوسف ، التى هى على العكس من ذلك ملحة نوعاً ما . ومن المحتمل أن هذه الآبار كانت تزود ، فيما مضى ، قسماً من مصر القديمة بمياه الشرب ، إذ أن هذه الآبار تشرف بحكم موقعها على المدينة . ولا تزال ترى بالقرب من هذه الآبار بعض قنوات من الآجر كانت تستخدم فى نقل المياه إليها ... ... (٢) »

غير أن جميع هذه الآبار التى شاهدها مييه قد اختفت الآن وضاعت معالمها ، وذلك أن جميع هذه المنطقة مغطاة الآن بالمقابر . وعلى الرغم من ذلك فقد لاحظت وجود بعض الحفر ، التى تختلف درجة الردم بها من

= بالمداميك ، وهى شبيهة بالطريقة التى استخدمت فى بناء أسوار صلاح الدين ، مع استخدام أحجار مماثلة من نفس الأحجام . وفى جانب من العقود نجد أن الفتحات قد سدت بطريقة البناء بالمداميك أيضا ، ولكن يبدو أن بناءها يرجع الى فترة أخرى . كما نلاحظ أن محمد بن قلاوون قد بنى أيضا بالقلعة بطريقة المداميك (الخطاب المؤرخ فى أول مايو ١٨٩٢) — وأما فيما يختص بالدراسة الفنية لهذه القناطر فانى أتركها للأستاذ هرز ، الذى سيقول لنا عما اذا كان يمكن نسبتها بصفة نهائية الى محمد بن قلاوون . وأما عن طريقة البناء الأخرى ، وهى الطريقة التركية ، فسأقول عنها بضع كلمات فى الفصل السادس عشر .

(١) عن هذا الجامع انظر :

VAN BERCHEM : Une Mosquée du temps des Fatimides, Mémoiers de l'Institut Egyptien, II, Le Caire, 1888

VAN BERCHEM : Corpus Inscriptionum Arabicarum, Ière Partie, Egypte, p. 54.

(٢) MAILLET, Op. cit, p. 213-214

حفرة إلى أخرى ، والتى من المحتمل أن تكون هى بعينها الآبار التى حفرها محمد بن قلاوون ؛ غير أن الأنقاض المتراكمة بها من الكثرة بحيث يتعذر على التحقق من صحة هذا الرأى . وكيفما كان الأمر ، فإنى لا أتردد فى أن أرى فى هذه الآبار الأربع التى يتحدث عنها مييه نفسه الآبار التى حدثنا عنها المقريزى . إن ما شاهده مييه لا يعدو جانب الحقيقة : فهذه الآبار وهذه القنوات كانت تقوم بإمداد المياه ، إن لم يكن إلى مصر القديمة ، فعلى أقل تقدير إلى القلعة التى أصبحت تقع بالقرب منها بعد أن أنشئت المنشآت بها (١) .

وأخيراً ، فإنى أختم هذين الفصلين بهذا النص الموجز الذى يقدمه لنا المقريزى ، فى كتاب السلوك ، عن منشآت محمد بن قلاوون . يقول المقريزى :

(وأنشأ الميدان تحت القلعة ، وأجرى له المياه ، وغرس فيه النخل والأشجار ، ولعب فيه بالكرة فى كل يوم ثلاثاء مع الأمراء والخاصكية ؛ وعمر فوقه القصر الأبلق . وأخرب البرج الذى عمره أخوه الأشرف خليل على الإصطبل ، وجعل فوقه رفرفاً ، وترك أصله من أسفله وعمر بجانبه برجاً نقل إليه المماليك . وغير باب النحاس بالقلعة ، ووسع دهليزه . وعمر فى الساحة قدام الإيوان طباقاً للأمراء والخاصكية ، وغير الإيوان مرتين ، وفى (المرة) الثالثة أقره على ما هو عليه الآن ؛ وحمل إليه العهد الكبار من (بلاد) الصعيد ، فجاء من أعظم المبانى الملوكية . وعمر بالقلعة دوراً للأمراء الذين زوجهم بناته ، وأجرى إليها المياه ، وعمل بها الحمامات . وزاد فى باب القُلَّة (من القلعة) باباً ثانياً . وعمر حارة مختص ، وعمر الجامع بالقلعة والقاعات السبع التى تشرف على الميدان ، وباب القرافة لأجل سكنى سراريه . وعمر المطبخ ، وجعل عمائره كلها بالحجارة خوفاً من الحريق . وعزم أن يغير باب القلعة المعروف بالمدرج ، ويعمل له دركاه ، فمات قبل ذلك ، وعمل فى القلعة حوش الغنم ، وحوش البقر ، وحوش المعزى ، وجاير الأوز ، وغير ذلك ؛ فأوسع فيها نحو خمسين فداناً (٢) .

---

(١) (فى عهد محمد بن قلاوون كان الميدان يمتد من باب الاصطبل بالقلعة الى قرب باب القرافه بسور القاهرة) .

(٢) السلوك ، النسخة الخطية السابقة ، بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ٤٩٧ ب ــ ٤٩٨ أ ــ (النص المثبت بالمتن نقلا عن السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الثانى ، ص ٥٣٨ ــ ٥٣٩) .

الفصل الحادي عشر

(ملخص الفصلين السابقين)

قلعة القاهرة زمن شهاب الدين

(ابن فضل الله العمري)

صاحب كتاب مسالك الأبصار

إن المنشآت التى قام بها محمد بن قلاوون تعتبر – كما سبق أن رأينا – بمثابة نقطة الذروة فى تاريخ التعديلات والتغييرات التى حدثت بالقلعة والتى غيرت صورتها الأولى. فمنذ ذلك الحين حتى القرن الحاضر (القرن التاسع عشر (١)) ، والقلعة على ما كانت عليه لم تتغير معالمها إلا بقدر ضئيل ، هذا إذا لم يكن هذا التغيير الضئيل لم يتناول القلعة ذاتها بقدر ما تناول المنشآت الملحقة بها ، ومن ثم فإنى أرى أنه من المفيد أن نعود إلى الحديث عن كل ذلك التاريخ الذى مضى للقلعة ، ولاسيما أن مؤرخا من المعاصرين لمحمد بن قلاوون قد ترك لنا أقدم وصف لها . وإنى لأنقل هنا ، عن هذا المؤرخ – فى إفاضة وإسهاب – النص الكامل لوصف القلعة الذى لم يتح له أن ينشر بعد ؛ وهو النص الذى يلخص على أجمل وجه كل ما سبق أن قلته عنها . وفضلا عن ذلك ، فإن لهذا النص قيمة أخرى ؛ إذ أنه يمدنا بالأصل الذى نقل عنه المقريزى – وهو الدليل الذى يقودنا ويرشدنا فى هذه الدراسة – أكثر عباراته وضوحاً فى وصف القلعة .

وشهاب الدين (بن فضل الله العمرى) هو مؤلف هذه الموسوعة التاريخية الجغرافية التى تسمى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » والتى تمتلك المكتبة الأهلية بباريس جزءاً منها (٢) . وقد عاش شهاب الدين من عام ٦٩٧ هـ حتى عام ٧٤٩ هـ ، وشغل أثناء سلطنة محمد بن قلاوون عدة وظائف هامة ، ومن ثم فقد أتيح له بحكم وظائفه أن يطلع على حقائق الأمور . وكان شهاب الدين (بن فضل الله العمرى) هو المؤرخ الثانى بعد ابن عبد الظاهر – الذى نقل عنه المقريزى أكثر معلوماته عن عصور سلاطين المماليك (فى الفترة السابقة لعصره) . حقاً إن المقريزى

---

(١) (قام كازانوفا بهذه الدراسة عن القلعة فى نهاية القرن التاسع عشر) .

(٢) المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٥٨٣ (كتالوج دى سلين رقم ٢٣٢٥) – انظر هذه الموسوعة ، وعن مؤلفها ، البحث الذى كتبه كترمير فى (Notices et Extraits des Manuscrits, T. XIII) كما أن فولرز VOLLERS ذلك الأستاذ العالم ، أمين دار الكتب بالقاهرة (وقت كتابة هذا الكتاب) يذكر : أنه يوجد بالدار أجزاء أخرى من هذه الموسوعة على قدر كبير من الأهمية – أنظر مقاله المنشور فى (Revue d'Egypte, juillet, 1894, p. 90. (قام المرحوم أحمد زكى (باشا) بنشر جزء واحد فقط من هذه الموسوعة) .

لم يشر البتة إلى شهاب الدين ، غير أن القارىء سيثق بنفسه — بعد أن يقرأ هذا الوصف للقلعة الذى أنقله عنه كنموذج — أن المقريزى لم يتورع أن ينسخه عنه كلمة كلمة (١) .

قلعة الجبل (٢)

وأكابر المدن المشهورة بهذه المملكة . قاعدة الملك الكبرى القاهرة ، وقد تقدم القول على أنها هى والقلعة والفسطاط ثلاث مدن صارت مدينة واحدة (٣) ... ...

فأما قلعة الجبل ، فهى على نشز عال تسمى الجبل الأحمر ، من تقاطيع جبل المقطم . بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبى المظفر ، ولم يسكنها حتى ملك أخوه الملك العادل أبو بكر فسكنها (٤) .

وهى مبنية على ذلك النشز ، ترتفع فى موضع منه ، وتنخفض فى آخر . يدور بها سور حجر بأبراج (و) بدنات إلى أن ينتهى إلى القصر الأبلق الناصرى المستجد بناؤه ، ثم من هناك تتصل بدور الملك (و) ليست على أوضاع أبراج القلاع .

يدخل إلى القلعة من بابين : أحدهما بابها الأعظم مواجه (ل) القاهرة ، والثانى ينفذ إلى القرافة (٥) ؛ بينهما ساحة فسيحة فى جانبها (قبلة تشرق ، وشمالا تغرب) بيوت (هكذا) ، وبالقبلى سوق للمآكل (٦) .

---

(١) قارن ، فى هذا الصدد بين ما كتبه كترمير فى كتابه Sultans Mamlouks ، وما كتبه فى مقاله المنشــور فى Notices et Extraits des Manuscrits, T. XIII, p. 201 والخط الذى كتب به هذا المخطوط جميل وواضح ، غير أنه كثيرا ما يهمل وضع النقط فوق الحروف ، كما سبق أن أشرت الى ذلك من قبل ، ولذلك أرجو أن يغفر لى القارىء بعض الأخطاء التى يقابلها بالنص ، التى حدثت نتيجة لعدم وثوقى من النطق الصحيح لبعض الكلمات .

(٢) نقلا عن مسالك الأبصار ، النسخة الخطية بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٥٨٣ (كتالوج دى سلين رقم ٢٣٢٥) ، ورقة ١٩٠ أ .

(٣) وفى الحقيقة ، فان الكاتب قد سبق أن قال (ورقة ١٦٣ ب) ما نصه (وحاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام : (الفسطاط ... والقاهرة ... وقلعة الجبل) . وهذا ما سبق أن أشرت اليه من قبل ، ص ٥٢٥ ، حاشية رقم ٢ . كما أن صاحب كتاب ديوان الانشــا (المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ١٥٧٣ ، كتالوج دى سلين رقم ٤٤٣٩ ، ورقة ٨٣ أ) يردد القول نفسه ، اذ يقول (وأعلم أن للديار المصرية قواعد وهى على ثلاثة ضروب . الضرب الأول الفسطاط ... الضرب الثانى القاهرة ... ... الضرب الثالث قلعة الجبل) .

— (يذكر كازانوفا هــذه المخطوطة فى قائمة المراجع الملحقة بآخر الكتاب على أن مؤلفها مجهول . والحقيقة أن مؤلفها هو بهاء الدين محمد العمرى الخالدى ، كما أن عنوان كتابه هو « المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا » .. وهذا الكتاب مشابه فى موضوعه لكتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لشهاب الدين بن فضل الله العمرى ، ولكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » للمؤلف نفسه ، ولكتاب «صبح الأعشى» للقلقشندى . وقد ألف الخالدى كتابه هذا فى منتصف عهد السلطان برسباى تقريبا . (انظر : الدكتور محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٢٤ — ٢٥) .

(٤) وهكذا نرى شهاب الدين بن فضل الله العمرى يؤكد ، بدوره ، صراحة الرأى الذى سبق أن أوضحته ، — كما أن القارىء قد سبق له أن عرف أن الملك العادل ليس شخصيا هو أول من سكن القلعة ، وانما هو ابنه الملك الكامل الذى كان نائبا له بمصر ، وكان بمثابة السلطان الفعلى لها .

(٥) يتضــــح لنا ، من هــــذا النص ، أن عبــــارات شهاب الدين بن فضل الله على قدر كبير من الدقة ، وأنها تؤكد ، أيضا ، كل ما سبق أن قلته من قبل .

(٦) (جاء فى الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٤ (وبين البابين ساحة فسيحة فى جانبها بيوت ، وبجانبها القبلى سوق للمآكل) — وبمقارنة النصين يتضح أن المقريزى أسقط من النص المثبت بالمتن الكلمات التى توجد بين قوسين ، وهى التى تصف جانبين من جوانب الساحة ، ربما لأنه تعذر عليه فهم العبارة على النحو الذى وردت به . .

وينتهى من صدر الساحة إلى دركاه جليلة ، تجلس بها الأمرا(ء) حتى يؤذن لهم بالدخول . وفى وسطها باب القلة ، تدخل منه فى دهليز فسيحة إلى ديار وبيوت ومساكن والى المسجد الجامع . وقدكان لها مسجد لضيق بنائه ، فبناه هذا السلطان بناء متسع الأرجا(ء) ، مرتفع البنا(ء) ، مفروش الأرض بالرخام ، مبطن السقوف بالذهب . فى وسطه قبة عالية ، يليها المقصورة ، مستورة هى والرواقات بالشبابيك الحديد المحكمة الصنعة ، وتحف صحنه رواقات من جهاته .

ويمشى من دهليز باب القلة ، المقدم الذكر ، فى مداخل أبواب إلى رحبة فسيحة ، فى صدرها الإيوان الكبير المعد للجلوس أيام المواكب وإقامة دار العدل . وبجانب الرحبة ديار جليلة ، وفى مجنبة (١) ممر إلى باب القصر الأبلق ، تليه رحبة صغيرة ، (و) يجلس هناك خواص الأمرا(ء) قبل دخولهم إلى الخدمة الدائمة .

ويمشى من باب القصر فى دهاليز إلى قصر عظيم البنا(ء) ، شاهقة فى الهوا(ء) بإيوانين أعظمهما الشمالى يطل منه على الإصطبلات السلطانية ، ويمتد النظر إلى سوق الخيل والقاهرة وحواضرها إلى بحر النيل وما يليها من بلاد الجيزة وقراها . وفى الإيوان الثانى القبلى باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام المواكب . ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية ، منها واحد (مسامت لأرض هذا القصر الكبير (٢) ، واثنان مرفوعان يصعد إليهما بدرج ، فى جميعها شبابيك حديد (يخرق إلى مثل منظر القصر الكبير (٣) .

وفى هذه القصور مجارى الماء مرفوعا من النيل بدواليب تديرها الأبقار من مقرة إلى أخرى حتى ينتهى إلى القلعة ، ثم يدخل إلى القصور السلطانية ودور أكابر الأمرا(ء) الخواص المجاورين للسلطان ، يجرى فى دورهم ويدور به حماماتهم

وهو من عجائب الأعمال لرفعته مما تقارب خمسمائة ذراع من مكان إلى مكان .

ويدخل من القصور الجوانية إلى حرم الحريم وأبواب الستور السلطانية . وهذه القصور جميعها ، من ظاهرها ، بالحجر الأسود والأصفر ، موزرة ، من داخلها ، بالرخام والفص المذهب والمسجر بالصدف والمعجون والمطرقات وأنواع الملونات ، والسقوف المبطنة بالذهب واللازورد . يخرق الضو(ء) فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرصى الملون كقطع الجوهر المؤلفة فى العقود . وجميع الأرض مفروشة بالرخام المنقول إليها من أقطار الأرض مما لا يوجد مثله .

فأما الآدر السلطانية فعلى ما صح عندى خبره ذوات بساتين وأشجار وساحات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور والدواجن (٤) . وباقى داخلها ، يعنى القلة (٥) ، للمماليك السلطانية وخواص الأمرا(ء) ، نسائهم ، وحريمهم ، ومماليكهم ، ودوابهم ، وطشتخاناتهم ، وفراش خاناتهم ، وشراب خاناتهم ، ومطابخهم ، وطائفهم .

---

(١) فى الأصل « مخبيته » ، وصححتها كما جاء فى المتن أنظر نص القلقشندى المثبت الســـــابق ذكره .

(٢) (ما بين الحاصرتين نقلا عن الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٠ — والعبارة كما وردت بالنص المنقول من مسالك الأبصار — نصها ، « مسائب الأرض هذا القصر الكبير ») .

(٣) (ما بين الحاصرتين ورد بالخطط الجزء والصفحة نفساهما) فى صورة أخرى ، ونصها (تشرف على مثل منظرة القصر الكبير) .

(٤) (فى الأصل « الدواخر » ، وأعتقد أن صحتها كما ورد بالمتن) — أنظر القلقشندى .

(٥) هذه الكلمة مكتوبة بالنسخة الخطية من غير تنقيط ، ويبدو لى أنه لا يمكن قراءتها الا على هذا النحو (القلة) =

والقلعة فيها مساكن لأكابر الأمرا(ء) ؛ ومن كبر من أمرا(ء) الطبلخانات والعشرات ، أو من خرج عن حكم الخاصكية إلى طريق البرانيين ودار الوزارة ، ودار كاتب السر ، وديوان الإنشا(ء) ، وديوان الجيوش وديوان الأموال والنقبا(ء) ، والزردخاناه الجيوش ، والأسرى ، ومما يجرى هذا المجرى ؛ مقسمة المساكن ، وفيها المساجد والحوانيت والأسواق فى جهاتها . هذه جملة العمارة .

ثم ذكرنا بقية ما يتعلق بالقصر السلطانية (هكذا) ، فيقال (١) إنه ينزل منه من جانب إيوان القصر إلى الاصطبلات السلطانية ، ثم إلى ميدان ممرج بالنجيل (٢) الأخضر فاصل بين الاصطبلات وبين سوق الخيل فى غربيّه ، فسيح المدى يسافر النظر فى أرجائها . يركب السلطان من درج يلى قصره الجوانى وينزل إلى الإصطبل الخاص ، ثم إليه راكباً وخواص الأمرا(ء) فى خدمته أفرض الخيول فى أوقات الإطلاق ، أو قبول القادم والمشترى ، وفى أوقات طع(ا)م الطير . وربما وقف به راكباً ؛ وربما نزل فيه ولم ينصب عليه خيام ، وربما نصب عليه الخيام إذا أطال مكثه . وكان زمان حر أو برد . وربما مد به السماط ، ثم يطلع راكباً إلى قصره . وبهذا الميدان أنواع من الوحش المستحسن للنظر ، ومربط به خواص الخيول للتفسح . وفى هذا الميدان يصلى السلطان وخواصه ومن لا يقدر يفارقه من ذوى الخدم صلاة العيدين . ونزوله إليه وطلوعه منه من باب خاص من دهليز القصر ، غير هذا المعتاد للنزول منه لما قدمنا ذكره ، وللسلطان عدة أبواب سر إلى القرافة (و) إلى غيرها ، لا حاجة بنا إلى ذكرها .

قلت هذه (٣) القصور والإيوان الكبير والميدان الأخضر والجامع وغالب العمائر الضخمة بالقلة(٤) والقلعة عمارة هذا السلطان .

= واذا ما سلمنا بذلك ، فان كلمة القلة وهى كما سبق أن عرفنا ، قد أطلقت على الباب الذى يوجد بسور صلاح الدين (باب القلة) ـ انما تطلق على كل ما يشتمل عليه ذلك السور • وهذه التسمية الخاصة التى أطلقت على جميع المنطقة ذات الصفة العسكرية البحتة بالقلعة ، انما تؤكد ما سبق أن قلته • ومع ذلك فانى لا أجسر على التمادى فى الحديث عما يترتب على هذا التفسير من نتائج ، لأن عدم وجود النقط فوق الحروف ـ وهو ما سبق أن قلته ـ يجعل من المتعذر تحقيق النص • وكيفما كان الأمر فاننا نلاحظ أن « خزانة قلة » التى أشير اليها على خريطة عام ١٧٩٨ (انظر ص ٦٠٨ حاشية رقم ١ ، ص٦٤٦) انما تقع على بعد غير قليل من باب القلة ، انها توجد داخل السور • ويفهم من هذا أن كلمة « القلة » كانت تطلق على منطقة متسعة جدا داخل سور صلاح الدين •

(١) فى الأصل « فيقول » •

(٢) فى الأصل « بالخيل » وقد صححت عن نص القلقشندى •

(٣) (فى الأصل ٠٠ « هذا ») •

(٤) الملاحظة نفسها التى سبق أن أشرت اليها بالحاشية السابقة ، غير أن شهاب الدين فى هذه العبارة أكثر ايضاحا من ذى قبل فيما يختص بتقسيم القلعة الى قسمين : القلة والقلعة ، ومن ثم فان هذه الكلمة تقرأ « القلة » •

الفصل الثاني عشر

القلعة منذ محمد بن قلاوون
حتى عصر المؤرخ المقريزى
(حوالى عام ٨٤٠ هـ)

وهكذا نرى — مما تقدم — أن ما قام به محمد بن قلاوون من منشآت يعتبر بمثابة نقطة الذروة فى تاريخ القلعة ، ولقد سبق أن ذكرت أن معظم عمائره بها قد قدر لها البقاء حتى زمن الحملة الفرنسية ، وإن كانت قد تحولت إلى خرائب وأطلال . كما سبق أن قلت أيضاً إن خلفاءه قد أخذوا يتركون ، شيئاً فشيئاً ، الإقامة بالقلعة ذاتها ، وأنهم اتخذوا من المنشآت الملحقة — وعلى وجه التخصيص الحوش والاصطبلات — مقراً لهم . وهذه المنشآت بالذات هى التى سأتعرض إلى ما حدث بها من تغيير وتعديل ، وذلك على الرغم من أن هذه التغييرات والتعديلات ليست ذات أهمية كبيرة .

ففى عهد السلاطين الذين تولوا عرش السلطنة فى الفترة التى تلت مباشرة وفاة محمد بن قلاوون — وهم أولاده وأحفاده — ، نجد أن الحركة المعمارية التى بدأها بالقلعة لم تتوقف بعد .

فى هذه الفترة يتحدث المؤرخون عن بناء قاعتين جديدتين : أولاهما قاعة الدهيشة ، وإليك مايذكره المقريزى وصفا لها :

(الدهيشة — عمرها السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، وذلك أنه بلغه عن الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة ، أنه عمر بحماة دهيشة لم يبن مثلها ، فقصد مضاهاته . وبعث الأمير أقجبا ، وأبجيج المهندس لكشف دهيشة حماة ، وكتب لنائب حلب ونائب دمشق بحمل ألفى حجر بيض وألفى حجر حمر من حلب ودمشق . وحشرت الجمال لحملها حتى وصلت إلى قلعة الجبل وصرف فى حمولة كل حجر من حلب إثنا عشر درهما ، ومن دمشق ثمانية دراهم وطلب الرخام من سائر الأمراء وجميع الكتاب ، ورسم بإحضار الصناع للعمل . ووقع الشروع فيها حتى تمت فى شهر رمضان منها وقد بلغ مصروفها خمسمائة ألف درهم سوى ماقدم من دمشق وحلب وغيرهما . وعمل لها من الفرش

والبسط والآلات ما يجل وصفه . وحضر بها سائر الأغانى ، وكان مهما عظيما (١) .

وأما ابن إياس فإنه ينسب إلى محمد بن قلاوون البدء فى بنائها سنة ٧٣٠ هـ . وهذا هو نص عبارته : (وبنى السلطان) الدهيشة المطلة على الحوش السلطانى ، وقيل إنما أكمل عمارتها ابنه الملك الصالح إسماعيل (٢) وفى حديثه عن حوادث سنة ٧٤٥ هـ يضيف إلى ذلك قوله : (وفى هذه السنة (٧٤٥) أكمل السلطان الصالح عمارة الدهيشة التى بالقلعة المطلة على الحوش السلطانى . وكان والده الناصر محمد بن قلاوون ابتدأ فى عمارتها ولم ينهها ، فأكملها ابنه هذا . (٣)

كما أن غيرهما من المؤرخين ، كالجوهرى مثلا ، يذكر أيضاً أن الدهيشة تطل على الحوش (٤) . وهذه الحقيقة الخاصة بموقعها تفيدنى فى تحديد موقع الحوش على الخريطة الخاصة بالفصل التالى . هذا فإنى لأتردد فى أن أرى فى «جامع الدهايشا — Gama el-Dahâyché» (خريطة عام ١٧٩٨ — القلعة ، رقم ٤٠) ؛ أنه إحدى الذكريات المتصلة بقاعة الدهيشة . وكلمة الدهيشة — كما وردت — تنطق أحياناً «الدُهيشة» وأحياناً أخرى « الدهَيّشَة » (٥) » ، بالصورة التى وردت بها على خريطة عام ١٧٩٨م . إنما يؤكد صحة قراءتها على هذا النحو إلى حد ما . هذا وإننا نجد هذه الكلمة يتكرر ذكرها مرة أخرى بمناسبة الإشارة إلى « سبيل الدهيشة » — Sibyl el-Deheycheh » على خريطة عام ١٧٩٨م (القاهرة — القسم الثامن ، رقم ٣٤٣) ، وفى هذه المرة تنطق « الدّهيشة » . كما أن ابن إياس يخبرنا بأن السلطان فرج أنشأ تجاه باب زويلة المدرسة المعروفة بالدهيشة (٦) . وموقع هذه المدرسة يطابق موقع سبيل الدهيشة على خريطة عام ١٧٩٨م . وهناك حقيقة تؤكد — فيما يبدو لى — صحة آرائى فيما يختص بموقع قاعة الدهيشة بالقلعة : وهذه الحقيقة تتلخص فى أن اسم « باب الألوحية — Bâb el Elouahyeh » الذى عرف به أحد الأبواب الداخلية بالقلعة (خريطة عام ١٧٩٨م — القلعة (رقم ٣٨) يذكرنا بالشخص الذى كان بواباً لقاعة الدهيشة : وهو جمال الدين الألواحى (١) . فهذا

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٢ .

(٢) بدائع الزهور ، المخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى رقم ٥٩٥ أ ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٢ ، ورق ١٤٦ أ .

(٣) المخطوط السابق ، ورقة ١٥٩ ب .

(٤) نزهة النفوس والأبدان ، النسخة ملك بعثة الآثار الفرنسية بالقاهرة ، نقلا عن النسخة الخطية بمكتبة المرحوم على (باشا) مبارك ، الجزء الأول ، ورقة ١٨٣ (مكان ضيق بالحوش .. وهو تحت الدهيشة) ، ورقة ١٩٧ (المقعد المطل للحوش الذى هو من الدهيشة) ، ورقة ٣٦٢ (الحوش الذى بالقلعة تحت الدهيشة) .

(٥) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٣٨١ أ ، حيث ورد مرتين كلمة « الدهيشة » — النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٦٧ ؛ كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٨ ، ورقة ١٣٤ أ ، حيث كتبت « الدهيشة » .

— وأما « الدهيشة » فقد وردت أيضا على لسان خليل بن شاهين الظاهرى (زبدة كشف الممالك ، طبعة رافيس RAVAISSE — مطبوعات مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ١٨٩٤ م) ، كما وردت أيضا مكتوبة « الدهيشة » بالنسخة الخطية لزبدة كشف الممالك ، بالمكتبة الأهلية بباريس القسم العربى رقم ٦٩٥ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٤) ، وهذا مما يؤكد نطقها على هذا النحو — انظر فى هذا الصدد نهاية هذا الفصل .

— وبالنسخة الخطية للخطط ، للمقريزى ، بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٦٨٢ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٣٦ ، — وهى أحسن النسخ التى يمكن الاعتماد عليها — فقد وردت على هذا النحو ، « الدهشة » — قارن هذه الكلمة ب « الدهشة الأموية بدمشق (انظر : DOZY : Dictionnaire :

(٦) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٢٩٥ ب ، حيث وردت هذه العبارة (المدرسة التى تجاه باب زويلة المعروفة بالدهيشة) .

الباب ، يقع فى حقيقة الأمر ، قريباً جداً من جامع الدهيشة ، ومن ثم فإنه — فى رأيى — يعتبر بمثابة الأثر الأخير الذى تبقى من قاعة الدهيشة ذاتها .

وأخيراً ، ما المقصود بالدهيشة ؟ وماذا تعنى هذه الكلمة ؟ إن دوزى فى قاموسه لم يستطع أن يشرح معناها . ولذلك فإن كل مايمكننا أن نقوله بصدد مدلول هذه الكلمة ، هى أنها اسم لقاعة ، واسم لمدرسة . وأنها أيضاً اسم لربع ، كما أخبرنى بذلك فان برشم ، إذ وردت بهذه الصفة ، فى نقش تذكارى للسلطان برسباى (٢) . كما يبدو أيضاً أنها اسم لحمام ، حسبما يفهم من عبارة المقريزى ، (الحمام المعروف بالدهيشة) (٣) . غير أن هذا الاختلاف فى مدلول هذه الكلمة ليس من شأنه إلا أن يزيد فى صعوبة تفسير هذه المشكلة اللغوية .

وأما القاعة الثانية ، المعروفة بالبيسرية ، فقد قام ببنائها ابن آخر من أبناء الناصر محمد بن قلاوون ، وهو السلطان حسن الذى ترجع شهرته إلى ذلك الجامع الفخم الذى أنشأه تجاه القلعة ، ولا يزال قائماً حتى اليوم .

وإليك وصف هذه القاعة كما جاء على لسان المقريزى :

(البيسرية — ومن جملة دور القلعة قاعة البيسرية ، أنشأها السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون . وكان ابتداء بنائها فى أول يوم فى شعبان سنة إحدى وستين وسبعمائة هـ ، ونهاية عمارتها فى ثامن عشرى ذى الحجة فى السنة المذكورة ، فجاءت من الحسن فى غاية لم ير مثلها . وعمل لهذه القاعة من الفرش والبسط مالا تدخل قيمته تحت حصر ، فمن ذلك تسعة وأربعون ثريا برسم وقود القناديل ، جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة مائتا ألف وعشرون ألف درهم ، وكلها مطلية بالذهب . وجاء ارتفاع بناء هذه القاعة طولا من السماء ثمانية وثمانين ذراعاً . وعمل السلطان بها برجاً يبيت فيه من العاج والأبنوس (وبه) مطعم يجلس (فيه) بين يديه أربعون (٤) ، وأكناف ، وباب يدخل منه إلى أرض كذلك . وفيه مقرنص قطعة واحدة يكاد يذهل الناظر إليه ، بشبابيك ذهب خالص ، وطرازات ذهب مصوغ ، وشرافات ذهب مصوغ ، وقبة مصوغة من ذهب ، صرف فيه ثمانية وثلاثون ألف مثقال من الذهب . وصرف فى مؤنه وأجره تتمة ألف ألف درهم فضة ، منها خمسون ألف دينار ذهباً . وبصدر إيوان هذه القاعة شباك حديد يقارب باب زويلة (؟) ، يطل على جنينة بديعة الشكل (٥)) .

---

(١) بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى رقم ٥٩٥ ب ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٣ ، ورقة ١٠٦ أ ، حيث وردت هذه العبارة (جمال الدين الألواحى بواب الدهيشة) .

— وفى كتاب وصف مصر ، الجزء الثامن عشر ، القسم الثانى ، ص ٢٨٤ ، نجد « باب الألوحية Bab el-Elouhayeh »
وأما على خريطة عام ١٧٩٨م (القلعة رقم ٣٨) فنجد «باب الألواحية — نسبة الى جمال الدين الألواحى Bab el-Elouahyeh »
وهو النطق الصحيح لاسم هذا الباب .

(٢) انظر : VAN BERCHEM : C.I.A., I, Egypte, No. 247

— أحمد دراج : حجة وقف الأشرف برسباى ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ١٦ (نص الحجة) ص ٧ (المقدمة باللغة الفرنسية) .

— وقارن ذلك بعبارة المقريزى (الربع المعروف بالدهيشة) ، السلوك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٧٣ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٧ . ورقة ١١١ ب .

(٣) السلوك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٧٢ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦ ، ورقة ٥٣٢ أ .

(٤) كلمة «أربعون» وردت فى وصف هذه القاعة كما جاء بالنسخة الخطية للخطط ، بالمكتبة الأهلية بباريس القسم العربى رقم ٦٨٢ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٣٦ . ولذلك آثر كازانوفا ذكرها بالنص المنقول عن الخطط ، طبعة بولاق ، لأنها تتفق مع سياق الكلام .

— (وقد رأيت أن هذه الجملة كما وردت بالمتن — حتى بعد اضافة هذه الكلمة — تبدو مختلة ، كما لو سقطت منها بعض الكلمات . ولذلك وضعت ما بين الحاصرتين لكى يتضح مدلولها) .

(٥) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١١ — ٢١٢ — هذا النص لابد وأن يكون قد أصابه بعض التحريف ، اذ كيف =

وبالإضافة إلى ذلك الوصف ، فقد وردت على لسان أبى المحاسن عبارة يتضح لنا منها أن هذه القاعة كانت من قاعات الحريم السلطانى (١) . وفى سنة ٧٧٤ هـ ، (وقعت صاعقة على القلعة وأحرقت منها أشياء كثيرة ، واستمر الحريق أياماً (٢)) .

ومما يجدر الإشارة إليه ، بالقرب من القلعة ، مدرسة الأشرف شعبان السلطان الثانى والعشرين من سلاطين المماليك . وهذه المدرسة هى التى هدمها الناصر فرج لأنها بحكم موقعها (فوق الصوة تجاه طبلخاناه القلعة) كانت تشرف على القلعة وتسيطر عليها من الناحية الاستراتيجية ، فمن فوق سطحها كان فى وسع المماليك الخارجين عن الطاعة فى أوقات الفتن أن يهددوا القصور السلطانية بالقلعة تهديداً خطيراً (انظر مجريات الحوادث من سنة ٧٧٨ هـ . حتى سنة ٨٢٤) (٣) . كما يعزو ابن إياس إلى الأشرف شعبان إنشاء قاعة الأشرفية ، وهى — إن لم يكن قد أخطأ — لابد وأن تكون غير القاعة التى ينسب المقريزى إنشاءها إلى الأشرف خليل بن قلاوون منذ قرن مضى (أنظر ص ٦١٦) ويعزو إليه ابن إياس ، أيضاً إنشاء « الخرجا » بالقصر الأبلق (٤) . ويبدو أن كلمة « خرجاه » هى الكلمة الفارسية « خركاه » بعد أن أصابها تحريف بسيط ، ومعناها دهليز Vestibule ؛ هذا ويذكر رافيس RAVAISSE فى إحدى حواشيه بمخطوطة زبدة كشف الممالك لخليل بن شاهين الظاهرى التى قام بنشرها (انظر فيما بعد وصفه للقلعة) أن المقريزى لم يشر فى خططه إلى إنشاء هذه الخرجاه . غير أنى اهتديت إلى إنشائها فى كتب أبى المحاسن ، وابن إياس ، وغيرهما من المؤرخين . ففى كتاب « زبدة كشف الممالك » لخليل بن شاهين ، وفى كتاب « بدائع الزهور » لابن إياس وردت كلمة « خرجاه » محتفظة بصورتها الفارسية ، وأما فى كتاب

= يقارب هذا الشباك باب زويلة ؟ هذا وان جميع النسخ الخطية للخطط التى أطلعت عليها يرد بها هذه العبارة • فهل يعنى ذلك أن المقريزى قد نسخ هذه العبارة الغريبة عن غيره دون أن تثير اهتمامه ؟

— (ربما يعنى ذلك أن الشباك الحديد كان يقارب باب زويلة من حيث الارتفاع) •

— وبهذه المناسبة ، يجدر بنا أن نشير الى أن المقريزى طالما كان ينقل عن القلقشندى عباراته كلمة كلمة ، اللهم الا اذا كان الكاتبان تحت أيديهما كتاب آخر أخذا عنه أقوالهما دون مراعاة الدقة فى النقل • فالفصل الذى كتبه المقريزى كله ، والذى يعدد فيه العمائر بالقلعة ما هو الا صورة طبق الأصل مما كتبه القلقشندى ، وما كتبه القلقشندى ليس الا صورة مكررة لما كتبه شهاب الدين (بن فضل الله العمرى) • غير أنه من الحق أن يقال أن القلقشندى كان يتحلى بقدر من الأمانة فى النقل ، ففى بعض الأحيان كان يشير الى شهاب الدين صاحب مسالك الأبصار ، والى غيره من الكتاب الآخرين الذين ينقل عنهم • وما من شك فى أن المقريزى ليس الا مجرد مردد وناقل عن القلقشندى فى غير أمانة علمية •

(١) النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى ، تكملة رقم ٨٠٩ ، (كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٩) ورقة ١٣٢ ب ، حيث وردت هذه العبارة (قاعة البيسرية من الحريم السلطانى) •

— (هذه العبارة الأخيرة وردت فى طبعة كاليفورنيا ، الجزء الخامس ، ص ٤٩٢ ، على النحو الآتى « قاعة البيسرية بين القصرين حيث هو سكن الخوندات ») •

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ، الجزء الثانى ، ص ٢١٥ ، س ٧ ، حيث وردت العبارة المذكورة بالمتن — قارن ذلك بما ذكره ابن اياس عن هذه الصاعقة وما ترتب عليها من حريق فى شهر جمادى الآخرة من هذا العام ، وبما ذكره من أن دور الحريم السلطانى كانت أكثر من غيرها من مبانى القلعة تأثرا به (بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٥٩٥ أ ؛ كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٢ ، ورقة ١٩٥ ب) •

(٣) انظر ماذكره المقريزى ، وأبو المحاسن ، والجوهرى، وابن اياس عن أهمية هذه المدرسة فى أوقات الفتن والاضطرابات — وقارن ذلك بما ذكره :

RAVAISSE : Essai sur l'histoire et la topographie du Caire d'après Makrizi, dans Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire, III, 4ème fasc., p. 61.

(٤) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٢٠٥ أ ، حيث وردت هذه العبارة ، (ومن انشائه قاعة الأشرفية التى بالقلعة داخل دور الحريم ، ومن انشائه الخرجاه التى بالقصر المطل على الرميلة) •

« النجوم الزاهرة » لأبي المحاسن (١) فقد كتبت « خرجه » : وهي على هذا النحو تحتمل أن تكون الكلمة نفسها التي أشار إليها دوزى في قاموسه بمعنى « المكان البارز » وربما كان هذا المعنى هو الذى يجب أن يفهم من هذه الكلمة . ومن ثم فإن « الخرجاه » أو « الخرجه » لا تعدو أن تكون بمثابة شرفة ممتدة أمام القصر ، وليست دهليزاً ، فكما ورد في كثير من الأمثلة فإن الكلمة المرادفة للدهاليز هي « دركاه » .

وأما الملك الظاهر برقوق ، أول سلاطين الجراكسة الذى أطاح بأسرة بني قلاوون ، فقد وجه عنايته إلى المرافق والمنشآت الملحقة بالقلعة . وما قام به ، في هذا الصدد ، يوجزه لنا أبو المحاسن في هذه العبارة :

(جدد عمارة القناة التي تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل ، وجدد عمارة الميدان من تحت القلعة بعدما كان خرب ، وسقاه وزرع فيه القرط وغرس فيه النخل ، وعمر صهريجاً ومكتباً يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل وجعل عليه وقفاً ، وعمر أيضاً بالقلعة طاحوناً ، وعمر أيضاً سبيلا تجاه باب دار الضيافة تجاه — القلعة (٢) .

وأما الجوهرى فيذكر في سنة ٧٨٧ هـ . أنه (بسط الإيوان الذى يسمى دار العدل بقلعة الجبل بسط(آ) جدد(١) . (٣) ، ثم يعود ، فيما بعد ، فيذكر بعض التفاصيل عن أحواض سقى الماء التي أنشأها على مقربة من باب الميدان ومن باب الإصطبل السلطاني (٤) . غير أن كل ما ذكره هذا المؤرخ ليس بذى أهمية تذكر .

، وإنما الأهم من ذلك ما يذكره المؤرخون في شيء من التفصيل عن التحصينات التي تحت القلعة من سنة ٧٩٠ هـ وما يليها . وقد سبق لى أن تحدثت عن هذه التحصينات ، غير أني في هذا المجال — أعود إلى الحديث عنها لأحاول إيضاحها عن ذى قبل .

فالمقريزى في كتاب السلوك يذكر ما نصه : (في تاسعه (جمادى الأولى) قدمت طوائف من هوارة مجندة للسلطان ، ونزلوا تحت القلعة . ووقع الشروع في حفر خندق القلعة ومرمة أسوارها وتوعير طريق باب القلعة المعروف بباب القرافة ، وتوعير باب الحوش وباب الدرفيل ... . (و) كثر الاهتمام بتحصين قلعة الجبل ونقل الأحجار إليها ليرمى بها في المنجنيق) (٥) . وبعد ذلك بعدة ورقات يعود ، فيقول : (ورسم أن بني حائط بين باب الدرفيل وصور القلعة ، وأن بني أيضاً حائط من جوار باب الدرفيل إلى الجبل ... ... وسد باب الدرفيل بجوار القلعة ، والباب المجاور للقلعة المعروف قديماً بباب سارية (و) يعرف اليوم بباب المدرج ، تحت دار الضيافة (٦) .

كما أن الجوهرى — وهو من المحتمل أن يكون قد نقل عن المقريزى — يردد هذه العبارة نفسها في وصفه

---

(١) المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربي ، تكملة رقم ٨٠٩ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٩ ، ورقة ٧٧ أ ، حيث وردت هذه العبارة (الخرجة المطلة على الرميلة من القصر الأبلق) .

— (انظر النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء الخامس ، ص ٥٨٨) .

(٢) لم يشر كازانوفا الى موضع هذا النص بالنسخة الخطية من النجوم الزاهرة . والنص المثبت بالمتن نقلا عن طبعة كاليفورنيا ، الجزء الخامس ، ص ٦٠٠ .)

(٣) نزهة النفوس ، الجزء الأول ، ورقة ٥٤ .

(٤) المرجع السابق ، الجزء الأول ، ورقة ٥٦ .

(٥) السلوك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربي رقم ٦٧٣ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٧ ، ورقة ١٧٠ ب .

(٦) السلوك ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٨١ أ .

لهذه التحصينات (١) . غير أنه يتحدث عن توعير « باب الجرس » وليس « باب الحوش » وهذا ، من غير شك ، مجرد خطأ واضح وقع فيه الناسخ . إلا أننا نتساءل عن مكان هذا الخطأ ؛ هل هو بالنسخة الخطية للسلوك للمقريزى ، أم بالنسخة الخطية لنزهة النفوس للجوهرى ؟ وكيفما كان الأمر ، فهذا مالا أستطيع أن أدلى فيه برأى قاطع . هذا ومن جهة أخرى ، فإن أبا المحاسن يستعمل أيضاً ، فى وصف هذه التحصينات الكلمات والمصطلحات نفسيهما ، وإنما فى صورة أخرى لا فائدة من ذكرها (٢) .

لقد سبق أن ذكرت من قبل ، أنه يفهم من هذا النص أن باب سارية وباب الدرفيل . بابان مختلفان ، غير أن كلا من البابين يعرف بباب المدرج ، نظراً لأن كل باب منهما كان يقع عند طرف سلم المدرج . والآن يوجد حائط ، كان محمد على قد أعاد بناءه ، وهذا الحائط يصل باب سارية بمجموعة المنشآت والمبانى القائمة بالمنطقة الخلفية بالقلعة . وبهذا الحائط يوجد باب (وهو الباب الجديد، كما أشير إليه على خريطة جراند بك) . وهذا الباب نفسه قد حل محل باب آخر استلزم الأمر سده ، نظراً لأن الطريق الذى أعد لمرور السيارات والعربات — وهو الطريق الذى أوجب إنشاء الباب الجديد — يمر من فوقه . ويبدو لى أن هذا الباب المسدود الآن لا يعدو أن يكون هو باب الدرفيل . وإذا صح هذا الرأى ، فإن ما قام به برقوق فى بناء هذا الحائط ، الذى لا نجد له أى أثر واضح على خريطة عام ١٧٩٨م ، وإنما أوجده محمد على فيما بعد. وكلمة « حائط » المذكورة فى هذا النص ، على عكس كلمة « سور » تعنى أن المقصود لم يكن بناء سور على هيئة أسوار القلاع : فهذا الحائط ، فى حقيقة الأمر ، لا يعدو أن يكون الغرض من بنائه بكل بساطة أن يحيط بالمنشآت الملحقة بالقلعة ، ولا سيما الحوش . وإنى لا أعتقد أنه لا يمكن أن نستخلص شيئا من مثل هذا النص — الذى يبدو ، لأول وهلة ، من الغرابة بمكان — أكثر من أنه يوجد باب بجوار القلعة ، أو مجاور للقلعة ، وأنه بنى حائط يمتد من هذا الباب إلى الجبل !

ويجب ألا يفهم أنه يقصد بالجبل ذلك النشز العالى حيث بنى سور صلاح الدين (قارن ذلك بمصطلح « قلعة الجبل » وبما سبق أن ذكرته بالفصل السادس (وذلك أنه إذا ما رجعنا إلى مخطط القلعة حسبما كانت عليه (زمن المقريزى والذى ألحقته بآخر هذا الكتاب) ، لتبين لنا أن باب الدرفيل إنما يقع أسفل « قلعة الجبل » أى أسفل سور صلاح الدين ، كما تبين لنا أن الحائط الحالى لهذا النطاق — وهو فيما يبدو لى يتبع امتداد الحائط نفسه الذى بناه برقوق — إنما يصل هذا الباب (الذى يبدو لى أنه كان فى بادىء الأمر مجرد باب للمواكب ، أى بمثابة أحد أقواس النصر) (٣) بالجبل ، أى بالنطاق الجبلى الأكثر علواً وارتفاعاً .

ولا يزال يوجد هناك نقش تذكارى ، وهو فيما يبدو يتعلق بأعمال التحصينات هذه . وهذا النقش مثبت الآن على الحائط التى أعاد بناءه الخديو إسماعيل ، وبجوار النقش الذى نقشه الخديو بهذه المناسبة . وهذا نصه :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشا هذا الصور (هكذا) المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد .

(١) نزهة النفوس ، الجزء الأول ، ورقة ١١٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى ، رقم ٦٦٦ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٧ ، ورقة ١١ ب — ١٢ آ) .
— (لم أجد أية اشارة فى طبعة كاليفورنيا ، الجزء الخامس ، عن هذه التحصينات) .

(٣) على سبيل المثال ، قارن ذلك بباب القديس دنيس وباب القديس مارتن بباريس .

٢ — برقوق على يدى المقر الأشرف السيفى جركس الخليلى أمير أخور الملكى الظاهرى وذلك بتاريخ شهر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة .

وجركس الخليلى هذا لعب دوراً هاماً فى عهد السلطان برقوق . فهو الذى عهد إليه بالإشراف على بناء مدرسة الظاهر برقوق المشهورة (١) ، وهو الذى أنشأ خان الخليلى (٢) الذى عرف به ، كما أنشأ جسر الخليلى (٣) . وقد قتل هذا الأمير فى إحدى التجريدات التى جردت إلى دمشق فى اليوم الحادى عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٧٩١ھ (٤) أى بعد وقت قليل من الانتهاء من بناء هذا الحائط كما يتضح من تاريخ هذا النقش التذكارى (٥) .

والمكان المثبت به الرخامة التى نقش عليها هذا النقش التذكارى ليس هو المكان الذى ثبتت به فى بادىء الأمر (أى زمن برقوق) . فهذه الرخامة قد عثر عليها ، على الأرجح ، بين الأطلال التى كانت تملأ المنطقة تحت القلعة قبل أن يقوم الخديو إسماعيل بعمارته بها . فقد لاحظت على أحد الجدران القائمة بجوار هذه المنطقة فراغاً مستطيلا ، ومن المحتمل أن هذا الفراغ كانت تشغله رخامة لنقش من النقوش ، ومن المحتمل أيضاً أن تكون هذه الرخامة هى الخاصة بهذا النقش موضوع الحديث . غير أنه من العسير أن ندلى برأى قاطع فى هذا الصدد ، وذلك أن المؤرخين لا يتحدثون فى شىء من الدقة عن التحصينات التى قام بها برقوق ، ولا يشيرون فى هذا الصدد إلى اسم الأمير جركس الخليلى .

وبعد برقوق ، قام ابنه فرج بإنشاء جامع الحوش الذى يصفه المقريزى بقوله ، (هذا الجامع فى داخل قلعة الجبل بالحوش السلطانى ، أنشأه السلطانى الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، فصار يصلى فيه الخدام وأولاد الملوك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن قتل الناصر فرج (٦) .

ويحتمل أن يكون هذا الجامع هو الجامع نفسه الذى تشير إليه خريطة عام ١٧٩٨م باسم « جامع الدهيشة » ؛

---

(١) الخطط الجزء الأول ، ص ٤٦١ ، س ١٩ — (النص يشير الى بناء المدرسة وليس المارستان كما ذكر كازانوفا بالأصل الفرنسى للكتاب فلم يعرف عن برقوق أنه بنى مارستانا — انظر الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٤٠٥ — ٤٠٨ ، الفصل الخاص بالمارستانات) .

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٩٤ — قارن ذلك بما ذكره رافيس ، المرجع السابق .

(٣) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ١٦٩ ، س ٢٧ .

(٤) الخطط . الجزء الأول ، ص ٤٠٧ ، س ٢٤ — وقارن ذلك بما ذكره :
WEIL, Geschichte der Chalifen, IV, passim

(٥) بالخطط ، « طبعة بولاق » يسمى هذا الأمير « جهركس » وهى تسمية خاطئة . فاسمه كما جاء على لسان المقريزى بكتاب السلوك ، وعلى لسان غيره من المؤرخين كأبى المحاسن والسيوطى ، هو «جركس»، وهو مطابق لاسمه بالنقش (قارن ذلك بما ذكره : VAN, BERCHEM, C.I.A., 1ère fasc., p. 90)

— وحيث انى بصدد تصحيح نطق بعض الأسماء ، والكلمات ، فعلينا أن نلاحظ أيضا كلمة «صور» التى وردت بالنقش ، وصحتها « سور » هذا وان كلمة « صور » يتكرر ذكرها كثيرا بالمخطوطات ، كما تتكرر كثيرا فى أسماء بعض الشوارع بالقاهرة (انظر كتاب وصف مصر ، الجزء الثامن عشر ، القسم الثانى ، ص ١١٣ ، وما يليها) . بل نراها الآن على لافتات بعض الشوارع ، مثل شارع تحت الصور ، وشارع بين الصورين .

— كما نلاحظ أن هناك بعض الخلافات البسيطة بين نص النقش كما أوردته بالمتن ، ونص النقش كما أورده فان برشم . وربما يفضل هذا النص الثانى النص الأول ، نظرا لما يتميز به فان برشم من خبرة فى قراءة النقوش نتيجة لدراساته القيمة الدقيقة فى هذا الصدد . غير أن المهم ، من وجهة نظرى الخاصة ، هو الدقة التامة فى قراءة التواريخ والأسماء الواردة بالنقش . ومن ثم ، فليس ثمة داع ، لمناقشة النقاط موضع الخلاف فى القراءتين للنقش .

(٦) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٣٢٧ .

إذ أن قاعة الدهيشة كانت – كما سبق أن رأينا – على مقربة من هذا الحوش . غير أن موقع جامع الدهيشة كما هو على هذه الخريطة – لايطابق تماماً تعبير المقريزى من حيث إن هذا الجامع يوجد « داخل قلعة الجبل بالحوش السلطانى »

ويبدو أن القلعة قد حصنت من جديد فى أوقات الفتن والاضطرابات التى حدثت فى أواخر عهد السلطان فرج وفى السنوات الأولى من عهد المؤيد شيخ (٨١٥–٨١٧هـ) . غير أن المؤرخين لايذكرون شيئاً مفصلاً عن هذه التحصينات ، وكل ما يذكرونه فى هذا الصدد ، أنه عندما وردت إلى القاهرة أنباء هزيمة السلطان فرج بسورية فى عام ٨١٥ هـ ، شرع الأمير أسنبغا الزردكاش الذى كان ينوب عنه بالقلعة فترة غيابه فى تحصين القلعة وتزويدها بالزاد والمياه خوفاً من تعرضها لخطر الحصار (١) .

وبجوار القلعة مباشرة قام الملك المؤيد شيخ بإنشاء جامع وخانقاه ، وهو الذى يسميه المقريزى « جامع الصوة » ويصفه على النحو الآتى : (هذا الجامع فيما بين الطبلخاناه السلطانية وباب القلعة المعروف بباب المدرج على رأس الصوه . أنشأه الأمير الكبير شيخ المحمودى لما قدم من دمشق بعد قتل الناصر فرج وإقامة الخليفة أمير المؤمنين المستعين بالله العباسى بن أحمد فى سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وسكن بالإصطبل السلطانى فشرع فى بناء دار يسكنها . فلما استبد بسلطنة مصر وتلقب بالملك المؤيد استغنى عن هذه الدار ؛ وكانت لم تكمل ، فعملها جامعاً وخانقاه ، وصارت الجمعة تقام به) (٢) .

ويخبرنا ابن إياس أن السلطان المؤيد كان لايقيم بالقلعة إلا قليلاً ، إذ أنه كان يفضل الإقامة فى بولاق(٣). ومع ذلك فإنه يشير إلى أنه قام بتجديد عمارة قبة البحرة (انظر معنى كلمة «البحرة » فى قاموس دوزى) ، كما أنشأ سبيلاً وصهريجاً بالقلعة (٤) . والقبة التى يتحدث عنها ابن إياس ، هى على الأرجح ، القبة التى يحدد الجوهرى موقعها بالحوش السلطانى والمطلة على القرافة ، والتى ينسب بناءها إلى ذلك السلطان(٥) . ومما هو جدير بالذكر أن الملك المؤيد(٦) نقل إلى جامعه كتباً كثيرة فى أنواع العلوم المختلفة كانت محفوظة بالقلعة وأغلب الظن أن هذه الكتب هى التى قدر لها أن تنجو من الحريق الذى نشب بالقلعة فى عام ٦٩١ هـ وبما أن هذه الكتب كانت أصلاً بمكتبة القاضى الفاضل ، فإنه من الجائز أن تكون آخر ما تبقى من مكتبة الخلفاء الفاطميين الشهيرة .

---

(١) (حصل اضطراب كبير فى القاهرة ، خصوصا فى أهل قلعة الجبل ، وكان الأمير أسنبغا الزردكاش فى القلعة من جهة الناصر ، فلما سمع بذلك شرع فى تحصين القلعة وخزن القمح والشعير والبقسماط والماء الحلو من البحر فى المجراة وعلى ظهور الجمال ·· الخ – الجوهرى ، نزهة النفوس ، الجزء الثانى ، ورقة ٢٢ ، وقارن ذلك بما ورد بالنسخة الخطية من السلوك · رقم ٦٧٣ (كتالوج دى سلين ، رقم ١٧٢٧ ، ورقة ٢٧١ب ، وبالنسخة الخطية من السلوك ، رقم ٦٧٤ (كتالوج دى سلين ، رقم ١٧٢٨) ، ورقة ١٠٠ ب) ·

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٣٢٧ ·

(٣) بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٥٩٥ ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٢ ، ورقة ٣١٤أ ، حيث وردت بها هذه العبارة (لا يقيم بالقلعة الا قليلا ، وغالب أيامه فى بيت بن البارزى الذى فى بولاق، ويعمل الموكب هناك) ·

(٤) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ورقة ٣١٤ب ، حيث وردت بها هذه العبارة (جدد عمارة القبة التى بقاعة البحرة وأنشأ سبيلا وصهريجا بالقلعة) ·

(٥) نزهة النفوس ، الجزء الثانى ، ورقة ١٧١ ، حيث جاء (القبة الهائلة التى بناها فى الحوش السلطانى المطلة على القرافة) ·

(٦) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٣٣٩ ، س ١٠ ، (ثم نزل السلطان فى عشرى المحرم الى هذه العمارة ودخل خزانة الكتب التى عملت هناك (بالجامع المؤيدى) ، وقد حمل اليها كتبا كثيرة فى أنواع العلوم كانت بقلعة الجبل)·

وفى شهر ذى القعدة سنة ثمانية وعشرين وثمانمائة ضرب السلطان برسباى خرائب التتر التى كانت موجودة بقلعة الجبل ، أى داخل السور الذى يضم طباق المماليك (١) ؛ ومن الجائز والمحتمل أن هؤلاء التتر كانوا جنوداً مرتزقة لحساب سلاطين المماليك ، وأنهم قد تركوا يعيشون وفقاً لنظام حياتهم فى أوطانهم بالقلعة حيث توجد خرائبهم ، إذ على هذا النحو تعيش (فى عصرنا) فرقة السمالا les smalas إحدى الفرق العسكرية الوطنية بالجزائر (٢) ومما يدعو إلى العجب أنه كانت توجد كنيسة بحارة خرائب التتر بالقلعة ، وأن أمرها ظل فى خفاء وسرية إلى أن دل عليها أحد غلاة المسلمين فهدمت فى سنة ٧١٨ هـ ، وذلك فى أثناء الفترة التى تعرض فيها النصارى للتضييق عليهم (٣) .

وعلى الرغم من هدم هذه الخرائب ، فقد ظل اسمها — من غير شك — عالقاً بهذه الحارة ، إذ أننا نجد أن ابن إياس يشير إليه ، بعد سنوات كثيرة من عهد برسباى . . . . فى سنة ٩١٢ هـ ، يتحدث . . عن سرقة حدثت بالقلعة كان ضحيتها مقدم طبقة الأشرفية الذى يقيم بحارة خرائب التتر (٤) .

وإنى إذ أنهى هذا الفصل أقدم إلى القارىء النص الكامل لوصف القلعة كما ورد فى كتاب « زبدة كشف الممالك » لشاهين بن خليل الظاهرى — ففى هذا الوصف سيجد القارىء بعض التفاصيل المفيدة التى لم تتح لى الفرصة للحديث عنها حتى الآن . وقد ألف شاهين بن خليل الظاهرى كتابه هذا فى عهد السلطان جقمق (٨٤٢ — ٨٥٧ هـ) ؛ وهو — بهذه الصفة — يعتبر معاصرا لخطط المقريزى(٥) . وهذا الكتاب قام بنشره صديقى وزميلى بول رافيس Paul Ravaisse عن النسخة الخطية القيمة التى توجد بالمكتبة الأهلية بباريس ، وتمتاز هذه النسخة بخطها الواضح الذى حرص الناسخ على تشكيله فى معظم الأحيان ، وهو أمر نادر ولا يقدر بثمن .

وإليك النص الكامل لوصف القلعة كما ورد فى كتابه :

(وأما دار الملك الشريف ، التى بها تخت المملكة المعروفة الآن بقلعة الجبل ، ليس لها نظير فى الاتساع والزخرفة والأبهة والعلو . تشتمل على سور وخندق وأبراج وعدة أبواب من حديد . وهى حصينة جداً ، وبها من القصور والأواوين والمجالس والغرف والطباق والأحواش والميادين والاصطبلات والجوامع والمدارس والأسواق والحمامات ما يطول شرح ذكره ، ولكن نأتى بملخصه مما فيه من العظمة والأبهة والناموس الشريف ، أما القصر الأبلق

---

(١) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٥ ، س ١١ (وبها مساكن تعرف بخرائب التتر كانت قدر حارة ، خربها الملك الأشرف برسباى فى ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وثمانمائة) — قارن ذلك النص بما ورد فى كتاب السلوك ، النسخة الخطية بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٧٣ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٧ ، ورقة ٣٦٨ب .

(٢) (الاشارة فى هذه الفقرة الى الحالة فى الجزائر فى نهاية القرن التاسع عشر) .

(٣) ورد بالسلوك ، النسخة الخطية بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٧٢ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦ ، ورقة ٣٨٠أ ، ما نصه (وقع الصوت بجامع قلعة الجبل ، وذلك أنه لما انقضت صلاة الجمعة صرخ رجل موله فى وسط الجامع : هدموا الكنيسة التى بالقلعة وخرج .. فتعجب السلطان والأمراء منه ، وندب نقيب الجيش ليفتش سائر بيوت القلعة ، فوجدوا كنيسة فى خرائب التتر قد أخفيت فهدموها) .

— قارن ذلك بما ورد ، فى هذا الصدد ، بالخطط ، الجزء الثانى ، ص ٥١٣ ، س ١٢ — ١٦ .

(٤) بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٥٩٥ب ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٣ ، ورقة ١٠٥ب ، حيث ورد (.. عنبر مقدم طبقة الأشرفية ، وكان ساكنا بالقلعة فى خرائب التتر) — لم يرد ذكر هذه الحادثة فى طبعة استانبول ، الجزء الرابع ، فى أثناء الحديث عنه حوادث سنة ٩١٢ هـ) .

(٥) (عن هذا الكاتب انظر : الدكتور محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٢٣ — ٢٤) .

به ثلاثة قصور شريفة ، وخرجاه برسم المواكب السلطانية ، بالجميع مفروش بالرخام الملون والسقوف المدهونة بالذهب واللازورد والنقوش العجمية ، أنشأ المقام الشريف المرحوم الملك الناصر محمد بن قلاوون ، تغمده الله برحمته — وأما الإيوان المعظم فليس له نظير ، وهو مكان بمفرده بظاهر القصر يعلوه قبة خضراء عالية جداً ،حسنة المنظر ، وبه مرتبة الملك (١) ، وعمد كثيرة ؛ وهو مكان عجيب إنشاء المقام الشريف المشار إليه — وأما الجامع الكبير الذى بالقلعة فليس له نظير ، قيل إنه يصلى فيه خمسة آلاف نفر ، وبه عمد عجيبة فى الغلظ ، وبه منارتان — وأما الدهيشة فهى من العجايب وعمارتها حسنة ، من خواص مجالس السلاطين ، وهى أيضاً من إنشاء المقام الشريف المشار إليه — وأما القياع المخصوصة بالآدر الشريفة فعديدة . منها البيسرية ، وهى مكان خدمة الآدر بها — ومنها القاعة الكبرى وتعرف بالعواميد برسم خوند الكبرى — ومنها قاعة رمضان بها خوند الثانية — ومنها قاعة المظفرية بها خوند الثالثة — ومنها قاعة المعلقة وبها خوند الرابعة — ومنها قاعة البربرية برسم السرارى ، وغير ذلك من القياع والمعازل والأماكن المشعة مما يطول شرحها . وهناك سيدى الرديني . مكان مبارك يزار — وأما طباق المماليك الشريفة السلطانية فاثنتا عشرة طبقة ، كل طبقة منها قدر حارة تشتمل على عدة مساكن حتى إنه يمكن السكنى فى كل طبقة لألف مملوك — وأما الحوش الشريف فإنه متسع جداً ،وبه بستان عظيم ، وبه بحرة معظمة — والجلوس فى الحوش والبستان يأتى ذكره فى محله — وأما الاصطبلات الشريفة فإنها متسعة جداً برسم الخيول السلطانية ، يأتى ذكرها فى محلها — وأما الميدان الشريف المعروف بالأسود فمتسع جداً برسم المسايرة (٢) .

وفيما بعد ، يمدنا شاهين بن خليل الظاهرى ، ببعض التفاصيل الهامة عن قاعات الحريم السلطانية ، وفى هذا الصدد يقول :

(والعادة القديمة أن الخوندات تكون أربع ، لايطلق فى حق أحد من النسوة لفظ خوند إلا إذا كانت زوجة السلطان .. .. وحكى أن بعض الخوندات نصبت القاعة الكبرى المعروفة بالعواميد فكان من جملتها مواعين من ذهب وفضة وبشاخين مزركشة مرصعة، وتخوت مفضضة ، وتخت مرصع مذهب ، وغير ذلك من الآلات العجيبة ، ومنارة من ذهب عليها جوهرة تضىء بالليل .) (٣) .

وقد سبق أن قلت إنه من الراجح أن قاعة العواميد من إنشاء شجر الدر . ويبدو أن النص ، الذى يذكره شاهين بن خليل الظاهرى بصدد هذه القاعة يؤكد هذا الرأى ، وذلك لقوله : إن بعض الخوندات نصبت هذه القاعة . ولنترك الحديث مؤقتاً عن هذه القاعة إلى أن أعود إليه فى الفصل التالى ، وكل ما أريده الآن فى هذه المناسبة — أن أعود إلى الحديث عن كلمة « مرتبة » التى سبق أن ترجمتها (ص ٦٠٣) بكلمة رسم أو نظام reglement، أو تقليد etiquette .وذلك أنى أصبحت على يقين من أنها لاتعدو معناها العادى وهو « وسادة » ، حسبما رأينا بالنص السابق الذى نقلته عن شاهين بن خليل الظاهرى ، وحسبما يفهم من هذه العبارة الموجزة الواضحة لابن إياس التى تقول : إن ، « الخوند .. جلست على مرتبتها بقاعة العواميد (٤) . » فهذه الكلمة مرادفة لكلمة « تكه (٥) » التى كثيراً ما ترد على لسان ابن إياس .

---

(١) قارن ذلك بما ذكره كترمير فى Sultans Mamlouks, T, 22 partie, p. 61

(٢) زبدة كشف الممالك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٩٥ ، كتالوج دى سلين ، رقم ١٧٢٤ ، ورقة ٤٥ ب وما يليها — طبعة رافيس ص ٢٦ ما يليها .

(٣) المخطوطة السابقة ، ورقة ٢٤٧ ب وما يليها — (طبعة رافيس ، ص ١٢١) .

(٤) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة (٥٩٥ب) ، ورقة ٨٢أ .

(٥) (بالأصل الفرنسي « تكاه » وصححتها كما جاء بالمتن .)

وأخيراً ، فإني أرى أنه يتعين عليّ أن أقدم إلى القارىء النص الكامل لوصف القلقشندى للقلعة ، الذى لم يقم وستنفيلد إلا بإعطاء ترجمة له ، وقد تمكنت من نسخ هذا النص نقلاً عن النسخة الخطية لكتاب « مختصر صبح الأعشى فى صناعة الإنشا فى أخبار الديار المصرية » المحفوظة بمكتبة جوته ، التى تفضل مشكوراً بوضعها تحت تصرفى الأستاذ العلامة برتش PERTSCH ، أمين هذه المكتبة ، وإليك هذا النص :

القاعدة الثالثة (١)

(القلعة)

(بفتح القاف ، ويعبر عنها بقلعة الجبل ، وهى مقرة السلطان الآن ودار مملكته ، بناها الطواشى بهاء الدين قراقوش ، المتقدم ذكره ، للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، وموقعها بين ظاهر القاهرة والجبل المقطم والفسطاط ، وما يليه من القرافة المتصلة بعمارة القاهرة والقرافة (٢) ، وطولها وعرضها على ماتقدم فى الفسطاط أيضاً ، وهى على نشز مرتفع من تقاطيع الجبل المقطم ، ترتفع فى موضع وتنخفض فى آخر .)

وكان موضعها قبل أن تبنى مساجد من بناء الفاطميين . منها مسجد ردينى الذى هو بين آدر الحريم السلطانية (الآن) (٣) . قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر : (قال لى والدى رحمه الله (٤) : عرض على الملك الكامل إمامته ، فامتنعت لكونه بين آدر الحريم . ولم يسكنها السلطان صلاح الدين رحمه الله ، ويقال : إن ابنه الملك العزيز سكنها مدة فى حياة أبيه ، ثم انتقل منها إلى دار الوزارة .

قال القاضى (٥) محيى الدين بن عبد الظاهر : قال لى والدى رحمه الله : كنا نطلع إليها قبل أن تسكن فى ليالى الجمع نبيت متفرجين كما نبيت فى جواسق الجبل والقرافة . وأول من سكنها الملك الكامل (٦) محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، انتقل إليها من قصر الفاطميين سنة أربع وستمائة ، واستقرت بعده سكناً للسلاطين إلى الآن .

(ومن غريب ما يحكى أن السلطان صلاح الدين ، رحمه الله ، طلع إليها ومعه أخوه العادل أبوبكر ، فقال السلطان لأخيه العادل : هذه القلعة بنيت لأولادك ، فثقل ذلك على العادل وعرف السلطان صلاح الدين ذلك منه — فقال : لم تفهم عنى ، إنما أردت أنى أنا نجيب فلا يكون لى أولاد نجباء ، وأنت غير نجيب فتكون أولادك نجباء ، فسرى عنه . وكان الأمر كما قال السلطان صلاح الدين ، وبقيت خالية حتى ملك العادل مصر والشام ، فاستناب ولده الملك الكامل محمداً فى الديار المصرية فسكنها (٧) وذكر فى « مسالك الأبصار » أن أول من سكنها العادل أبو بكر ، ولما سكنها الكامل المذكور ، احتفل بأمرها واهتم بعمارتها وعمر بها أبراجاً ، منها البرج الأحمر وغيره.

---

(١) (النص الموجود بالأصل الفرنسى لهذا الكتاب أورده كازانوفا نقلا عن المخطوط بمكتبة جوته ، رقم ١٦١٩ (كتاب مختصر صبح الأعشى) ورقة ٤١ ب — ٤٤ ب ، ترجمة وستنفيلد ، ص ٨٥ — ٩٠ . وحيث ان وصف القلعة الذى ورد فى « ضوء » الصبح المسفر وجنى الروح المثمر ، طبعة القاهرة ١٣٢٤ هـ ، ص ٢٣٣ — ٢٣٤ ، يعتبر موجزا للغاية عن النص المثبت بالمخطوط المشار اليه ، لذلك آثرت الاعتماد على وصف القلعة كما ورد فى الكتاب الرئيسى للقلقشندى (صبح الأعشى) ، طبعة القاهرة ، الجزء الثالث ، ص ٣٧٢ — ٣٧٩ ، مع مطابقته على النص المنقول عن المخطوط .)

(٢) (يذكر الناشر أن هذه الكلمة زائدة ، وهى لا توجد بالنسخة الخطية) .

(٣) (ما بين الحاصرتين نقلا عن النص المنقول عن النسخة الخطية) .

(٤) (ما بين الحاصرتين ورد بالنسخة الخطية على هذا النحو (رحمه الله : قال لى والدى) .

(٥) (هذه الكلمة وردت «القضاعى» بالنسخة الخطية، وصحتها كما هو بالمتن) .

(٦) (بالنسخة الخطية « العادل ») .

(٧) فيما بين الحاصرتين لم يرد بالنسخة الخطية) .

وفى أواخر سنة اثنتين وثمانين وسمائة عمر بها السلطان الملك المنصور قلاوون برجاً عظيما على جانب باب السر الكبير، وبنى عليه مشترفات(١) حسنة البنيان بهجة الرخام رائقة الزخرفة ،وسكنها فى صفر سنة ثلاث وثمانين وسمائة .

ثم عمر بها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثلاثة أماكن، كملت بهامعانيها، واستحق بها القلعة على بانيها .

أحدها – القصر الأبلق الذى يجلس به السلطان فى عامة(٢) أيامه ، ويدخل عليه فيه أمراؤه ، وخواصه ، وقد جدد به السلطان الملك الأشرف «شعبان بن حسين» رحمه الله فى جانبه مقعداً بإزاء (٣) الاصطبلات السلطانية جاء فى نهاية من الحسن والبهجة .

والثانى – الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان فى أيام المواكب للخدمة العامة وإقامة العدل فى الرعية .

والثالث – جامع الخطبة الذى يصلى فيه السلطان الجمعة ، وستأتى صفة هذه الأماكن كلها .

وهذه القلعة ذات سور وأبراج ، فسيحة الأفنية ، كثيرة العمائر ، ولها ثلاثة أبواب يدخل منها إليها .

أحدها – من جهة القرافة والجبل المقطم ، وهو أقل أبوابها سالكاً وأعزها استطراقا .

والثانى – باب السر ، ويختص الدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخواص الدولة : كالوزير وكاتب السر ونحوهما ، يتوصل إليه من الصوة : وهى بقية النشز الذى بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة ،بتعريج(٤) يمشى فيه مع جانب جدارها البحرى حتى ينتهى إليه بحيث يكون مدخله منه مقابل الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أيام المواكب ، وهذا الباب لايزال مغلقاً حتى ينتهى إليه من يستحق الدخول أو الخروج منه فيفتح له ثم يغلق .

والثالث – وهو بابها الأعظم الذى يدخل منه باقى الأمراء وسائر الناس ، يتوصل إليه من أعلى الصوة المتقدم ذكرها ، يرقى إليه فى درج متناسبة حتى يكون مدخله فى أول الجانب الشرقى من القلعة، ويتوصل منه إلى ساحة مستطيلة ينتهى منها إلى دركاه جليلة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول ، وفى قبلى هذه الدركاه دار النيابة وهى التى يجلس بها النائب الكافل للحكم إذا كان ثم نائب ، وقاعة الصاحب ، وهى التى يجلس بها الوزير وكتاب الدولة ، وديوان الإنشاء ، وهو الذى يجلس فيه كاتب السر وكتاب ديوانه ، وكذلك ديوان الجيش ، وسائر الدواوين السلطانية .

ويصدر هذه الدركاه باب يقال له باب القلة يدخل منه إلى دهاليز فسيحة ، على يسرة الداخل منها باب يتوصل منه إلى جامع الخطبة المتقدم ذكره ، وهو من أعظم الجوامع ، وأحسنها وأبهجها منظراً ، وأكثرها زخرفة ، متسع (٥) الأرجاء ، مرتفع البناء ، مفروش الأرض بالرخام الفائق ، مبطن السقوف بالذهب ، فى وسطه قبة يليها مقصورة يصلى فيها السلطان الجمعة ، مستورة هى والرواقات المشتملة عليها بشبابيك من حديد محكمة الصنعة ، يحف بصحنه رواقات من جميع جهاته ، ويتوصل من ظاهر هذا الجامع إلى باب الستارة ، ودور الحريم السلطانية .

---

(١) (بالنسخة الخطية وردت الكلمة «متشرفات») .
(٢) (بالنسخة الخطية وردت هذه الكلمة «بتمامه») .
(٣) (بالنسخة الخطية وردت هذه الكلمة « بارزا » – هذا ويعلق كازانوفا بأن هذا المقعد هو الخرجاه التى ورد ذكرها بالكتاب من قبل) .
(٤) (بالنسخة الخطية وردت هذه الكلمة «بتخريج») .
(٥) (بالنسخة الخطية وردت هذه الكلمة «متسعة») .

ويصدر الدهاليز المتقدمة الذكر مصطبة يجلس عليها مقدم المماليك ، وعندها مدخل باب السر المتقدم ذكره ، وفى مجنبة ذلك ممر يدخل منه إلى ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير المتقدم ذكره ، وهو إيوان عظيم عديم النظير (١) ، مرتفع الأبنية ، واسع الأفنية ، عظيم العمد ، عليه شبابيك من حديد عظيمة الشأن محكمة الصنعة ، وبصدره سرير الملك ، وهو منبر من رخام مرتفع ، يجلس عليه السلطان فى أيام المواكب العظام لقدوم رسل الملوك ونحو ذلك .

ويتيامن عن هذا الإيوان إلى ساحة لطيفة بها باب القصر الأبلق المتقدم ذكره ، وبنواحيها مصاطب يجلس عليها خواص الأمراء قبل دخولهم (٢) إلى الخدمة . ويدخل من باب القصر إلى دهاليز عظيمة الشأن ، نبيهة القدر ، يتوصل منها إلى القصر المذكور ، وهو قصر عظيم البناء ، شاهق فى الهواء ، به إيوانان فى جهتى الشمال والجنوب ، أعظمها الشمالى ، يطل منها (٣) على الاصطبلات السلطانية ، ويمتد النظر منهما (٤) إلى سوق الخيل والقاهرة والفسطاط وحواضرها إلى مجرى النيل ، وما يلى ذلك من بلاد الجيزة والجبل وما إلى ذلك ، (وبصدره مبنى من رخام كالذى فى الإيوان الكبير) (٥)) يجلس عليه السلطان أحياناً فى وقت الخدمة على ما يأتى ذكره .

والإيوان الثانى ، وهو القبلى ، خاص بخروج السلطان (وخواصه منه ، من باب السر) إلى الإيوان الكبير خارج القصر للجلوس فيه أيام المواكب العامة ، ويدخل من القصر المتقدم ذكره إلى ثلاثة قصور جوانية : واحد منها مسامت لأرض القصر الكبير ، واثنان مرفوعان ، يصعد إليهما بدرج ، فى جميعها شبابيك من حديد تشرف على ما يشرف عليه القصر الكبير ، ويدخل من القصور الجوانية إلى دور الحريم وأبواب الستور السلطانية ، وهذه القصور جميعها ظاهرها بالحجر الأسود والأصفر ، وداخلها موزر بالرخام والفص المذهب المسجر بالصدف وأنواع الملونات ، والسقوف المبطنة بالذهب واللازورد يخرق الضوء فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرسى الملون يقطع الجوهر المؤلفة فى العقود ، وجميع أرضها مفروشة بالرخام المنقول من أقطار الأرض مما لا يوجد مثله .

قال فى « مسالك الأبصار » : فأما الآدر السلطانية فعلى ما صح عندى خبره ، أنها ذوات بساتين وأشجار ومناخات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور ، الدواجن . وخارج هذه القصور طباق واسعة للمماليك السلطانية ، ودور عظام لخواص الأمراء من مقدمى الألوف ، ومن عظم قدره من أمراء الطبلخاناه والعشرات ، ومن خرج عن حكم الخاصكية إلى حكم البرانيين . وبها بيوت ومساكن لكثير من الناس ، وسوق للمآكل ، ويباع بها النفيس من السلاح والقماش مع الدلالين يطوفون به .

وبهذه القلعة مع ارتفاع أرضها وكونها مبنية على جبل بئر ماء معين (منقوبة فى الحجر حفرها بهاء الدين قراقوش المتقدم ذكره حين بناء القلعة ، وهى من أعجب الآبار ، بأسفلها سواق تدور فيها الأبقار ، وتنقل الماء فى وسطها ، وبوسطها سواق تدور فيها الأبقار أيضاً وتنقل الماء إلى أعلاها ، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر فيه إلى معينها فى مجار ، وجميع ذلك نحت فى الحجر ليس فيه بناء .

---

(١) بالنسخة الخطية وردت هذه الكلمة « النظر » .

(٢) بالنسخة الخطية وردت هذه الكلمة «دخولها» .

(٣ ، ٤) بالنسخة الخطية وردت هذه الكلمة « منها » .

(٥) بدلا من هذه العبارة التى بين الحاصرتين ورد بالنسخة الخطية العبارة الآتية ، (وبالقصر كرسى مطعم من عاج وأبنوس ارتفاعه نحو ذراع) .

(٦) (ما بين الحاصرتين ورد بالنسخة الخطية على هذا النحو : (وخواص منه من باب سر) .

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر : (وسمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت ، جاء ماؤها عذباً فأراد قراقوش أو نوابه الزيادة فى مائها فوسع نقراً فى الجبل ، فخرجت منه عين مالحة غيرت عذوبتها . ويقال : إن أرضها تسامت أرض بركة الفيل ، وهذه البئر ينتفع بها أهل القلعة فيما عدا الشرب من سائر أنواع الاستعمالات) ، أما شربهم (١) فمن الماء العذب المنقول إليها من النيل بالروايا على ظهور الجمال والبغال مع ما ينساق إلى قصور السلطان ودور أكابر الأمراء المجاورين للسلطان من ماء النيل فى المجارى ، بالسواقى النقالات والدواليب التى تديرها الأبقار وتنقل الماء من مقر إلى آخر حتى ينتهى إلى القلعة ، ويدخل إلى القصور والآدر فى ارتفاع نحو خمسمائة ذراع .

وقد جدد السلطان الملك الظاهر برقوق بهذه القلعة صهريجاً عظيماً يملأ فى كل سنة زمن النيل من الماء المنقول إلى القلعة من السواقى النقالات ـــ ورتب عليه سبيلا بالدركاه التى بها دارالنيابة يسقى فيه الماء وحصل به للناس رفق عظيم .

وتحت مشترف هذه القلعة مما يلى القصور السلطانية ميدان عظيم يحول بين الاصطبلات السلطانية وسوق الخيل ، مرج بالنجيل الأخضر ، فسيح المدى ، يسافر النظر فى أرجائه ، به أنواع من الوحوش المستحسنةالمنظر ، وتربط به الخواص من الخيول السلطانية للتفسح ، وفيه يصلى السلطان العيدين على ما سيأتى ذكره ، وفيه تعرض الخيول السلطانية (فى أوقات الاطلاقات ووصول التقادم والمشترى وربما أطعم فيه الجوارح السلطانية) (٢)) ، وإذا أراد السلطان النزول إليه خرج من باب (٣) إيوان القصر . (وركب من درج تليه إلى اصطبل الخيول الخاص ، ثم نزل إليه راكبا وخواص الأمراء فى خدمته مشاة ، ثم يعود إلى القصر كذلك) (٤) .

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر فى « خططه » . وكان هذا الميدان وما حوله يعرف قديماً بالميدان ، وبه قصر أحمد بن طولون وداره التى يسكنها ، والأماكن المعروفة بالقطائع حوله على ما تقدم ذكره فى خطط الفسطاط ، ولم يزل كذلك حتى بنى الملك الكامل بن العادل بن أيوب هذا الميدان تحت القلعة حين سكنها ، وأجرى السواقى النقالات من النيل إليه ، وعمر إلى جانبه ثلاث برك تملأ لسقيه ، ثم تعطل فى أيامه مدة ، ثم اهتم به الملك العادل ولده ، ثم اهتم به الصالح نجم الدين أيوب اهتماماً عظيماً ، وجدد له ساقية أخرى ، وغرس فى جوانبه أشجاراً فصار فى نهاية الحسن ، فلما توفى الصالح تلاشى حاله إلى أن هدم فى سنة خمسين وستمائة ، أو سنة إحدى وخمسين فى الأيام المعزية أيبك التركمانى ، وهدمت السواقى والقناطر وعفت آثارها ، وبقى كذلك حتى عمره السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله ، فأحسن عمارته ورصفه أبدع ترصيف ، وهو على ذلك إلى الآن .

---

(١) (ما بين الحاصرتين لم يرد ذكره بالنسخة الخطية) .

(٢) (ما بين الحاصرتين لم يرد ذكره بالنص المنقول عن النسخة الخطية) .

(٣) (ورد بالنسخة الخطية « من جانب ») .

(٤) (ما بين الحاصرتين لم يرد ذكره بالنص المنقول عن النسخة الخطية) .

الفصل الثالث عشر

وصف القلعة زمن القلقشندى والمقريزى

والآن ، فقد اكتملت بين أيدينا العناصر اللازمة جميعها لشرح ذلك الوصف المطول (للقلعة) للمقريزى فى خططه ، وذلك الوصف الموجز لها للقلقشندى ، هذا الوصف الذى يعتبر — على الرغم من إيجازه — أكثر وفاء بالقصد فى نقاط معينة . والكاتبان يعاصر كل منهما الآخر ، وقد نقل كل منهما وصفه للقلعة من أحد الكتب التى فقدت ولم تصل إلينا .

ولم يتبق لى ، بعد هذا الوصف التفصيلى للقلعة فى عصورها المختلفة ، إلا أن أقوم بدراسة شاملة لها . فإذا ما فرضنا أن أحد الرحالة المعاصرين للمقريزى يقوم بزيارة مدققة فاحصة للقلعة ، فإن وصفه لها سيكون على النحو الآتى :

إن هذا الرحالة سيجد نفسه ، إذا ما خرج من القاهرة (المعزية) عن طريق باب زويله ، أمام شارعين : أحدهما يتجه جنوباً ويؤدى إلى الفسطاط ، وهو شارع الصليبة (صليبة ابن طولون) ، وثانيهما — وهو شارع الدرب الأحمر — يتجه جهة الشرق ويؤدى إلى القلعة ، فإذا ما سلك هذا الشارع الثانى ، وبعد أن يمر بخط التبانة ثم بجامع السلطان حسن الذى يقع على يمينه فإنه يجد نفسه بميدان الرميلة (تحت القلعة) . كما يجد أمامه مباشرة باب السلسلة ، الذى يسلك منه لا إلى القلعة ذاتها ، وإنما إلى المنشآت الملحقة بها (١) ، والمناظر أو القاعات التى أنشأها السلاطين الذين تعاقبوا على عرش السلطنة منذ أكثر من قرن من الزمان ، والتى تعتبر (الآن) مقراً مختاراً لإقامة السلاطين .

وباب السلسلة هذا يسمح لنا بالدخول إلى الاصطبلات السلطانية . وهناك يلاحظ المرء وجود مقعد يطل على ميدان الرميلة ، كما يلاحظ وجود جامع أنشأه السلطان فرج بن برقوق فى سنة ٨١٢ هـ ، وعلى يمينه توجد الاصطبلات السلطانية على ما هى عليه من روعة وفخامة ، ويصل بينها وبين باب السلسلة بناء كان يخصص أحياناً لسكنى كبار

(١) هناك عبارة وردت على لسان أبى المحاسن توضح تماما هذا الوضع . اذ يقول بمناسبة الحديث عن احدى الفتن التى قام بها بعض أمراء المماليك ، أنهم على الرغم من سيطرتهم تماما على باب السلسلة ، فانهم لم يتمكنوا من اقتحام القلعة ذاتها ، ثم يضيف الى ذلك القول : رأيه الذى يلحقه فى هذه الجملة «والمقصود من هذا الكلام أنه ليس للقلعة علاقة بباب السلسلة الا فى الأمن والرخا(ء) لا غير» .

وانظر النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٦٧ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٨ ، ورقة ١٧١ أ) .

الأمراء ، وأحياناً أخرى كان يتحول إلى سجن يسجنون به . هذا البناء يصعد إليه بسلم ، ويسمى الحراقة (١) . وأما الإصطبلات السلطانية فليس ثمة داع لوصفها ، فقد ترك لنا المؤرخون العرب وصفاً لها يغنينا عن كل تعليق ، فإذا ما اجتزنا هذه الاصطبلات ، فإننا نجد الميدان الكبير (الميدان الأسود) على يميننا ، والقصور السلطانية على يسارنا ، ويحيط بهذا الميدان الكبير سور يمتد حتى يتصل بباب القرافة الموجود بسور المدينة .

ولنعد إلى حيث كنا ، بعد أن ألقينا هذه النظرة السريعة على هذه المنشآت الملحقة ، فلكى نمر من وراء جامع الإصطبل فإننا نسير فى طريق منحوت فى الصخر يمتد بحذاء سور القلعة المحصن . وإذا ما نظرنا جهة اليمين فإننا نرى بعض الشرفات الرائعة البناء ، وبعض القصور القائمة على رحبة عالية ، فياله من منظر رائع ! ومما يثير دهشتنا أيضاً ما نلاحظه من أن جدران هذه القصور مبنية من أحجار سوداء وصفراء على التوالى . ومن هنا كانت تسمية القصر الرئيسى من هذه القصور بالقصر الأبلق . وعلى مقربة من هذا القصر المنيف الذى يقع فيما بين الحوش والاصطبلات – على وجه التحديد – بالنقطة التى يبدأ عندها السور المحصن للقلعة نشاهد أول برج من أبراج السور . وعلى البرج نجد نقشاً تذكاريا ، نعرف منه أن الناصر محمد بن قلاوون هو الذى أنشأه فى سنة ٧١٣ هـ .

من هذه النقطة نواصل طوافنا بالقلعة . فمن هناك نصعد فى طريق وعر للغاية يأخذ فى الارتفاع شيئاً فشيئاً ، فنرى على يسارنا المبانى والدور التى تنتشر « فوق الصوة » من أعلاها إلى أسفلها . وأحد هذه الدور كان قد حوله منذ زمن يسير السلطان الملك المؤيد إلى جامع فإذا ما وصلنا إلى أعلى مكان بالصوة ونظرنا جهة اليمين نجد باب السر الذى لايسمح بالدخول منه إلى القلعة إلا للسلطان أو للذين يعرفون كلمة السر . وكان السلاطين يحرصون كل الحرص على مراعاة ذلك بكل دقة ، ويحكى أن السلطان بيبرس جاء متخفياً ذات يوم يريد الدخول من ذلك الباب ، هذا فى الوقت الذى يعتقد الناس أنه لايزال موجوداً بسورية ، ومع ذلك فلم يفتح له أحد إلابعد أن نطق بكلمة « العلايم » ، وهى كلمة السر فى ذلك اليوم (٢) . وهذا الباب يفضى مباشرة إلى الرحبة الكبيرة العالية التى

---

(١) كلمة « حراقة » أو « حراقة » لم ترد بالقواميس بالمعنى الذى أفسرها به • ويتضح من النصوص التى وردت بها هذه الكلمة على لسان المؤرخين أن الحراقة أشبه بالمنظرة أو بالمقعد • وهى مشتقة من الفعل « حرق » ، ويبدو أنها كانت تعنى فى الأصل المكان الذى كانت تجمع فيه المواد الحارقة ليقذف بها على المهاجمين • واذا كان هذا التفسير صحيحا ، فان الحراقة لا تعدو أن تكون مجرد غرفة عليا بارزة الى الخارج فوق باب السلسلة ، بحيث تسمح بأن يرمى من المزاغل الموجودة بها المواد الحارقة على المهاجمين للباب • ويبدو أن هذا الوضع كان هو الوضع نفسه بأبواب القلعة • وليس ثمة شـك فى أن هـذه الغرفة المعدة لاطلاق المواد الحارقة الملتهبة على المهاجمين قد تحولت ، بطبيعة الحال ، الى مركز للمراقبة خصص لاقامة أحد الأمراء • وليس أدل على ذلك من أن الغرفة البـارزة الى الخـارج والموجودة فوق باب القلعة (الباب الجديد على خريطة جراند بك) يقيم بها (الكولونيل الانجليزى قائد القلعة) •

واليك نص العبارات المتعلقة بهذه الكلمة التى استطعت جمعها ، وهى كما يتضح منها تبين صفة الحراقة ومكانها

– سكن الاسطبل السلطانى بالحراقة (النجوم الزاهرة، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٦٦٦، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٧ ، ورقة ١٧٢أ ، السلوك ، المخطوطة بالمكتبـة الأهليـة ببـاريس ، القسم العربى رقم ٦٧٤ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٨ ، ورقة ١٥ب) •

– سكن بالحرافة من باب السلسلة (النجوم الزاهرة، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٦٧ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٨ ، ورقة ١٧٣أ) •

– حضر جميع الأمراء بالاسـطبل السـلطانى بباب السـلسلة بالحراقة (النجوم الزاهـرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى تكملة رقم ٨٠٩ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٩ ، ورقة ١٢٠ب) •

– سلم الحراقة (النجوم الزاهرة ، المخطوطة المكتبة نفسها ، رقم ٦٦٧ ، ورقة ٧٢ ب) •

– درج الحراقـة (الجوهـرى ، نزهـة النفـوس ، الجز الثالث ، ورقة ١٣٠) •

– مبيت الحراقة (النجوم الزاهرة ، المخطوط السابق، ورقة ٧٢ب) •

(٢) أنظر : QUATREMERE; Sultans Mamlouks, I 25 partie, p. 165.

بنى فوقها الإيوان ، وهو القاعة الكبرى المخصصة للمراسم السلطانية . ولنترك الآن الدخول من هذا الباب ، ولنتابع صعودنا فى هذا الطريق لنلقى نظرة على مبنى الطبلخاناه التى كانت ، فيما سلف ، (فى عهد السلطان بيبرس) داراً للعدل . وما إن نجتاز الطبلخاناه حتى نجد أنفسنا قد وصلنا إلى السلم ذى الدرجات العديدة الذى يعرف بسلم المدرج . وفى بداية هذا السلم يوجد باب أنشىء فى عهد بيبرس تحت إشراف الأمير (حسام الدين لاجين الأيدمرى) المعروف بالدرفيل ، ومن ثم فقد عرف بباب الدرفيل ، كما عرف أيضاً بباب المدرج لأنه يؤدى بالسالك إلى سلم المدرج هذا ، وهناك يوجد حائط من إنشاء السلطان برقوق يصل بين هذا الباب والمنشآت الملحقة التى سبق أن أشرنا اليها على يسارنا ، بحيث أننا نجد أنفسنا — بعد أن وصلنا إلى هذه النقطة — وقد أحاط بنا هذا الحائط والأسوار العالية للقلعة .

وأما سلم المدرج فإنه ينثنى بنا على شكل زاوية مستقيمة وموازيا لانثناء سور القلعة فى هذه النقطة . قد صمم السلم على هذا الوضع فى دقة متناهية تثير دهشة العين التى لم تتعود رؤية المنشآت العسكرية . ونحن لايمكننا أن نفهم الغرض من هذا الوضع العجيب للسلم إذا كنا لانعرف أن القلعة قد بنيت على مرتين ، وأنها تتكون من نطاقين يدور حول كل نطاق سور خاص به . وأحد هذين النطاقين عسكرى بحت ، خصص لإقامة طباق المماليك ، ويدور حوله سور محصن بأبراج وبدنات قوية . وثانيهما خصص لبناء قصور السلاطين الفخمة ، والدور الخاصة لإقامة أتباعهم وخدمهم العديدين من المدنيين أو من المماليك . وموجز القول ، فإن للقلعة ثلاثة نطاقات : أحدها هذا النطاق الذى فرغنا لتونا من التجول به ، والذى ينحدر من أعلى إلى أسفل ويضم منطقة الصوة المقابلة بما عليها من منشآت ملحقة مختلفة كالاصطبلات والطبلخاناه ، ثم هذان النطاقان الآخران اللذان يقعان فوق هذا النشز العالى . وأما وقد فرغنا من النطاق الأول ، فلنبدأ الطواف بهذين النطاقين الأخيرين اللذين تتكون منهما القلعة الحقيقية .

فأما أقدم هذين النطاقين فهو ذلك النطاق الذى يقع أمامنا مباشرة . ولنتذكر أننا بدأنا طوافنا من الاصطبلات السلطانية صاعدين بحذاء الأسوار العالية للقلعة . فإذا ما صعدنا سلم المدرج الذى يمتد محاذيا لسور القلعة مسافة خمسين متراً على وجه التقريب ، فإننا نسلك منه إلى برج مربع واسع يفضى بنا إلى داخل القلعة ، ومن ثم فإن الدخول إلى القلعة يقتضى أن نصعد أولا هذا السلم ، ثم نعبر هذا البرج ، ثم نتجه إلى اليمين ، وهذا الوضع هو الذى كانت عليه (مداخل) القلاع زمن صلاح الدين ، وعلى الرغم من أن هذا المدخل على درجة قوية من التحصين تكفى لصد كل من تسول له نفسه الهجوم على القلعة ، فإن القلعة لم تتعرض يوماً ما للحصار . ولذلك فإن استخدام الباب على هذا النحو أصبح غير مريح ، الأمر الذى أدى إلى التفكير فى الاستغناء عنه فيما بعد .

وفوق هذا الباب نقش ، نعرف منه أن إنشاءه معاصر لانشاء القلعة فى سنة ٥٧٩ ﻫ . وحيث إن هذا الباب يقع فى نهاية سلم المدرج ، فقد عرف بباب المدرج كما عرف أيضا بباب الدرفيل ، وهذا التشابه فى التسمية قد أدى إلى الخلط — لدرجة ما — بين هذين البابين . وهذا الباب ، هو فى حقيقة الأمر ، باب سارية ، كما أن المنطقة المجاورة له بالسور تعرف بخط سارية .

وها نحن الآن ، بعد أن اجتزنا باب سارية ، نجد أنفسنا داخل النطاق (السور) العسكرى حيث يمتد أمامنا ميدان كبير تحيط به الدكاكين . وأول مايسترعى أنظارنا به منظر جماعات المماليك وغيرهم ممن يسكنون هناك . كما يسترعى أنظارنا أيضاً برج منعزل ، وهو برج القلة الذى أنشأه بيبرس . كما يوجد هناك بعض المقابر التى ترجع إلى زمن قديم جداً ، وبعض المساجد الصغيرة التى راعى بناة القلعة حرمتها فتركوها قائمة تختلط قبابها البيضاء بأسوار القلعة الشهباء التى اقتطعت أحجارها الجيرية من جبل المقطم . فمعظم الأحجار المنحوتة بعناية تامة والمستخدمة

فى بناء أسوار القلعة قد نقلت إليها من الأهرامات العديدة التى كانت بمدينة منف ، وهذه الأحجار كان الفراعنة قد اقتطعوها من المحاجر الكبيرة بجبل المقطم .

وإذا ما تابعنا السير داخل هذا النطاق فى المنطقة التى توجد على يسارنا ، فإننا نقترب شيئاً فشيئاً من مدينة القاهرة حيث نراها وقد أخذت تمتد أمام أنظارنا فى منظر فريد . غير أننا ، ونحن فى هذا المكان ، لانرى منها إلا أقل جوانبها روعة وجمالا : فنحن لانرى سوى الأسوار العالية التى كان من المقرر لها أن تمتد حتى تتصل بأسوار القلعة ، غير أن بناءها لم يكمل فى هذا الجانب . كما نرى كيمان البرقية التى يرجع وجودها فى هذه الجهة الشرقية من القاهرة إلى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، ثالث خلفاء الفاطميين (فى مصر) — (٣٨١ — ٤١١ هـ) . ومما يلاحظ أن هذه الكيمان تتراكم يوماً بعد يوم ، ولم يفكر أحد يوماً ما فى مدى ما يترتب على تراكمها وزحفها على الأسوار ، لدرجة أن بعض أجزاء الأسوار قد أخذت تختفى تحتها . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم اهتمام القائمين بالأمر بالمصالح العامة ، وعلى الرغم من ذلك فإن نزوات السلاطين دفعتهم إلى إنشاء مدينة كاملة — بكل مافى هذه الكلمة من معنى — فى هذا الجانب خارج القاهرة فهناك أنشىء الكثير من المقابر الفخمة التى تنتشر فوق الصحراء الممتدة أمام البصر ، كما أنشئت هناك أيضاً الخانقوات والمناظر ، ومع هذا فإن هذه المنطقة ليست سوى صحراء قابضة للنفس ، كثيرة الرمال ، فهى أشبه بواد مترب يقع بين مشارف القلعة ومشارف الجبل الأحمر .. وقد فكر البعض أن هذا الوادى إنما هو من صنع الإنسان ليكون بمثابة خندق واسع عميق للقلعة . غير أن الحقيقة التى لامراء فيها هى أن ذلك النشز العالى الذى أقيمت فوقه القلعة إنما كان جزءاً لايتجزأ من هذه الجبال التى تقع على مرأى العين وعلى مقربة منه وتشرف عليه . وكيفما كان الأمر ، فإن الصخرة قد نحتت بدرجة عميقة فى المكان الذى أقيم عليه السور لدرجة جعلت السور يبدو وقد تضاعف ارتفاعه . وواضح تماما أن أى عدو لايمكن أن يقوم بهجوم من تحت القلعة إلا إذا كان يسيطر تماماً على الجبل - وهو كما نعرف — على ماهو عليه من جدب وقفر .

وسور القلعة فى ناحيته الشمالية أشبه برأس حربة تواجه تحصينات الأسوار بالزاوية الشمالية الشرقية من القاهرة وكانت هذه الزاوية من الأسوار تتكون من تحصينات عديدة قوية ، وكانت أشبه بمركز دفاعى أمامى بالنسبة للقلعة فى حالة إذا ما هاجمها عدو زاحف عليها فى سورية . غير أن هذه التحصينات الدفاعية التى أنشئت بمهارة وعناية تامة قد أصبحت عديمة الجدوى ، وانتهى أمرها بأن أصبحت تستخدم كسجون يسجن بها المماليك أوكأبراج لحمام البريد .

فإذا ما ألقينا هذه النظرة السريعة على التحصينات بأسوار القاهرة ، — وهى التى لم تكن حسب خطة قراقوش ، ذلك الرجل البناء سوى تحصينات مكملة للقلعة — فإننا نعود لنتابع طوافنا بحذاء البدنات بسور القلعة الضخم . فها نحن الآن نسير بحذاء جبل المقطم الذى يوجد على يسارنا ، ومن الطبيعى أن تسترعى أنظارنا هذه الكتلة الصخرية الضخمة وهذا الوادى المترب الذى سبق أن تكلمنا عنه ، وكان الناصر محمد بن قلاوون يفكر يوماً ما فى تنفيذ مشروع ضخم يهدف إلى تحويل مياه النيل إلى هذا الوادى ، حتى تصبح أرضه بستاناً يمتد على مرأى النظر ، غير أنه تراجع أمام كثرة مايتطلبه من نفقات ، بل — وعلى وجه التخصيص — أمام المدة الطويلة اللازمة لتنفيذه .

وإذا ماوصلنا إلى الزاوية الجنوبية الشرقية بهذا السور الضخم الذى أنشأه صلاح الدين ، نجد أنه ينتهى ببرج كبير يشرف على الباب الذى يوجد بالسور فى هذه الجهة ويفضى إلى الصحراء . وقد عرف هذا الباب بباب

القرافة ، وهى تسمية مستمدة من أسم هذه المنطقة من الصحراء المعروفة بالقرافة والتى تمتد فيما بين الجبل ومدينتى القاهرة والفسطاط . ويبدو أن هذا الباب ليس بذى فائدة تذكر ، إذ قلما يطرقه إنسان . وإنى أعتقد أن هذا الباب أنشىء فقط لكى يستخدم كمنفذ إذا ماهاجم عدو القلعة وتمكن من اقتحامها . وهو على هذا الوضع ليست له أية صفة دفاعية كما هو الحال بالنسبة لباب سارية .

ولكى نعود إلى باب سارية — حيث بدأنا — فإننا نسير بحذاء سور ذى بدنات ضخمة ، يقطعها فى منتصفه باب جديد ، وهو باب القلة الذى يستمد تسميته — حسبما أعتقد — من القلة التى أنشأها بيبرس . وهذا الباب يصل بين المدينة العسكرية (سور صلاح الدين ، أو قلعة الجبل) وبين القصور السلطانية (السور الثانى) وهو محوط ببعض المنشآت الهامة المخصصة لإقامة كبار الشخصيات ، مثل دار النيابة (لنائب السلطنة) وقاعة الصاحب (للوزير) .. وغيرها .

فأما داخل هذا النطاق الحربى (سور صلاح الدين) فليست له أية فائدة تذكر ، إذ لايضم سوى الطباق (الثكنات) التى يقيم بها المماليك هم وأفراد عائلاتهم . وكان محرماً على المماليك مغادرة طباقهم والنزول إلى المدينة ، حيث كانوا لايفكرون عادة إلا فى الاعتداء على السكان ونهب بيوتهم ، غير أنهم قلما كانوا يطيعون هذا الأمر ، مما دفع السلاطين إلى تذكيرهم به من حين لآخر ، ومع ذلك فقد ظل الحال على ما كان عليه . وكانت هذه الساحة التى يسلك منها إلى باب القلعة مسرحاً للكثير من الفتن ، كما شهدت الكثير من القتلى . وسيظل الأمر على هذا الحال طالما هذه السلطنة (المملوكية) قائمة ، وطالما تعتمد فى بقائها على فرق المماليك الكثيرة الشغب والمثيرة للفتن بهذه الصورة الخطرة .

وقد سبق أن قلت إن باب القلة يفضى إلى ذلك النطاق الثانى حيث يوجد مقر السلاطين . فمن هذا الباب يخرج المماليك إلى هذا النطاق لينتظموا تحت قيادة الأمراء فى أيام المواكب ، وفى أيام الاحتفال بالأعياد أو التجهز للتجريدات ، ومن هذا الباب تدخل جموع الشعب لتشهد مجالس النظر فى المظالم بالإيوان الكبير . حقاً إن هذه المجالس أصبحت تعقد ، فى معظم الأحيان ، منذ عهد السلطان برقوق بالمقاعد بالحوش وبالاصطبلات السلطانية . فمنذ ذلك الحين والمقر السلطانى أخذ يغلق شيئاً فشيئا فى وجه جماهير الشعب ، وهذا التحول كان نتيجة حتمية للفتن والاضطرابات التى شهدتها نهاية عهد سلاطين المماليك البرجية وانتقال عرش السلطنة إلى سلاطين المماليك الجراكسة منذ خمسين عاماً على وجه التقريب (٧٩٠ هـ) .

وهذا النطاق الثانى ، الذى تنفذ إليه ، يضم الكثير من المنشآت والعمائر الرائعة ، التى يرجع بناء معظمها إلى الناصر محمد بن قلاوون إلى ما عرف من شغف بالعمارة وسخاء فى الانفاق عليها . وهذه المنشآت والعمائر هى التى سنبدأ فى تعدادها مع مراعاة أكبر قدر من الإيضاح فى وصفها .

فأولها هو ذلك الجامع الذى يقع تجاه باب القلة الذى أنشأه هذا السلطان يرتفع شامخاً بقبته ومئذنتيه المغلفتين بالقاشانى الأخضر الذى نقشت عليه هذه النقوش بحروفها البيضاء والتى تسطع تحت أشعة الشمس ، وبعمده الضخمة التى جلبت إليه من المعابد الفرعونية القديمة ، وبسقوفه المذهبة ، وبزخارفه الملونة البديعة ، وبشبابيكه من الزجاج التى تبرق فى ضوء الشمس . وهذا الجامع يقوم على قطعة أرض مربعة واسعة ، وتتجه جوانبه — على وجه التقريب —

اتجاه الجهات الأربع (١) . وإذا ما سرنا بحذاء واجهته الشرقية فإننا نقترب من هذه البئر الشهيرة التى حفرها قراقوش ، أو ربما أعاد حفرها فقط . وهذه البئر هى التى أشاد المؤرخون بالطريقة المستخدمة فى استخراج الماء منها . وأما واجهته القبلية فإنه يتوصل منها إلى القصر ودور الحريم السلطانية ، كما تواجه واجهته الشمالية بباب القلة ، وتطل واجهته الغربية على الرحبة الواسعة أمام الإيوان . ومن هذه الرحبة نشاهد هذا الإيوان الكبير الذى تغطيه ، كما هو الحال (بإيوان) الجامع ، قبة مغشاة بالقاشانى الأخضر ترتفع على عمد غاية فى الفخامة والروعة .

وهذا الإيوان ، الذى يبدو أنه أنشىء فى بادىء الأمر وفقاً لطراز إيوان الخلفاء الفاطميين على يد الملك الكامل ابن أخى صلاح الدين ورابع سلاطين الأيوبيين على عرش مصر ، قد أعيد انشاؤه وفقاً لطراز معمارى جديد على يد قلاوون ، ثم أعيد إنشاؤه مرة أخرى على يد ابنه الناصر محمد . وهو عبارة عن بناء مربع الشكل ، كثير الشبه بالجامع — الذى كنا نتحدث عنه منذ هنيهة — من حيث نظامه وطرزه المعمارية الرئيسية .

وفيما بين الجامع ، والإيوان ، وباب القلة ، والزاوية التى تتكون من التقاء السورين المحصنين ، تمتد رحبة فسيحة ينتشر فى أرجائها جمهور الأتباع والجند والخدم والفضوليين ، وبالزاوية الجنوبية الغربية من هذه الرحبة يوجد باب السر ، الذى سبق أن تحدثت عنه ، ومنه يدخل خاصة السلطان ورجال الخدمة ، فيتجهون إما إلى هذه الرحبة الواسعة حيث يختلطون بالجمهور الواقف هناك ، أو يتجهون إلى اليمين جهة القصور التى تمتد بحذاء الجهة الغربية من السور فى صف رائع من العمائر الضخمة . فإذا ما اقتربنا من السور ، ونحن وقوف فوق هذه الرحبة ، فإننا نرى هذا المنظر الرائع لمدينة القاهرة الذى يأخذ بالألباب ، بمآذنها العديدة ، والنيل الذى تحف به المزارع الخضراء ، والصحراء الليبية بخيام البدو الداكنة التى تنتشر فى الأفق كما لو أنها نقط لاحصر ولا عد لها من الأهرامات الصغيرة . بل إن هذا المنظر يكون أكثر روعة وأكثر امتداداً على مرأى النظر إذا نظرنا إليه من فوق أسطح هذه القصور (٢) . فلقد أقام السلاطين هذه القصور الشاهقة بما يعلوها من شرافات ومناظر ، كما لو أنهم يريدون أن يسرحوا أبصارهم من أعلاها فى غير ما حد ولا نهاية على هذا البلد العجيب الذى نصبوا أنفسهم سادة عليه . وفى هذا المكان الرائع الفريد ، الذى يشتهر بطيب هوائه ، كانت توجد من قبل قبة الهواء التى بناها أحد الولاة العرب لمصر الاسلامية فى أواخر القرن الأول الهجرى .

---

(١) يقوم وصفى لجهات هذا الجامع حسب التحديد المتعارف عليه للجهات الأربع والمتبع على خريطة عام ١٧٩٨ . غير أن الكتاب العرب فى وصفهم للعمائر يتبعون تحديدا يختلف اختلافا يسيطا عن هذا التحديد . مثال ذلك أن الشمال (البحرى) عندهم انما يتجه قليلا جهة الشرق . وعلى هذا النحو نجد لدى القلقشندى أن الجانب الشرقى للقلعة يبدأ عند باب سارية . غير أن هذا الجانب بالنسبة لنا هو الجانب الشمالى — ولدى القلقشندى أيضا ، والمقريزى كذلك، نجد أن القصر الأبلق يتصل بالايوان الكبير عن طريق ايوانه الشمالى ، وهذا الايوان بالنسبة لنا انما يتجه جهة الشرق — وكذلك الأمر بالنسبة لأبى المحاسن ، نجده يذكر بالنص المشار اليه من قبل ، أن باب القلة مواجه للواجهة الشرقية للجامع ، وهذه الواجهة بالنسبة لنا انما هى الواجهة الشمالية . (قارن ذلك بما يذكره :
YAN BERCHEM, C.I.A., Egypte, I, p. 7, note.

(٢) فى هذا الصدد ، يحكى لنا ابن اياس حكاية على قدر كبير من الطرافة . اذ يقول ، (وفى ربيع الأول (٧٨٩هـ) جرت واقعة غريبة ، وهى أن السلطان دخل الى القصر الكبير فى غير يوم الموكب . فلما جلس بالشباك الكريم رأى خيمة على بعد مضروبة فى الروضة على شاطىء النيل ، فبعث من كشف عن خبرها . فلما عاد القاصد أخبر السلطان أن تلك خيمة كريم الدين الصاحب بن مكانس ، ومعه جماعة وهم يشربون الخمر . فأرسل اليهم جماعة من المماليك ، فأحضروهم بتمامهم وكمالهم بين يدى السلطان — فأمر بضرب الصاحب كريم الدين ، وقرر عليه خمسين ألف دينار ، ثم عفا عن الباقين ، وهذه من الغرائب) .

انظر : بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى رقم ٥٩٥ أ ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٢ ، ورقة ٢٢٣ ب .

وجميع هذا الجانب من القلعة ، على هذه الرحبة العالية ، إنما يقع على مستوى واحد من الارتفاع مع منارتى جامع السلطان حسن ، وبذلك يشرف — وهو على هذا الارتفاع الشاهق — على النطاق الأسفل (الأول) الذى بدأنا منه طوافنا بالقلعة . وقد استوجب هذا الوضع منع الصعود إلى منارتى جامع السلطان حسن ، وذلك لأن الخارجين عن الطاعة من المماليك فى أثناء الفتن والثورات التى نشبت (أخيراً) صعدوا إليها ليرموا منها بسهامهم وقذائفهم على القلعة ، ولحسن الحظ فإن السلطان (الظاهر برقوق) الذى أصدر هذا الأمر (١) لم يكن تتأصل فى نفسه غريزة التخريب فيهدم هذا الأثر الرائع ، كما هدم (ابنه الناصر فرج ، من بعده) مدرسة الأشرف شعبان (بالصوة تجاه الطبلخاناه من قلعة الجبل) . فهذه المدرسة كانت أكثر ارتفاعاً من جامع السلطان حسن ، وكانت تشرف تماماً على سور القلعة من جهته الشمالية الغربية .

ولنعد بعد هذا العرض حيث القصور السلطانية . فأول قصر نعبر إليه هو القصر الأبلق ، الذى عرف بهذا الاسم لأن جدرانه من الظاهر ، مبنية من أحجار صفراء ، وأحجار سوداء ، مدماكاً من هذه ومدماكاً من هذه . ولهذا القصر مدخل بارز يسمى « الخرجاه »(٣) ، تقع تماماً بجوار البرج الذى سبق أن تحدثنا عنه . فإذا ما اجتزنا هذه الخرجاه فإننا نمر بعدة قاعات على درجة رائعة من الزخرفة ، وبالصورة نفسها التى رأينا عليها الجامع ، وهذه القاعات العديدة تفضى بنا إلى (ثلاثة) قصور جوانية ، يصطف الواحد بعد الآخر على مستوى من الأرض أقل من المستوى الذى أقيم عليه القصر الأبلق ، وجميعها بنيت وفقاً للطراز المعمارى المشاهد فى جميع العمائر (التى أنشأها الناصر محمد بن قلاوون) . والجدران العالية لهذه القصور ، التى تمتد فى أعماق الصخر وتطل على الاصطبلات السلطانية ، تعتبر فى الوقت نفسه امتداداً لسور القلعة. وبهذه القصور سلالم وأبواب خاصة تسمح للسلطان بأن ينزل منها إلى الاصطبلات السلطانية دون أن يراه أحد بل وأن ينزل منها إليها وهو راكب جواده .

وهذا الركن الجنوبى الغربى من القلعة تقوم عليه القصور المخصصة للمراسم السلطانية (مثل الإيوان ، والقصر الأبلق) . وأما إذا تتبعنا دائر القلعة من الغرب إلى الشرق فإننا نمر بدور الحريم السلطانية . فهذه الدور بما يتبعها من مرافق عديدة تحتل الركن الجنوبى الشرقى كله . وهى تتصل بالقصور السلطانية عن طريق هذا الباب الفخم الذى يعرف بباب النحاس ، وتتصل ، من جهة أخرى ، بالجامع عن طريق باب الستارة . وإلى جانب هذه القصور والدور توجد قاعات على جانب كبير من الحسن والبهاء . وقد بلغ ما بناه الناصر محمد منها سبع قاعات ، ظل اسمها باقياً على مدى الأيام والعصور ، وعرفت بالسبع قاعات أو بالسبع حدرات ، إحداها قاعة الفضة . وقد أضاف

---

(١) (يقول المقريزى فى خططه ، الجزء الثانى ، ص ٣١٦ ، مانصه : وصار هذا الجامع ضدا لقلعة الجبل ، قلما تكون فتنة بين أهل الدولة الا ويصعد عدة من الأمراء وغيرهم الى أعلاه ، ويصير الرمى منه على القلعة ، فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر فهدمت الدرج التى كان يصعد منها الى المنارتين والبيوت التى كان يسكنها الفقهاء ويتوصل من هذا الدرج الى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة ، وهدمت البسطة العظيمة والدرج التى كانت بجانب هذه البسطة ، التى كان قدام باب الجامع حتى لا يكن الصعود الى الجامع .. .. وامتنع صعود المؤذنين الى المنارتين ، وبقى الآذان على درج هذا الباب . وكان ابتداء هدم ماذكر فى يوم الأحد ثامن صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .)

(٢) (مدرسة الاشرف شعبان بن حسين هدمها الناصر فرج ، ثم أقام مكانها السلطان المؤيد شيخ المارستان المؤيدى — انظر الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٤٠٨ .)

(٣) هذا ما يمكن أن يستخلص مماسبق أن قلته عن « الخارجاه » ، ومن وصف القلقشندى لهذا القصر الذى سبق ذكره .

أحد أبنائه السلطان حسن (الذى شيد هذا الجامع الفخم الذى يعرف به تجاه القلعة) إلى هذه القاعات قاعة البيسرية هذا بالإضافة إلى هذه البساتين الجميلة التى ترويها مياه النيل التى أنفقت الأموال الطائلة من أجل نقلها من النيل إلى هذه القصور والدور والقاعات القائمة فوق هذا النشز العالى فيسرت الإقامة بها وجعلتها محببة إلى النفس .

وإذا أراد السلطان أن يتوجه من دور الحريم إلى الجامع ، دون أن يضطر إلى عبور الرحبة الواسعة ، فإنه يسلك إليه عن طريق قاعة العواميد ، أو عن طريق باب الستارة الذى تحدثت عنه من قبل(١) ، فيجد نفسه بمقصورة الجامع المخصصة لصلاته . وذلك أن قاعة العواميد تعتبر بمثابة دهليز يؤدى إلى الدور السلطانية . وبهذه القاعة تقيم خوند الكبرى(٢) ، وهى التى تقرر رسوم الخدمة بها . ويذكر لنا المؤرخون أن السلطانة الشهيرة شجر الدر كانت تقيم بها . وهذه القاعة تقع تجاه الإيوان ، وتجاه قاعة الدهيشة التى شيدها (الصالح عماد الدين إسماعيل) أحد أبناء الناصر محمد بن قلاوون على طراز قاعة الدهيشة التى شيدها أبو الفداء بحماه . وقاعة الدهيشة هذه ، التى أصبح السلاطين الآن يفضلونها كثيراً عن القصر الأبلق لإقامة الاستقبالات الرسمية ، تقع فيما بين هذا القصر والإيوان الكبير ، وهى بهذا الوضع تشرف على الحوش . ومما هو جدير بالذكر ، هو أنه يوجد وسط دور الحريم السلطانية مسجد صغير يقال له مسجد الرديني ، ولهذا المسجد حرمة كبيرة فى نفوس الناس ، ويترددون عليه كثيراً للتبرك به . وأغلب الظن أن بناء هذا المسجد يرجع إلى زمن أقدم كثيراً من الزمن الذى شيدت فيه القلعة ، شأنه فى ذلك شأن المساجد الصغيرة الأخرى التى سبق أن رأيناها داخل النطاق الحربى (سور صلاح الدين) (٣) .

ومن دور الحريم السلطانية يستطيع السلطان ، عن طريق درج مخصصة له ، أن ينزل إلى الاصطبلات السلطانية ، وإلى الميدان الكبير ، وأن يخرج من هناك من باب السلسلة .

وهكذا نجد أنفسنا قد عدنا إلى النقطة التى بدأنا منها طوافنا بالقلعة . وبعد هذا الوصف ، لايتبقى لى إلا أن أقول كلمة عن إحدى العمائر المجاورة للقلعة ، ألا وهى دار الضيافة التى ينزل بها السفراء والسلاطين والأمراء الأجانب

---

(١) فى هذا يقول ابو المحاسن ، « طلع السلطان الى قلعة الجبل من باب السر راكبا حتى دخل من باب الستارة ، وهو على فرسه ، الى قاعة العواميد من الدور السلطانية ، فنزل من فرسه بحافة الايوان » ــ النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٦٦ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٣ ، ورقة ١٥٤ ب .

(٢) فى عام ٨٠٥ هـ كانت خوند الكبرى التى تقيم فى هذه القاعة هى أخت المؤرخ أبى المحاسن . وهو ، هنا يروى لنا نقلا عن أخته ، كيف قتل الناصر فرج مطلقته بنت صرق. يقول ، «قتل مطلقته بنت صرق .. عند كريمتى بقاعة العواميد، فانها كانت يوم ذاك صاحبة القاعة........... وصارت بنت صرق تجرى، وهو خلفها، وقد اجتمع الخوندات عندى بالقاعة للسلام على بنت صرق المذكورة . ومازال يضربها بالمنجاة وهى تجرى الى أن دخلت المستراح فتم قتلها فى صحن المستراح ، ثم قطع رأسها .. وخرج الى قاعة «الدهيشة» ــ انظر النجوم الزاهرة ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٢٤ ب .

(٣) تشير خريطة عام ١٧٩٨م ، شمالى رقم ٧٥ (القلعة) الى زاوية مهدمة تسمى زاوية البرديني . ويبدو من موقع هذه الزاوية ، ومن اسمها المحرف ، أنها ليست سوى مسجد الرديني الذى نعرفه . فالقلقشندى فى وصفه للقلعة (انظر قبل ، ص ٦٨٦) يقول (.. مسجد الرديني الذى هو بين آدر الحريم السلطانية الآن) والمقريزى (انظر قبل ، ص ٥٦٣ ، جـ رقم ١) يقول (مسجد الرديني .. وهو الموجود الآن بداخل قلعة الجبل) وبناء على هذه الشواهد ، فانى أرى أن الاسم الصحيح لهذه الزاوية ، الذى كان يجب أن تسمى به على خريطة عام ١٧٩٨م ، هو «زاوية الرديني». فهذا التحريف فى تسميتها انما حدث ، بطريقة لا شعورية، على لسان أفراد الشعب ، أو حدث على لسان الذى قام بكتابة الأسماء على خريطة عام ١٧٩٨م (وهو أحد علماء الحملة الفرنسية) فاسم « البرديني » معروف وشائع بالقاهرة ، وخاصة عن طريق هذا الجامع الصغير الذى يعرف باسمه والذى يعتبر غاية فى رشاقة البناء (انظر خريطة عام ١٧٩٨م ــ القاهرة ، القسم الثامن ، رقم ٣٢٢ ــ جامع البرديني ، والقسم السابع رقم ٦٦ ، ٧٠ ــ سبيل البرديني) .

(أثناء إقامتهم بالقاهرة) . فهذه الدار تقع فوق الشرف (الصوة) ، تجاه الباب الرئيسى للقلعة ، وهى بهذا الوضع تجاور الطبلخاناه (١) .

وهكذا نرى ، أنه على الرغم من عدم التزامى الدقة فى هذا الوصف الشامل للقلعة وما أقيم بها من منشآت – لا سيما من حيث التحديد الدقيق لموقع هذه المنشآت ، ومن حيث وصفها المعمارى ، فإنى أعتقد أنى قدمت (إلى القارىء) فكرة صحيحة للغاية عن الوضع العام لهذه المنشآت ، كما قدمت إليه الوسيلة التى يستطيع بها أن يتتبع مؤرخى العصر المملوكى فى حديثهم عن الحوادث التى شهدتها القلعة .

وليس لى بعد هذا إلا أن أشير – فى صورة سريعة – إلى التغييرات والتعديلات الرئيسية التى استجدت بالقلعة ، – وعلى وجه التخصيص – إلى تدهور حال القلعة ، التى لم تلبث – بعد فترة وجيزة من زمن المقريزى – أن آل أمرها إلى الخراب .

---

(١) لايمدنا المؤرخون بأية معلومات عن الفترة التى أنشئت فيها هذه الدار ، ومن المحتمل أن بناءها يرجع الى زمن الملك الكامل . هذا ويجب ألا نخلط بينها وبين دار الضيافة الفاطمية التى حولها صلاح الدين الى الخانقاة المعروفة باسم «سعيد السعداء» – عن هذه الدار انظر : RAVAISSE : Op. Cit., T. III, 45 fasc., p. 41 et 47

– والى القارىء بعض العبارات التى ورد بها ذكر هذه الدار ، والتى استطعت جمعها من كتب المؤرخين العرب :

– (عند دار الضيافة بالقرب من قلعة الجبل) – النجوم الزاهرة، المخطوطة رقم ٦٦٦ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٧، ورقة ٦٠ ب .

– (تجاه سور القلعة) – النجوم الزاهرة ، المخطوطة رقم ٦٦٧ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٨ ، ورقة ٣٩ أ .

– (تحت دار الضيافة وتحت الطبلخاناه) – السلوك ، المخطوطة رقم ٦٧٣ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦ ، ورقة ٥٨ ب .

– (مدرسة نظام الدين على شرف الجبل ، خارج باب المحروق ، تحت دار الضيافة – مدرسة نظام الدين فوق الشرف بجوار دار الضيافة) – السلوك ، المخطوطة السابقة، ورقة ١١٥ ب ، ١٣٣ أ .

– (الباب المجاور للقلعة يعرف اليوم بباب المدرج ، تحت دار الضيافة) – السلوك ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٨١ أ) .

– وانى أرى أن هذه الدار ، شأنها فى ذلك شأن دار الضيافة الفاطمية القديمة ، كانت مخصصة لاقامة كبار الزوار الأجانب . فقد وجد بالخطط (الجزء الثانى ، ص ٧٤ ، س ٣٤ – ٣٨) أن (بهادر الأعسر اليحياوى مهمندار – السلطان، توفى بها فى سنة ٧٩٨ هـ. وفى ذلك يقول المقريزى (بهادر الأعسر اليحياوى كان ... ... وولى بعد ذلك مهمندار السلطان بدار الضيافة ، وولى ... ... الى أن مات بهذه الدار فى يوم عيد الفطر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة).

الفصل الرابع عشر

القلعة منذ منتصف القرن التاسع الهجري إلى الفتح العثماني (سنة ٩٢١ هـ)

إن المؤرخين لايذكرون شيئاً ألبتة عن أية منشآت أقيمت بالقلعة حتى عهد قايتباى ، السلطان الثانى والأربعين من سلاطين المماليك ، ومع ذلك فهناك نقش تذكارى لايزال موجوداً حتى الآن ، يرجع إلى عهد السلطان جقمق .

وإليك نص هذا النقش المنقوش على رخامة مستطيلة من الحجر الجيرى مثبتة بالجدار القائم على يمين مدخل باب سارية .

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبته وسلم .
٢ ــ أمر بتجديد هذا سلم المدرج بباب القلعة الشريفة سيدنا ومالك رقنا .
٣ ــ الملك الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محى .
٤ ــ العدل فى العالمين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين سلطان العرب .
٥ ــ والعجم صاحب السيف والقلم والبند والعلم أفضل من حكم فى عصره بالحكم صاحب .
٦ ــ الديار المصرية والقلاع الشامية والسواحلية السلطان الملك
٧ ــ الظاهر أبو سعيد جقمق عز نصره (بتاريخ شهر) جمادى الآخرسنة إحدى (وخمسين وثمان مائة) (١)

---

(١) الجزء الأخير من هذا النقش ، وهو مابين الحاصرتين، كان مهشما تماما • ومع ذلك فانى أعتقد أنى استطعت اعادة حروفه وقراءته على هذا النحو الموجود بالنقش • وحيث ان السلطان جقمق حكم من عام ٨٤١ هـ حتى عام ٨٥٧ هـ ، فان التاريخ المثبت بالنقش (٨٥١ هـ) يبدو صحيحا ، اذ أنى واثق تماما من قراءة كلمة •• احدى السابقة على مابين الحاصرتين ، وأما فان برشم (C.I.A, Egypte, I., p. 91) فقد قرأ (بالسطر الثانى) «سلم هذا المدرج» بدلا من «هذا سلم المدرج» • كما قرأتها ، الا أنه يسلم ايضا بصحة قراءتى ، وهى التى كنت قد تحدثت معه بصددها • غير أنى اعتقد أن قراءتى هى القراءة الوحيدة الصحيحة ، لأن هـذا السلم يعرف بسلم المدرج ، كما يعرف به أيضا الباب الذى يؤدى اليه •. ويكفى للتدليل على هذا أنه أشير الى ماورد على لسان ابن اياس ، دون غيره من المؤرخين ، عن هذا السلم • اذ يقول ، (خرج السلطان من باب الاصطبل الذى عند سلم المدرج) • انظر بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٥٩٥ ب ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٣ ، ورقة ١٠٠ ب •
كما يتضح أيضا من هذه العبارة أن الاصــــطبلات السلطانية كانت تمتد الى جوار هذا السلم •

وأما قايتباى ، فإن ابن إياس لا يذكر عن منشآته سوى هذه العبارة ، ونصها : « وجدد عمارة الإيوان الكبير الذى بالقلعة ، وأنشأ المقعد الكبير والمبيتين الذى (هكذا) فى الحوش السلطانى (١) » وفضلا عن ذلك فلدينا نقش تذكارى باسم هذا السلطان ، مثبت على يمين النقش السابق مباشرة . وهذا النقش منقوش أيضاً على رخامة من الحجر الجيرى ، وإليك نصه :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على آله وصحبته وسلم
٢ — أمر بتجديد هذه القلعة الشريفة السلطان من فضل الله تعالى وحسن عطائه ونعمته
٣ — سيدنا ومولانا مالك رقنا سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محى العدل
٤ — فى العالمين أبوالفقرا والمساكين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين مولانا
٥ — السلطان الملك الأشرف أبو نصر قايتباى أطال الله ملكه ... ...
٦ — ... ...

فما هى قيمة هذا التجديد للقلعة وما مدى أهميته ، أغلب الظن أنه لم يكن ذا قيمة ، إذ أن أحداً من المؤرخين لم يشر إليه .

وعلى العكس من ذلك ، فإن ابن إياس يذكر فى تفصيل ووضوح أعمال التحصينات الجديدة بالقلعة التى قام بها السلطان جانبلاط (٩٠٥ — ٩٠٦ هـ) وذلك فى الوقت الذى اغتصب منه طومان باى عرش السلطنة ، وقدترك طومان‌باى، بدوره ، نقشاً تذكارياً يحمل اسمه . غير أنه إذا جاز لنا أن نصدق رواية ابن إياس بصدد هذه التحصينات التى قام بها جانبلاط ، فإن هذا النقش — فيما يبدو لى — يدل على أن طومان باى قد نسب إلى نفسه بغير وجه حق ما قام به سلفه .

وقبل أن أتحدث عن هذه التحصينات ، فإنى أفضل أن أبدأ بذكر نص ذلك النقش الذى نقش على رخامة مستطيلة بخط جميل للغاية ، والذى لايزال على درجة كبيرة من الحفظ والصيانة .

١ — بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبته وسلم أمر بتجديد هذه القلعة
٢ — المباركة سيدنا ومولانا مالك رقنا السلطان المالك الملك العادل صاحب الديار
٣ — المصرية والبلاد الشامية والقلاع السواحلية والأقطار الحجازية سلطان الأرض
٤ — الحاكم طولها والعرض القائم بالسنة والفرض المجاهد المؤيد المنصور صاحب السيف والقلم
٥ — والبند والعلم الملك العادل أبو نصرطومان باى عز نصره بتاريخ شهر رمضان سنة ست وتسعمائة .

(١) بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٥٩٥ ب ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٣ ، ورقة ٤٦ ب — (طبعة استانبول ، الجزء الثالث ، ص ٣٢٢ . نص ابن اياس كما ورد فى هذه الطبعة يختلف عن النص الذى أورده كازانوفا بالمتن عن النسخة الخطية لبدائع الزهور بالمكتبة الأهلية بباريس . ففى هذه الطبعة يقول : وأما ما انشاه بالقلعة وهو المقعد التى (هكذا) هو داخل الحوش والمبيتين التى حوله والحواصل التى بجوار قاعة البحرة ، وجدد عمارة الايوان الناصرى الذى بالقلعة ، وأنشأ مواضع كثيرة بالقلعة) .

— غير أن البكرى (الكواكب السايرة فى أخبار مصر والقاهرة ، المخطوطة ملك بعثة الآثار الفرنسية بالقاهرة ، ورقة ١٩ ب) اكثر وضوحا فى هذا الصدد من ابن اياس . اذ يقول ، (وأما ما أنشأ بالقلعة ، فالمقعد الذى أنشأه داخل الحوش ، والبيتين (هكذا) الذى (هكذا) حوله ، والحواصل الذى (هكذا) بجوار قاعة البحرة . وجدد عمارة الديوان (هكذا) الناصرى الذى بالقلعة) .

— وهذا النص الذى يذكره البكرى لايخلو من فائدة ، اذ آننا نرى أنه فى زمانه ، أى بعد قرن من ابن اياس ، أن كلمة «ايوان» أصبحت تنطق «ديوان» ، انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب ، القسم الثاني أ .

ومن المعروف أن طومان باى لم يحكم سوى بضعة أشهر (وعلى وجه التحديد ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، من ٦ من رجب إلى ١٩ من ذى القعدة) . ومن ثم فلا يبدو ماقام به من تجديد بالقلعة فى خلال الفترة الواقعة فيما بين ٦ من رجب ورمضان أمراً كثير الاحتمال . وربما وجد طومان باى نقشاً تذكارياً يشير إلى قيام السلطان جانبلاط بهذا التجديد ، فبادر باستبدال غيره به يحمل اسمه . ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد قام حقيقة بإتمام مشروع سلفه ، وكيفما كان الأمر ، فإنى أعتقد أن هذا النقش يتعلق — على وجه التخصيص — بأعمال التحصينات التى قام بها جانبلاط . إليك وصفها نقلا عن ابن إياس :

« (جمادى الأولى سنة ٩٠٦ هـ) . ثم إن السلطان أخذ فى أسباب تحصين القلعة بالمدافع وتركيب المكاحل، وادخر فيها ما يحتاج إليه من بقسماط ودقيق وجبن وعسل وحطب وعليق ، وملأ الصهاريج بالماء على الجمال . وادخر فى القلعة أشيا (ء) كثيرة من أغنام وأبقار وأشيا (ء) كثيرة من احتياج المطبخ . ثم بنى برجاً محيطاً على باب السلسلة بالفص الحجر ، وبنى باباً بالحجر الفص على باب المدرج ، وحصن الأبراج الذى (هكذا) حول القلعة . ثم إن السلطان صار ينزل إلى الرميلة ويكشف على البنائين الذين يبنون الأبراج . ثم إنه رسم بهدم مدرسة السلطان حسن ، القبة والمدفن ، فلم يقدروا على بعض الهدم فتكلم الأمير تغرى بردى الأستادار مع السلطان فى ترك ذلك ، فرجع السلطان عن هدمه ، وكانت الناس قد تأسفت على هدمها لأنه لم يبن فى الدنيا مثلها منذ الإسلام . » (١)

وأغلب الظن أن كل هذه التحصينات قد تمت خشية حدوث غزو كان قد غدا وشيك الاحتمال من جانب الأتراك العثمانيين . ومع ذلك فلم يكن لهذه التحصينات أية فائدة تذكر . فقد قتل السلطان المملوكى قانصوه الغورى فى موقعة مرج دابق بسورية ، كما أن خلفه (الأشرف طومان باى) حلت به الهزيمة وأسر تحت أسوار القاهرة. ومن ثم فلم يقدر للقلعة أن تدافع عن نفسها . واستبدل الشعب المصرى ، دون أية مقاومة ، بسادته المماليك هؤلاء السادة الجدد . فهذا الجنس الذى ينتمى إليه سلاطين المماليك ، والذى على الرغم مما عرف به من ميل للشغب وإثارة الفتن قد شهدت له ميادين الحرب بالفروسية والجسارة ، قد اختفى دون أن يترك من آثار سوى هذه الأسر الحاكمة العديدة التى توالت على حكم هذا البلد ، البلد الذى تعود أن يلفظ سادته الأجانب بمثل السهولة التى يفتحونه بها . وكما هو الحال فى جميع البلاد التى خضعت للنفوذ العثمانى ، فإن شعلة الحياة قد خبت فى هذا البلد . فالحركة الفنية والأدبية قد ذوت ، أو بمعنى أدق فإن جميع نواحى النشاط الحضارى قد أصيبت بهذا الجمود المطبق الذى بدا ، منذ هذه اللحظة ، للرحالة الأجانب الذين يجهلون تاريخ مصر كما لو أنه صفة وراثية تجرى فى دماء الشرقيين . فرمال الصحراء عادت تغطى ، فى صمت كئيب ، آثار مصر القديمة . وهؤلاء الأتراك العثمانيون ، أبناء الصحراء ، بدوا

---

(١) بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس القسم العربى رقم ٥٩٥ ب ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٣، ورقة ٧٦ ب — (طبعة استانبول ، الجزء الثالث ، ص ٤٤٦٠ النص كما ورد فى هذه الطبعة يختلف اختلافا بينا عن النص الذى اورده كازانوفا بالمتن نقلا عن النسخة الخطية لبدائع الزهور بالمكتبة الأهلية بباريس . ففى هذه الطبعة يقول: ثم أخذ (السلطان) فى اسباب تحصين القلعة فركب حولها المكاحل المعمر بالمدافع ، وأصلح سورها وأبراجها وبنى فوق سلم المدرج بابا وهو الموجود الآن ، ثم بنى برجا محيطا على باب السلسلة فبناه بالفص الحجر وصنع فيه مرامى وأبواب صغار ثم سد باب الميدان وباب حوش العرب وباب الاصطبل الذى عند العترة وصار ينزل فى النهار مرتين يكشف على العمارة بنفسه ، ثم رسم بهدم مدرسة السلطان حسن فهدم منها بعض شىء من وراء ظهر محراب القبة وأقاموا يهدموا فيها ثلاثة أيام فلم يقدروا على هدم ذلك . فتكلم الأمير تغرى بردى الاستادار مع السلطان فى عدم ذلك فرجع اليه السلطان وترك الهدم عنها . وقد تأسف الناس على هدمها لأنه لم يعمر فى الدنيا مثلها ، ولو هدمها ما كان يفيد من هدمها شيئا، وما كان يقدر على هدمها ، فكان ترك ذلك أوجب ، وقد ظهر عجزه عن ذلك) .

وكأنهم قد نشروا على هذا الشعب ، فى خلال فترة حكمهم العابرة له، حجاباً كثيفاً من الجهالة والجمود الذهنى أشبه بكفن الموتى . غير أن اليوم الذى نرى فيه البطل الذى سيقدر له أن يبعث هذا الشعب من هذا السبات العميق ليس ببعيد ، هذا البطل الذى سيكون كمن يرفع أنقاض العمائر الخربة ليعيد بناءها ويجعلها تنبض بالحياة من جديد .

وقبل أن أبدأ الحديث عن فترة الموت السياسى هذه ، يجدر بى أن أتحدث فى بضع كلمات عن المنشآت التى قام بها قانصوه الغورى ، السلطان قبل الأخير من سلاطين المماليك . وإليك ما يذكره لنا ابن إياس فى هذا الصدد :

(وأنشأ الميدان الذى كان تحت القلعة ، ونقل إليه أشجاراً من البلاد الشامية ، وأجرى إليه ماء النيل من سواقى نقالة . وأنشأ به المناظر والبحره والمقعد والمبيت برسم المحاكمات ... ... وجدد غالب عمارة القلعة ، منها الدهيشة ، وقاعة البيسرية ، وقاعة العواميد ، وقاعة البحره ، وأنشأ المقعد القبطى الذى بالحوش ، وجدد عمارة المطبخ الذى بالقلعة ، وجدد عمارة القصر الكبير الذى بالقلعة ، وساير البيوتات التى بها (١) .)

وقد سبق أن قلت إن اسم السلطان الغورى يوجد على بداية مجرى المياه التى كانت تنقل فيما مضى مياه النيل إلى القلعة ، كما أن الأشجار التى غرسها بالميدان لا تزال ذكراها باقية حتى (الآن) (٢) ، وكثيراً ما نجد الجبرتى يشير إلى « بستان الغورى » أو « غيط الغورى » . هذا وقد حفظت لنا الأيام وثيقة فريدة تمثل السلطان الغورى وهو يتصدر المجلس بالحوش السلطانى الذى كان مخصصاً للاستقبالات السلطانية . ففى هذه الوثيقة يمكن المرء أن يتعرف على هذا البستان من منظر الأشجار الكثيرة التى تحيط بالمجلس السلطانى المنعقد فى الهواء الطلق . ويرجع فضل التعريف الصحيح بهذه الوثيقة إلى الأستاذ العلامة شيفر SCHEFER وهذه الوثيقة التى أتحدث عنها هى صورة محفوظة بمتحف اللوفر ، كان البعض يعتقد أنها تمثل إحدى السفارات (البندقية) بالقسطنطينية التى خلدتها ريشة المصور (البندقى) جنتيل بلليني ، غير أنها فى حقيقة الأمر تمثل استقبال السلطان الغورى للسفير البندقى (٣) . وفى هذا الصدد أحيل القارىء إلى المقال القيم الذى نشره (حديثاً) ذلك العالم الحجة الأستاذ شيفر مدير مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس فى مجلة الفنون الجميلة (عدد أغسطس ١٨٩٦) (٤) .

والصورة تمثل السلطان الغورى جالساً على المصطبة التى أقامها بالحوش . وإذا ما نظرنا إليها يتضح لنا أن الحوش كان فى الهواء الطلق ، وهو ماينطبق تماماً على معنى هذه الكلمة . وكان السلاطين منذ عهد قايتباى يجلسون بالحوش على « تكة » ، وقد قام السلطان طومان باى ، الذى خلف الغورى على عرش السلطنة ، بهدم المصطبة وأعاد التكة

---

(١) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٢٥ أ ، ب ـ (طبعة استانبول ، الجزء الخامس ، ص ٩٢) .

ـ كما يخبرنا المؤرخ نفسه ، فى سياق الكلام ، أن الغورى لم يتورع عن أن يغتصب الأموال من رعاياه ، لكى يتمكن من القيام بهذه المنشآت والتجديدات (انظر الفصل التالى) .

(٢) (أى أواخر القرن التاسع عشر) .

(٣) (هذه الصورة تصور استقبال السلطان الغورى لسفير البندقية دو مينيكو تريفيزان Domenico Trevisan بالحوش فى ١٣ من صفر ٩١٨ هـ/١٥ من مايو ١٥١٢ ـ عن هذه السفارة ، وعن طبيعة العلاقات السياسية والتجارية بين البندقية والسلطنة المملوكية فى ذلك الوقت انظر : ـ أحمد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٥١ ـ ١٥٢) .

(٤) SCHEFER (c) : Notes sur un tableau au Louvre (Gazette des Beaux-Arts, XIV, 3e période, 1896.)

وغطاها بالجوخ الأصفر ، وصار يجلس عليها للنظر فى شئون السلطنة . (١)

وفى عهد الاحتلال التركى كثيراً ما يرد ذكر ديوان قايتباى ، وديوان الغورى ، والسلم الذى بين الديوانين ، والحوش الذى يوجد فى هذا الجانب أيضا (٢) وهذا الوضع يتضح لنا تماماً على خريطة القاهرة فى عام ١٧٩٨ م بالمنطقة التى تعرف بالسبع حادرات (القلعة — رقم ٧٢) . كما أن الباب الذى يوجد فى هذه المنطقة يقال له « باب الوصطانى » — (القلعة — رقم ٧١) ، وصحته « الباب الوسطانى » أى الباب الذى يتوسط الديوانين . ومن ثم فإنه لايصح البتة ترجمة اسم هذا الباب « باب النجدة » كما ترجمه جومار (انظر فيما بعد) . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يقابلنى ذكر اسم هذا الباب إلامرة واحدة فقط فى أثناء قراءتى للمخطوطة رقم ٣٩٩ بمكتبة ميونخ ، وهى المخطوطة التى استخرجت منها هذه التفاصيل السابقة (٣) . كما وردت أيضا فى هذه المخطوطة الإشارة إلى « سلالم السلطان قايتباى » (٤) ، وهى من غير شك ، الدرج الذى كان يتوسط الديوانين .

---

(١) يروى ابن اياس ، بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٣١ أ ، مانصه ، (ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان (طومان باى) لما أن تسلطن أمر بهدم المصطبة التى كان أنشأها السلطان الغورى بالحوش عرضا عند التكة التى كان يجلس عليها الأشرف قايتباى . فهدم السلطان المصطبة وأعاد التكة كما كانت فى أول الأمر وجلس عليها . وكانت قد تكسرت فأصلحوها ، وجعل بها غشاء من الجوخ الأصفر ، وصار يجلس عليها للمحاكمات ، كما كان يجلس الأشرف قايتباى وقد قلت فى ذلك :

قد عادت التكة للحكم	وانهدمت مصطبة الظلم
وصار طومان باى بين الورى	يمشى الشاة مع الضيغم
فياله من ملك عدل	قد شاع بين العرب والعجم

(٢) المخطوطة بمكتبة ميونخ ، رقم ٣٩٩ ، ورقة ١٣ أ ، حيث ورد (ديوان الغورى .. وديوان قايتباى .. والسلم الذى بين الديوانين .. وحوش الديوان)

— (لم يشر كازانوفا فى قائمة المراجع الملحقة بهذا الكتاب ، الى عنوان هذه المخطوطة ولا الى مؤلفها) .

(٣) المخطوطة السابقة ، ورقة ٥٦ ب (الباب الوسطانى) .

(٤) المخطوطة السابقة ، ورقة ١٩ أ (سلالم السلطان قايتباى) .

الفصل الخامس عشر

القلعة منذ الفتح العثماني حتى الحملة الفرنسية ١٥١٧ - ١٧٩٨ م

وبعد فترة وجيزة قضاها السلطان سليم بالقاهرة جرد فى أثنائها البلاد والقلعة — على وجه التخصيص — من كنوزها وذخائرها ، رحل عائداً إلى استانبول تاركاً بالقلعة أحد الباشوات كممثل له فى حكم مصر . ولكنه أقام بجانب هذه السلطة الرئيسية الممثلة فى شخص الباشا سلطة أخرى تتمثل فى القوى الارستقراطية المحلية الصغيرة ، التى تقف كل منها للأخرى بالمرصاد ، كوسيلة للحد من نفوذه (١) .

وليس هذا هو مجال الحديث عن التاريخ السياسى لمصر فى ظل السيادة العثمانية ، هذه الفترة التى تعتبر من أحلك فترات التاريخ المصرى وأظلمها والتى امتلأت صفحاتها بالاضطرابات والفتن والمظالم وألوان العسف والهوان التى حلت بجميع طبقات المجتمع المصرى. ومن ثم فإن ما أريد أن أقوم به ، هو أن استعرض فى هذا الفصل فى صورة سريعة خاطفة التعديلات الجوهرية التى حدثت بالقلعة فى هذه الفترة .

والحديث عن هذه التعديلات يمكن أن يلخص ، بادىء ذى بدء، فى بضع كلمات ففيما يختص بمنشآت السلاطين القديمة فقد هجرت، وتركت لعوادى الزمان . وأما القلعة بمعناها الصحيح ، قلعة الجبل أو سور صلاح الدين القديم فقد احتلتها طائفة الجند الانكشارية. وأما الباشوات فقد أقاموا بالقصور التى أنشئت تحت القلعة ، وبالقرب من الاصطبلات والحوش .

ويعطينا مييه **MAILLET** لهذه الظاهرة، ظاهرة إهمال وترك العمائر الفخمة التى أقامها السلاطين من أسرة قلاوون كالجامع والإيوان والقصر الأبلق والقصور الجوانية ودور الحريم السلطانية وغيرها .. ، تفسيراً لاذعاً وعلى قدر كبير من الصحة فى الوقت نفسه وإليك ما يقول :

(يؤكد البعض أن ديوان السيد الكبير (السلطان العثمانى) بالقسطنطينية لا وجه البتة لمقارنته بديوان الباشا بالقاهرة. ويضيفون إلى ذلك القول أن هذا السبب هو الذى دفع السلطان سليم عندما عقد ديوانا بهذه القاعة الفخمة (الإيوان) بقلعة القاهرة حيث جرت عادة السلاطين القدامى بعقد مجالسهم بها ، وأدرك مدى الفارق بين الديوانين ، هذا السبب هو الذى دفعه إلى أن يحرم تحريماً باتاً على الوالى الذى تركه فى حكم هذا البلد ، وعلى خلفائه من بعده ،

---

(١) (من المعروف أن نظام الحكم الذى وضعه السلطان سليم لمصر ، كان يتكون من سلطات أربع : الباشا ، وقواد الأجاقات ، والديوان ، والبكوات المماليك) .

أن يعقدوا ديوانهم فى هذه القاعة الرائعة . فقد داخله الشعور بالرهبة منذ آن وقع نظره على هذه القاعة التى على هذا القدر الكبير من الروعة والفخامة والتى دانت لحكمهم ، فخشى أن يعمل ولاته على مصر على الاستئثار بالسلطة المطلقة إذ لم يكن هناك ما يمنعهم من أن يتصوروا أن فى وسعهم السيطرة التامة على البلاد ، وأن يصبحوا سادتها إذا ما تربعوا على العرش الذى تربع عليه من قبل سلاطين مصر يحيط بهم جميع الأمراء الذين كانوا يحيطون بأولئك السلاطين ، الذين أصبحوا رهن إشارتهم وتحت طاعتهم بعد أن ظلوا محتفظين بوظائفهم التى كانوا يشغلونها من قبل .

وليس ثمة شك فى أن القاعة (الديوان) التى يعقد فيها الباشوات مجلسهم ويتخذونها مقراً لاستقبالاتهم الرسمية ليست هى القاعة نفسها (الإيوان) التى كان يعقد فيها سلاطين مصر مجلسهم (١) .

وهذا الرأى يؤكده ذلك النص الذى جاء على لسان ابن اياس، إذ يقول : (ولما طلع (ابن عثمان) إلى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد، ولا جلس على التكة بالحوش السلطانى جلوساً عاماً وحكم بين الناس وينصف الظالم من المظلوم) (٢) .

وكيفما كان الأمر ، فمما هو جدير بالذكر أن إيوان محمد بن قلاوون كان قد أهمل وهجر منذ أمد طويل، وأن جلوس السلاطين للنظر فى المظالم كان يعقد بالقاعات المجاورة للاصطبلات السلطانية وبالحوش السلطانى . وفى هذه القاعات ذاتها أصبح الباشوات ، منذ ذلك الحين ، يعقدون مجالسهم .

ولم يكتف السلطان سليم بإهمال القلعة فقط ، وإنما أنزل بها الكثير من أعمال التخريب والسلب والنهب ؛ هذه الأعمال التى يحدثنا عنها ابن إياس فى هذه العبارات.

(ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الخيول فى الحوش إلى باب القلعة عند الإيوان الكبير وباب الجامع الذى بالقلعة ، وقد صار ذبل الخيل هناك كالكيمان على الأرض. وخرب غالب الأماكن التى بالقلعة ، وفك رخامها ونزل به فى المواكب يتوجهون به إلى اصطنبول . (٣) .)

وفى مكان آخر يقول : (وفى آخر هذا الشهر (ربيع الآخر ٩٢٣ هـ) وقع أن ابن عثمان شرع فى فك الرخام الذى بالقلعة فى قاعة البيسرية والدهيشة وقاعة البحرة والقصر الكبير، وغير ذلك من الأماكن بالقلعة . وفك العواميد السماقى الذى (هكذا) كانوا فى الإيوان الكبير. وقيل إنه يقصد أن ينشىء له مدرسة فى اسطنبول مثل مدرسة السلطان الغورى (٤) .)

وفيما بعد، يعود فيقول: (وفيه (ربيع الآخر ٩٢٣ هـ) نزل ابن عثمان بالرخام الذى فكه من القلعة، فوضعه فى صناديق ونزل به فى المراكب ليتوجهوا به إلى اصطنبول . ومن العجايب أن السلطان الغورى ظلم أولاد ناظر

---

(١) MAILLET, Description de L'Egypte, p. 158-159.

(٢) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٥٧ ب (طبعة استانبول الجزء الخامس ، ص ١٥٩) .

(٣) المخطوطة السابقة، الورقة نفسها ـ (طبعة استانبول، الجزء الخامس ، ص ١٥٩ ـ النص كما ورد فى هذه الطبعة يختلف عن النص الذى ورد فى النسخة الخطية ، ولذلك آثرت نقله . يقول ابن اياس : ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الخيول من الحوش الى باب القلة الى عند الايوان الكبير وباب الجامع الذى بالقلعة وصار ذبل الخيل هناك بالكيمان على الأرض وأخرب غالب الأمـــاكن التى بالقلعة . وفك رخامها ونزل به فى مراكب يتوجهون به الى اسطنبول) .

(٤) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٦٣ ب . (طبعة استانبول ، الجزء الخامس ، ص ١٧٥) .

الخاص يوسف ، وأخذ رخام قاعتهم التى تسمى « نصف الدنيا » ، وجعل ذلك الرخام فى قاعة البيسرية ، فيسلط الله تعالى عليه بعد موته من أخذ الرخام من قاعة البيسرية (١)) وقد تم نقل هذا الرخام فى يوم الأحد الثانى والعشرين من شهر جمادى الأولى من هذه السنة (٩٢٣ هـ) . كما يخبرنا ابن إياس أن السلطان سليم أنزل أيضاً إلى المراكب المكاحل النحاس الكبار التى كانت موجودة بالقلعة، وقد تم نقلها بطريق السخرة على ظهور الأهالى المساكين التى أدمتها السياط . (٢)

ثم غادر السلطان سليم القاهرة عائداً إلى اصطنبول يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ٩٢٣هـ (١١ من سبتمبر ١٥١٧ م) . وفى اليوم السابع والعشرين من هذا الشهر استقر بالقلعة ملك الأمراء خير بك (٣). وخير بك هو أول ولاة مصر الذين أقاموا بالقلعة من قبل السلاطين العثمانيين ، وكان أول قرار أصدره ، فى شهر جمادى الأول ، أن رسم لطائفة الانكشارية أن يقيموا فى الطباق التى بالقلعة (سور صلاح الدين) ، وكان ذلك على أثر الفتنة الدموية التى نشبت بينهم وبين منافسيهم من طائفة الأصبهانية . وفى هذا الصدد يقول ابن إياس : (ملك الأمراء أحضر طائفة الانكشارية إلى القلعة ورسم لهم أن يحضروا مكاحلهم والبندق الرصاص الذى عندهم . فلما أحضرهم رسم ملك الأمراء بإدخال تلك المكاحل والبندق الرصاص فى الزردخاناه . ورسم للانكشارية أن يقيموا فى الأطباق الذى بالقلعة ولا ينزلون إلى الميدان أبداً) (٤)

وبعد مضى فترة من الزمن، وعلى وجه التحديد فى اليوم السابع والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ٩٢٦هـ (٢٠ من ديسمبر ١٥٢٠م) فى عهد ملك الأمراء ، بصفة نهائية بجميع وظائف الخدمة بالقلعة إلى (جماعة من) الأتراك العثمانيين ، كما أبطل رسوم الخدمة بالقلعة كما كانت فى عهد سلاطين المماليك واستعاض عنها برسوم الخدمة العثمانية (٥)

وبهذا العرض الهام يتوقف ابن إياس فى كتابه الثمين . ومن بعده، سيكون مرشدنا الوحيد تقريباً، فى هذه الدراسة ، هو الجبرتى ، غير أن هذا المؤرخ، للأسف الشديد، لا يبدأ فى كتابه فى ذكر بعض التفاصيل (عن القلعة) إلا قرب نهاية القرن السابع عشر، أى فى الوقت نفسه الذى كتب فيه مييه **MAILLET** كتابه . ومن ثم فليس لدى ما أقوله عن هذه الفترة سوى الشئ القليل :

فمن وجهة النظر السياسية، فنحن نعرف أن الجند الانكشارية قد حلوا محل المماليك بالطباق بسور صلاح الدين وفيما بعد استقر الجند العرب بأسفل القلعة، وعلى هذا النحو شغلت الأماكن المختلفة بالقلعة منذ الاحتلال التركى

---

(١) المخطوطة السابقة، ورقة ١٦٥ ب – (طبعة استانبول، الجزء الخامس ، ص ١٧٩) .

(٢) – المخطوطة السابقة ، ورقة ١٦٩ أ – (طبعة استانبول ، الجزء الخامس ، ص ١٨٦ – فى جمادى الآخرة، وليس فى جمادى الأولى كما ورد بالنص المنقول عن النسخة الخطية) .

(٣) المخطوطة السابقة ، ورقة ١٧٥ ب – (طبعة استانبول ، الجزء الخامس ص ٢٠٢ ، ٢٠٤) .

(٤) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٢١٨ ب – (لم يرد الاشارة الى ذلك فى طبعة استانبول ، الجزء الخامس) .

(٥) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ورقة ٣١٦ أ ، حيث يقول ابن اياس : (وفى ذلك اليوم أشيع أن النائب قد أخذ مفاتيح الحواصل كلها جميعها الذى (هكذا) فى القلعة من البوابين ، وسلمها لجماعة من الأتراك فى حاشيته وطردوا البوابين والغلمان والركابة حتى أبطل الطباخين من المطبخ، وأقام جماعة من الأروام عوضهم ، وأبطل المقرئين الذين كانوا يقرءون بالقلعة قاطبا ، حتى أبطل من كان بالقلعة من المؤذنين، وجعل لجامع الحوش مؤذنا واحدا ، وأبطل جميع نظام القلعة التى كانت عليه قديما ، ومشى على القانون العثمانى ، وهو أشيم قانون) .

– (لم يرد الاشارة الى ذلك النص فى طبعة استانبول ، الجزء الخامس) .

للبلاد حتى قدوم بونابرت . فالسور القديم بالقلعة ،سور صلاح الدين،الذى كان فيما مضى مخصصاً للمماليك أصبح مخصصاً للانكشارية . ومن هنا كانت تسميته هذا السور «صور الانكشارية» فى كتاب وصف مصر (انظر خريطة عام ١٧٩٨م ــ القلعة رقم ١١) (١) . وأما القصور ودور الحريم السلطانية القائمة فوق الشرف فقد هجرت وأهملت ، وذلك فيما عدا القصر الأبلق الذى خصص لصناعة كسوة الكعبة . وأما المنشآت الملحقة التى أنشئت تحت القلعة ، فقد خصصت المنشآت القائمة منها بجوار باب السلسلة كثكنات لإقامة الجند العزب ، (٢) وخصصت المنشآت القائمة منها على امتداد الميدان كمقر رسمى للباشوات،وفى الوقت الذى زار فيه مييهMAILLET القاهرة ، لم يكن هذا المقر الرسمى للباشوات يوحى للناظر إليه بأية ميزة معمارية . وإليك مايقوله فى هذا الصدد : (حقاً إن القاعة التى يعقد فيها الباشوات مجلسهم عظيمة الاتساع طولا وعرضاً ،غير أنها ــ من جهة أخرى ــخالية من أية زخارف. والشيء الوحيد الذى يلفت النظر بها هو سبعة ألواح من الخشب،اللوح الأول منها من خشب الصنوبر، ويبلغ سمك كل منها نصف بوصة. وكان السلطان سليم رمى عليها بسهم اخترقها جميعها ، فالتصقت ببعضها البعض وأصبحت كأنها كتلة واحدة . وقد ثبتت هذه الألواح السبعة على الجدار على مقربة من المكان الذى يجلس فيه الباشا ، كما لو أنها أثر خالد يشهد على القوة الخارقة التى كان يتمتع بها هذا السلطان،ويحكى أن واحداً من أتباعه، الذين كان لهم شرف الاشتراك معه فى هذا اليوم فى هذه المباراة ، وكان أقواهم بنية، لم يستطع أن يخرق بسهمه سوى ثلاثة ألواح من هذه الألواح السبعة على الرغم من أن ذراعه كانت ذات قوة خارقة للعادة ، غير أن هذه القصة العجيبة ليست ، فيما يبدو ، على هذه الصورة الرائعة التى يصورها بها الأتراك. فهذا الرجل القوى البنية الذى ترك لعاهله شرف تسديد هذه الرمية القوية ، كان من الحكمة والتواضع بحيث إنه آثر الاحتفاظ بفضله ونعمه عليه دون هذا الشرف الذى يجعله يبدو أمام الناس أقوى منه ويورده مورد التهلكة (٣) .)

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان للباشوات فى الفترات التى زار فيها مييه القاهرة شيء من المكانة والنفوذ . وفى هذا يقول أيضاً : (على الرغم من أن مصر لم يعد يحكمها ملوكها، إلا أنه يمكن القول إنها ظلت تحتفظ فى شخص هؤلاء الباشوات بصورة ولو ضئيلة لعظمتها القديمة التى شهدتها فى عهود أولئك الملوك . فعندما كان الباشا يعقد ديوانه بكامل هيئته، وهو ما كان يحدث مرتين كل أسبوع ، فى يومى الأحد والثلاثاء ، كنت ترى الحوش الذى يفضى إلى قاعة المجلس والذى تبلغ مساحته ــ على أقل تقدير ــ نصف مساحة حديقة التويلرى، وقد امتلأ بخيول البكوات وغيرهم من الضباط ذوى المكانة والنفوذ ، وذلك على الرغم من أن هؤلاء كانوا وقتذاك لايصحبون معهم سوى ثلاثة أو أربعة من مماليكهم . وأستطيع أن أؤكد ، بناء على ما شهدته فى إحدى المرات ، أن وجود كل هذا العدد الكبير من الخيل بما عليها من كنابيش وسردج وكساوى فاخرة ، وبما يزين جيدها من حلى ذهبية أو فضية أو من جواهر فى معظم الأحيان ، تتلألأ تحت أشعة الشمس التى تسطع عليها من جميع الجهات،كان منظراً آية فى الروعة يذهل الألباب ويخطف بريقه الأبصار) (٤)

---

(١) (بالنظر الى خريطة عام ١٧٩٨م (القلعة رقم ١١) يتضح أن سور الانكشارية يشمل المنطقة من سور صلاح الدين الواقعة فيما بين باب دريس ، وبرج الطبالين ، وباب الجبل ، وبرج الحداد) .

(٢) (بالنظر الى خريطة عام ١٧٩٨م (القلعة ، رقم ١٠٠ ــ صور العزب) يتضح أنه يمتد من سور الانكشارية الى ميدان الرميلة) .

(٣) MAILLET, Description de L'Egypte, p. 158.

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

غير أنه لم يكد يمضى على إقامة مييه بالقاهرة فترة يسيرة، حتى أصبحت مصر مسرحا للفوضى نتيجة لتدهور الإمبراطورية العثمانية ، ونتيجة للانقسامات والخلافات التى أخذت تدب بين فرق الجيش العثمانى. وهكذا أصبح الباشوات مجرد دمى لاقيمة لها تتقاذفها أيدى جنودهم .

ومن ثم فإنى سأتحدث فى صورة سريعة عن بعض المنشآت (بالقلعة) التى تعزى إلى عهود هؤلاء الباشوات. وقبل أن أبدأ ذلك الحديث يجدر بى أن أشير إلى ما حدث من البدء بتحصين القلعة فى الفترة التى أعقبت إقامتهم بها مباشرة ، وهو ما يتحدث عنه ابن إياس ويقارن بينه وبين ماقام به السلطان جان بلاط من تحصينات كبرى . وحقيقة الأمر ، إن هـذا التحصين الأخير إنمـا حدث فى ظروف مماثلة لتلك التى حدثت فى عهد السلطان جان بلاط ، إذ كان الداعى إليه تمرد نائب الشام وتهديده بالزحف على مصر. غير أن ذلك الخطر مالبث أن زال ، ومن ثم فإن الإجراءات التى اتخذت بصدد تحصين القلعة،والتى لايحدثنا عنها ابن إياس فى وضوح كاف ، أصبحت لامبرر لها(١) .

فأما أولها ، فهو عمارة مسجد سارية الذى سبق أن تحدثت عنه فى مناسبات عدة ، والذى يبدو أنه أقيم فى المكان نفسه الذى كان يوجد فى مسجد قسطه . وأغلب الظن أن هذا المسجد بنى تحقيقاً لرغبة الجند الانكشارية الذين كان الباشوات ولاة مصر يبذلون كل جهدهم لكى يظلوا مقيمين بطباقهم (بسور الانكشارية ، أو سور صلاح الدين) ، ولكى يظلوا — على وجه التخصيص — بمعزل من الجند العرب الذين يقيمون بالجهة الأخرى من القلعة (قرب باب السلسلة). هذا ومن جهة أخرى، فبما أن جامع محمد بن قلاوون قد قل التردد عليه، شأنه فى ذلك شأن الإيوان وقصور السلاطين القديمة التى هجرت وأهملت —كما سبق أن رأينا — فقد استوجب الأمر إقامة هذا المسجد داخل سور الانكشارية . ولن أطيل فى وصف هذا المسجد الذى لايوجد به ما يستحق الذكر سوى ذلك الحجر الذى نقش عليه النقش الخاص (بالأمير) قسطه — وهو ما سبق أن تكلمت عنه — ، وكذلك النقش الخاص بالسلطان العثمانى سليمان . وهذا النقش الثانى يوجد على مدخل الصحن الداخلى للمسجد الذى يفضى من جهة إلى رواق القبلة ، ومن جهة أخرى إلى تربة تضم بعض التوابيت والنقش الخاص (بالأمير) قسطه . وإليك نص هذا النقش (٢) :

١ — قد بنى وعمر الجناب العالى مملوك سلطان السلاطين سلطان سليمان بن سليم خان من ال العثمان (هكذا) أدام الله دولته إلى يوم الدين وهو أمير الأمراء المصريين .

---

(١) **بدائع الزهور** ، **المخطوطة السابقة** ، **ورقة ٢٥٤ب**، **حيث ورد بها** ، **(أشيع أن ملك الأمرا(ء) ملأ الصهاريج الكبار الذى (هكذا) بباب السلسلة ، ملأ عدة صهاريج بقلعـة الجبل ، وأخذ فى تحصين القلعة بكل ما يمكن . وطلع الى القلعة بأحمال بقسماط وأرز وقمح وشعير ودقيق وغير ذلك ... ... وهذه الواقعة تقرب من واقعة السلطان جان بلاط لما تسلطن العادل طومان باى بالشام ، ودخل هو وقصروه نائب الشام الى القاهرة ، وقد تقدم ذلك . وكان الأشرف جان بلاط حصن القلعة أعظم من هذا التحصين ولم يفده شيئا وانكسرت وأخذت منه قلعة الجبل) — (طبعة استانبول ، الجزء الخامس ، ص ٣١٩) .**

(٢) أنظر قبـل . وقارن ذلك بمـا ذكره فـان برشم فى كتابه «جامع الكتابات التاريخية العربية ، ص ٧٢ » — هذا وقد تفضل فان برشم مشكورا بان أرسل الى صورة فوتوغرافية لهذا النقش واستطعت فى ضوئها أن أعيد النظر فى قراءة الصورة الخاصة ، واستكمال بعض الكلمات التى سقطت منه . هذا فضلا عما تفضل بارساله الى من تعليقات كانت ذات فائدة كبرى بالنسبة الى .

٢ — سليمان باشا اللهم اجعله من الفائزين مسجدا لوجه الله الملك المعين طلبا لمرضاة رب العالمين ليعبدوا فيه عباد الله وكان تاريخه فاركعوا لله مع الراكعين .

وإذا ما أضفنا القيمة العددية لحروف الكلمات الأخيرة من هذا النقش ، وهى (فاركعوا لله مع الراكعين) ، لوجدنا أن تاريخ كتابته هو — على وجه التحديد — سنة ٩٣٥ هـ (١) . ومن المعروف أن سليمان باشا كان واليا على مصر فى الفترة فيما بين عامى ٩٣٣ و٩٤٥ هـ . هذا فضلا عن أن المؤرخين يتفقون مع هذا النقش على نسبة بناء هذا المسجد إليه (٢) .

وهناك جامع آخر بنى بالقلعة فى عهد الأتراك العثمانيين ؛ ولقد سبق أن قلت رأيى فى أن هذا الجامع إنما أقيم مكان جامع آخر أقدم منه . وحيث إن هذا الجامع قد أهمل أمره الآن ، فإنه لم يعد له مثل الأهمية التى لجامع سارية . وإليك النقش الخاص به (مترجما إلى اللغة العربية) ، وهو أول نقش يقابلنا (بالقلعة) باللغة التركية :

(١) إن حسن الساعى للخير يفعل هذا حسبة فليقبله الله ذو المن وليجزه يوم الجزاء .

(٢) فلتملأه الجماعة ولتكن به التحيات والقيام صباح مساء وليصل الإمام المقتدى به على الرسول مائة مرة

(٣) ولتصعد الصلاة إلى السماء ، وليكن التاريخ على الألسنة : « بو جامعى قيلدى بنا قيومجى أحمد كتخدا »(٣) « سنة ١١٠٩ »

وهذا الجامع يعرف على خريطة عام ١٧٩٨ بجامع العزب (القلعة — رقم ٨٧) .

كما يذكر الجبرتى ويؤيده فى ذلك مييه ، أن اسماعيل باشا الذى ولى مصر فيما بين عامى ١١١١ و١١١٦ هجرية ، قد قام ببعض العمائر الهامة بالركن الجنوبى الغربى من القلعة حيث يقيم الباشوات ، أى بالمنطقة التى كان

(١) (هذا النوع من الحساب هو المستخدم لدى المنجمين وهو يقوم على حساب الجمل : أبجد — هوز — حطى — كلمن — سعفص — قرشت — تخذ ضظغ :

أ = ١	ح = ٨	س = ٦٠	ت = ٤٠٠
ب = ٢	ط = ٩	ع = ٧٠	ث = ٥٠٠
جـ = ٣	ى = ١٠	ف = ٨٠	خ = ٦٠٠
د = ٤	ك = ٢٠	ص = ٩٠	ذ = ٧٠٠
هـ = ٥	ل = ٣٠	ق = ١٠٠	ض = ٨٠٠
و = ٦	م = ٤٠	ر = ٢٠٠	ظ = ٩٠٠
ز = ٧	ن = ٥٠	ش = ٣٠٠	غ = ١٠٠٠

(٢) قارن ذلك بما ذكره : MARCEL : Histoire d'Egypte, p. 197.

(٣) (معنى هذا الشطر : لقد بنى هذا الجامع احمد كتخدا القيومجى ، ومجموع حروفه — حسب الحساب الذى جرى عليه المنجمون — تعنى أنه بناه فى سنة ١١٠٩ هـ) .

يوجد فيها حوش وبستان الغورى (١) .

كما ينسب الجبرتى إلى رضوان كتخدا الجلفى ، المتوفى عام ١١٦٨ هجرية ، عمارة الباب المعروف بباب العزب والبدنتين على جانبيه،والزلاقة(٢). وهذا الباب كان موجوداً ، فعلا،فى سنة ١٠٩٩ هجرية ، ففى هذه السنة وردت الإشارة إليه (٣) . وربما يظن البعض ، للوهلة الأولى ، أن باب العزب هو نفسه باب السلسلة الذى كان يوجد — حسبما يذكره المؤرخون — تجاه جامع السلطان حسن.غير أنى سبق أن ذكرت من قبل لماذا يبدو لى هذا القول غير صحيح ، والدليل على ذلك مستمد من نص ورد بإحدى المخطوطات التى تتناول تاريخ مصر فى الفترة الواقعة من عام ١٠٩٩ حتى عام ١١٦٨ هجرية ، ففى هذا النص ورد ذكر باب السلسلة وباب العزب ، كل على حدة (٤) ، ودون أن يقترن ذلك بأية دلالة على أنهما اسمان لباب واحد . ومن هذا أستطيع أن أقرر أن باب العزب قد بنى أثناء الاحتلال التركى .

ولايفوتنى أن أشير ، علىسبيل الذكرى ، إلى سجن العرقانة الذى كان يقع داخل الحوش السلطانى (٥) . وأغلب الظن أنه سمى بهذا الاسم بسبب رطوبته ، أو ربما كان فى بادىء الأمر بئراً . وقد وردت الإشارة إليه كثيراً على لسان ابن إياس والجبرتى ، ويبدو أن انشاءه يرجع إلى العصر التركى (٦) .

كما يجدر بى أن أخص بالذكر هذه العمارة العظيمة الأهمية التى حدثت بالقلعة فى عهد الوالى يكن باشا. وعلى الرغم من أننى لم أجد لدى المؤرخين أية إشارة إلى هذه العمارة ، فقد حفظت لنا الأيام النقش الخاص بها : وهو النقش الذى يوجد على بعد خطوات من باب الجبل ، على جانب بارز إلى الخارج من سور القلعة كان قد أعيد بناؤه من جديد فى هذه الفترة . فى ذلك المكان، الذى يبدو أنه كان شاغراً تماما من أى بناء حتى ذلك الوقت، بنى الباشا

---

(١) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء الأول، ص ٣٠ ، حيث ورد مانصه ، (ومن مآثره تعمير (باب) الأربعين الذى بجوار قراميدان، وأنشأ فيه جامعا بخطبة.... وأنشأ فيما بينها وبين البستان المعروف بالغورى حماما فسيحا مفروشا بالرخام الملون ، وجدد بستان الغورى وغرس فيه الأشجار ورقم قاعة الغورى التى بالبستان .. وأنشأ الحمام البديع بقراميدان ونقل اليه من القلعة حوض رخام صحن ، قطعة واحدة ، انزلوه من السبع حدرات .. وأنشأ صهريجا بداخل القلعة بجوار نوبة الجاويشية) .

— (أضفت كلمة «باب» الموجودة بين الحاصرتين زيادة فى الايضاح . وهذا الباب يشار اليه على خريطة عام ١٧٩٨، القلعة ، تحت رقم ٩٠) .

— قارن ذلك بما ذكره : MAILL ET Op. Cit., p. 193, 170

— سجن العرقانة الذى يتحدث عنه الجبرتى يقابل رقم ٩٠ على خريطة القلعة فى عام ١٧٩٨ .

(٢) المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ١٩٢ ، حيث ورد (عمر باب القلعة الذى بالرميلة المعروف بباب العزب ، وعمل حوله هاتين البدنتين العظيمتين والزلاقة ، على هذه الصورة الموجودة الآن) .

(٣) المخطوطة بمكتبة ميونخ ، رقم ٣٩٩ ، ورقة ٤ ومايليها .

(٤) المخطوطة السابقة ، ورقة ١٣ ب (باب السلسلة)، ورقة ١٥ ب (باب العزب) ، ثم قارن ذلك بما ذكر فى المخطوطة نفسها فيما بعد ورقة ٤٩ وما يليها .

(٥) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٢٢٩ أ ومايليها . — (عن العرقانة انظر بدائع الزهور ، طبعة استانبول ، الجزء الثالث ، ص ٤١٩ ، ٤٥٢ ، الجزء الرابع، ص ٦٧ ، ٨٠ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٣١٦ ، ٤٨٠ ، الجزء الخامس ص ٣١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠٠ ، ٤٤٣ ، ٤٥٠ — ٤٥١) .

(٦) — (يرجع انشاء السجن الى عهد السلطان قايتباى، وكان يوجد فى الجانب الجنوبى من القلعة ، وقد ظل موجودا حتى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م . وقد نقل لنا الأستاذ فيت وصفه نقلا عن ابن اياس ، والجبرتى ، وبعض الرحالة الاوروبيين — أنظر : WIET (G) : Refugés politiques attomans : en Egypte, ARABICA, T. I, Septembre 1954, Fasi. 3, p. 266-267)

قصراً مع مايتبعه من مرافق وحقوق. وفي هذا المكان نفسه بنى محمد على فيما بعد مطابخ قصوره، وهى التى آل أمرها إلى الخراب التام . وقد شهدت الحملة الفرنسية التى قدمت إلى مصر بعد ذلك بزمن يسير هذا القصر ، ولذلك أطلقت على هذا الجانب من القلعة اسم « السراى » . وهذا الاسم هو ، فى الحقيقة ، الذى يراد بالنقش الخاص به المكتوب باللغة التركية . وإليك هذا النقش مترجما إلى اللغة العربية :

(١) الوزير هو عظيم « الفلك » الدوار وآصف(١) الثانى وهو من صدور العصر ، جليل القدر والشان

(٢) سمى النبى صلى الله عليه وسلم أعنى السيد يكن باشا أفخم ولاة مصر ، وأعظم ناظم لديوانها

(٣) فى زمن حكمه بنيت استحكامات المدينة (٢) ومقره هو ركن العمران .

(٤) فليكتب تاريخ أثره (ياحافظ)

« سرايه ير سزا در بانى اولدى باب سيرانى » (٣) « سنة ١٢٠٠ »

وقد ولى يكن باشا مصر ، حسبما يذكر الجبرتى ، من مستهل عام ١٢٠٠ (٤) حتى مستهل عام ١٢٠١ (٥) .

ولكى أختم هذا العرض الموجز ، أعتقد أنه ليس هناك أفضل من أن أقدم إلى القارىء الفقرات الرئيسية المتعلقة بحالة القلعة فى عام ١٧٩٨ م ، وكذلك قائمة أسماء الأماكن ، والسكك والعطف والحارات ، والوسعات (الساحات) والآثار الموجودة بالقلعة وقتذاك ، نقلا عن كتاب « وصف مصر » ، الجزء الثامن عشر ، القسم الثانى ، ص ٢٨٢—٢٨٨ (القائمة) ، ص ٣٤٧ وما يليها (وصف القلعة) ، والموضحة على الأطلس المرفق (خريطة رقم ٢٦) (٦) ، وليس ثمة شك فى أن القارىء الذى تابع هذا الجهد الذى قمت به لإبراز معالم القلعة كما كانت عليه زمن سلاطين المماليك ، سيلمس بمجرد النظر إلى ذلك مدى التغييرات التى حدثت بالقلعة نتيجة للغزو العثمانى لمصر .

وإليك وصف القلعة فى ذلك الوقت كما جاء فى كتاب وصف مصر : (بنيت القلعة على نشز عال يشرف على المدينة ، وهذا النشز يشرف عليه بدوره جبل المقطم . وحجارة هذا الجبل من النوع الكلسى التى تكونت طبقاته على مر السنين ، ويفصله عن النشز الذى تقع عليه القلعة واد صغير ضيق . وإذا ما أخذنا قاع بئر يوسف كنقطة البداية لقياس ارتفاع أعلى نقطة بهذا الجبل، لوجدنا أن ارتفاع هذه النقطة يصل إلى حوالى ٩٣ متراً فوق مستوى المياه الجوفية لنهر النيل . وإذا ما قسنا المسافة الممتدة فيما بين أعلى قمة بالجبل وبرج الانكشارية ، لوجدنا أنها تبلغ ٧٠٩ أمتار ، كما أن المسافة فيما بين هذه القمة ذاتها وبرج الحداد ، وهو أول الأبراج القائمة فى مقدمة القلعة، تبلغ

(١) (آصف من برخيا وزير سليمان عليه السلام) .

(٢) (المقصود بالمدينة هنا القلعة) .

(٣) (معنى هذا الشطر : لقد بنى «باب التفرج» جديرا «بالسراى» ، ومجموع حروفه — حسب الحساب الذى جرى عليه المنجمون — تعنى أن «السراى» بنيت فى سنة ١٢٠٠هـ).

(٤) عجائب الآثار ، الجزء الثانى ، ص ١٠١ ، (كان أول المحرم يوم الجمعة . فى ذلك اليوم وصل الباشا الجديد .. اسمه محمد باشا يكن ، بكاف أعجمية) .

— ومما ذكره الجبرتى نرى أن حرف «الكاف» من حروف اسم هذا الباشا ، يجب ان تنطق كما تنطق باللغة الفارسية (أى «ياء» بدلا من «كاف» ، ومن ثم فان اسم هذا الوالى يجب ان ينطق «يين Yayan أو يين yeyen وليس «يكن Yeken كما قرأه فان برشم (انظر **C.I.A., Egypte, I, p. 94** .

(٥) عجائب الآثار ، الجزء الثانى ، ص ١٣١ .

(٦) (انظر أيضا الخريطة رقم ١١ الملحقة بآخر هذا الكتاب) .

٤٠٨ أمتار فقط . وهذه القلعة بنيت بناء على أمر السلطان الشهير صلاح الدين يوسف بن أيوب فى عام٥٦٢هـ ١١٦٦ م (١) .

والقلعة لم يسكنها صلاح الدين ، ولا ابنه ، بصفة مستديمة ، وإنما أصبحت مقراً دائماً للسلاطين والولاة من بعدها منذ الملك الكامل . وكيفما كان الأمر ، فإن اختيار هذا الموقع لبناء قلعة عليه كان اختياراً غير موفق تماما، وذلك أن المرء يستطيع من جبل المقطم ، الذى يقع شرقيها ، أن يتوغل فى داخلها كما يستطيع فى يسر وسهولة أن يصوب إليها المدافع ويدكها دكا ، غير أن هذا الموقع محصن تماماً من جهة القاهرة ، وذلك لأن الصخرة فى هذا الجانب وعرة ويصعب تسلقها . كما أنه من الممكن أن تكون فى منعة من أى هجوم يوجه إليها من جهتيها الغربية والشمالية . وإنى لأرجو القارىء أن يسمح لى بأن أعود ، مرة أخرى ، إلى الحديث عن هذا المنظر الرائع الذى يراه الرحالة ممتداً أمام عينيه وهو واقف بأعلى القلعة. إنه إذا ما أجال النظر إلى القاهرة من هذا المكان يجد أمامه من المناظر الخلابة ما يصعب على المرء تصوره . لقد حاول كثير من الفنانين رسم هذه الصورة الطبيعية الرائعة ، غير أنى أعتقد أن التوفيق لم يحالف أحداً منهم، فذلك أمر يتعذر البتة على أى إنسان . فالمنظر يمتد أمام الناظر من جهة الغرب — على وجه التخصيص — إلى مالا نهاية . ففى هذه الجهة يسرح النظر بعيداً جداً عبر الصحراء الليبية (الغربية) الواسعة ، على بعد ثلاث أو أربع مراحل ، إلى ما وراء الأهرامات الكبرى بالجيزة وسقارة ، يسرح النظر من الأرض المنبسطة فى مصر ، بلد الموميات ، حتى الشعاب الأخيرة لسلسلة الجبال الليبية . هناك تحت أقدام هذه الآثار الشاهقة يمتد أمام الناظر هذا السهل الكبير الخصيب ، وغابات النخيل ، ونهر النيل الذى ينساب كما لو أنه شريط فضى ، وجزيرة الروضة الخلابة ، والضفة اليمنى للنهر بما يحف بها من مزارع وصحراء . وعلى هذه الضفة ترى بولاق ، وعلى الضفة اليسرى ترى مصر القديمة ، ومن ورائها وادى التيه . وإذا ما دنا الناظر بنظره يرى مدينة الموتى (القرافة) ممتدة أمامه ومجرى العيون ، كما يرى عن كثب القاهرة ، هذه المدينة الكبيرة بمآذنها التى تبلغ نحو الثلاثمائة أو الأربعمائة مئذنة . وأخيراً يرى تحت القلعة ميدانا فسيحا يموج بالأهالى ، كل يسرع الخطا إلى حال سبيله ، كما يرى جامع السلطان حسن ، أروع وأفخم جوامع القاهرة ، بكتلته البنائية المهيبة ومئذنتيه الرائعتين اللتين تعلوان فى السماء وتجاوزان ارتفاع القلعة ذاتها . هذه الصورة المتعددة الألوان التى تجمع كل هذه المناظر المتباينة تحكى تاريخ مصر القديمة وتاريخ مصر الحديثة فى وقت واحد، وهذه المقابر الممتدة لعاصمة مصر القديمة وعاصمة مصر الحديثة، وأطلال مدينة عين شمس على اليمين ، وأطلال مدينة منف على اليسار ، كل هذه الصور والمناظر التى ترى من فوق القلعة تهز مشاعر أكثر الناس بروداً، وترفع بالفيلسوف إلى بحر من التأمل، وتبعث النشوة فى روح الفنان، بل تدفع أبعد الناس عن الإحساس بالجمال إلى عالم من الأحلام والتأملات . حقاً ، إنه ليصعب على المرء أن يفيق من روعة وسحر هذا المنظر الذى لا يوجد له نظير فوق سطح المعمورة .

وقلعة القاهرة تنقسم إلى قسمين : قسم مرتفع مخصص للجند الانكشارية ، وهو المعروف بسور الانكشارية والذى يرتفع عن مستوى مياه نهر النيل بحوالى مائة متر . وقسم منخفض مخصص للجند العزب ، وهو المعروف بسور العزب . وهذا القسم الثانى ينقسم بدوره إلى سورين . فأما القسم الأول المرتفع ، سور الانكشارية ، فيكاد يكون مستقلا بذاته ، بل إنه يشتمل فى داخله على سور صغير يوجد به برج يقال له خزنة قلة ، كما يوجد به برج الانكشارية

(١) لقد نقل الكاتب هذه الحقائق من «الافادة والاعتبار» لعبد اللطيف البغدادى ، ترجمة سلفستر دى ساسى • ومن ثم فقد نقل عنه أيضا الخطأ المطبعى الوارد بهذه الترجمة فيما يختص بتاريخ بناء القلعة فى عام ٥٦٢ هـ ، بدلا من عام ٥٧٢ هـ ، وهو التاريخ الصحيح لبنائها • وقد سبق أن نوهت الى ذلك من قبل فى احدى الحواشى بصفحة ٥٦٨ •

وهو أمنع أبراج القلعة ، وأما بئر يوسف فيحيط به حائط خاص . وأخيراً ، فإن هذا القسم يشتمل على سور آخر يقال له سور الأغا .

ويصعد إلى سور الانكشارية من طريقين وعرين نحتا فى الصخر : الطريق الأول بالجهة الغربية ويبدأ من باب العزب الذى يطل على ميدان الرميلة . وهذا الباب يوجد على جانبيه برجان كبيران ملونان باللونين الأحمر والأبيض على شكل شريط والطريق الثانى بالجهة الشمالية الغربية ، وهو بمثابة شارع خارجى يعرف بسكة الشرفه **Sekket el-Chorafeh** . ولكل من هذين الطريقين سلالم نحتت فى الصخر لكى يتيسر للصاعد ارتقاؤهما . كما أن كلا منهما يؤدى إلى باب المدافع ، وهو باب على جانبيه برجان ، ويتوسط إحدى البدنات بالسور التى تنتهى فى كل طرف منها ببرج كبير ، وهما برج الطبالين من الجهة الشمالية ، وبرج صفطه من جهة الجبل . وهذان الطريقان يؤديان أيضا إلى باب الجبل .

وهناك طريق ثالث نحت أيضا فى الصخر ويؤدى إلى الباب الجنوبى للقلعة حيث كان يقع القصر القديم للباشا . ويبدأ هذا الطريق من الميدان الكبير ، قراميدان (حيث كان المماليك يقومون بتدريباتهم العسكرية) عند باب السبع حدرات . فمن هذا الباب يتوصل المرء عن طريق مطلع منحوت فى الصخر إلى الباب الرابع للقلعة ، باب النجدة ، المعروف بالباب الوصطانى (الوسطانى — انظر ما سبق أن ذكرته عن هذا الباب من قبل ، ص ٧٠٧) . ومن هذا الباب الثانى يدخل المرء فى سرداب متعرج عرضه ثلاثة أمتار وطوله أربعون متراً ومنحوت فى الصخر على عمق عشرين متراً . كما أن الخندق المحيط بالقلعة من جهة جبل المقطم قد نحتته فى الصخر يد الإنسان . وأما جميع أبراج القلعة ، سواء أكانت دائرية أم مربعة ، والبالغ عددها اثنين وثلاثين برجا ، فقد أقيم كل منها على قاعدة حجرية منتظمة الشكل وعلى درجة كبيرة من الصلابة . وهذه الطريقة التى استخدمت فى بناء الأبراج استخدمت أيضا فى بناء السور .

وفيما عدا هذه الأبواب الخارجية الأربعة التى أشير إليها ، وباب الانكشارية الكبير المعروف بباب المدافع ، هناك خمسة أبواب داخلية أشير إليها فى شرح خريطة القاهرة (١) .

(يلى بعدذلك وصف قصر يوسف الذى نقلت نصه من قبل ص ٦٤٠ ، ووصف ديوان يوسف الذى نقلت نصه أيضا من قبل ص ٦٣٢ ، وكذلك وصف جامع « السلطان قلاوون » أى جامع الناصر محمد بن قلاوون الذى تحدثت عنه من قبل فى إسهاب وتوسع) .

ويوجد بالقلعة أربعة عشر صهريجا للمياه ، لعل أعظمها وأروعها الصهريج المعروف بسبيل كيخيه الذى يقع وراء سور الانكشارية . فهذا الصهريج يسع وحده من الماء ما يكفى لإمداد عشرة آلاف نسمة لمدة أكثر من عام وهو مستطيل الشكل طوله ٣١ متراً وعرضه ٣٠ متراً ، ورفعت أقبيته على عمد أربعة ضخمة يبلغ سمك كل منها حوالى ١٦٠ سنتيمتراً (أى خمسة أقدام) . وقد طليت أرضية الصهريج وحوائطه من الداخل ، وكذلك الأعمدة ، بطبقة من الغراء الذى يمنع رشح المياه لمدة طويلة جداً . وهذا النوع من الغراء قد برع المصريون فى صنعه ، كما أنه يكتسب فى الماء لونا لامعا متميزا . وإن المرء ليعجب لمجرد النظر إلى هذا الصهريج ، بل يزداد عجبه — على وجه التخصيص لمدى ما يحققه من فائدة ونفع .

---

(١) (أعتقد أن الكاتب يقصد خريطة القلعة ، وهى جزء من خريطة القاهرة — انظر القائمة المرفقة ، حيث يرد بها ذكر هذه الأبواب الخمسة) .

كما يوجد بالقلعة ست آبار : اثنتان منها من أكبر الآبار. وهاتان البئران هما بئر يوسف وبئر السبع سواقى (نقلت وصف بئر يوسف من قبل) .

ويوجد أيضاً بالقلعة حمام عام واحد ، وساحة كبيرة مخصصة للمقابر بالزاوية الشرقية من سور الانكشارية. كما توجد عدة ساحات أخرى ، وعدد من الأسواق العامة ، وست طواحين لطحن القمح ... ... إلى آخره. وأما المخازن المخصصة للذخيرة فقد أنشئت تحت الأرض على هيئة أقبية تستند على دعامات ضخمة. وعلى هذا النسق أيضاً أنشىء اصطبل الباشا، كما يوجد أيضا، بالقرب من الجهة البحرية لديوان يوسف، عدة قاعات تحت الأرض أنشئت على هيئة أقبية عظيمة الارتفاع كما تحتوى القلعة على نوع آخر من المنشآت يجدر الإشارة اليها. وهذه المنشآت هى التى تعرف بالدواوين، وهى مخصصة لعقد المجالس. وأعظم هذه الدواوين هو (ديوان المستحفظان) الملاصق لبرج الانكشارية، ولهذا السبب يعرف أيضاً بديوان الانكشارية . وهذا الديوان عبارة عن قاعة تعلوها قبة ترتفع على أربعة عمد من الرخام الأبيض. وأما جدرانها فقد غشيت بمربعات من القاشانى الأبيض التى رسمت عليها زخارف جميلة غنية باللون الأزرق والأخضر ، وغيرهما من الألوان. وبداير الجدران من الداخل مصطبة مخصصة لجلوس المجتمعين بالقاعة ، وأما سقف القاعة ، وكذلك سقف القبة فقد زخرفا بزخارف غنية من رسوم الأرابسك. والموضوعات الزخرفية المرسومة على مربعات القاشانى معظمها موضوعات رمزية ، كما كتب عليها آيات قرآنية ، وهذه الكتابات على درجة كبيرة من الوضوح ، وهذه القطع البديعة من القاشانى يبلغ طول كل منها ١٢ بوصة وعرضها ٩ بوصات، وهى مصنوعة فى مدينة كوتاهية بقرمانيا ، وأما ديوان العزب فيقع بالقرب من الباب المعروف بهذا الاسم وجدران هذا الديوان مغشاة أيضاً بمربعات من القاشانى الأبيض المتقنة الصنع والمزخرفة بالأزهار وبالتصاوير المرسومة باللونين الأزرق والأخضر. فترى عليها صوراً للمآذن المرتفعة المدببة ، رسمت حسب الطراز القديم للمآذن، وهى صورة رائعة يظن المرء إذا ما نظر إليها من بعد كما لو أنها صور من الفريسكو. وقد ثبتت مربعات القاشانى بمهارة على الحائط فوق طبقة من الجبس يبلغ سمكها بوصتين .

وبالقلعة تسك النقود المتداولة فى مصر ، والمبنى المخصص لسك العملة. وهو المعروف بدار الضرب ، يعتبر أكثر مبانى القلعة بساطة . وإنى لأكتفى فى هذا الصدد، بأن أذكر أن هذه الدار (١) تقع بالزاوية الشرقية من وسعة (حوش) الباشا ..)

(ثم يختم الكاتب وصفه للقلعة بذكر بعض الملاحظات المعارية التى سترد الإشارة إليها فى الدراسات التى قام بها هرز **HERZ** عن القلعة .)

(١) يبدو أن دار الضرب كانت قد نقلت (من القاهرة) الى القلعة منذ أنشائها اذ أن المقريزى يخبرنا أن دار الضرب كانت تابعة لديوانه الخاص – انظر الخطط ، الجزء الأول ص ١١٠ ، س ٢٦ حيث ترد هذه العبارة ، « ودار الضرب جارية اليوم فى ديوانه الخاص» .

قائمــة

بأسماء الأماكن والسكك والعطف والحارات والساحات والآثار بالقلعة

الرقم	الاســم	المرجع
١	برج المبلط	T — 1
٢	برج المطر	T — 2
٣	برج المقوصر	T — 1
٤	عطفة المقصقص	T — 2
٥	أكوام من الحجارة قطعت من جبل المقطم	T — 1
٦	حارة ظرنبــه	S — 1
٧	عطفة الساقية	S — 1
٨	سبيل شاريه	S — 1
٩	برج الإمام	S — 1
١٠	الأوضالار (مكان مخصص للمقابر) (١)	S — 1
١١	صور الانكشرية (٢)	S — 1
١٢	برج الرملة	S — 1
١٣	برج الحداد	R — 1
١٤	الورشة (ساحة واسعة مخصصة للتدريبات العسكرية)	M — 2
١٥	برج كركيلان	T — 2
١٦	برج العلوة (٣)	T — 2
١٧	برج الطرفة	T — 2
١٨	عطفة الغزال	T — 2
١٩	عطفة القصطنجى	T — 2
٢٠	الطوبخانه	T — 2
٢١	سكة السوق الصغير	T — 2
٢٢	جامع تاج الدين	T — 2
٢٣	سبيل سليمان باشا	T — 2
٢٤	سبيل إسماعيل أفندى (أو الخوربطلى)	S — 2

(١) يوجد صهريج للمياه بالقرب من هذا المكان المخصص للمقابر ، كما يوجد صهريج آخر شمالى دار الضرب .
ـ هذه الحاشية وكذلك الحواشى التالية ، ملحقة بهذه القائمة كما وردت فى كتاب وصف مصر ، وانى اذ أنقلهـا هنا أراعى الدقة والأمانة فى النقل .

(٢) هذا الاسم يطلق على كل صور الانكشارية الممتد فيما بين باب دريس وبرج الطبالين ، وباب الجبل وبرج المبلط ، وبرج الحداد .

(٣) الرقم المقابل كتب على الخريطة بعيدا جدا عن البرج .

تابع القائمة

الرقم	الاسم	المرجع
٢٥	سكة الخوربطلى	S — 2
٢٦	الانكشرية(١)	S — 2
٢٧	سوق الصغير	S — 2
٢٨	سوق الحطب	S — 2
٢٩	عطفة المدانين	S — 2
٣٠	سكة الشارية	S — 2
٣١	جامع الشارية	S — 2
٣٢	عطفة الشارية	S — 2
٣٣	عطفة القزازين	S — 2
٣٤	برج الصحرا	S — 2
٣٥	اصطبل الباشا	V — 3
٣٦	سبيل ششمة (أو سبيل السلطان الغورى)	V — 3
٣٧	وسعة الاصطبل	V — 3
٣٨	باب الألوحية (أحد الأبواب الداخلية)	U — 3
٣٩	وسعة الباشا	U — 3
٤٠	جامع الدهايشة	U — 3 -4
٤١	سراية الباشا	U — 3
٤٢	سبيل الشاوشية	U — 3
٤٣	دار الضرب	U — 3
٤٤	وسعة المطبخ	U — 3
٤٥	باب الباشا (أحد الأبواب الداخلية)	U — 3
٤٦	بير السبع سواقى (٢)	U — 3
٤٧	سبيل السواقى	U — 3
٤٨	برج الحلزون	U — 3
٤٩	برج صفطه (٣)	T — 3
٥٠	باب الجبل	T — 3

(١) هذا الرقم يشير الى جميع القسم من القلعة المعروف بمدينة الأنكشرية ، والواقع داخل الصور المعروف بهذا الاسم والذى أشير اليه برقم ١١ .

(٢) هذا الرقم كان يجب أن يشير الى كوم الحجارة الموجود على بعد قليل بوسط المربع .

(٣) هذا الاسم كتب خطأ على الخريطة «برج صفه» . كما ان هذا الاسم ، وكذلك الرقم المقابل له (٤٩) كان يجب كتابتهما بالقرب من البرج الكبير الملاصـــق لباب الجبل .

تابع القائمة

الرقم	الاسم	المرجع
٥١	بير يوسف (١)	T — 3
٥٢	سوق المطرباظية	T — 3
٥٣	سوق الباشا	T — U - 3
٥٤	جامع السلطان قلوون	T — 3
٥٥	سبيل شريفة شلمة	T — 4
٥٦	باب المدافع (باب صور الانكشرية)	T — 3
٥٧	الششمة	T — 3
٥٨	سوق البرانى	T — 3
٥٩	باب الشرك (أحد الأبواب الداخلية)	T — 3 -4
٦٠	سكة الششمة	T — 3
٦١	سبيل أغا الباب	T — 3
٦٢	برج خزنة قلة (أو برج الانكشرية)	T — 3
٦٣	سكة الانكشرية	S — T - 3
٦٤	ديوان مستحفظان	5 — 3
٦٥	حمام القلعة	5 — 3
٦٦	باب الانكشرية	S — 4
٦٧	الكسارة	5 — 3
٦٨	صور الأغـا	5 — 3
٦٩	(أبراج تهدمت بعض أجزائها	5 — 3
٧٠	الجباخانة	U — 4
٧١	باب الوصطانى	U — 4
٧٢	سبع حضرات	U — 4
٧٣	(أحد الأبواب)	U — 4
٧٤	أطلال مسجد	U — 4
٧٥	بيت الترزى ، وبجانبه زاوية مهدمة) (٢)	U — 4
٧٦	(جانب بارز من السور)	U — 4
٧٧	القضرار	U — 4
٧٨	(جانب بارز من السور)	T — U - 4
٧٩	زاوية القضرار العزب	T — 4

(١) الرقم ٥١ كان يجب أن يكتب أسفل كلمة«يوسف».
(٢) توجد زاوية البرديني شمالى الرقم ٧٥ ، وهى منهارة .

تابع القائمة

الرقم	الاســم	المرجع
٨٠	حارة الساقية	T — 4
٨١	سبيل سلطان مراد	T — 4
٨٢	قصر يوصف (يوسف)	T — 4
٨٣	(جباخانه)	T — 4
٨٤	بيت يوسف صلاح الدين	T — 4
٨٥	(مخازن تحت الأرض)	T — 4
٨٦	برج الشخص	T — 4
٨٧	جامع العزب	T — 4
٨٨	سبيل باب العزب البيرقدار	T — 5
٨٩	سكة العزب	T — 4-5
٩٠	باب الأربعين (باب داخلى)	S — 4
٩١	عطفة الغون	S — 4
٩٢	ديوان العزب	T — 5
٩٣	جامع المؤيد	S — 4
٩٤	ترب الشرفة	S — 4
٩٥	سكة الشرفة	S — 4
٩٦	زاوية محمد أغا	S — 4
٩٧	جامع المصطفاوية	T — 5
٩٨	سبيل المصطفاوية	T — 5
٩٩	باب العزب	T — 5
١٠٠	صور العزب (١)	T — 5
١٠١	صور الصراية (٢)	U — 3
١٠٢	سبيل كيخية	S — 3
١٠٣	(باب داخلى)(٣)	U — 4
١٠٤	برج الطبالين(٤)	T — 3
١٠٥	جبل الجيوشى	Q-U-V-I.

(١) هذا الاسم والرقم المقابل له (١٠٠) يجب أن يطلق على صور العزب كله الذى يقع بين صور الانكشرية وميدان الرميلة ·

(٢) كتب على الخريطة كلمة «سراية Serayek وهذا خطأ ·

(٣) هذا الرقم كان يجب أن يكتب على مسافة أبعد ناحية الشمال ·

(٤) هذا البرج هو أحد الأبراج الكبيرة الواقعة شرقى باب الشرك رقم ٥٩ ـ كما ان هذا الرقم (١٠٤) والرقم الذى يليه (١٠٥) لم يرد ذكرهما على الخريطة ·

ولا يتبقى لى ، بعد هذا العرض، سوى بضع كلمات عن موضوع على قدر كبير من الطرافة، هذا الموضوع الذى أريد أن أتحدث عنه هو ذلك النسر الذى يرى على أحد جدران القلعة، والذى أوردت صورة فوتوغرافية له (١) . ومما هو جدير بالذكر أن أحداً من الكتاب العرب الذين رجعت إليهم لم يشر إليه البتة؛ وأما الكتاب الغربيون فإن أول من أشار منهم إليه هو بوكوك **POCOCKE** الذى زار مصر فى عام ١٧٤٠م (٢) ، كما أشار إليه أيضاً نيبوهر **NIEBVHR** الذىزار مصر فى عام ١٧٧٨م(٣) ،والذى يؤكد فى حديثهعنه أنه كان ذا رأس مزدوج . وأما جومار **JOMARD** فلم يتحدث عن هذا النسر ،ومن الجائز أنه كان قد سقط عن الجدار وفقد بين الأطلال، وأغلب الظن أنه عثر عليه بعد ذلك ثم ثبت فى موضعه الحالى على يد محمد على ، غير أن النسر لا رأس له فى الوقت الحاضر، هذا ومن جهة أخرى فإن ما يلاحظه نيبوهر عن رأسه المزدوج لا يمكن أن يكون موضع شك؛ فقد كان نيبوهر صادقاً أميناً فى تسجيل ما يراه . ومن ثم فيمكننا أن نؤكد، بناء على ما ذكره ، أن هذا النسر كان شبيهاً للنسور التى كثيراً ما كانت تسك صورها على قطع النقود العربية . ومن الجائز، كما يرى لونجبرييه Longperier أن صورة هذا النسر قد أخذت عن النسر ذى الرأس المزدوج شعار إمبراطور ألمانيا (٤)، ولذلك فإن السؤال الذى يجب أن يطرح على بساط البحث هو: هل نسر القلعة هذا يعتبر معاصراً للنسر الذى نقش على عدد كبير من قطع النقود التى سكت باسم سلاطين الأراتقة فى بلاد ما بين النهرين ؟ هذا ولا يفوتنا أن نذكر ، فى هذا الصدد ، أن اسم قراقوش معناه « النسر » (٥) فهل يعنى ذلك أن هذا النسر هو الرنك الخاص بقراقوش الذى أشرف على بناء القلعة ؟ إن هذا الفرض على الرغم مما يبدو من وجاهته، لأول وهلة ، يجب أن يستبعد للأسباب الآتية : فأول هذه الأسباب ، أنه كيف يجيز العقل أن قراقوش، الذى لم يذكر اسمه إلا فى السطر الثالث بالنقش الخاص ببناء القلعة فى عام ٥٧٩ هـ ، يستطيع أن ينسب إلى نفسه على هذا النحو الظاهر بناء هذه القلعة ، التى هى من غير شك، ليست ملكا خاصاً له ، وثانى هذه الأسباب، فهو ما أعتقد أنى قد سبق أن أوضحته بما لايدع مجالا للشك من أن هذا الجانب من جدار القلعة الذى يوجد عليه النسر قد بنى بعد وفاة قراقوش ، أى أن بناءه يرجع إلى عهد الملك الكامل وعهود خلفائه (انظر الفصلين رقم ٦، ٧) . وأخيراً ، فإن صمت المؤرخين فى هذا الصدد ، مثل ابن عبد الظاهر ، وشهاب الدين (بن فضل الله العمرى) ، والقلقشندى، والمقريزى ، — وهم الذين نقلوا الواحد عن الآخر وصف القلعة — يعتبر أمراً غير مستساغ .

وهذا الاعتراض الأخير ينطبق أيضاً على فرض آخر لايقل وجاهة عن الفرض الأول . هذا الفرض الذى يتخذ من وجود صورة النسر ذى الرأس المزدوج على بعض قطع النقود التى سكت باسم الملك الكامل دليلا على أن هذا النسر هو الرنك الخاص به (٦) . وإذا صح هذا الفرض، فمن الجائز أن يكون هذا النسر قد اختفى من مكانه

---

(١) (انظر الصورة رقم ١٠ الملحقة بآخر الجزء الثانى من هذه الدراسة) .

(٢) يقول بوكوك (والطريق مواز لحائط عال يوجد عليه وعلى ارتفاع كبير نسر كبير بارز باسط جناحيه) — انظر : A Description of the East, p. 32.

(٣) يقول نيبوهر ما ترجمته (انك ترى فى هذا المكان على الجدار نسرا برأسين قد تشوهت صورته الى درجة كبيرة بفعل الزمن ، ومع ذلك فانك تستطيع ان تميز صورته بوضوح) — انظر : NIEBUHR : Carsten Niebahr's Reise in Arabien, p. 116.

(٤) Oeuvres complètes, éd. SCHLUMBERGER, I, p. 100

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ترجمة دى سلين ، الجزء الثانى ، ص ٥٢١ .

(٦) اذا كان حقا ما يقال من أن الامبراطور فردريك الثانى هو الذى ضم هذا النسر الى مجموعة رنوك الامبراطورية الألمانية ، فانه يمكننا القول انه من المحتمل أن يكون الامبراطور قد نقل هذا الرنك عن خليفة الملك الكامل الذى تنازل له عن مدينة القدس فى عام ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م.

بالقلعة فترة من الوقت بعد وفاة الملك الكامل ، كما حدث أن اختفى زمن الحملة الفرنسية ، إذ أن جومار لم يكن يعرف شيئاً قط عنه. هذا وقد سبق أن قلت فى الفصل السابع من هذا الكتاب إن معلوماتنا عن منشآت الملك الكامل بالقلعة ضئيلة جداً ، وفى هذه الحالة علينا أن نفترض أنه منذ زمن السلطان بيبرس ، مثلا ، تداعت بعض أجزاء من هذا الجدار (الذى ثبت عليه النسر) ، غير أنه يرد على هذا الفرض بأن النسر يوجد على الجدار بجوار باب السر الشهير ، هذا الباب الذى لايدخل منه أحد إلى القلعة إلا بإذن خاص . ومن ثم فإن هذا الجدار كله لايمكن أن يظل على هذه الحالة المتداعية فترة طويلة من الزمن . هذا فضلا عما أثبته هرز **HERZ** فى دراسته للقلعة ، ومما سبق أن أوضحه لنا المؤرخون ، من أنه يوجد بهذا الجدار شواهد قاطعة تدل على أنه قد أعيد بناؤه فى عهد الناصر محمد ابن قلاوون .

وأخيراً ، فليس لنا أن نفترض سوى أن هذا النسر قد ثبت فى هذا المكان فى الفترة التى انقضت بين إقامة مييه بمصر (١٦٩٢–١٧٠٨م) وزيارة بوكوك لها (١٧٤٠م) ، غير أن هذا الفرض الأخير لايتيسر لنا إثباته ، ذلك أن الجبرتى ، وهو المؤرخ الوحيد الذى يحدثنا عن تاريخ مصر فى هذه الفترة ، لايذكر لنا شيئاً قط عن أية منشآت بالقلعة ، هذا فى الوقت الذى يتحدث فيه فى إسهاب عن الفتن والاضطرابات التى نشبت فى هذه الفترة ، وعمن توفى من الشيوخ والشعراء المعاصرين .

وأما فيما يتعلق بى شخصياً ، فإنى لست على يقين من حقيقة هذا النسر ، ولهذا ترددت كثيراً فى أن أدلى برأى قاطع عنه ، غير أن مجرد النظرة العابرة إليه تجعلنى أرجح أنه يرجع إلى الفترة نفسها التى سكت فيها النقود التى تحمل صورة هذا النسر نفسه ، وأن أنسبه إلى الملك الكامل . ومع ذلك ، فالأمر ليس على هذه الدرجة من البساطة ، لأنه يجب علينا أن نفسر أولا هذا الصمت المطبق بصدد هذا النسر فى جانب جميع الكتاب إلى أن تحدث عنه بوكوك لأول مرة .

الفصل السادس عشر

القلعة منذ عام ١٧٩٨ حتى نهاية القرن التاسع عشر (١)

لم يقدر للجيش الفرنسى احتلال أرض مصر مدة طويلة من الزمن ، ومن ثم فقد تعذر عليه إعادة بناء ما تهدم من مبانى القلعة . وكيفما كان الأمر ، فإن القلعة فى ذلك الوقت لم يكن لها أية قيمة عسكرية ، هذا ، وإذا جاز لنا أن نصدق ما رواه الجبرتى عن القلعة على عهد الفرنسيين ، فإنها تكون قد قاست الكثير من جراء احتلالهم لها . فى هذا الصدد يقول : « (وفيه) الخميس سادس عشر من ربيع الآخر ١٢١٣ هـ — ٢٧ من سبتمبر ١٧٩٨م) أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول إلى المدينة ليسكنوا بها ، فنزلوا . وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع ، وهدموا بها أبنية كثيرة ، وشرعوا فى بنا(ء) حيطان وكرانك وأسوار . وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة ، وبنوا على بدنات باب العزب بالرميلة وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وأثار الحكما(ء) العظما(ء) ، وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والدرق(٢) والحوادث والحر(ا)ب الهندية وأكر الفداوية . وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحاسن الملوك ، ذوات الأركان الساحقة والأعمدة الباسقة (٣). وبعد أن رحل الفرنسيون عن مصر ، يضيف الجبرتى إلى ما ذكره آنفا أن المساكن بالقلعة قد ضاقت وشحت بسبب ما حل بمعالمها على أيديهم من ألوان التعديل والتبديل ، وقد بلغ الأمر بسبب ضيق المساكن بها أن كثيرين من أصحاب الوظائف اضطروا إلى الإقامة بجامع سارية . وفى معرض هذا الحديث يخبرنا أنه فى عهد الاحتلال الفرنسى سدت جميع أبواب الميدان (قراميدان) بحيث أصبح كما لو أنه جزء من القلعة ، وأصبح

---

(١) (العنوان الأصلى هو : القلعة منذ عام ١٧٩٨م حتى عهدنا الحاضر . ولما كان كازانوفا قد كتب عن القلعة فى نهاية القرن التاسع عشر فقد سمحت لنفسى بتغيير العنوان على النحو الموجود أعلاه) .

(٢) فيما يختص بما جرت به العادة من تعليق الأسلحة على أبواب القلعة قارن مارواه الجبرتى بما ذكره المقريزى (الخطط ، الجزء الثانى ، ص ١١٨ ، س ٣٢) عن باب اللوق) ، حيث يقول ، (باب كبير عليه طوارق حربية مدهونة على ما كانت العادة فى أبواب القاهرة وأبواب القلعة وأبواب بيوت الأمراء) .

— وقارن ذلك أيضا بما ذكره القلقشندى فى كتاب مختصر صبح الأعشى ، المخطوطة بمكتبة جوته ، رقم ١٦١٩ ، ورقة ٤٤ ب .

(٣) عجائب الآثار الجزء الثالث ، ص ٢٠ .

لايتوصل منها إليه إلا عن طريق باب السبع حدرات(١) (انظر خريطة القلعة) .

غير أن القلعة استعادت مجدها السابق بعد أن غدت على يد محمد على مقراً للوالى، ففى عهده تغيرت معالمها كلية . غير أن مما يؤسف له أن هذا التغيير الكلى فى معالمها قد أدى – كما سبق أن ذكرت – إلى زوال القصور السلطانية القديمة .

كما قام محمد على بعمارة المبانى العديدة القائمة بسور صلاح الدين . وهناك ثلاثة نقوش تشهد على قيامه بذلك. فأما أول هذه النقوش فيوجد على باب القلة القديم تجاه جامع الناصر محمد بن قلاوون ، وهذا هو نصه مترجما إلى اللغة العربية :

(١) فلتغلق عين العدو السيىء النية كلما فتح باب الزغرة (٢)

(٢) وليبارك الله بانيه بحق طه وياسين (٣) .

« سنة ١٢٤٢ »

وأما النقش الثانى الذى يرى على يمين الداخل من باب القلة ، على جدار إحدى الساحات ، فمؤرخ أيضاً فى عام ١٢٤٢ هـ ، كما أن النقش الثالث الذى يرى على يسار الداخل من هذا الباب أيضا ، على جدار ساحة أخرى، فمؤرخ كذلك فى العام نفسه ، وفى هذين النقشين يلقب محمد على نفسه بلقب خديو ، الأمر الذى يثير الغرابة والدهشة لأن هذا اللقب لم يمنح رسمياً إلا لإسماعيل بمقتضى إرادة سلطانية فى عام ١٨٦٧ م . كما أن الخط الشريف الصادر إلى محمد على فى عام ١٢٥٦ هـ – ١٨٤٠–١٨٤١م الذى يقضى بأن يكون حكم مصر وراثيا فى أبنائه من بعده لم يمنحه هذا اللقب(٤) كما يقابلنا هذا اللقب مرة أخرى مقروناً باسم محمد على فى نقش آخر يوجد على باب مسدود ، وهو باب الدرفيل القديم .

وإلى القارىء نص هذا النقش (مترجما إلى اللغة العربية) الذى يوجد بأعلاه جهة اليمين ، وجهة اليسار ، تغرة السلطان العثمانى القائم وقتذاك مكتوبة على النحو الآتى :

خـــان

مصطفا

عبد الحميـــد

محمـــود

ما شا الله

(١) خديو الخطة المعمورة أم الدنيا الذى أضاء نور وجهاء العالم

(٢) ما الضرر على جيش الإسلام ما دام لسان خنجره يرد على أعداء الدين

(٣) عن أى أنواع آثاره تتحدث ، إن رقعة خيره فى الدنيا خارجة عن الحد والحساب

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٣ ، حيث ورد ما نصه : (نقلوا حسن أغا المحتسب الى جامع سارية صحبة المشايخ ، وكذلك فورية الوكيل جعل سكنه الجامع المذكور ، وليس الا لضيق مساكن القلعة وازدحام الفرنسيس وكثرة ما نقلوه اليها من الأمتعة والذخائر والغلال والأحطاب ، مع ماهدموه من أماكنها حتى انهم سدوا أبواب الميدان وجعلوه من جملة حقوقها ، فكانوا ينزلون اليه ويصعدون منه من باب السبع حدرات) .

(٢) زغار : كلب الصيد ، وكان فى الانكشارية ضباط لرعاية كلاب الصيد يعرف كبيرهم بزغارجى باشى) .

(٣) مجموع حروف هذا البيت – حسب الحساب الذى جرى عليه المنجمون – أن هذا الباب بنى فى سنة ١٢٤٢ هـ).

(٤) Egypte Moderne (Collection de l'univers pittoresque) p. 34

(٤) لقد بنى على بابه المزوق طاق عال

(٥) لاشك فى دوام دولته وسعادته فإن اسمه مشتهر باسم محمد على

(٦) بخ بخ للوزير وللمجاهد محمود الذى يعينه الله فى كل الأمور

(٧) لقد أمر بإشارة منه بتجديد قلعة يوسف التى كانت قد خربت

(٨) فبسر الإشارة قل يا كاشف التاريخ(١) (يو باب قلعة عالى يا بيلدى خيرى حاب (٢)

« سنة ١٢٤٠ »

وفى مواجهة هذا الباب ، خارج القلعة ، وفى المكان نفسه الذى بنى فوقه السلطان بيبرس الطبلخاناه القديمة ، توجد دار المحفوظات (الدفترخانة) وهذه الدار من إنشاء محمد على كما يشهد بذلك النقش الآتى (مترجما إلى اللغة العربية) .

(١) محمد على باشا حاكم مصر الذائع الصيت صارت طبقات الأفلاك التسعة منازل لرفعته

(٢) وأرض عرشه ملجأ أهل المعارف والشمس والقمر فراشتان حول شمع إقباله

(٣) لقد عمرت يد همته أم الدنيا فلم تبق ديار خربة إلا الخرابات

(٤) أطال الله عمره وزاد إقباله فهو الذى جاهد بشجاعة فى سبيل الدين والدولة

(٥) انظر ها هو أنشأ لأجل حفظ دفاتر مصر هذه الدفترخانة المتينة النادرة

(٦) فكن يا كاشف فى التفكير فى تاريخها أراق القلم ماء وجهه وقال دفترخانة (٣)

« سنة ١٢٤٤ »

وهذا الباب المسدود (باب الدرفيل) يقع أسفل الباب العالى الذى بنى بمناسبة انشاء المطلع الكبير الذى يسمح لمرور العربات فى عام ١٨٢٥ م . ويمر السالك من هذا الباب ، الذى هو على قدر كبير من جمال البناء، فى ممر واسع بنى على هيئة قبو يعبر منه إلى ساحة فضاء ثم إلى الباب الحقيقى للقلعة . وقد رأيت على هذا الباب النقشين الآتيين :

(١) (هو كاشف افندى باشكاتب جريدة الوقائع المصرية حوالى ذلك التاريخ ، وعضو مجلس المشورة العالى ـ نقلا عن الدكتور عبد الرحمن زكى ، قلعة الجبل ، ص ١١٣ ، حاشية رقم ١) .

(٢) معنى هذا الشطر من البيت : لقد جعل باب القلعة العالى هذا خير مآب . ومجموع حروف هذا الشطر ـ حسب الحساب الذى جرى عليه المنجمون ـ تعنى أن هذا الباب بنى فى سنة ١٢٤٠ هـ) .

(٣) لقد عدلت عن ترجمة هذين النقشين الى اللغة الفرنسية لصعوبة ذلك . اذ فضلا عما تمتاز به عباراتهما من جزالة لفظية نجد أنها جوفاء لامعنى لها . غير أنه يهمنى أن أنبه القارىء الى الحقائق الآتية : فى النقش الأول المؤرخ فى عام ١٢٤٠ هـ يرد لقب «خديو» واسم «قلعة يوسف» . وأما فى النقش الثانى المؤرخ فى عام ١٢٤٤ هـ فاننا نجد ان لقب «خديو» قد استعيض عنه بلقب «داور» أى أمير . وقد قام بنقل هذين النقشين صديقى العلامة أحمد زكى سكرتير مجلس النظار (وقتذاك) ، والخطاط حسن سرى ، وانى لمدين لهما بهذا الفضل ، فلهما منى جزيل الشكر . اذ لولا صادق معونتهما لما تمكنت من الحصول على نص هذين النقشين نظرا لأن معرفتى باللغة التركية معرفة سطحية :

ـ (الترجمة العربية للنقش الثـــانى ، الخاص بدار المحفوظات ، منقولة عن كتاب الدكتور عبد الرحمن زكى : قلعة الجبل ، ص ١١٢ ـ ١١٣ . وأما النقوش التركية الأربعة الأخرى ، التى أوردها كازانوفا فى كتابه ، والتى سبق اثباتها مترجمة الى اللغة العربية فى سياق هذه الترجمة ، فلم ترد لها ترجمة عربية فى كتاب قلعة الجبل للدكتور عبد الرحمن زكى . وهذه النقوش الأربعة ، السابقة على النقش الخاص بدار المحفوظات ، هى التى تفضل بترجمتها زميلى الاستاذ الدكتور أحمد السعيد سليمان رئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة .

هذا ويجدر بنا أن ننوه بان الدكتور عبد الرحمن زكى أورد فى كتابه المشار اليه آنفا ، نقوشا أخرى ، بعضها باللغة العربية ، والبعض الآخر باللغة التركية ، لم ترد فى كتاب كازانوفا . وهذه النقوش منشورة فى كتابه ، ص١٠٨ ـ ١١٤) .

النقش الأول يرى على العتبة العليا للواجهة الأمامية للقبو ، ونصه .

يا مفتح الأبواب

والنقش الثانى يرى على الواجهة الخلفية للقبو ، ونصه :

افتح لنا خير الباب

كما قام محمد على بعمارة الحوائط المتداعية التى تقع فى جميع المنطقة التى تصل سور صلاح الدين القديم بالسور الثانى الذى بناه الملك الكامل وخلفاؤه من بعده . ولكى يتيسر للقارىء تقدير التعديلات الجوهرية التى قام بها محمد على فى هذه المنطقة ، فإنى أضع تحت نظره ، بجانب الرسوم الخاصة ببعض أقسام القلعة ، الصور التى تفضل بإعدادها لى جيوه GUILLOT عن هذه الأقسام ذاتها فى حالتها الراهنة(١) : وأما المنطقة المجاورة لباب العزب فيبدو أن التعديلات التى حدثت بها قد تمت على يد إسماعيل كما سنرى فيما بعد .

غير أن أهم منشآت محمد على بالقلعة هو ذلك الجامع الكبير الذى ترى مئذنتاه العاليتان المدببتان على بعد كبير ، وإنى لأترك إلى الأستاذ هرز HERZ مهمة القيام بوصف هذا الجامع من الناحية المعمارية . إلا أنه يجدر بى أن أنبه القارىء إلى أن هذه المنشآت التى قام بها محمد على ليست ذات أهمية كبيرة ، وأنه كلما يزداد اقترابنا من عصرنا الحالى يقل عثورنا على أية تفاصيل جديدة أو ذات بال تستحق الذكر .

ولكى يتسنى لى أن أختم هذا الفصل، فإنى اكتفى بالإشارة إلى النقش الخاص بالخديو اسماعيل . والأمر الذى يسترعى الانتباه فى هذا النقش هو أنه كتب باللغة العربية ، فاللغة التركية التى كتبت بها النقوش الخاصة بالقلعة طوال هذه الفترة الطويلة من الزمان قد بطل استخدامها نهائيا . ومع ذلك فإن اليوم الذى أهملت فيه اللغة العربية من جديد لم يكن بعيداً . فقد رأينا بعد فترة وجيزة من الزمان الحروف الأوروبية بمنظرها الكريه منقوشة على أبواب المنشآت والعمائر التى تحولت إلى ثكنات لجنود الاحتلال الانجليزى . ومن ثم فإن النقش الخاص بالخديو اسماعيل يعتبر – فيما يبدو – آخر النقوش التى كتبت باللغة العربية فوق جدران القلعة. وفيما يلى نص هذا النقش (٢) :

١ – إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم

٢ – أمر بانشا وتجديد هذا السور المبارك خديو ، مصرحالا اسماعيل ابن الحاج

٣ – ابراهيم ابن الحاج محمد على فى تاريخ شهر رجب سنة خمسة وثمانين ومايتين وألف .

هذا ، وربما يأخذ على البعض أنه قد فاتنى أن أشير فى هذه الدراسة التاريخية للقلعة إلى مذبحة المماليك الشهيرة التى أعدها لهم محمد على . وإلى هؤلاء أوجه القول بأننى حاولت – دون طائل – الاهتداء إلى المكان الذى قفز منه المماليك من فوق سور القلعة حسبما جاء فى الرواية الخاصة بهذه المذبحة . وبما أن هذه المغامرة الجريئة ليست بذات قيمة تذكر من حيث وجهة النظر التى اختطتها لنفسى فى هذه الدراسة ، فإنى أكتفى – فى هذا الصدد – بإحالة القارىء إلى كتاب فيلكس منجان FELIX MENGIN عن تاريخ مصر تحت حكم محمد على، طبعة باريس ، سنة ١٨٢٣ .

---

(١) (هذه الرسوم رسمت فى عهد الحملة الفرنسية على مصر . وأما الصور التى صورها جيوه فقد أخذت فى عام ١٨٩٢ م – انظر آخر الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٢) هذا النقش أثبته فان برشم فى كتابه «جامع الكتابات التاريخية العربية ، مصر ، الجزء الأول ، ص ٩٤) وعلق عليه التعليقات الآتية : فيما يختص بلقب «خديو» ، يذكر أنه أصبح شائع الاستخدام بين عامة الناس بالقاهرة- وأما كلمة (جالا) التى وردت فى النقوش الخاصة بالعصر التركى ، فانها تعنى شغل المنصب المشار اليه فى النقش فعلا ، وأنها عكس كلمة (كان) أو كلمة (سابقا) التى تعنى كل منهما شغل المنصب فيما مضى .

(٣) انظر . La Revue d'Egypte, juillet 1894, pp. 97 à 101.

الفصل السابع عشر

حالة القلعة فى نهاية القرن التاسع عشر (١)

وبعد ، فلكى أختتم هذا الوصف المطول للقلعة ، يتعين على القيام بتلخيص النتائج التى توصلت إليها والتى تكون فى مجموعها الفكرة العامة التى نريد أن نخرج بها من هذه الدراسة . ومن ثم فإنى أرجو القارىء أن يصحبنى فى هذه الجولة الشاملة للقلعة كما هى عليه (الآن) . ففى هذه الجولة أقوم بالتعليق على المنشآت الهامة التى سنمر بها ، وبهذا نكون قد استعرضنا معا ، للمرة الأخيرة ، ذكرى سلاطين الأيوبيين والمماليك الذين جعلوا من القلعة إحدى المدن الثلاث الشهيرة التى تغنى بوصفها الشاعر (ألونزو دى أرثلا **Alonso de Ercilla**]) فى قصيدته **Araucana** . هذا وإن خريطة القلعة التى سنستعين بها فى شرح هذا الفصل الأخير ، وهى التى أقتبس مخططها العام عن خريطة جراند بك (فى عام ١٨٧٤ م) ونقلت تفاصيلها عن خريطة الحملة الفرنسية (فى عام ١٧٩٨ م)— سيتبين القارىء بمجرد النظرة العابرة لها أننى قد استكملت بها ما نلمسه من نقص بهاتين الخريطتين . وإنى لأعتقد أن القارىء الذى تتبع هذه الخريطة يمكنه أن يقوم بهذه الجولة للقلعة فى سهولة ويسر ، ودون أن يضل الطريق وسط التفاصيل التى سأتناولها بالشرح والتعليق ، بل دون أن يصيبه الملل أو التعب .

فأما الطريقان اللذان يغلب استخدامهما (حاليا) للوصول إلى القلعة فهما : إما شارع محمد على وهو — كما يبدو من اسمه — أحد الشوارع المنشأة حديثاً ، أو الشارع الذى يبدأ عند باب زويلة ، والذى تسمى أجزاؤه بعدة أسماء مختلفة (٢) ، ويلتقى فى النهاية مع شارع محمد على بميدان الرميلة (ميدان صلاح الدين) وهناك طريق ثالث سأتحدث عنه فيما بعد يبدأ شرقى القاهرة بالقرب من باب الوزير .

فإذا ما سلكنا أحد هذين الشارعين السابقين نجد أنفسنا وقد وصلنا إلى ميدان الرميلة ، ونجد وراءنا جامع السلطان حسن الضخم ، كما نجد أمامنا مباشرة باب العزب . ويصعد إلى هذا الباب عن طريق درج مزدوج إذا كان المرء مترجلا ، أما إذا كان راكباً فإنه يصعد إليه عن طريق مطلعين متقابلين أعدا لصعود العربات .

---

(١) (العنوان الأصلى لهذا الفصل هو «الحالة الراهنة للقلعة» . وبما أن المؤلف كتب كتابه فى سنة ١٨٩٤ م ، فقد رأيت تغيير العنوان على هذا النحو) .

(٢) (هذا الطريق المؤدى من باب زويلة الى ميدان الرميلة (ميدان صلاح الدين) تسمى أجزاؤه بالأسماء التالية: الدرب الأحمر ، وشارع التبانة ، وسكة الماردانى ، وشارع سوق **السلاح**) .

وقد بني باب العزب على الطراز التركي . هذا ويبدو أنه حدثت ببنائه بعض التعديلات عندما جددت عمارته في القرن الحالي (القرن التاسع عشر) والدليل على ذلك أن هناك اختلافا ملموساً بين منظر الباب الحالي ومنظر الباب القديم الذي نجد رسماً له في كتاب وصف مصر ، هذا الاختلاف الذي يبدو واضحاً على الأقل فيما يختص بوضع الدرج المؤدي إليه . وبناء هذا الباب يرجع إلى عهد الاحتلال العثماني لمصر ، غير أن البدنتين اللتين تواجدن على جانبيه واللتين صورت عليهما عصائب حمراء عريضة فإن بناءهما ينسب إلى رضوان كتخدا حوالى عام ١١٦٨ هجرية (١٧٥٤ ميلادية) (١)

فإذا ما مررنا من تحت قبو هذا الباب ، فإننا نجد أنفسنا أمام طريق صاعدمنحوت في الصخر ، لايلبث بعد مسافة قصيره أن يتفرع إلى طريقين . إذا ما نظرنا إلى الوراء ، قبل أن نبدأ صعود هذا الطريق ، فإننا نلاحظ على جانبي باب العزب ، وجود تمثالين لأسدين على قدر كبير من الضخامة . (٢)

لقد قلت آنفاً إن هذا الطريق الصاعد يتفرع بعد مسافة قصيرة إلى طريقين. وها نحن نجد أمامنا عند نقطة التفرع الجامع المعروف بجامع العزب . وكل هذه المنطقة المجاورة لهذا الباب تعرف منذ عهد الأتراك العثمانيين بسكة العزب ، إذ أنها كانت مخصصة لإقامة هذه الطائفة من الجند المعروفة بهذا الاسم ، كما نجد أمامنا ، قريباً من هذا الجامع سبيلا للماء ، إلا أنه أهمل أمره في هذه الأيام. بل إننا نرى أيضاً آثار بعض القنوات التي كانت ممتدة تحت الأرض ، وبقايا بعض النقوش التي يتضح من الطراز التي كتبت به أنها ترجع إلى القرن الخامس عشر الميلادى . وإذا ما تركنا هذه المنطقة وأخذنا الطريق الذي يمتد من نقطة التفرع على يميننا فإننا نجد أنفسنا نسير بحذاء ميدان **الرميلة** . وأما السور الذي يرتفع على امتداد هذا الطريق (والذي نرى بعض المدافع منصوبة عليه الآن) ، فقد جدده الخديو اسماعيل في عام ١٢٨٥ هجرية (٣) .

ثم لايلبث هذا الطريق أن يعود للانحناء ، في زاوية مستقيمة ، إلى اليسار . وها نحن نجد أنفسنا نغذ السير في هذا الامتداد وسط صفين متقابلين من المخازن الحديثة البناء ، هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى وجود بئر على يسارنا ، على رأس الزاوية التي يغير فيها الطريق اتجاهه . ومن الجائز أن هذه البئر هي التي كانت تزود السبيل الذي تحدثنا عنه منذ هنيهة بالمياه وهذا المكان الذي نحن به ، تقوم عليه الاصطبلات السلطانية زمن سلاطين الأيوبيين والمماليك — وكانت هذه الاصطبلات تمتد في هذه الجهة من القلعة بحذاء ميدان الرميلة ، أي على يسارنا . وإذا ما سرنا بين هذين الصفين من المخازن ، فإننا نصل إلى منطقة مملوءة بالخرائب والأنقاض المتراكمة فوق بعضها البعض بحيث يتعذر علينا المرور منها . ومن ثم فإننا نترك جانباً هذه المنطقة ، التي كانت في بادىء الأمر موضعاً للاصطبلات السلطانية ، وفيما بعد مقراً لإقامة الباشوات العثمانيين ثم آل أمرها إلى الخراب زمن الحملة الفرنسية على مصر — نتركها لنواصل المسير في هذا الطريق الصاعد. وها نحن لا نلبث بعد قليل أن نجد أنفسنا أسفل جدران عالية نرى أعلاها هذه الرحبة الفسيحة العالية التي ستتحدث عنها بعد هنيهة .

---

(١) أنظر قبل .

(٢) يبدو أن روجرز بك ينسب هذين الأسدين الى السلطان بيبرس ، غير أن الاسلوب الذى اتبع فى نحتهما، وكذلك مانعرفه من تاريخ هذا السلطان ، لايسمحان بقبول هذا الافتراض — انظر :
ROGERS ; Le blason chez les princes musulmans de l'Egypte et de la Syrie (Bulletin de l'Institut d'Egypte, 2e série, No. I. année 1880. Le Caire 1882.
— (هذان التمثالان لا وجود لهما الآن) .

(٣) انظر قبل .

وهذه الجدران التى جددت وأقيمت عليها الشرفات فى عهد محمد على لاتزال تحتفظ ببعض أجزاء هامة يرجع بناؤها إلى ذلك السلطان الشهير ، الناصر محمد بن قلاوون. وفوق هذه الرحبة العالية يبرز أمامنا مباشرة برج مربع. وهذا البرج هو الذى كان يعرف فى القرن الماضى باسم بيت يوسف ، والذى كانت تصنع به كسوة الكعبة التى ترسل إلى مكة كل عام . وهذا البيت ليس فى حقيقة الأمر سوى القصر الذى أنشأه الناصر محمد بن قلاوون ، والمعروف لدى المؤرخين بالقصر الأبلق . وقد عرف بهذا الاسم لأنه استخدم فى بناء (جدرانه الخارجية) أحجار صفراء وسوداء ، مدماكاً من هذه ومدماكاً من هذه . ولا تزال بعض هذه الأحجار الصفراء والسوداء ترى ملقاة بين الخرائب والأنقاض التى سبق أن أشرنا إلى وجودها على يميننا ، على مقربة من هذا البرج المربع . هذا فضلا عن أن كمية كبيرة منها قد انتزعت من جدران القصر لتستخدم فى تجديد أعلى الجدار ، كما انتزع منه أيضاً قطع كبيرة ، وهى فيما تبدو من الخزف ، كتبت عليها نقوش بأحرف كبيرة زرقاء ، وهى بعض ما تبقى من النقوش الخاصة بالقصر ، وأما الجدران فإنها تظل ممتدة جهة اليمين فوق سلسلة من القبوات التى ترتكز على أكتاف بارزة بحيث تبدو للناظر كما لو أنها درجات سلم متتابعة ، وقد سدت هذه القبوات الآن وأصبحت بمثابة حوائط خلفية للمخازن التى بنيت على امتداد الجدار .

وتحت القصر الأبلق ينحنى بنا الطريق مرة أخرى ، فى زاوية مستقيمة ، لنعود أدراجنا . وإذا ما نظرنا إلى الجدار ، فإننا نتبين على ارتفاع كبير منه نقشاً يشير إلى إنشاء برج على يد الناصر محمد بن قلاوون . غير أن الجدار قد جدد مرات عدة بحيث إننا لم نعد نرى به أى أثر لهذا البرج . وعلى الرغم من ذلك فلا يزال النقش فى مكانه من الجدار ، ومن ثم فإنه يغلب على الظن أن هذا البرج كان قائماً فوق الجدار ثم هدم فيما بعد . وإذا ما واصلنا المسير بحذاء الجدار الذى استخدم كحائط خلفى لبعض المخازن المنشأة حديثاً ، فإننا نصل بعد منعطفين إلى الطريق الصاعد نفسه الذى تركناه منذ هنيهة . والآن ، فلنهبط من هذا الطريق لنصف المربع الكامل الذى يبدأ من النقطة التى هبطنا منها وينتهى على بعد خطوات من باب العزب . ولكى نصف هذا المربع الكامل فإننا نسير مرة أخرى بين صفين من المخازن ، على اليمين وعلى اليسار. غير أننا لانلبث أن نجد أنفسنا أمام شىء لانتوقع وجوده فى هذا المكان . [هذا الشىء هو قطعة من سور القلعة يوجد بها باب ، وكلاهما أعيد بناؤه فى العصر العثمانى ؛ غير أن هيئة الباب ، وهى كل مايسمح لنا بمعرفة طراز بنائه الأصلى ، يذكرنا بالمنشآت العسكرية فى العصر الأيوبى ، ولذلك فإنه لايخالجنى أدنى ريب فى أن هذا الباب هو الباب الذى يسميه المؤرخون العرب باب السلسلة الذى كان يوجد تجاه جامع السلطان حسن . وهذا يعنى أن السور الأصلى للقلعة كان يوجد قبل الغزو العثمانى لمصر داخل هذا السور الحديث لها ، وأن باب العزب هو وذلك السور الحديث إنما يرجع بناؤهما إلى الوقت الذى استقرت فيه طائفة الجند العزب فى هذه المنطقة من القلعة . ومع ذلك فإن باب السلسلة ، وكذلك السور الذى فتح به هذا الباب ، لم يكونا جزءاً من القلعة زمن المماليك (١) . وكان هذا السور ينتهى داخل الاصطبلات السلطانية ، كما كان يوجد بامتداده من الخارج بضعة منشآت ملحقة للقلعة . من بينها الجامع ، وهو فيما يبدو لى جامع الاصطبل الذى أشار إليه المقريزى ، والمقعد الذى كان يعقد به السلاطين مجالسهم منذ عهد السلطان برقوق ؛ وكذلك الحراقة التى لا تعدو أن تكون فى رأيى مجرد قبة بارزة إلى الخارج مقامة فوق باب السلسلة نفسه . وهذه المنشآت جميعها لم يعد لها وجود الآن إذ لم يحرص أحد على المحافظة عليها .

---

(١) فيما يختص بهذا الباب ، انظر عبارة أبى المحاسن التى وردت من قبل .

وفي باطن أحد الجدران السميكة للقبو الذى أقيم فوقه هذا الباب (باب السلسلة) أعدت غرفه لتكون مدفناً لبعض أولياء الله الصالحين . ومن هنا جاءت تسمية هذا الباب –فيما يبدو– بباب الأربعين ، إذ قد جرت عادة المصريين على نسبة المقابر التى لايعرف من دفن بها إلى أربعين ولياً من أولياء الله الصالحين ، أياً كانت أسماؤهم(١)

وإذا ما واصلنا النزول من هذا الطريق فإننا نجد أنفسنا أمام الجامع المشار إليه آنفاً . ولقد سبق أن قلت إنى أعتقد أن السلطان فرج بن برقوق هو الذى بناه . وقد جددت عمارته زمن الأتراك العثمانيين ، كما يستدل على ذلك من النقش المؤرخ سنة ١١٠٩ هـ – ١٦٩٧–١٦٩٨ م ، والذى أوردته فيما قبل .

وها نحن الآن قد عدنا تجاه باب العزب . ومن هناك ندور على أعقابنا تاركين على يسارنا بعض المكاتب التى يقيم بها عدد من الموظفين ، ونسلك مباشرة الطريق الصاعد الذى نحت فى الصخر . فعلى يسارنا نجد أيضاً بعض المخازن . وكان مكان هذه المخازن – فيما سلف ، فى العصر المملوكى – بعض الدور المخصصة لإقامة أمراء المماليك ، من بينها دار الأمير شيخ المحمودى التى حولها إلى جامع بعد أن ارتقى عرش السلطنة وتلقب بالملك المؤيد . وهذا الجامع نجد آثاره على خريطة عام ١٧٩٨م ، وأما الآن فلا وجود له . هذا ، وقد مررت بكل هذه المنطقة فلم أجد بها أى أثر لهذه الدور القديمة . وأما على يميننا ، فعلى العكس لاتزال المنشآت القديمة قائمة ، وقد جدد الجزء الأعلى منها على يد محمد على . وأما نسر القلعة ذو الرأس المزدوج (إذا ما صدقنا ماذكره نيبوهر عنه) ،– وهو الآن لارأس له . فإنه ثابت فى مكانه كالطود داخل الإطار المستطيل الذى يحيط به – غير أنه للأسف الشديد قد أصابه كثير من التشويه بسبب العصائب الكثيرة من الأسمنت التى صبت لتشد الأحجار التى يتكون منها هذا الأثر الغامض الذى أشار إليه بوكوك لأول مرة ، والذى ما زلنا لانعرف على وجه التحديد حقيقة أصله .

وأخيراً فإننا نصل أسفل برج ضخم يسمى على خريطة عام ١٧٩٨م ببرج الطبالين . ولنتوقف فى هذا المكان لحظة . ها نحن نجد أنفسنا فوق ساحة واسعة نرى منها جانباً كبيراً من منظر مدينة القاهرة . وإذا ما نظرنا إلى الجهة المقابلة فإننا نلاحظ وجود قطعة من سور القلعة تتصل بالمنشآت المختلفة التى سبق أن أشرت إليها والتى تستخدم كمخازن . ونحن وقوف فى هذا المكان يكتشف أن هذه المخازن ملاصقة لبعض الدور الخاصة ، غير أن هذه الدور لا تلبث أن تبتعد فجأة عن ظهر المخازن لتخلى المكان لحائط السور . والآن نهبط من فوق هذه الساحة لنسير بحذاء السور متجهين جهة الشمال ناحية باب ضخم كبير حديث البناء يعرف بالباب الجديد ، هذا دون أن يفوتنا أن نشير إلى وجود باب يقع على يسارنا سد منذ منتصف هذا القرن (التاسع عشر) .

والآن نمر من هذا الباب الجديد ذى القبوات العالية الكبيرة . فإذا ما خرجنا منه ، فإننا نجد أنفسنا أمام طريق منحدر ، أعد بعناية فائقة بحيث تستطيع العربات والسيارات المرور فوقه فى راحة ويسر . ولنهبط بدافع الفضول حتى أسفل هذا المنحدر ، إذ أننا نرى نقشاً على السور الذى نسير الآن بحذائه من الخارج . وبقراءة هذا النقش نعرف أن محمد على قام بتجديد عمارة قلعة يوسف (صلاح الدين) فى عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤–١٨٢٥ م) . كما نعرف أنه منذ ذلك الحين نقل الباب إلى مكان أعلى مما كان به السور لكى يتيسر عمل هذا المنحدر ويكون انحداره مريحا للغاية . فى هذه اللحظة ، ونحن فى نهاية هذا المنحدر ، نجد أنفسنا فوق منخفض من الأرض أسفل السور وأسفل هذا الباب المسدود الذى رأيناه من قبل . هناك نرى على يسارنا الباب الجديد ، وعلى يميننا المنشآت المختلفة التى تخفى

---

(١) انى مدين لصديقى العالم أحمد (افندى) زكى ببعض التفاصيل عن الأسطورة الخاصة بأولياء الله الصالحين الأربعين . وسيرد ذكر هذه التفاصيل بهذا الكتاب فيما بعد .

وراءها نهاية السور ، كما نرى وراءها المبنى المخصص لحفظ الوثائق . وهذا المبنى المعروف بالدفترخانة أنشأه محمد على أيضاً فى عام ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨ — ١٨٢٩ م) حسبما يتضح من الكتابة التى كتبت على بابه . وهذا الباب يواجه باب القلعة المسدود .

ونحن نعرف مما ذكره المؤرخون العرب أن دار العدل ، زمن سلاطين المماليك على أقل تقدير، كانت قائمة فى هذا المكان . ودار العدل أنشأها السلطان بيبرس ، أو هو الذى جدد عمارتها على أرجح الأقوال ، ثم أهمل أمرها فى عهد المنصور قلاوون إلى أن جدد عمارتها ابنه الناصر محمد ، لا لتكون داراً للعدل من جديد ، وإنما لتصبح داراً لقارعى الطبول ، ومن هنا كانت تسميتها بالطبلخاناه . وأغلب الظن أيضاً أن هذا البرج الضخم الذى يقع على رأس الزاوية بالسور ، والذى سبقت الإشارة إليه منذ هنيهة ، قد سمى ببرج الطبالين نظراً لوجوده على مقربة من الطبلخاناه .

وزمن قدوم الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨م كان يوجد فى هذا المكان درج كبير، غير أننا الآن لانجد له أى أثر ، ومن المرجح أن هذا الدرج هو سلم المدرج الذى يشير إليه الكتاب العرب ، فعن طريق هذا السلم كان يخرج المرء من القلعة ويصل إلى هذا الشرف العالى المقابل لها ، والذى يعرف بالصره . وهذه الصره لم يعد لها وجود الآن ، فقد سويت بالأرض فى عهد محمد على ليتيسر عمل هذا الطريق المنحدر الذى يؤدى إلى الباب الجديد. وعلى الرغم من ذلك فإن معالم الصرة لا تزال حتى الآن واضحة كل الوضوح .

ويبدو أن هذا المنحدر قد أنشىء فوق المكان الذى كانت تقوم عليه دار الضيافة . وكانت هذه الدار تقع أسفل باب سارية (وهو الباب الرئيسى للقلعة حسبما يذكر لنا المؤرخون) وهذا الباب يسمى أيضا باب الدرفيل ، نسبة لأحد أمراء السلطان بيبرس الذى عرف بهذه الكنية . كما كان يعرف أيضاً بباب المدرج ، نظراً لوقوعه بجوار سلم المدرج ، غير أننى وسط الأقوال المتناقضة التى ذكرها الكتاب العرب قد استطعت ، فيما أعتقد ، تحديد مكان البابين : فأحدهما كان يعتبر جزءاً لا يتجزأ من القلعة ، وثانيهما كان يقع خارجها حسب وصف الكتاب له ، وإن مجرد النظرة العابرة لهذا الجانب من القلعة لتؤكد هذا الرأى . وفى الحقيقة ، لقد كان هناك بابان : أولهما خارج القلعة ، هو ذلك الباب الذى بناه أو جدد عمارته محمد على سنة ١٢٤٠ هـ بعد أن نقل مكانه (إلى أعلى الحائط) ، ومن ثم أصبح يعرف بالباب الجديد . وهذا الباب الجديد يوجد الآن خارج جدار سميك ، وهو بما به من أبراج وبدنات ضخمة يعتبر السور الحقيقى للقلعة . والباب الثانى يوجد بهذا الجدار السميك ، وهو وحده الذى يستحق حقيقة أن يسمى بهذا الاسم (باب القلعة) . وأما الدرج الذى كان لايزال موجوداً حتى عام ١٧٩٨م فلم يختف اختفاء تاماً ، إذ أننا سنرى فيما بعد بعض معالمه . هذا ومن جهة أخرى فإننا سنجد باباً رابعاً شقت فتحته فى هذا الجدار السميك ذاته . وهذا الباب عديم ، وهو من غير شك باب سارية ، وهو الذى يعرف الآن بباب الانكشارية (باب الانكشارية على خريطة عام ١٧٩٨م ، وباب المدافع على خريطة جراند بك) .

هذا هو المدخل الحقيقى للقلعة : أحدهما باب قديم ، والآخر باب حديث . وأما البابان الآخران فيوجدان بجدار قليل الارتفاع وقليل السمك للغاية ، أى أنه مجرد حائط وليس سوراً لقلعة . وأما الباب الذى سده محمد على فيبدو لى أنه كان أصلا أحد البابين (١) فيما مضى ، وعلى وجه التحديد الباب الذى كان يقع خارج القلعة .

---

(١) (هذان البابان — كما يفهم من المتن — هما باب الدرفيل ، وباب المدرج) .

وهكذا نجد أنفسنا أمام ظاهرة فريدة . ولن أعود هنا إلى مناقشة هذه الظاهرة التى سبق لى أن تحدثت عنها ثلاث مرات من قبل . وكل ما فى الأمر أن الفرصة تسمح لى الآن — فيما أعتقد — بأن أقدم للقارىء خلاصة رأيى — فالباب المسدود ، الذى استعيض عنه الآن بالباب الجديد ، مفتوح بحائط يتصل بسور القلعة الذى نراه ، فى هذه اللحظة ، على يسارنا إذا ما اتجهنا بنظرنا جهة هذا الباب ، ومن هذا الباب كان يبدأ سلم المدرج بدرجاته العريضة . وهذا الباب كان يسمى تارة باب المدرج ، وتارة أخرى باب الدرفيل نسبة لأحد أمراء السلطان بيبرس ، الذى أنشأ هذا الباب ما فى ذلك شك . وكان هذا السلم ينتهى عند باب ثان يعرف بباب سارية ، وباب المدرج أيضا — نظراً لأنه كان يقع أيضاً عند طرف سلم المدرج ، ومن هنا كان هذا الخلط بين البابين .

والآن فلندخل القلعة ، وسنرى أن باب سارية على حالة جيدة من الحفظ والصيانة ، ولن يثيرنا بعد ذلك منظر جميع هذه الأبواب ، غير أننا إذا ما لاحظنا هذه الظاهرة الفريدة التى نحن بصدد بحثها من جديد ، والتى تتلخص فى أن هذه الساحة التى عدنا إليها مرة أخرى هى أشبه بمثلث ذى زاوية قائمة يتكون ضلعاه من سور القلعة المحصن ويمد رأس زاويته هذا الحائط القائم خارج السور — لأدركنا على الفور أن الأمر قد استوجب وصل هذين الضلعين من السور بعضهما ببعض عن طريق هذا الحائط . فلماذا استوجب الأمر ذلك ؟. فى الواقع إن بناء هذا الجانب من سور القلعة على هذا النحو يعتبر عيباً فاحشاً ، فهذه الزاوية الواقعة بين ضلعى السور يستطيع الأعداء أن يرابطوا بها وأن يجعلوا عملية الدفاع عن القلعة من الصعوبة بمكان . ومن ثم فإن جندياً مثل بيبرس كان لابد وأن يتبين هذا العيب وأن يعمل على تلافيه ولو جزئياً ببناء هذا الحائط .

وإن الباحث لهذا الوضع على الطبيعة ، بعد كل هذه المناقشات التى أثبتها آنفاً ، لن يكون لديه — فيما يبدو لى — أى شك محتمل فى هذا الصدد . كما أن وجود هذه الساحة العجيبة ، على الدوام ، لم يعد أمراً يستعصى فهمه . ولكى يتيسر فهم جميع ما ذكرته من أدلة وحجج فإنى أحيل القارىء مرة أخرى إلى الفصول رقم ٨ ، ١٢ ، ١٣ من هذا الكتاب . هذا ، وإذا كنت قد عدت إلى الحديث عن هذه الساحة للمرة الأخيرة ، فذلك لأن المنظر الحالى لهذا الباب للقلعة (باب سارية) كان فى حاجة لأن يحدد فى دقة ويوضح تماماً .

ولنغادر هذه الساحة إذاً ، ولندخل داخل السور من باب الشرك الحالى . ولنقل فقط ، قبل مغادرتنا لهذه الساحة المثلثة الشكل ، أنه من المرجح أن السلطان بيبرس بنى بها قصراً لابنه حوالى عام ٦٦٤ هجرية (١) .

وأما باب الشرك هذا فحديث البناء ، فإذا ما أردنا الوصول إلى الباب القديم ، الذى سبق أن أشرت إلى وجوده ، فإن الأمر يستلزم أن يفتح لنا باب صغير من الخشب يقع جهة اليسار ، غير أن هذا الباب الخشبى الصغير مسدود ، ومن ثم فلكى أصل إلى ما وراءه يتعين على أن أقوم بدورة كبيرة . ومع ذلك فلنفترض أن هذا الباب مفتوح ، فإن القارىء الذى توجد بيده خريطة القلعة ستقع عيناه فجأة على سلم يبدو أمامه بدرجاته العريضة كما سيرى أعلى السلم باباً معقوداً على قبو . وسيرى أيضاً فوق الجزء العلوى من عند الباب نقشاً يثبت أن القلعة قد بنيت سنة ٥٧٩ هـ بناء على أمر السلطان صلاح الدين ، وتحت إشراف أخيه وولى عهده أبو بكر (الملك العادل) ، وعلى يد الأمير قراقوش .

والآن لم يعد لدينا أى شك بعد مشاهدة هذا النقش . كما يوجد على مقربة من هذا الباب ، على يميننا ونحن صعود ،

---

(١) أنظر قبل .

خمسة نقوش أخرى ؛ غير أن ثلاثة منها فقط قد نجت من عوادى الزمان ، أحدها باسم السلطان جقمق بتاريخ عام ٨٥١ هـ ، وثانيها باسم السلطان قايتباى فيما بين عامى ٨٧٣ و٩٠١ هـ ، وثالثها باسم السلطان طومان باى بتاريخ عام ٩٠٦ هـ . فأما النقش الخاص بالسلطان جقمق فيخبرنا بعمارة سلم المدرج بباب القلعة . ومن ثم فهذا السلم الذى رأيناه هو سلم المدرج فعلاً ، وهذا الباب هو باب المدرج ، الباب الرئيسى للقلعة ، والذى يعرف أيضاً بباب سارية ، والذى يصفه المقريزى كما لو أنه موجه للقاهرة . وفى الحقيقة ؛ فإنه إذا ما فرضنا أننا خارجون من هذا الباب فإننا ندير ظهورنا فعلاً للقاهرة ؛ وإذا ماتصورنا أن السلم لايزال موجوداً بالهيئة التى رسم بها على خريطة القلعة فى عام ١٧٩٨م ، ثم نزلنا منه فإننا نعود من حيث جئنا نخترق الساحة (السابقة) سائرين بحذاء السور ، ثم نجتاز الحائط المقام أمامه عن طريق باب كان يسمى باب الدرفيل (أوباب المدرج كالباب السابق لأنه يقع عند مدخل السلم المعروف بهذا الاسم) ، وأخيراً نجد أنفسنا تجاه القاهرة تماماً .

ولذلك فإننى أعيد ماسبق أن قلته من أننا الآن أمام الباب الأصلى والرئيسى للقلعة والذى يسمح للقادم من القاهرة بدخولها . وهكذا نجد أنفسنا أخيراً داخل القلعة الحقيقية ، قلعة صلاح الدين . فنحن حتى الآن لم نكن قد رأينا سوى جدران معظمها حديث البناء ، ومنشآت ومبان لم يكن لها فى طابعها الأصلى أية صفة عسكرية ، أى أنها لاتعدو أن تكون مجرد مرافق ملحقة بالقلعة .

وربما يقول البعض إن كل الذى شاهدناه — حتى الآن — مثير للغرابة حقاً ،ولا يصور تماماً الصورة التى يتصورها المرء لإحدى العمائر العسكرية الفخمة كهذه القلعة ، غير أن هذه هى الحقيقة بعينها . ولقد حاولت تفسير هذه الأوضاع الشاذة ، بقدر ما وسعنى من جهد ، فى ضوء العبارات المبهمة والأقوال المتناقضة التى وردت على لسان الكتاب فى وصفهم للقلعة . وفى هذا الصدد ، ليس فى وسعى أن أعود إلى ما سبق أن ذكرته من أدلة وحجج ، وإنما اكتفى بأن أقدم إلى القارىء ماتوصلت إليه من نتائج .

فها نحن الآن أمام باب سارية ، وها نحن ندخل منه ، فأما التصميم الخاص لهذا الباب فهو كما أوضح فان برشم ، من النوع الذى يسميه العرب بالباشورة ، فلكى يصل المرء إلى الباب يتعين عليه أن يصعد السلم عائداً أدراجه . فإذا ما اجتاز الباب وأصبح تحت قبوة يتعين عليه أيضاً أن يتجه فى زاوية مستقيمة جهة اليمين لكى يدخل داخل السور . والسور ، هذه المرة عبارة عن جدار سميك جداً محصن ببدنات وأبراج ضخمة . والآن نصعد فوق السور ، بعد أن نكون قد ألقينا نظرة سريعة على قبو الباب حيث نلاحظ وجود عدة نقوش تعدد ألقاب الناصر محمد بن قلاوون . فإذا ما تتبعنا السور فى امتداده الشمالى الغربى فإننا نسير بحذاء خط (سكة) حديد ، كان يعرف فيما مضى بخط سارية .

وبعد هذه الأبراج التى انهار معظمها ، وهذه البدنات المتداعية يستمر السور فى امتداده . ولن أتعرض ، فى هذا المجال ، لوصف هذه الأبراج والبدنات ، وإنما أترك للأستاذ هرتز ، وهو الرجل المختص ، مهمة دراسة أهم أجزائها من الناحية الفنية . ثم يأخذ السور بالقرب من طرفه الشمالى الغربى فى الابتعاد عن المنازل والكيمان المجاورة التى تختفى قاعدته ،ويبدو أنه يمكن المرء أن يرى عند نقطة ما فى السور قطعة من سور القاهرة متصلة به ؛ وهى القطعة التى كانت لاتزال معالمها باقية زمن المقريزى . ومن وراء السور يبدو الخندق عميقاً منحوتاً فى الصخر . فإذا ماوصلنا إلى الطرف الشمالى الغربى ندور مع السور إلى اليمين جهة الشرق . وفى هذا الجانب يبدو السور جميلاً ومهيباً بعد أن تم ترميمه وبلاطه بالأسمنت منذ زمن وجيز . وفى مواجهتنا يبدو جبل المقطم لا أثر فيه ، كما تبدو ،

على بعد ، جهة اليسار مقابر أمراء المماليك (وهى التى تسمى خطأ مقابر الخلفاء) ، وكيمان البرقية ، وبرج الظفر على رأس زاوية سور القاهرة الذى سيقدم لنا الأستاذ هوز دراسة تفصيلية دقيقة له ، ثم لايلبث السور أن يدور من زاوية مستقيمة تجاه الجنوب الشرقى. وزاوية السور فى هذه الجهة محصنة بتحصينات قوية تقابل برج الظفر بالزاوية المقابلة ، وهذا مما يدل تماماً على أن السور قد بنى لكى يدافع عن نفسه عند أى هجوم يقوم به عدو زاحف من جهة الشمال الغربى ، وليس ضد هجوم من جانب المدينة كما ذكر البعض .

ومن هذه الزاوية يمتد السور بما يشتمل عليه من بدنات وأبراج محاذياً لجبل المقطم . ثم يتوقف ، بعد أن تكون قد تغيرت معالمه نوعاً ما نتيجة للتعديلات الكثيرة التى استجدت به ، على مقربة من أحد الأبواب الذى جددت عمارته كذلك فى الأزمنة الحديثة ، وهذا الباب هو باب الجبل الذى كان فيما مضى أقرب إلى جهة الشمال من مكانه الحالى ، كما نلاحظ وجود سلم هنا له يؤدى إلى أحد الأبراج الضخمة ، وهذا مما يحملنى على الاعتقاد بأنه لابد وأن يكون قد روعى فى التصميم الأصلى لهذا الباب ، الذى كان يعرف فيما سلف بباب القرافة، أن تكون طريقة الدفاع عنه هى نفسها التى اتبعت فى الدفاع عن باب سارية . وهذا الباب الثانى بسور صلاح الدين كان يتوصل منه إلى الخلاء ، كما كان يقع تجاه باب سارية . وكان يصل بين البابين جدار ضخم محصن بأبراج حصينة . وهذا الجدار يبدو وضعه الآن شاذاً ، إذ أنه يقع فى منتصف مايعرف بالقلعة **Citadelle** ، غير أنه ليس فى ذلك مايثير دهشتنا إذا ما تذكرنا ما سبق أن قلته من أننى أعتبر هذا السور ، الذى قمنا بهذه الجولة السريعة حوله ، بمثابة السور الأصلى الوحيد ، ومن ثم فإن هذا السور يشكل ما يشبه بمستطيل ضلعاه الرئيسيان غير متساويين ويقل أقصرهما بدرجة ملحوظة عن الآخر(١) ، وأنه فى كل زاوية من زاويتى قاعدة المستطيل يوجد باب ، أحدهما يتوصل منه إلى المدينة ، وثانيهما يتوصل منه إلى الخلاء . وفيما بعد فتح ، بالجدار الضخم الذى يكون قاعدة المستطيل باب ثالث ليصل بين قلعة الجبل (سور صلاح الدين) وبين القصور (ودور الحريم السلطانية) التى أنشئت جنوبيها فوق هذا النشز العالى أيضاً ، وهذا الباب هو الذى كان يعرف بباب القلة ، كما أن اسم القلة يوجد على خريطة عام ١٧٩٨م فى المنطقة القريبة من هذا الباب (القلعة ، رقم ٦٢ — برج خزنة قلة). وهكذا كان سور قلعة الجبل كما بنى على يد قراقوش سنة ٥٧٩ هجرية .

وأما داخل هذا السور فليس له الآن أية أهمية تذكر ، فنحن لانرى به سوى بعض الطباق (التكنات) المخصصة لإقامة (القوات الإنجليزية) ، وكذلك عدد من المخازن ومكاتب الموظفين ، وأما قائد هذه القوات فيقيم بالقرب من باب سارية ، فى غرفة تقع فوق الباب الجديد(٢) . ومع ذلك ، فمما تجدر الإشارة إليه داخل السور ذلك الجامع المعروف بجامع سارية ، الذى جدد عمارته السلطان سليمان فى عام ٩٣٥ هجرية حسبما يستدل من النقش الموجود به ، ويبدو أن هذا الجامع قد أقيم فى المكان نفسه الذى كان يوجد به الجامع المعروف بجامع قسطه ، ففى داخل قبر بجامع سارية نجد النقش الخاص (بالأمير) قسطه ، وهو الذى سبق أن أوردت نصه من قبل . وعلى مقربة من هذا الجامع توجد تربة ، وهى قديمة فيما يبدو إذ هى محفورة تحت الأرض ، هذا فضلا عما يخبرنا به المقريزى من أنه كان يوجد قديماً عدد كبير من الترب فوق هذا الشرف العالى الذى اختاره صلاح الدين لإقامة قلعته .

وكان هذا الجانب من السور مخصصاً فى عهد الأيوبيين والمماليك لضروب الخدمة العسكرية ولإقامة طباق الجند ، ولإقامة والى القلعة ، وبعض أرباب الوظائف من المدنيين كالصاحب (الوزير) الذى كانت قاعته

(١) أى شكل ترابيز .

(٢) كان ذلك قبل جلاء القوات الانجليزية عن القلعة .

توجد ، فيما يبدو ، على مقربة من باب سارية ، وأما فى عهد سلاطين العثمانيين فقد احتلت طائفة الجند الانكشارية السور كله . هذا وقد سبق أن ذكرت أن قوات الاحتلال الإنجليزية تعسكر به (الآن) .

وعلى باب القلة نقش مؤرخ فى سنة ١٢٤٢ هجرية ، كما يوجد داخل السور وعلى مسافة قريبة جداً من هذا الباب نقشان باسم محمد على بتاريخ سنة ١٢٤٢ هجرية أيضا ، أحدهما على اليسار وثانيهما على اليمين .

والآن وقد طفنا بسور صلاح الدين ، فإننا نستطيع الدخول إلى المدينة السلطانية التى أنشأها ابن أخيه الملك الكامل سنة ٦٠٤ هجرية ؛ هذه المدينة التى تغير معالمها مرات كثيرة لدرجة أنه لم يعد بها — فيما يبدو — أى أثر للمنشآت الأولى التى أقامها الملك الكامل .

وها نحن نرى تجاه باب القلة جامع الناصر محمد بن قلاوون بمئذنتيه المغلفتين بقطع القاشانى الأخضر. وبهذا الجامع باب(١) يعلوه نقش غير كامل ، وهذا الباب يسمح لنا بالدخول إلى صحنه ، فإذا ما نظرنا إلى اليسار نجد رواق القبلة بأعمدته الفخمة التى جلبت من معابد الوجه القبلى ، وعلى وجه التخصيص من الأديرة القبطية حسبما يتضح من طراز تيجان هذه الأعمدة ، وأما القبة التى كانت تعلو هذا الرواق فغير قائمة الآن . وليس هناك ثمة داع للإطالة فى وصف هذا الرواق الآن ، إذ أننى قد سبق أن قمت بوصفه وصفاً كاملاً فى الفصل الثالث عشر.

وهناك باب آخر لهذا الجامع يعلوه أيضاً نقش مؤرخ سنة ٧١٨ هجرية ، ولا يزال لحسن الحظ على حالته الأصلية ، وهذا الباب كان يتوصل منه إلى القصور السلطانية ، غير أنه مسدود الآن ، وأما الباب الذى دخلنا منه فقد كان مخصصاً لدخول العامة . ويبدو أن هذا الجامع كان قائماً منذ السنوات الأولى لإنشاء هذه المدينة السلطانية على يد الملك الكامل ، ثم أعيد بناؤه كلية على يد الناصر محمد بن قلاوون ، كما سبق لى أن ذكرت فى موضع آخر من هذا الكتاب .

وبجوار هذا الجامع مباشرة يقوم الآن جامع محمد على ، وهو الذى سيقوم الأستاذ هوز بدراسته فى شيء من التفصيل . وفيما مضى كان الإيوان قائماً مكان هذا الجامع ، ومن المحتمل أن هذا الإيوان الذى أقامه الملك الكامل قد أعيد بناؤه على يد السلطان بيبرس. وكيفما كان الأمر ، فمن الثابت أن عمارته جددت على يد السلطان قلاوون ، ثم بنى مرة أخرى على يد ابنه الناصر محمد ، وقد عرف هذا الإيوان فى عهد الأتراك العثمانيين بالديوان الناصرى (نسبة إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون) ، ثم عرف بديوان يوسف (نسبة إلى يوسف صلاح الدين) ، وهذه التسمية الأخيرة خاطئة ، وقد سبق أن قمت بتصحيحها فيما أعتقد ، ويتضح من الوصف الذى تركه لنا الكتاب ، شرقيون وغربيون ، لهذا الإيوان أنه كان كثير الشبه بالجامع وقد كان له ، كما كان للجامع ، قبة مغلفة بقطع القاشانى الأخضر . وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الإيوان لا وجود له الآن .

وأما الساحة التى تمتد أمام جامع محمد على فقد كانت ، فيما سلف ، مخصصة لوقوف الأمراء والجند الذين كانوا يدعون للخدمة السلطانية ، كما كانت مخصصة أيضاً لوقوف عامة الناس الذين كانوا يفدون لعرض مظالمهم على السلاطين . وكان العامة يدخلون إلى هذه الساحة عن طريق سور صلاح الدين ، أى أنهم كانوا يجتازون على التعاقب باب الدرفيل ، وسلم المدرج ، وباب سارية ثم باب القلة ، وأما خاصة القوم فقد كانوا لا يسلكون هذا الطريق الطويل ، وإنما كانوا يدخلون من باب السر . وهذا الباب ، الذى اختفت معالمه الآن تماماً ، كان يقع

(١) (هذا الباب هو الباب البحرى المواجه لباب القلعة — أنظر قبل) .

من غير شك على مقربة من المكان بالسور الذى ثبت به النسر الكبير البارز الذى سبق أن تحدثت عنه ، ومن هذا الباب كان يتوصل إلى ساحة الإيوان ، حيث يجد الداخل على يساره مباشرة القصور السلطانية ، وهذه القصور لا تزال توجد حتى الآن بقية من أطلالها الخربة ، — وعلى وجه التخصيص — بعض الأحجار الصفراء والسوداء التى كانت مستخدمة فى بناء القصر الأبلق الذى سبق أن تحدثت عنه فى بداية هذه الجولة التى نقوم بها ،وأما الآن فقد حل مكان هذه القصور هذا الشرف الرائع الذى أعده محمد على، ولكى نصل إلى هذا الشرف، الذى نصبت المدافع على حافته(١) علينا أن نمر بين صفين من الثكنات . هناك ، ونحن وقوف فوقه ، يفتن الناظر بمنظر وادى النيل الممتد أمامه إلى مالا نهاية . فمن هذا المكان شاهد مريت السيرابيوم، وفى هذا المكان يقال: إن صلاح الدين تنبأ فى حديثه مع أخيه الملك العادل بمصير الملك فى أسرته من بعده ، وفى هذا المكان أيضاً حسبما يروى البعض جلس المأمون يتأمل فى شيء من الاستخفاف أرض مصر التى لاتضاهى فى نظره خصوبة أرض العراق .

فنى عهد المأمون كانت قبة الهواء الشهيرة توجد فوق هذا الشرف حيث يطيب الهواء ، وهذا هو السبب الذى دعا صلاح الدين إلى اختيار هذا المكان لإقامة قلعته . حقاً إن المرء وهو واقف بهذا المكان وقد امتدت أمامه ، على بعد ، أطلال مدينة منف القديمة، ونهر النيل العجيب ، والقاهرة المدينة العربية الفاتنة ، ليمر بخاطره ذكريات كثيرة عدة ولا يستطيع مهما أوتى من سحر البيان أن يفصح عن مشاعره وأحاسيسه إزاءها . بل ماذا يستطيع أن يقول المرء بعد هذا الوصف الرائع البليغ الذى عبر به مريت عن شعوره وهو واقف هناك ، هذا الوصف الذى نقلت إلى القارىء نصه من قبل .

وفى وسط هذه الساحة يرتفع أحد الأعمدة ، وهذا العمود لابد وأن يكون أحد أعمدة القصور التى هدمت وعن طريق سلم متعرج يستطيع المرء أن يصل إلى القصر الأبلق، أشهر هذه القصور ، حيث كانت تصنع فى أثناء العصر العثمانى كسوة الكعبة الشريفة ، وأما (الآن) فهذا القصر قد انهار تماماً من الداخل، والشرف الممتد أمامه نصبت عليه المدافع . ويلحظ المرء أسفل القصر، جهة اليمين ، الأطلال المتراكمة التى سبق أن أشرت إليها ، أطلال القصور القديمة التى كانت مقراً لسلاطين المماليك والباشوات العثمانيين من بعدهم ، وأطلال الاصطبلات السلطانية القديمة وغيرها من المنشآت ، وفيما وراء هذه القصور كان الحوش السلطانى ، والسبع قاعات التى تشير خريطة عام ١٧٩٨م إلى موضعها . وهى الآن عبارة عن مجموعة من الخرائب والأنقاض بحيث يتعذر على المرء العبور من بينها ، كما يتعذر عليه ، فيما يبدو، أن يجد بها بعض المعالم المفيدة، اللهم إلا إذا قام بحفائر بها. وهذا من المحتمل أن تكون نتيجة هذا البحث ضئيلة لا تذكر ، وذلك أن هذه الأماكن قد تعرضت على يد الأتراك للكثير من عمليات الهدم والتجديد بحيث ضاعت معالمها الأولى . وعلى الرغم من ذلك ، فمن الجائز أن يجد المرء بها بعض النقوش ، مثل النقش الذى اكتشف حينما قام الخديو إسماعيل بإعادة بناء جدار السور (فى هذا الجانب) وهذا النقش الذى يحمل اسم الأمير جركس الخليلى ، أمير آخور كبير زمن السلطان برقوق ، والمؤرخ فى عام ٧٩١ هجرية ، يوجد مثبتاً بالجدار الجديد على مقربة من النقش الخاص بالخديو إسماعيل الذى يوجد بدوره على مسافة قريبة جداً من باب العزب (على يمين الداخل إلى القلعة من هذا الباب) .

وبعد أن نلقى نظرة أخيرة على هذا المنظر الرائع الممتد على مرأى البصر ، نعود أدراجنا لندور وراء جامع محمد على . هناك نجد وراء الجامع حوشاً تحيط به بعض الدور التى لا أهمية لها .

---

(١) (كان ذلك أيام الاحتلال الانجليزى للقلعة) .

وهذه الدور قائمة فوق المكان الذى كانت تشغله دار الضرب فى عهد الأتراك العثمانيين، ففى هذا المكان أقام محمد على دور حريمه ، مقلداً فى ذلك ربما دون أن يدرى ، عادة سلاطين الأيوبيين والمماليك الذين كانت دور حريمهم فى هذه المنطقة الممتدة من جوار جامع الناصر محمد بن قلاوون ، ووراء الإيوان ، حتى على مقربة من الحوش . وفى هذه الدور القاعة التى كانت تعرف بالدهيشة التى احتفظت لنا الأيام باسمها على خريطة عام ١٧٩٨م .

وما إن ننتهى من المسير بحذاء الجانب الخلفى لجامع محمد على حتى نصل إلى الجدران الخلفية لجامع الناصر محمد بن قلاوون ، وهى فى هذا الجانب على حالة سيئة للغاية ، ومن هناك تبدو لنا وسط الأنقاض بئر مهجورة ، ثم أحد الأبراج الذى يعرف على خريطة عام ١٧٩٨م ببرج الحلزون (القلعة — رقم ٤٨) . وهذا البرج يتصل بالسور الكبير لصلاح الدين ، الذى نقترب منه الآن شيئاً فشيئاً عن طريق حائط حديث البناء . وفى هذا الحائط فتح باب عادى ليس به ما يميزه ، كما يبدو وجوده فى هذا المكان أمراً غير مفهوم ، فإذا عدنا أدراجنا ودخلنا من هذا الباب ، فإننا نرى أمامنا بئر يوسف الشهيرة التى بطل استخدامها الآن . وقد تحدثت عن هذه البئر بما فيه الكفاية بالفصل السادس ، ومن ثم فلا داعى للحديث عنها الآن .

فى هذه اللحظة نكون قد قمنا بدورة غير منتظمة تماماً ، وها نحن نجد أنفسنا من جديد فيما بين جامع الناصر محمد بن قلاوون ، وقاعدة المستطيل الذى على شكل (ترابيز) والذى يتكون منه سور صلاح الدين ، وعلى مقربة من باب القلة ، لقد طفنا الآن بكل هذه المنطقة السابقة من القلعة ، وإنها لمنطقة مثيرة حقاً بكل ما تحمل من ذكريات .

والآن لايتبقى لنا إلا الشىء اليسير فى هذه الجولة التى نقوم بها لنكون قد شاهدنا كل شىء بالقلعة . فمن هذا الباب المجاور لبئر يوسف نستطيع ، إذا ما عطفنا جهة اليمين ، أن نتوغل وسط أنقاض مطابخ (قصور) محمد على حتى نصل إلى أعلى السور الذى هو على درجة كبيرة من التداعى . وقد عرفنا أن هذه الأنقاض كانت فى الأصل مطابخ نظراً لما نراه بها من أفران كثيرة ، غير أن هذه الأنقاض المبعثرة هنا وهناك لاقيمة لها ولاتثير اهتمامنا ؛ وبما أنه يتعذر علينا الطواف بالسور بالمسير فوق بدناته المتشققة ، فإننا ننزل من فوقه لنخرج من القلعة ونلقى نظرة أخيرة من الخارج على هذا الجانب منه . فها نحن الآن ننزل من فوقه عن طريق منحدر مريح يمتد بامتداد سور صلاح الدين . وهذا المنحدر ، الذى يمتد من على يسارنا حتى باب الجبل ، قد أعد فى هذا القرن (التاسع عشر) ، وهو ينتهى بنا إلى الصحراء تجاه جبل المقطم ، فإذا ما نظرنا إلى السور من الخارج ، فإننا نجد أنه يتميز ببعض الظواهر الغريبة . مثال ذلك ، أننا نجد به ثلاثة أبراج نصف دائرية متقاربة جداً من بعضها البعض . وقبل هذه الأبراج الثلاثة بقليل نجد فى منعطف من السور نقشاً نعرف منه أن الباشا العثمانى يين **Yeyen** أنشأ فى سنة ١٢٠٠ هجرية قصراً (سراية) فى هذا الجانب من القلعة . ولذلك فإن هذه القطعة من السور تعرف بهذا الاسم على خريطة عام ١٧٩٨م . وأما فيما يختص بوصف جدران السور ، وهى التى جددت عمارتها على يد محمد على ، فإنى أحيل القارىء إلى الدراسات التى قام بها الأستاذ هوز فى هذا الصدد .

وابتداء من هذه النقطة (أى بعد الأبراج الثلاثة) لافائدة من الطواف بالسور . فقد حلت محله منشآت ومبان حديثة ، كما يتضح من مقارنة الصور الفوتوغرافية التى أخذناها (للزاوية الجنوبية الشرقية من السور) فى عام ١٨٩٢م بالرسوم التى رسمت لها أيام الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨م (١) . كما أن قاعدة السور أخذت تختفى شيئاً فشيئاً

---

(١) (انظر اللوحة رقم ١٤ ، ١٥) .

تحت المنازل المجاورة ، التى ما لبثت أن تكاثرت وأصبحت تكون قرية كاملة تحيط بالقلعة (الركن الجنوبى الشرقى)(١) . وإذا ما قمنا بالالتفاف حول السور ، على شكل زاوية مستقيمة ، من الشرق إلى الجنوب ، ثم من الجنوب إلى الشمال ، فإننا نجد أنفسنا بميدان الرميلة سائرين بحذاء المنطقة التى كان بها الحوش الذى أقامه الناصر محمد بن قلاوون . وفى أثناء طوافنا على هذا النحو نمر أمام نقشين : أحدهما مؤرخ فى عام ٧٩١ هـ ، والآخر مؤرخ فى عام ١٢٨٥ هـ . وبهذا تكون قد انتهت الجولة التى قمنا بها للقلعة .

وإذا ما ألقينا نظرة أخيرة وراءنا فإننا نرى مرة أخرى القلعة كلها : فهذا هو باب العزب ، وهذه هى أحجار القصر الأبلق الصفراء والسوداء ، وهذا هو الشرف الجميل الرائع تبدو من فوقه فوهات المدافع(٢) ، وهذا هو جامع محمد على بمئذنتيه الشاهقتين المدببتين اللتين يبدو منظرهما أكثر غرابة كلما اقتربنا منهما ، وهاتان هما مئذنتا جامع الناصر محمد بن قلاوون ، وأخيراً ها هو ذا سور صلاح الدين يبدو من بعيد فى غير وضوح بكتلته البنائية وبه مئذنة جامع سارية . حقاً إن منظر القلعة يبدو ، دون ما مغالاة ، رائعاً فخماً . وإن المرء لا يملك إلا أن يجد نفسه يتخيل فى إعجاب روعة منظر القلعة فيما مضى بقصورها ذات الأحجار المختلفة الألوان ، وجدرانها الداخلية التى غشيت بقطع القاشانى ، هذه القصور التى كانت — على قول المؤرخين المعاصرين — تحاكى فى روعتها وجمالها قصور الأكاسرة ، إن هذه القصور قد اختفت جميعها الآن ، غير أن أرض مصر ملأى بالكثير غيرها من الأطلال الأكثر روعة والأكثر جمالاً ، وربما لا يحتفظ الإنسان فى خلال القرون القادمة ، عن القلعة وعن موقعها إلا بهذه الذكرى ، ألا وهى أنه من فوق القلعة رأى مريت السرابيوم يبدو بين رمال الصحراء ، ومن فوق القلعة نبتت الفكرة العظيمة الخلاقة التى ما إن نفذت حتى أخذت معالم تاريخ مصر القديمة تبرز إلى الوجود شيئاً فشيئاً بفضل الجهود العلمية الفرنسية .

وأخيراً لايتبقى لى إلا أن أقوم بواجب محبب إلى نفسى ، وهو أن أقدم شكرى إلى ضباط الاحتلال الإنجليزى الذين يسروا لى — عن طيب خاطر — الدخول إلى جميع أجزاء القلعة ، كما قاموا بالترحيب بى واستقبالى أحسن استقبال . كما أخص بشكرى جرنفل باشا ، الرجل المستنير اللطيف المعشر ، الذى كان يشغل وقتذاك منصب سردار الجيش المصرى ، فقد كان يغمر بعطفه ورعايته ، من وقت لآخر ، أعضاء البعثة الأثرية الفرنسية .

كما لايفوتنى أن أشير أيضاً إلى المعونة التى أسداها لى ، فى زياراتى العلمية للقلعة ، صديقى العلامة أحمد (أفندى) زكى ، وحسن (أفندى) سرى الذى تفضل مشكوراً بأن نقل لى النقوش التركية .

وأما السيد جيوه ، موثق قنصلية فرنسا ، الذى وضع تحت تصرفى — على أفضل وجه — مهارته العظيمة كمصور فإليه يرجع فضل التقاط الصور المعروضة فى هذا الكتاب .

وأخيراً لايسعنى إلا أن أقدم مرة أخرى إلى فان برشم موفور شكرى على ما تفضل بأن أسداه إلى من خدمات علمية .

---

(١) (هذه القرية هى الحى المعروف بعرب يسار — انظر الاضافات المرفقة بنهاية الكتاب) .

(٢) (سبق أن أوضحت أن ذلك الوضع كان أيام احتلال الانجليز للقلعة) .

(ملحق)

(ولاة القلعة في عصر سلاطين المماليك)

لقد كان من رأيي — في بادىء الأمر — أن أعالج في هذا الفصل رسوم الخدمة العسكرية التي كانت مقررة بقلعة القاهرة ، غير أنه تبين لى أن معالجة هذا الفصل على هذا النحو يعتبر بمثابة كتابة الجانب الأكبر من تاريخ مصر زمن سلاطين المماليك ، ومن ثم فإن اتساع الموضوع على هذا النحو لم يعد يتراءى لى متمشياً مع حدود مثل هذه الدراسة للقلعة ، التي تعتبر في جوهرها دراسة أثرية ووصفية بحتة ، ولهذا فإننى سأكتفى بمعالجة ما يتعلق فحسب بنظام الخدمة بقلعة الجبل (سور صلاح الدين) .

لقد كانت الخدمة بالقلعة منوطة باثنين من الأمراء : الأول نائب القلعة ، الذى كان يعرف أيضاً بوالى القلعة ، والثانى والى باب القلة . وإليك مايقوله في هذا الصدد ، (الخالدى) صاحب كتاب ديوان الإنشاء الذى يعتبر مرجعاً هاماً عن النظام الإدارى في مصر حوالى سنة ٨٤٠ هجرية ، والذى ستكون نسخته الخطية الثمينة أساسا لهذه الدراسة المزمعة عن رسوم الخدمة العسكرية والمدنية بالقلعة في عصر سلاطين المماليك .

إن المؤلف في تعداده لأرباب الوظائف الرئيسية يميز بين عدة مقاصد ، فأما المقصد الأول منها فيشتمل على ست طباق ، أو بالأحرى على ست رتب يمكن مطابقتها على وجه التقريب بالرتب العسكرية في جيوشنا الحديثة . هذه الطباق الست هى :

١ — طبقة الأمراء المقدمين وتحت إمرة كل منهم ألف جندى ومائة أمير ، وهم بمثابة قواد الفرق الآن .

٢ — طبقة أمراء الثمانين وأمراء السبعينات ، وهذه الرتبة تقابل الآن رتبة العميد ورتبة العقيد .

٣ — طبقة أمراء الطبلخاناه ، وهم أمراء الأربعين ولهم حق ضرب الطبول أمام أبواب بيوتهم ، وهذه الرتبة تقابل الآن رتبة المقدم .

٤ — طبقة أمراء العشرات ، وهذه الرتبة تقابل الآن رتبة الرائد .

٥ — طبقة أمراء الخمسات ، وهذه الرتبة تقابل الآن رتبة الملازم .

٦ — طبقة الجند ، وتشتمل على جند الحلقة والمماليك السلطانية (١) .

وأما نائب القلعة ، فهو بالمرتبة التاسعة من المراتب الاثنتى عشرة المخصصة لأرباب الوظائف من أمراء الطبلخاناه بالمقصد الثالث ، وهو كما ذكر الخالدى ، (المتحدث على الحرسية والأبراج ، وعليه حفظ المعتقلين بها ، وله الأمر على التحرب ، وعلى فتح باب القلعة وغلقه ، وإليه ترفع المحاكمات في القلعة من عامته ، وعليه دركها حين ظهور السلطان منها ، ويقعد (هكذا) أسوارها ومنافذها ، وهو الآمر بعمارة ما يحتاج إليه (٢)) .

وأما والى باب القلة فهو بالمرتبة الخامسة من المراتب الثمانى بالمقصد الرابع الخاص بأرباب الوظائف من أمراء

---

(١) المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الانشا ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ١٥٧٣، كتالوج دى سلين رقم ٤٤٣٩ ، ورقة ١٢٢ أ .

(٢) المخطوطة السابقة ، ورقة ١٢٧ أ ، ب .
— اللقب الرسمى لنائب القلعة هو «نائب القلعة» الشريفة بالديار المصرية» أو «نائب قلعة الجبل المحروس» — انظر الدكتور حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، الجزء الثالث ، ص ١٢٦٣ — ١٢٦٤ .
— كما عرف أيضا نائب القلعة باسم «والى باب القلعة» — انظر فيما بعد ، الصفحة التالية) .

العشرات . وهو الذى يتحدث عنه بقوله ، (... ... ... الخامس والى باب القلة ، وهو الباب الثانى من المدرج ، وهو المتحدث على غلقه وفتحه ، وعليه دركه ، وله جماعة من تحت أمره واقفون به يصرفهم فيما يختاره(١)) .

غير أن الأمر بالنسبة للقارىء الذى يرغب فى متابعتنا يحتاج إلى بعض الإيضاح. فما ذكره الكاتب يفهم أن نائب القلعة كان مكلفاً بحراسة بابها الرئيسى ، باب المدرج ، الذى يدخل منه إلى القلعة عامة الناس ، — حيث إن باب السر كان مخصصاً لدخول الخاصة فقط . كما يفهم منه أيضاً أن باب القلة كان الباب الثانى للقلعة ، الذى طالما رأينا الجند يخرجون عن طريقه من قلعة الجبل (سور صلاح الدين) ليدخلوا المدينة السلطانية ، متجهين إما نحو الإيوان ، أو نحو القصور ، لقد كان باب القلة فعلا فى عام ٨٤٠ هـ الباب الثانى لقلعة الجبل من حيث الأهمية ، وذلك أن باب القرافة ، وهو بابها الثانى ، كان قد بطل استخدامه منذ زمن القلقشندى .

وقد قابلنى أسماء بعض ولاة القلعة فى أثناء قراءاتى لكتب المقريزى ، والجوهرى ، وأبو المحاسن ، وابن إياس ، وهم المؤرخون الأربعة الكبار لمصر فى هذه الفترة ، غير أن هؤلاء المؤرخين لم يحرصوا دائماً ، فيما يبدو لى ، على مراعاة التمييز الواضح تماماً بين نائب قلعة الجبل ووالى باب القلعة (٢) ، هذا التمييز الذى أوضحه الخالدى. فكثيراً ما كانوا يسمون نائب القلعة « والى باب القلعة » ، وحيث إن الاختلاف بين هذا اللقب واللقب الثانى « والى باب القلة » اختلاف بسيط لا يعدو الكلمة الأخيرة فقط ، فقد كان من المتعذر على الناسخ فى أغلب الأحيان أن يكون أمينا فى النقل إما بسبب السهو أو بسبب الجهل وعدم القدرة على التمييز بين اللقبين — وسيجد القارىء فيما يلى قائمة بأسماء ولاة القلعة التى تمكنت من حصرها . وعلى الرغم من أن هذه القائمة ليست كاملة ، فإنها تعتبر — فى رأيى — تكملة ضرورية لهذه الدراسة للقلعة ، وأما فيما يختص بالباشوات الذين أقاموا بالقلعة ، فى عهد السيادة العثمانية ، فإنهم لم يكونوا ولاة للقلعة وإنما كانوا ولاة على مصر كلها . ومن ثم فإن الحديث عنهم يتصل بالتاريخ العام لمصر فى هذه الفترة ، كما أن مجرد ترديد أسمائهم الكثيرة فضلاً عما يثيره فى النفس من سأم وملل يعتبر خارجاً عن موضوع الدراسة .

وإنى أقدم للقارىء أسماء هؤلاء الولاة وألقابهم حسبما وردت على لسان هؤلاء المؤرخين ومرتبة ترتيباً زمنياً ، ودون التمييز بين الوظيفتين (والى باب القلعة ، ووالى باب القلة) لعدم توفر الدقة الكافية فى التعبير .

فأول هؤلاء هو الأمير علاء الدين الطلبوس المنصورى ، الملقب بالمجنون ، والمتوفى سنة ٧٠٨ هـ ، وكان والياً لباب القلعة (٣) .

وفيما بين سنتى ٧٢٠ و ٧٤٠ هـ أمدنى كاتب سيرة محمد بن قلاوون ، الذى نجهل اسمه ، بقائمة كاملة لهؤلاء الولاة . ففى مستهل صفر سنة ٧٢٠ هـ مات علم الدين سنجر الأحمدى متولى قلعة الجبل ، ووليها بعده بيبرس الأوحدى(٤)

(١) المخطوطة السابقة ، ورقة ١٢٨ أ .

— (كان يعرف أيضا باسم «والى القلة» — انظر الدكتور حسن الباشا ، المرجع السابق ، الجزء نفسه ، ص ١٣١٩) .

(٢) (انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة السابقة) .

(٣) السلوك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٧٢ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦ ، ورقة ٣١٨ أ حيث ورد عنه ، (مات الأمير علا(ء) الدين الطلبوس المنصورى . والى باب القلعة الملقب بالمجنون المنسوب اليه العمارة فوق قنطرة المجنون) .

(٤) مخطوطة ميونخ ، رقم ٤٠٠ ، ورقة ١٧٤ ب ، (مات علم الدين سنجر الأحمدى متولى قلعة الجبل... ...وليها بعده بيبرس الأحمدى) — أعتقد أنه بيبرس الأوحدى ، كما يتضح من رقم (١) من الصفحة التالية . هذا واذا كنا نجيز وجود واليين للقلعة باسم بيبرس ، أحدهما بيبرس الأحمدى والثانى بيبرس الأوحدى ، فاننا من جهة أخرى نجيز ما ذكره المقريزى عن وجود ولاة آخرين لها فيما بين سنتى ٧٢١ و ٧٢٦ هـ (انظر الحاشية رقم ٢ من الصفحة التالية .)

إلى أن عزل فى اليوم الثانى من ذى القعدة سنة ٧٣٦ هـ، وخلفه بها كند غدى العمرى (١) غير أن كاتباً آخر يذكر ولاة آخرين للقلعة فى هذه الفترة، وهم عبد الملك الناصرى سنة ٧٢٣ هـ ، وطرنطاى سنة ٧٢٥ هـ، وبهاء الدين سنة ٧٢٦هـ(٢) .

وفى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٧٣٨ هـ خلع على كندغدى بوظيفة أخرى ، وفى العشرين منه عين عوضه فى ولاية القلعة عز الدين أيدمر الزراق أمير جاندار(٣). وظل بها إلى أن خلفه فى مستهل شهر ربيع الأول سنة ٧٤٠ هـ سيف الدين أيدُق ، وفى الوقت نفسه يبرز لنا الكاتب فى وضوح تام الفرق بين هاتين الوظيفتين (والى القلعة أو والى باب القلعة ، ووالى باب القلة) ، وهو الفرق الذى سبق أن أشرت إليه ، فبعد أن ذكر أن سيف الدين أيدق عين والياً للقلعة ذكر أن أزغون شاه ولى باب القلة (٤) . هذا ومن الجائز أن هذه الوظيفة الثانية (والى باب القلة) يرجع إنشاؤها إلى هذه الفترة بالذات .

وفى عام ٧٥٣ هـ كان لكل من باب القلة وباب القلعة واليان ، فقد رتب على باب القلة الأمير على الماردينى والأمير كشلى السلاح دار ، ورتب على باب القلعة (الرئيس) الأمير أرنان والأمير قطلوبغا الذهبى (٥) .

وفى عهد السلطان الأشرف زين الدين شعبان بن حسين بن الناصر محمد (٧٦٤– ٧٧٨ هـ) ، أو ربما بعده ، يذكر الجوهرى فيما يذكره عن الأمير طنيال الماردينى المتوفى سنة ٧٨٩ هـ أنه استقر والياً لقلعة الجبل بعد أن أنعم عليه بإمرة طبلخاناه (٦) .

وفى سنة ٧٨٥ هـ خلع على الأمير سيرج الكمشبغاوى واستقر والى قلعة الجبل عوضاً عن طشتمر المظفرى ، وأضيف إليه إمرة الطبلخاناه ، وإذا ما قارنا الفقرة الأخيرة من هذه العبارة بما ذكره الخالدى ، صاحب ديوان الإنشاء ، عن نائب القلعة (التاسع من بين الأمراء الطبلخاناه أرباب الوظائف) فإنه يتضح لنا ، فيما يبدو ، أن نواب

---

(١) المخطوطة السابقة ، ورقة ١٩٢ أ ، (عزل بيبرس الأوحدى عن ولاية القلعة ووليها كندغدى العمرى) .

(٢) السلوك ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٣٨٥ أ ، (عبد الملك الناصرى والى القلعة) – ورقة ٣٩٦ أ ، (طرنطاى اسماعيل والى باب القلعة) – ورقة ٤٠٠ أ ، «الأمير بها(ء) الدين والى القلعة) .

(٣) مخطوطة ميونخ ، رقم ٤٠٠ ، ورقة ٢٠٠ ب ، (أخلع على الأمير علا(ء) الدين كندغدى العمرى ، والى قلعة الجبل يومئذ ، ورسم له بنيابة البيرة .. عز الدين أيدمر الزراق أمير جاندار وولى قلعة الجبل عوض كندغدى العمرى) .

(٤) المخطوطة السابقة ، ورقة ٢١٠ أ ، (سيف الدين أيدق والى القلعة .. وولى باب القلة أرغون شاه المشرف أمير عشره) .

(٥) النجوم الزاهرة ،المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى ، رقم ٦٦٥ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٦ ، ورقة ٧٨ ب ، (رتب أمير على الماردينى أن يقيم بالقلعة . الأمير كشلى السلاح دار ليقيما داخل باب القلة ، يكون على باب القلعة الامير أرنان والامير قطلوبغا الذهبى) – كما وردت هذه العبارة بنصها تقريبا فى كتاب السلوك (مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٦٧٢ ، ورقة ٦٢٤ أ) . وليس ثمة شك فى أن ابا المحاسن قد نقل هذه العبارة عن المقريزى ، أو عن الكاتب نفسه الذى نقل عنه المقريزى بدوره . غير أنى فضلت نقلها عن أبى المحاسن لأنه هو الذى أملى بنفسه كتابة النسخة الخطية من النجوم الزاهرة رقم ٦٦٥ . (يذكر مصنف كتالوج المكتبة الأهلية بباريس أن هذه النسخة كتبت بخط يد أبى المحاسن نفسه ، وهذا غير صحيح) .

(٦) نزهة النفوس ، الجزء الأول ، ورقة ٨٥ ، (طنيال الماردينى .. وأنعم عليه بامرة طبلخاناه ثم استقر والى قلعة الجبل) .

القلعة أو ولاتها كانوا ، ابتداء من هذه الفترة فقط ، من بين أمراء الطبلخاناه ، هذا وقد توفى الأمير سيرج الكمسبغاوى سنة ٧٩٠ هـ (١) .

وفى هذه السنة ذاتها مات الأمير سبيع والى قلعة الجبل ، وهو الذى يسمى – كما يقول الجوهرى – بوالى القلة (٢) . وقد خلفه ، فيما يبدو ، بحاس النوروزى فى نيابة القلعة ، ذلك أن الجوهرى – وهو الذى يمدنا بهذه التفاصيل – يتحدث عن وفاة سيرج بعد وفاة سبيع وبعد تعيين بحاس فى هذه الوظيفة (٣) . وبحاس هذا هو الذى عهد إليه فى يوم ٢٧ من صفر سنة ٧٩١ هـ بالتحفظ على الخليفة المتوكل (٤) .

وفى سنة ٧٩١ هـ . عين قطلو بك أو قطلوبغا (٥) عوضاً عن بحاس . وفى السنة نفسها استقر صارم الدين ابراهيم فى ولاية القلعة عوضاً عن جابان ، غير أنه سجن فى العام التالى ، ثم مالبث أن أفرج عنه وأعيد إلى منصبه (٦) . وما إن عاد برقوق إلى عرش السلطنة فى العام نفسه حتى عزل صارم الدين وعين عوضاً عنه الأمير سودون النظامى (٧)

وفى عام ٨٠٢ هـ كان الأمير قمارى والياً لباب القلعة ، كما كان الأمير تمربغا والياً لهذا الباب أيضا (٨) ، أو

---

(١) نزهة النفوس ، الجزء الأول ، ورقة ٢٧ ، (خلع على الأمير سيرج الكشغاوى واستقر والى قلعة الجبل عوضا عن طشتمر المظفرى وأضيف اليه امرة الطبلخاناه) .

– قارن ذلك بما ورد فى كتاب السلوك (المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٦٧٣ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٧ ، ورقة ١٤٢ أ) حيث يسمى هذا الأمير سيرج الكمشبغاوى ، واعتقد أن هذه القراءة أفضل – وهذا الأمير يرد ذكر اسمه فيما بعد ، فى مخطوطة السلوك نفسها ، ورقة ١٦٣ أ ، ١٦٥ ب ، مقرونا بلقب «والى باب قلعة الجبل» و «نائب قلعة الجبل» . هذا ، وقد أشار كل من الجوهرى والمقريزى الى وفاته .

(٢) نزهة النفوس ، الجزء الأول ، ورقة ٩١ – يذكر الجوهرى أن فى التاسع عشر من محرم مات الأمير سبيع والى قلعة الجبل ، ويسمى بوالى القلة ، وفى الرابع عشر من جمادى الأولى خلع على الأمير بحاس النوروزى نائبا للقلعة . كما يذكر فيما بعد ، ورقة ٩٨ ، وفاة سيرج نائب القلعة .

(٣) بناء على ماذكر بالحاشية السابقة ، لابد وأن يكون هناك بعض اللبس بما ورد بمخطوطة السلوك ، رقم ٦٧٣ ، اذ أن المقريزى بعد أن أشار الى وفاة الأمير سيرج ، عاد فأشار مرة أخرى الى ذلك . وليس ثمة شك فى أن المقريزى يقصد فى المرة الأولى الأمير «سبيع» ، وهو بهذا يتفق مع ما ذكره الجوهرى ، وأنه يقصد فى المرة الثانية الأمير «سيرج» .

(٤) نزهة النفوس ، الجزء الأول ، ورقة ١٠٣ ، والسلوك ، مخطوطة برقم ٦٧٣ ، ورقة ١٦٧ ب – يذكر كل من الجوهرى والمقريزى هذا الأمير مقرونا بلقب «والى باب القلعة» .

(٥) السلوك ، مخطوطة رقم ٦٧٣ ، ورقة ١٨٩ ب ، (قطلوبك السيفى والى قلعة الجبل) .

– نزهة النفوس ، الجزء الأول ، ورقة ١٣٦ ، (قطلو بك السيفى والى القلة) .

– النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس، القسم العربى رقم ٦٦٦ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٧ ، ورقة ٢٣ أ ، (قطلوبغا الفخرى نايب القلعة) – (النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء الخامس ، ص ٤٥٨) .

(٦) نزهة النفوس ، الجزء الاول ، ورقة ١٥٢ ، (صارم الدين ابراهيم بن بلوغى واستقر فى ولاية القلعة عوضا عن جابان أخى مامق) – وفيما بعد ، ورقة ١٩٠ ، يذكر المؤلف نفسه (أفرج عن الصارم ابراهيم بن بلوغى والى القلعة وأخلع عليه وأعيد الى عادته فى ولاية القلعة) . كما يرد ذكر اسمه مقرونا بهذا اللقب بالسلوك ، مخطوطة رقم ٦٧٣ ، ورقة ٢١٠ أ ، (الصارم بن بلوغى والى القلعة) .

(٧) نزهة النفوس ، الجزء الأول ، ورقة ١٩٥ ، (الأمير سودون النظامى نايب القلعة) – السلوك ، مخطوطة رقم ٦٧٣، ورقة ٢١٠ أ ، (الأمير سودون النظامى والى القلعة) .

(٨) السلوك ، مخطوطة رقم ٦٧٤ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٨ ، ورقة ١٥أ ، (استقر تمربغا والى باب القلة – الأمير قمارى الاسبنغاوى والى باب القلعة) .

– نزهة النفوس ، الجزء الأول ، ورقة ٣٨٤ ، (خلع على الأمير أسنبغا التاجر الدوادار وعلى الأمير قمارى الذى كان والى باب القلعة) .

– النجوم الزاهرة ، المخطوطة رقم ٦٦٦ ، ورقة ٧١ ب، (الأمير قمارى الأسنبغاوى والى باب القلعة ، واستقر تمربغا المحمدى والى نائب (هكذا) القلعة) – (النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٢٥) .

ربما كان أحدهما والياً لباب القلة ، إذ أن النصوص الخاصة بها تبدو كما لو أنها قد حرفت .

وفى عام ٨١٣ هـ . نجد كمشبغا الجمالى نائباً للقلعة (١) . وفى العام التالى عين شاهين الرومى عوضاً عنه (٢) . وبعد ذلك بثلاث سنوات (٨١٧ هـ) جعل الملك المؤيد شيخ فى القلعة الأمير برد بك (٣) ، غير أنه فى هذه الفترة على وجه التقريب ، يبدو أن النائب الحقيقى للقلعة هو الأمير أسنبغا الزردكاش ، الذى وكل إليه أمر تحصينها ، ثم مالبث أن سلم القلعة للأمير يلبغا الناصرى (٤) . وليس ثمة شك فى أن الأمر ليس من الوضوح بدرجة كافية ، وأن هذا الغموض يرجع ، فيما يبدو ، إلى أن المؤرخين لايميزون تمييزاً واضحاً بين الواليين أو النائبين :

والى باب القلعة ووالى باب القلة ، أو نائب باب القلعة ونائب باب القلة .

وفى عام ٨٢٠ هـ قرر فى القلعة الأمير ازدمر حيا (؟) ؛ ثم خلع على الأمير طوغان ، فيما بعد ، نائباً للقلعة . وبعد قليل نجد أن نائب القلعة هو الأمير أحمد الملطى (٥) . وفى العام التالى ورد ذكر الأمير جقمق العلائى بوصفه نائب قلعة الجبل (٦) .

وفى عام ٨٢٧ هـ . كان النائب هو تغرى برمش (٧) ؛ ثم باى بك فى العام الذى يليه . وأغلب الظن أن باى بك هذا هو نفسه تانى بك الذى عزل فى عام ٨٤٢ هـ ، ثم مالبث أن توفى بعد ذلك بثلاث سنوات . ففى عام ٨٤٢ هـ قرر جقمق النورى عوضاً عنه فى نيابة القلعة (٨) . ولم يكد يمضى على ذلك وقت طويل حتى خلع فى العام نفسه

---

(١) السلوك ، المخطوطة رقم ٦٧٤ ، ورقة ٨٢ ب ، (الأمير كمشبغا نائب القلعة) .

ــ نزهة النفوس ، الجزء الاول ، ورقة ٥٦٤ ، (الامير كمشبغا الجمالى نائب القلعة) .

(٢) السلوك ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٩٦ ب، (ولى نائب القلعة شاهين الرومى عوضا عن الأمير كمشبغا الجمالى) .

ــ نزهة النفوس ، الجزء الثانى ، ورقة ١٢ ، (ولى نيابة القلعة شاهين الرومى عوضا عن الأمير كمشبغا الجمالى) .

(٣) نزهة النفوس ، الجزء الثانى ، ورقة ٤٩ ، (وجعل فى القلعة الأمير بردبك قصقا (؟)).

ــ النجوم الزاهرة ، المخطوطة رقم ٦٦٦ ، ورقة ١٤٤ب، (وجعل بقلعة الجبل الأمير بردبك (هكذا) قصقا(؟)) .

ــ (النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس، ص ٤٦٢ ، ٥٥٧ . ورد اسم هذا الأمير بهذه الطبعة على هذا النحو : بردبك قصقا الخليلى الظاهرى) .

(٤) السلوك ، المخطوطة رقم ٦٧٣ ، ورقة ٢٧١ ب، المخطوطة رقم ٦٧٤ ، ورقة ١٠٠ب (وقد استعد الأمير أسنبغا الزردكاش لتحصين قلعة الجبل وشحنها بالغلال والزاد) .

ــ السلوك ، المخطوطة رقم ٦٧٣ ، ورقة ٢٧٤ ب ، المخطوطة رقم ٦٧٤ ، ورقة ١٠٣ أ ، (الأمير أسنبغا يسلم قلعة الجبل الى الأمير يلبغا الناصرى ، فنزل الأمير يلبغا بمفاتيح القلعة).

(٥) نزهة النفوس ، الجزء الثانى ، ورقة ٨٤ ، ٩٤ ، ٩٦ .

(٦) النجوم الزاهرة ، مخطوطة رقم ٦٦٦ ، ورقة ١٨٨ب ، (الأمير جقمق العلائى نائب قلعة الجبل وأحد مقدمى الألوف ، المعروف بأخى قصروه جاركسى الخليلى المصارع) .

(٧) السلوك ، المخطوطة رقم ٦٧٤ ، ورقة ٤٥٤ ب، (أورد المقريزى فى هذه الورقة ترجمة قصيرة عن حياة هذا الأمير) .

(٧) نزهة النفوس ، الجزء الثالث ، ورقة ١٣٧ ، (خلع على الأمير باى بك نائب القلعة) .

ــ بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٥٩٥ أ ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٢ ، ورقة ٣٥٥ أ ، (قرر جقمق النورى فى نيابة القلعة عوضا عن تانى بك) ــ (لم يرد اسم هذا النائب فى طبعة بولاق) .

ــ السلوك ، مخطوطة رقم ٦٧٤ ، ورقة ٤٥٤ ب، (تانى بك الجقمقى نائب القلعة) .

ــ بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٣٦١ ب، (توفى تانى بك نائب القلعة) ــ (لم يرد اسم هذا النائب فى طبعة بولاق) .

وعين بدلاً منه الأمير تنبك البردبكى (١) ، ثم عين فى عام ٨٤٩ هـ الأمير تغرى برمش ، ومن الجائز أن يكون هذا الأمير هو الذى سبق أن عين نائباً للقلعة فى عام ٨٢٧ هـ ، وكيفما كان الأمر فقد أخرج إلى القدس بطالا يوم الخميس ١١ من صفر سنة ٨٤٩ هـ ، استقر عوضاً عنه الأمير يونس. وهذا الأمير الذى توفى بالطاعون فى سنة ٨٦٤ هـ، فقد أورد له أبو المحاسن ترجمة لحياته على جانب كبير من الأهمية (٢) . ومن هذه الترجمة تعرف أنه ظل فى وظيفته إلى أن خالفه بها فى سنة ٨٥٧ هـ الأمير قانى باى الأعمش . وبعد وفاة قانباى فى سنة ٨٦٠ هـ استقر فى نيابة القلعة الأمير سودون النوروزى السلاح دار (٣) . وهذا الأمير قد أدركته الوفاة فى سنة ٨٧٢ هـ، وعين خلفاً له الأمير كسباى المؤيدى (٤) . وعلى الرغم من ذلك ، فقد ورد فى سنة ٨٦٥ هـ ذكر الأمير خير بك القصروى بوصفه نائب قلعة الجبل ، إلا أن الراوى يستطرد فيخبرنا أنه (ترك باب المدرج .. ... وبقى باب القلعة بغير ضابط (٥)) وهذا مما يؤيد الرأى الذى سبق أن أوضحته من قبل ، وهو أن نائب القلعة كان يقوم بحراسة باب المدرج . وهذه العادة لم تندثر تماماً ، إذ فى (أيامنا هذه (٦)) ، يقيم قائد قوات الاحتلال الإنجليزية بالقلعة بجوار باب سارية ، أو باب المدرج ، مباشرة .

وفى عام ٨٧٢ هـ . عزل سودون البردبكى نائب القلعة ، وقرر عوضه تغرى بردى طنطر الظاهرى(٧) .

---

(١) النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى رقم ٦٦٧ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٨ ، ورقة ٧٧ أ ، (خلع على الأمير تنبك البردبكى أحد أمراء الألوف باستقراره فى نيابة قلعة الجبل عوضا عن تنبك النوروز الجقمقى) .

ـ (النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السابع ، ص ٣٧) .

ـ السلوك ، المخطوطة رقم ٦٧٤ ، ورقة ٤٥٥ أ (أشار المقريزى الى تعيين تنبك فى شهر ربيع الاول ٨٤٢ هـ) .

(٢) النجوم الزاهرة ، المخطوط رقم ٨٠٩ تكملة ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٩ ، ورقة ١١٠ أ ، (وتوفى الأمير سيف الدين يونس بن عبد الله العلائى الناصرى ، الأمير آخور كبير، بالطاعون فى باكر يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى .. وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق .. نقله الملك الظاهر (جقمق) الى نيابة القلعة بعد نفى تنرى برمش الفقيه واخراجه الى القدس فى سنة تسع واربعين .. الخ) ـ قارن ذلك بما ورد عن هذا الامير بالنجوم الزاهرة ، المخطوطة رقم ٦٦٧ ، ورقة ١٠٨ أ ، ١١٤ ب .

ـ (انظر النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السابع ، ص ٦٣٥ ـ ٦٣٧) .

(٣) النجوم الزاهرة ، المخطوطة رقم ٨٠٩ تكملة ، ورقة ٧٣ ب ، (قانباى الأعمش) ، ورقة ٨١ ب (سودون النوروزى) ، ورقة ١٠٢ أ حيث يترجم أبو المحاسن للأمير قانباى بقوله (توفى الأمير قانى باى بن عبد الله الناصرى الأعمش نائب قلعة الجبل بها فى ليلة الخميس السابع عشر من ذى القعدة ، وعمره زيادة على الستين . وكان أصله من مماليك الناصر فرج .. وولاه الملك الأشرف هذا (اينال) بنيابة القلعة بعد توجه يونس العلائى الناصرى الى نيابة الاسكندرية فى شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين ، فدام فى نيابة القلعة والى أن مات .. الخ) .

ـ (انظر النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السابع ، ص ٥٩٠ ـ ٥٩١) .

(٤) النجوم الزاهرة ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٨٦ أ (فى يوم الأحد السادس والعشرين من ربيع الآخر مات الأمير سودون السلاح دار نائب قلعة الجبل ، واستقر كسباى المؤيدى نائب قلعة الجبل) ثم فيما بعد ، ورقة ١٠٤ ب ، يترجم له أبو المحاسن بقوله (توفى الأمير سيف الدين سودون النوروزى المعروف بالسلاح دار نائب قلعة الجبل .. وله نحو سبعين سنة . وكان من مماليك نوروز الحافظى نائب الشام .. جعله الملك الأشرف اينال نائب قلعة الجبل بعد موت قانى باى الناصرى الأعمش ، فدام فى نيابة القلعة الى أن مات .. الخ) .

(٥) المخطوطة السابقة ، ورقة ١١٨ أ .

ـ (جاء فى ترجمة حياة الأمير «عبد الله سودون القصروه» أنه كان نائبا لقلعة الجبل فى سنة ٨٦٥ هـ ـ انظر الدكتور حسن الباشا ، المرجع السابق ، الجزء نفسه ، ص ١٢٦٣ ـ ١٢٦٤) .

(٦) يشير الكاتب الى حالة القلعة فى نهاية القرن التاسع عشر .)

(٧) النجوم الزاهرة ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٥١ ب، (تغرى بودى طنطر الظاهرى نائب قلعة الجبل بعد عزل سودون البردبكى الفقيه المؤيدى) .

وفى عام ٩٠٣ ﻫ . نجد بهذه الوظيفة الأمير بيبرس ، ثم الأمير قنبك أبو شامه . وبعد ذلك بعامين نجد الأمير جان بلاط نائب القلعة ، ثم استقر عوضه فى نهاية هذه السنة الأمير أرزمك الأبح ، وذلك بعد أن ارتقى عرش السلطنة السلطان جان بلاط (ذو القعدة سنة ٩٠٥ ﻫ (١)

وفى ١٩ من شعبان عام ٩١١ﻫ . خلع السلطان طومان باى (٢) على الأمير طوخ المحمدى والياً للقلعة (٣). غير أنه فى مستهل العام التالى كان الوالى هو الأمير طقطباى العلائى (٤) ، ويبدو أنه ظل فى منصبه حتى ٢٠ من رمضان عام ٩٢٢ﻫ . ففى هذا التاريخ عين حاجباً للحجاب واستقر عوضه فى نيابة القلعة الأمير تانى بك الأشرفى (٥) ، وأما آخر نواب القلعة فهو الأمير خير الدين الذى كثيراً ما يرد ذكره على لسان ابن إياس مصحوباً « بلقب نائب القلعة » (٦) . هذا ، وقد رأينا فيما سبق ، أنه فى اليوم السابع والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ٩٢٦ ﻫ بطل العمل بما كان قد تبقى من نظام القلعة زمن سلاطين المماليك ، واستعيض عنه بالقانون العثمانى (٧) . وأغلب الظن أن وظيفة نائب القلعة قد ألغيت فى ذلك الوقت .

---

(١) بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس القسم العربى رقم ٥٩٥ ب ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٣ ، ورقة ٥٧ ب ، (قوربيبرس فى نيابة القلعة) ، ورقة ٥٩ أ (الأمير قنبك أبو شامة نائب القلعة) ، ورقة ٧١ أ (نائب القلعة الأمير جان بلاط الأبح) ، ورقة ٧٣ أ (اخلع على الأمير ارزمك واستقر به نائب القلعة عوضا عن الأمير جان بلاط الأبح) .

(٢) فى هذا العام كان السلطان هو قانصوه الغورى ، فقد تولى السلطة من سنة ٩٠٦ حتى سنة ٩٢٢ ﻫ) .

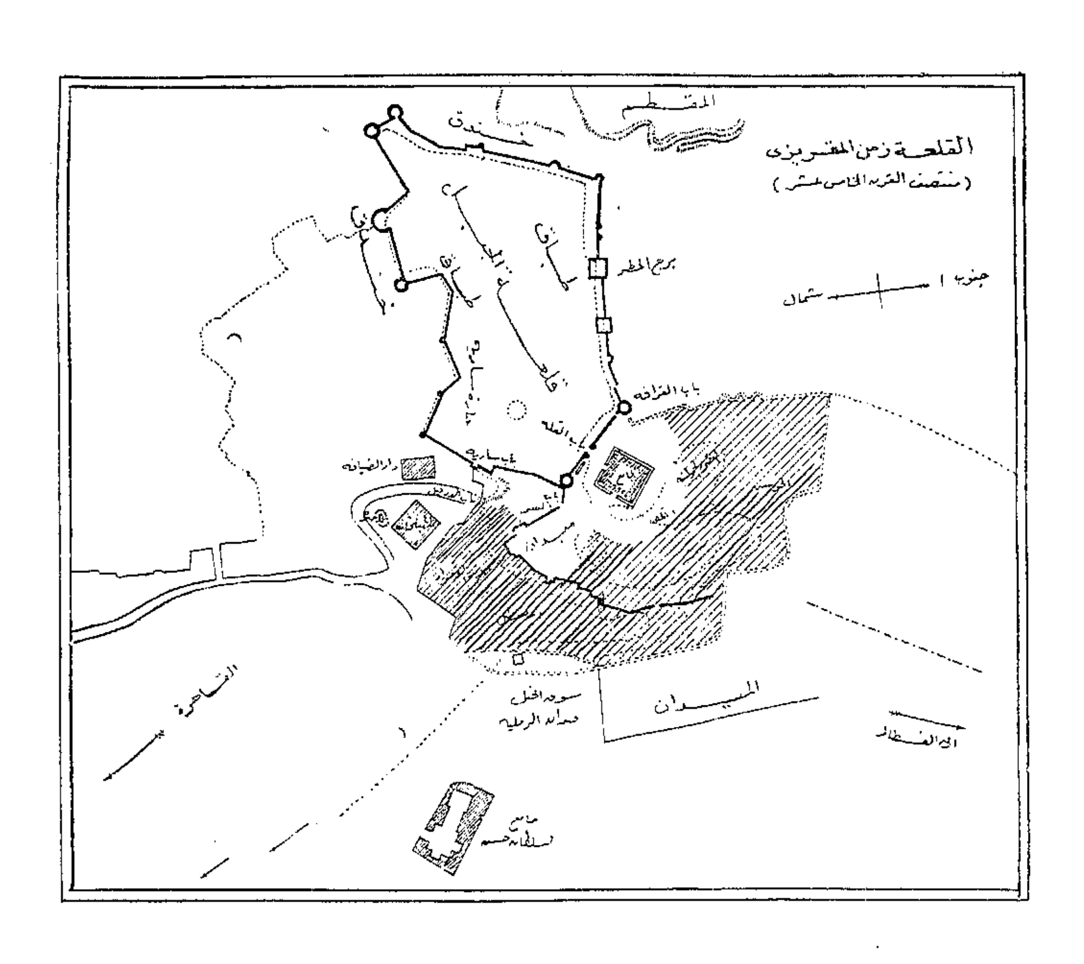
(٣) بدائع الزهور ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٨٢ ب (اخلع على الأمير طوخ المحمدى والى القلعة) .

(٤) المخطوطة السابقة ، ورقة ٨٤ ب (الأمير طقطباى العلائى نائب القلعة) ــ ويبدو أنه الأمير طقطباى هو الأمير نقطباى الذى ورد ذكره فى هذه المخطوطة فيما بعد ، ورقة ١٢١ ب .

(٥) المخطوطة السابقة ، ورقة ١٣١ ب (اخلع على طقطباى العلائى نائب القلعة وقرر حاجب الحجاب) . ورقة ١٣٢ أ (واخلع على شخص يقال له تانى بك الأشرفى وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن طقطباى) .

(٦) المخطوطة السابقة ، ورقة ١٨٨ أ ، ٢٠٦ أ ومايليها (خير الدين نائب القلعة) ــ وقد ظل اسم خير الدين هذا يذكر مصحوبا بهذا اللقب حتى يوم ٢٤ من ذى الحجة سنة ٩٢٦ ﻫ (المخطوطة نفسها ، ورقة ٣١٥ أ) .

(٧) أنظر قبل .



القلعة زمن المقريزي
(منتصف القرن الخامس عشر)
المقطم
خندق
برج المطر
جنوب
شمال
باب القرافة
الميدان
القاهرة
إلى الفسطاط
دار الضيافة
سوق الخيل
جامع السلطان حسن

اضافات[1]

ص ٣٨ — ورد على لسان ابن إياس أن القنطرة الجديدة قريبة من زقاق الكحل ، أنشأها الأمير قدادار فى عهد محمد بن قلاوون (بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ١٦٥) وليس ثمة شك فى أن هذه القنطرة التى يتحدث عنها هى قنطرة جوهر بعد أن جددت ، فهذا واضح من تحديده مكانها بالقرب من زقاق الكحل .

— (عرفت أيضاً هذه القنطرة بقنطرة قدادار ، الذى كان والياً للقاهرة فى عهد محمد ابن قلاوون . انظر الدكتور محمد مصطفى زيادة : حركة البناء والتعمير فى عصر الناصر محمد (نص منقول عن السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، القسم الثانى ، الجزء الثانى ، المجلة التاريخية المصرية) (المجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦٠ — ١٩٦٢ ، ص ٢٤٣) .

ص ٥٧ — بالإضافة إلى كل الذى قلته عن البرج الثانى ، إليك هذا النص عن القلقشندى (كتاب مختصر صبح الأعشى ، مخطوطة جوته ، رقم ١٦١٩ ، ورقة ١٣٤ ا) الذى يؤكد بصفة قاطعة ما ذهبت إليه فى هذا الصدد . يقول ، (وابتنى (قراقوش) برجين عظيمين أحدهما بالمقس ... ... والثانى بباب القنطرة جنوبى الفسطاط)

ص ٦١ — من الغرابة بمكان أنه كان يوجد فى سنة ٧٤٧ هـ قبة أخرى تعرف بقبة الهوا ، وهى كما ذكر ابن إياس «قبة الهوى» (هكذا) تحت القلعة » — انظر بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ١٥٩٥ ا (كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٢) ، ورقة ١٦١ ا — طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ١٨٥ ، س ٥ ، ٨ ، ١٣ حيث وردت « قبة الهوا » — هذا ولم أجد أية إشارة أخرى عن هذه القبة فى أى مرجع آخر غير ابن إياس ، ومن المحتمل أن تكون هى « قبة النصر » غير أن هذا الاحتمال مشكوك فيه لأن قبة النصر بعيدة جداً عن القلعة .

ص ٦٨ ، س ١١ — يذكر مييّه MAILLET فى روايته لهذا الحوار (الذى دار بين صلاح الدين وأخيه العادل) أن شيركوه Sirocoé هو أخ صلاح الدين . وواضح أنه يخلط بين شيركوه عم صلاح الدين وبين أخيه العادل . انظر : Description de L'Egypte, p. 106.

(١) (العنوان الأصلى كما جاء بالأصل الفرنسى للكتاب هو « تصحيحات واضافات » ، وقد رأيت اثبات التصحيحات بالمتن وأفراد هذا الفصل للاضافات فقط) .

ص ٧١ — هذه الآية الكريمة ، (إنافتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً) ، التي وردت بهذا النقش ، يذكر REINAUD أن شاه رخ (سلطان التيموريين) رددها عشية إحدى المعارك التي خاضها اثنتي عشرة ألف مرة — انظر :

REINAUD : Description des monuments arabes persans et turcs, etc. du cabinet du duc de Blacas, I, p. 245, II, pp. 215, 299.

ص ٧٥ ، س ٢٠ — هناك رواية أخرى محورة لقصة يوسف ترجع إلى العصر التركي ، وتخبرنا هذه الرواية ، حسبما جاء على لسان بعض الكتاب الموثوق بهم ، أن جامع قلاوون ينسب إلى صلاح الدين — انظر :
BAEDEKER : Lower Egypt, 2e éd., anglaise, Leopzig, 1886, p. 264.
(غير أن الطبعة الألمانية الحالية لهذا الكتاب (سنة ١٨٩٧م) قد تلاشت هذا الخطأ) .
— هذا وقد ورد بالمخطوطة ، رقم ٣٩٩ ، مكتبة ميونخ ذكر « جامع يوسف قلاوون » .

ص ٧٨ ، ٧٩ ورد بالنقش كما قرأته ، (... ... ... القلعة القاهرة المجوارة المحروسة القاهرة) غير أن قراءة فان برشم ، (القلعة القاهرة المجوارة محروسة القاهرة) هي الأصح . فقد وردت هذه القراءة « محروسة القاهرة » التي تبدو غريبة على القارىء لأول وهلة على لسان الجبرتي — قارن ذلك بما ورد بالصفحة الأخيرة من المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربي ، رقم ١٤٩٩ كتالوج دى سلين (الخالدى : المقصد الرفيع .. ..) حيث يقول ناسخ المخطوطة إنه تم نسخها « بمحروسة مدينة السلام » .

ص ٧٩ — انظر ، في هذا الصدد ، ص ٧٠١ والحاشية المرفقة بها .

ص ٧٩ ، حاشية ٥ — تحت هذا العنوان (Les études architecturales) كان من المفروض أن يقوم هرز ، باشمهندس الأوقاف بالقاهرة (وقتذاك) بنشر عدد كبير من اللوح والملاحظات عن العناصر المعمارية المميزة لأسوار القاهرة والقلعة . وكان من المفروض أن تلحق هذه اللوح وهذه الملاحظات بنهاية هذا الكتاب ، غير أن أشغال هرز المتعددة أجبرته على إرجاء نشر ذلك فيما بعد .

ص ٨٣ — سيرد وصف هذه البئر (بئر يوسف) من الناحية المعمارية في الدراسة التي يزمع هرز القيام بهـا .

ص ٨٦ ، حاشية ٣ — يتضح من كتاب REY عن : Les colonies franques de Syrie, p. 19 أن مدينة وقلعة الكرك تنفرد ، من بين قلاع الصليبيين بسورية ، بوجه الشبه بينها وبين قلعة القاهرة .

ص ٨٦ — بالإضافة إلى تسمية هذه البئر «بئر الحلزون » والبرج المجاورلها « برج الحلزون » فقد ورد في زبدة كشف الممالك لخليل بن شاهين الظاهرى ذكر « منارة الحلزون » — انظر زبدة كشف الممالك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربي رقم ١٧٢٤ ، كتالوج دى سلين ، ورقة ٥٦ ب .

ص ٨٦ ، حاشية رقم ٢ — بالإضافة إلى ما ذكرته بهذه الحاشية عن وجود تربة لأحد أولياء الله الصالحين بهذه البئر بالمكان الذى يتصل فيه قسما البئر بعضهما ببعض ، فقد ذكر متن وليام جروف William Groff ، في جلسة المعهد المصرى المنعقدة في أول مارس ١٨٩٥ م ، أن هذا الشيخ يسمى « عبد الله الحلزون » — وقد كنت ، شخصياً ، تمكنت من قراءة اسم « عبد الله » المكتوب على هذه التربة في

ضوء شمعة خابية الضوء ، ولم أتمكن من قراءة بقية الاسم ، كما لم أعلق وقتذاك على ذلك الاسم أهمية كبيرة . هذا ويضيف وليام جروف إلى قوله السابق أن القصة التي تروى عن الدور الذى قامت به هذه الشخصية فى إنشاء البئر لا تستحق أى اهتمام . انظر :

Journal Officiel d'Egypte, No. 8, du lundi 20 Janvier 1896, p. 2, note 8.

— وليس هناك ثمة شك فى أن هذا الشيخ سمى بالحلزونى نسبة إلى البئر .

ص ٨٩ — حقاً إن كلمة « استجد » تعنى فى اللغة الفرنسية كلمة innover — أى أنشأ شيئاً جديداً « ولا تعنى كلمة renouveller — أى جدد » — فإذا كان المقريزى يعنى بكلمة « استجد » هذا المعنى الأول فقد أخطأ التعبير ، وذلك أن النص الذى ذكره الكاتب القبطى لا يترك مجالا للشك فى أنه كان يوجد بالقلعة إيوان على عهد الملك الكامل .

ص ٩١ — هذا هو ما كان يحدث تماماً زمن الخلفاء الفاطميين فى الفضاء الواقع بين القصرين — انظر الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٨ .

ص ٩١ — الملك الكامل هو الذى أنشأ الميدان تحت القلعة فى سنة ٦١١ هـ — انظر فى هذا الصدد نص المقريزى الذى أوردته من قبل وكذلك نص القلقشندى الذى أوردته من قبل .

ص ٩٣ — حاشية رقم ٣ — يضاف إلى ذلك ما ذكره المقريزى بالخطط ، الجزء الثانى ، ص٣٧٧، س٣٢ ، ونصه ، (وكان (الكامل) يحب العلم وأهله ... ... وكان يبيت عنده بقلعة الجبل عدة من أهل العلم على أسرة بجانب سريره ليسامروه ، وكان للعلم والأدب عنده نفاق) .

ص ٩٤ — لقد سبق أن قام بالتعريف بهذه الكوة فروين Froehn — انظر مقاله :

Antiquitatis Muhummedanae : Monumenta varia, Saint-Petersbourg, 1822, II, p. 42, note. (Bulletin de l'Académie des Sciences, Vol. VIII).

ص ٩٩ — عن المعنى الحقيقى لكلمة « مرتبة » انظر فيما بعد ، ص ٦٨٥ .

ص ٩٩ ، ١٠٠ — لقد قام (حديثاً) كل من جولدزيهر وكليرمونت جانو ببحث مصطلح « الخليلية » — انظر :

GOLOZIHER : Zeirschrift des deutschen Palestina vereins, 1894, p. 119 et note
CLERMONT — GANNEAU : Revue archéologique, 1894, p. 133 et note.

فى مقاله عن سيدنا إبراهيم ، نقلا عن العبدرى ، يشير جولدزيهر بصفة خاصة إلى العبارة التى وردت على لسان هذا الكاتب عن « نوبة الخليل » التى تضرب على دقات الطبول والمزامير وغيرها من الآلات الموسيقية وقت العصر . وقياساً على هذا يفسر مصطلح « الخليلية » الذى ورد فى نصوص المقريزى .

وكذلك كليرمونت جانو ، فى محاضراته التى ألقاها بكوليج دى فرانس وفى المقال الذى نشره ، والذى سبق أن أشرت إليه ، يؤيد هذا التفسير الذى قال به جولد زيهر .

غير أنى بعد أن أعدت التفكير من جديد فى معنى هذا المصطلح لا يسعنى إلا التمسك بالمعنى الذى شرحته له ، وهو أن « الخليلية » عبارة عن «آلة من نوع الطبول » فنص المقريزى ، ونص ابن إياس ، اللذان ورد بهما هذا المصطلح لا يفهم منهما سوى هذا المعنى . وأما نص الجوهرى فيفهم منه أن المقصود بالخليلية هو مبنى الطبلخاناه ، وكلمة « طبلخاناه » مرادفة لكلمة « طبل » فعبارة مجير الدين التى يشير إليها جولد زيهر ونصها ، (عين الخدام وهى عند الباب الذى تدق عنده طبلخاناه) يتضح منها أن الجملة الأخيرة مرادفة لعبارة المقريزى « تدق الخليلية »

ومن هذا كله فإنى أستخلص أن « الخليلية » بالنسبة للشعب المصرى مرادفة « للطبلخاناه » . فالخليلية نوع من الطبول وليست نوبة ، لأن النوبة بالقلعة تسمى «نوبة خاتون » وليس « نوبة الخليل » ، وأنها كانت « تدق بالخليلية » .

وبعد ، هل لنا أن نتساءل عما إذا كانت « الخليلية » نسبة إلى سيدنا إبراهيم الخليل ، أم إلى « أم خليل » كنية شجر الدر ؟ إن هذا مالا أستطيع الإجابة عليه ، غير أنى أميل إلى نسبتها إلى أم خليل نظراً للطابع المصرى لهذه الخليلية .

هذا ويجدر الإشارة إلى أن نص ابن إياس عن الخليلية قد سقط من طبعة بولاق . وقد سبق أن لاحظ فان برشم أن هذه الطبعة أكثر إيجازاً عن النسخة الخطية لبدائع الزهور بالمكتبة الأهلية بباريس — انظر : (Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte, I, p. 245, note 3 ; fin).

ص ١٠٢ — يضاف إلى هذه الأبراج برج الحية الذى أشار إليه ابن إياس فى أثناء حديثه عن عهد الأشرف خليل بن قلاوون (بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ١٢٤ ، ٣٥٠) .

ص ١٠٣ ، حاشية رقم ٢ — يفسر ياقوت كلمة « قلة » بأنه مكان للمراقبة قائم فوق جبل . والقلة بهذا المعنى مماثلة لدرجة ما للأبراج(الحالية) بالجزائر — انظر Géographie Wörterb, IV, p. 535. حيث ورد بها هذه العبارة ، (مشار قلة فى أعلى موضع من جبال حراز) .

والقلة بقلعة من القلاع هى البرج الذى يعتبر بمثابة الملجأ الأخير بها والذى تتعلق به آمال أفراد الحامية فى نهاية المطاف ،وبمعنى آخر هى قلعة داخل القلعة ، وهذا ما يميز سور صلاح الدين بالنسبة لمجموع قلعة القاهرة .

— عن هذا المعنى الخاص للقلة بقلعة من القلاع انظر العبارة العظيمة الدلالة ،فى هذا الصدد، لابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، طبعة .Tornberg ، الجزء العاشر ، ص ٤٩) ، ونصها ، (والتجأ فضلون . (الأمير المحاصر) إلى قلة القلعة ، وهى أعلى موضع فيها ، وفيه بنا(ء) مرتفع فاحتمى بها) .

— وقارن ذلك أيضاً بكلمة « القلة » التى وردت بنص القلقشندى الذى أوردته من قبل .

ص ١٠٨ ، حاشية رقم ٣ — عن معنى « الجب » انظر :

QUATREMERE, Sultans Mamlouks, II, 2ème partie, p. 95.
Dozy : Supplément aux dictionnaires.

ص ١١٠ — انظر التعليق الذى ذكرته بهذه الإضافة عن « الخليلية »

ص ٦٢٥ ، س ٤ — وواضح أن المقصود بالستارة هو الحريم . انظر ، على سبيل المثال ، قول خليل بن شاهين الظاهرى ، « وأما خدام الستارة فعديدة » — زبدة كشف الممالك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، كتالوج دى سلين ، رقم ١٧٢٤ ، ورقة ٢٤٩ ب .

وأما (الخالدى) صاحب (المقصد الرفيع) المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، كتالوج دى سلين رقم ٤٤٣٩ ، ورقم ١٦٠ب ، فيخبرنا أن « الستارة » هى لقب من ألقاب التشريف

الذى يطلق على زوجات السلطان . فيقول ، « (اللقب) الثانى الستارة ويقال فيها الستارة الشريفة ، ويكنى بذلك عن المرأة الجليلة التى تقدر (بالأصل تصدر !) أن تنصب الستارة على بابها حجابا لها . »

وهناك نقش عن مشكاة توجد فى حوزة شيفر Schefer « هذا النقش تلقب إحدى زوجات السلطان بيبرس» « بذات الستر الشريف » — انظر :

VAN BERCHEM : Corpuu Inscriptionum Arabicarum, Egypte, I, note de la page 187, fin, et note 2 de la page 194.

ص ٦٢٩ ، س ١٨ — قارن ماذكره المقريزى فى النص المثبت بالمتن بما ذكره فى الخطط ، الجزء الثانى ، ص ١٨٤ ، س ٢٥ ، حيث يقول ، (عمد الرخام التى كانت قبل عمارة القلعة فى البرابى ... . ثم أخذ منها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ما احتاج إليه من عمد الصوان فى بنا(ء) الإيوان المعروف بدار العدل من قلعة الجبل) .

ص٦٣٠،س١٨ — يمدنا ابن إياس (بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى ، رقم ٩٥٩(ا) ؛ ورقة ٦٠ ا ب) عن الإيوان بمعلومات لم أتمكن من التوفيق بينها وبين ما ذكره المقريزى فى هذا الصدد . فهو يتحدث عن الإيوان الأشرفى الذى هدم فى سنة ٧٢٩ هـ ليبنى مكانه إيوان آخر ، هذا ويفهم من وصفه لهذا الإيوان أنه الإيوان الذى بناه محمد بن قلاوون . وليس ثمة شك فى أن هذا الإيوان الأشرفى إنما هو الإيوان الذى بناه الأشرف خليل. وفى هذا يقول ،(وفى هذه السنة (٧٢٩ هـ) رسم السلطان بهدم الإيوان الأشرفى الذى كان بالقلعة وبنى مكانه هذا الإيوان الموجود الآن وعقد فوقه هذه القبة العظيمة ، وكان يعمل فيه المواكب ويجتمع فيه الأمرا(ء) ويكثر فيه الرخام ... الخ .) .

وهذا النص لابن إياس سقط من النسخة المطبوعة (طبعة بولاق) . كما أن المقريزى يتحدث بدوره فى سنة ٧١١ هـ . عن الإيوان الأشرفى ،فيقول، (رسم بنقض الإيوان الأشرفى بقلعة الجبل فنقض وجدد .) .

ص ٦٣٧ — قارن وصف القصر الأبلق، كما ورد على لسان المقريزى ، بالوصف الذى أورده له القلقشندى والذى أثبته فى صفحة ٦٨٧ من هذا الكتاب .

ص ٦٣٨ ، الحاشية — هذان البيتان من الشعر فى هذا النص قد وردا أيضاً فى قصة ألف ليلة وليلة ، طبعة بولاق، سنة ١٢٥١ ، الجزء الأول ،ص ٤٦١ . غير أن البيت الثانى فى هذا النص يختلف بعض الاختلاف عن الذى ورد فى قصة ألف ليلة وليلة — هذا وإن بدائع الزهور ، طبعة بولاق (الجزء الأول ، ص ١٠٩) لم يرد فيه هذان البيتان من الشعر .

ص ٦٤٧ ، الحاشية رقم ٢ — هذا النص يوجد أيضاً فى النسخة الخطية للنجوم الزاهرة ، رقم ٦٦٣ ، وهو فى هذه النسخة الثانية غير واضح أيضاً .

ص ٦٤٨ قارن ما ذكر عن دار النيابة بما جاء فى نص القلقشندى ، المثبت فى صفحة ٦٨٧ من هذا الكتاب

ص ٦٤٩ ، الحاشية رقم ١ — من بين هذه الطباق طبقة الأشرفية التى سيرد ذكرها فى صفحة ٦٨٣ من هذا الكتاب. هذا ويذكر لنا خليل بن شاهين الظاهرى أن هذه الطبقة كانت أكثر طباق القلعة علواً وارتفاعاً

(انظر زبدة كشف الممالك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ١٧٢٤ ، كتالوج دى سلين ، ورقة ٥٩ ب) — وعن طبقة الصندلية انظر (النجوم الزاهرة المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٦٦٦ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٧ ، ورقة ٩٨ ا) .

ص ٦٦٥ — فى نهاية هذا الفصل (الفصل العاشر) يجدر بنا أن نذكر نقلا عن الخطط (الجزء الثانى ، ص ٧٤ ، س ١٣) أنه فى سنة ٧٠٢ ﻫ . نقل إلى القلعة الرخام الذى كان موجوداً . بقصر ألماس .

ص ٦٦٦ ، الحاشية رقم ١ — يذكر لنا شيفر Schefer فى مقال رائع له عن « العلاقات بين الصينيين والمسلمين » المنشور فى
Publication du centenaire de l'école des langues orientales vivantes, 1894).
أنه توجد نسخة كاملة تقريباً من مسالك الأبصار لشهاب الدين بن فضل الله العمرى فى إحدى مكتبات استانبول .

ص ٧٦٥ ، س ٧ — فيما عدا « جمال الدين الألواحى » يذكر ابن إياس أسماء بوابين آخرين للدهيشة ، وهذا يدل على أهمية هذه الوظيفة فى سنة ٩٠٦ ﻫ يشير إلى « عبد القادر بواب الدهيشة » ، وفى السنة نفسها ، أيضاً يشير إلى « حسام الدين بواب الدهيشة » . انظر بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الثانى ، ص ٣٧٥ ، الجزء الثالث ، ص ٢١٨ .

ص ٦٧٥ ، س ١٦ — فيما يختص بكلمة « الدهيشة » يقترح علي شيفر Schefer أنها مشتقة من الكلمة الفارسية « ده شاه — dih-i-châh — فإذا ما حذفنا أداة التعريف ، وأخذنا بعين الاعتبار جهل الكتاب أو النساخ بالنطق الصحيح لهذه الكلمة الفارسية ، أمكننا أن نفهم الاختلافات المتعددة فى نطقهم لهذه الكلمة ، ومن ثم فإنها تعنى فى الأصل « القصر الملكى أو السلطانى » قارن فى هذا الصدد ، فى اللغة الروسية « Tsarskoie Ciélo » التى تقابل تماماً الكلمة الفارسية « ده شاه » — وقياساً على ذلك فإن « الدهيشة » هى عبارة عن إحدى العمائر أو القاعات المخصصة لإقامة السلطان .

ص ٦٨٥ ، س ١٥ — كلمة « مرتبة » غالباً ما تأتى مرادفة لكلمة « سرير » ، مثال ذلك قول ابن إياس ، « جلس على مرتبة السلطان » — انظر بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ٩٧ ، ٩٨ . وقوله أيضاً « اجلسوا سيدى حاجى على المرتبة » — انظر بدائع الزهور ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٥٩٥ ا ، كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٢ ، ورقة ١٦١ ب .

ص ٦٩٧ ، الحاشية رقم ١ — وهذا ما يؤكده أيضاً (الخالدى) صاحب كتاب (المقصد الرفيع) فى معنى « الخرجاه » إذ يقول « وعمر بها الأشرف بن حسين فى جنب القصر مقعداً بارزاً » — انظر المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ١٥٧٣ ، كتالوج دى سلين رقم ٤٤٣٩ ، ورقة ٨٣ ا .

ص ٦٩٨ ، س ١٥ — يخبرنا خليل بن شاهين الظاهرى فى النص الذى أوردناه عنه من قبل (ص ٦٨٤—٦٨٥) أن قاعة العواميد برسم خوند الكبرى ، وهى التى يسميها المؤرخون « صاحبة قاعة العواميد » — انظر الأمثلة التى ذكرت من قبل ، وانظر أيضاً النجوم الزاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٦٦٦ ، كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٧ ، ورقه ٦١ ا .

ـ هذا ومن المعروف أن شجر الدر كانت خوند الكبرى ـ ومما هو جدير بالذكر أنه كان هناك مخدع بجانب قاعة العواميد ، وأنه فى هذا المخدع كان يسجن أكابر الناس (انظر المخطوطة رقم ٥٧٣ ، ورقة ٤٦٦ ب ، حيث ورد « المخدع من قاعة العواميد » .

ص ٦٩٩ ، الحاشية رقم ١ ، س ٤ ـ يذكر أيضاً ابن إياس أن « مقام سيدى محمد الردينى الذىهو داخل الحريم » ـ انظر : بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ٢٧٢ ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٥٩٥ ا (كتالوج دى سلين رقم ١٨٢٢) ، ورقة ٢٣٣ ا .

ص ٧٠٥ ، س ٣ ـ لم أستطع أن أقدم للقارىء ـ وهذا على الرغم منى ـ صورة حية لحياة الجمود المطبق التى خيمت على مصر فىعهد الأتراك العثمانيين . ولا ريب أن هرز سيعنى بإبراز هذه الصورة فى دراساته التى يزمع القيام بها .

ص ٧٢٢ ، رقم ٥٢ ـ **كلمة** « مطر باظية » ألايجب أن تكتب «مطار بازيه ، وأليست شيئاً أخر سوى « مطار الباز » ـ قارن ذلك بكلمة « مطار » التى تحدثت عنها من قبل ، صفحة ٥٩٦ .

ص ٧٢٧ ـ أغفلت ، فى هذا الفصل ، الإشارة إلى الرأى الذى يقول به بعض العلماء من أن النسرذى الرأس المزدوج هو رنك صلاح الدين . ومع ذلك فإنى أرى أنه يتعين على أن أحذر القارىء من هذا الرأى الخاطىء الذى أخذ فى الانتشار والذيوع . وإن المسئول عن ذيوع ذلك الرأى هو ستانلى لين ـ بول، حيث أشار إلى ذلك ، فى شىء من التحفظ ، فى كتابه الصغير القيم :

The art of the Saracens in Egypt, p. 149.

ـ هذا ويرى نوتزل Nützel أن هذا النسر ذا الرأس المزدوج ، الذى نحن بصدده ، يعتبر أقدم الأمثلة التى عرفناها من هذا النوع ـ انظر :

Zeitschrift der numismatischen Gesellschaft, Berlin, 1893, p. 137.

ـ كما وأنى أعود فأكرر القول أنه لا قراقوش ، ولاصلاح الدين قد قاما ببناء هذا الجانب من القلعة .

اللوحة رقم ١٧ ـ على هذه اللوحة نرى الحى الذى يعرف « بعرب يسار » أى « عرب آل يسار » . هذا ويخبرنا (الخالدى) صاحب (المقصد الرفيع) أن مائتين من أفراد هذه القبيلة كانوا يعملون ركابية بالاسطبلات الشريفة ، إذ يقول ، (آل يسار ... ... ومنهم نحو من مائتى نفر ركابية بالاسطبلات الشريفة) . انظر المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ٤٤٣٩ كتالوج دى سلين ، ورقة ١٥٧ ا ـ هذا ومن المحتمل أن « حوش العرب تحت القلعة » الذى يتحدث عنه المقريزى (الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٣٢٩) إنما عرف بهذا الاسم نسبة إلى هؤلاء العرب من آل يسار .

١ ـ قائمة بأسماء المصادر الرئيسية التى استخدمت فى هذا البحث (١)

(أ) المخطوطات

١ ــ مؤلف مجهول :

سيرة محمد بن قلاوون ، المخطوطة بمكتبة ميونيخ ، القسم العربى ، رقم ٤٠٠ .

٢ ــ مؤلف مجهول :

كتاب ديوان الانشاء المخطوطة بالمكتبة الأهليةبباريس ، القسم العربى رقم ١٥٧٣ (كتالوج دى سلين) ، باريس ١٨٩٥ ، رقم ٤٤٣٩) (٢)

٣ ــ أبو المحاسن :

(جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٦٦٢ (كتالوج دى سلين رقم١٧٨٤) ، رقم ٦٦٥ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٦) ، رقم ٦٦٦ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٧) ، رقم ٦٦٧ ، (كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٨) ، ٦٧٠ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٨١) ، إضافة رقم ٨٠٩ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٨٩) .

٤ ــ البكرى (محمد البكرى الصديقى) :

تاريخ ولاة مصر (٣) (ملك البعثة الأثرية الفرنسية بالقاهرة) .

٥ ــ شافع بن على بن عباس :

المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٨٠٣ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٠٧) .

---

(١) (رأينا الاحتفاظ بالترتيب الذى سار عليه المؤلف فى ذكر أسماء المؤلفين الذين ذكرت كتبهم فى هذه القائمة)

(٢) لقد سبق أن قلت فى مكان آخر فى هذا العدد نفسه منه **(Mémories de la Mission archéologique, p. 497.)** بأن لدى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أن مؤلف هذه المخطوطة هو أبو المحاسن بن تغرى بردى ، مؤلف كتاب النجوم الزاهرة الذى سيأتى ذكره فيما بعد .

(٣) هذه المخطوطة تتوقف عند الحديث عن حوادث سنة ١٠٦٢ هـ ، وقد نسخت فى سنة ١٠٧٢ هـ ، أما مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس والتى تحمل عنوانا آخر ، وهو « الكواكب السايرة فى أخبار مصر والقاهرة فانها تستمر فى حوادث سنة ١٠٦٣ هـ .

٦ ــ شهاب الدين (أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى) :

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، القسم العربى رقم ٥٨٣ (كتالوج دى سلين رقم ١٥٢٥) .

٧ ــ الجوهرى(١) :

نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان (المخطوطة ملك البعثة الأثرية الفرنسية بالقاهرة وهى منسوخة عن نسخة أخرى بمكتبة على باشا مبارك ، وتقع فى ثلاثة أجزاء) .

٨ ــ ابن عبد الظاهر :

(القاضى محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر) الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية ، المخطوطة بمكتبة ميونخ ، القسم العربى رقم ٤٠٥ .

٩ ــ ابن عبد الظاهر :

تشريف الأيام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور ، المكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى إضافة رقم ٨١٠ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٠٤) .

١٠ ــ ابن إياس :

(محمد بن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، المكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٥٩٥ ا ، ب (كتالوج دى ساين رقم ١٨٢٢ ، ١٨٢٣) .

١١ ــ ابن زنبل (أحمد الرمال) :

كتاب فتوح مصر وذكر ما وقع بين السلطان الغورى والسلطان سليم ، مكتبة ميونخ القسم العربى ، رقم ٤١٣ (٢) .

١٢ ــ القلقشندى (أبوالعباس أحمد بن على) :

كتاب مختصر صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، مخطوطة مكتبة ميونخ ، القسم العربى رقم ١٦١٩ (٣)

---

(١) (هو نورالدين على بن داود الصيرفى الخطيب الجوهرى الاسرائيلى الحنفى . عرف بين معاصريه باسم ابن الصيرفى وابن داود ، والجوهرى ــ انظر الدكتور محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٣٦ ــ ٣٨) .

(٢) يحتوى كتالوج مكتبة ميونخ على اسم نسخة أخرى من هذا الكتاب مكتوبة باللغة التركية وتحمل رقم ٤١١ ، وهى تحتوى على كثير من التفاصيل التى لاتوجد فى النسخ العربية، قارن هذه النسخ بالنسخة الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس (كتالوج دى سلين رقم ١٨٣٢ ــ ١٨٣٨) .

ــ (يوجد لابن زنبل كتاب بعنوان « تاريخ السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغورى مصر وأعمالها » ، وهو مطبوع بمصر طبعة حجر سنة ١٢٧٨هـ. وهذا الكتاب هو الذى نشره ، عن نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية ، الأستاذ عبد المنعم عامر بعنوان « آخرة المماليك ، واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى » ، القاهرة ١٩٦٢ .

هذا وقد اتضح لى أن هذا الكتاب هو شىء آخر غير المخطوطة التى أشار اليها كازانوفا والتى اعتمد عليهـا فى دراسته للقلعة .)

(٣) ترجمة **Wüstenfeld**

١٣ ــ خليل الظاهرى (ابن شاهين) :

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٩٥ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٤) .

١٤ ــ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :

كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٨٢ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٣٦) (١)

١٥ ــ المقــريزى :

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ (كتالوج دى سلين رقم ١٧٢٦ ، ١٧٢٧ ، ١٧٢٨) .

---

(١) لم أشر الا لهذه المخطوطة التى تحمل رقم ٦٨٢ ، مع العلم بأنى رجعت الى كل النسخ الأخرى للخطط الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس (كتالوج دى سلين أرقام ١٧٢٩ حتى ١٧٦٤) .

فالمخطوطة رقم ٦٨٢ هى أفضل هذه النسخ اذ أمدتنى دائما بأفضل القراءات وأصحها ــ والكتاب مطبوع أيضا بمطبعة بولاق بالقاهرة .

(ب) الكتب المطبوعة

١ ــ عبد اللطيف البغدادى :

الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. الترجمة الفرنسية التى قام بها المستشرق الفرنسى سلفستر دى ساسى Silvestre de Sacy تحت عنوان Relation de l'Egypte

٢ ــ أبو شامة :

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزءان ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٣ ــ أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : جزءان طبعة Juynboll (ليدن) ١٨٥٠ــ ١٨٦١)

٤ ــ Académie des Inscriptions et Belles-Lettres. Recueil des Historiens des Croisades. Historiens orientaux (Aboû-l-Fidâ, Ibn al-Athir, etc.).

٥ ــ على باشا مبارك :

كتاب الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة، ٢٠ جزءاً، طبعة بولاق، ١٣٠٦ .

٦ ــ AMELINEAU (E.) : Un document copte du XIIIe siècle (Journal asiatique, VIIIe série, t. IX, Janvier - Juin 1887).

٧ ــ VAN BERCHEM : Notes d'archéologie arabe (Journal asiatique, VIIIe série, t. XVII et XVIII, Paris, 1891) — Tirage à part cité sous l'abréviation V.B.

٨ ــ ——— : Notes d'archéologie arabe, deuxième article. (Ibid., t. XIX, 1892).

٩ ــ ——— : : Eine arabische Inschrift aus dem Ostjordanlande (âeitschrift des deutschen Palaestina Vereins, 1895.

VAN BERCHEM : Une mosquée du temps des Fatimides. (Mémoires de l'Institut Egyptien, II, Le Caire, 1888. — ١٠

——— : Corpus inscriptionum arabicarum, 1ère partie, Egypte (Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire, XIX, 1895. § 99). — ١١

CAUSSIN DE PERCEVAL : Le livre de la grande table Hokémite (Notices et Extraits des Manuscrits, etc., III). — ١٢

Description de l'Egypte, 2ème édition, Paris, 1821, t. XVIII et atlas. La partie relative à la description de la citadelle (p. 347-363 et 518-522) est due à Jomard. — ١٣

١٤ — الجبرتى (عبد الرحمن) :
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ٤ أجزاء ، بولاق ١٢٩٧ :

ترجمة فرنسية تحت عنوان :

Merveilles biographiques et historiques ou chroniques. Trad. de l'arabe par Chefik Mansour Bey, Abdul Aziz, etc., Le Caire. En cours de publication depuis 1888.

FRESCOBALDI : Viaggio di Lionardo di Nicolo Frescobaldi in Egitto, Rome, 1818. — ١٥

GOLDâIHER (I.) : Das Patriarchongrab in Hebron nach Al-Abdari Zeitschrift des deutschen Palaestina Vereins, XVII, Leipzig, 1894. — ١٦

GRAND Bey : Plan général de la ville du Caire, 1874. — ١٧

GUYARD (S.) : Un grand maître des Assassins au temps de Saladin (Journal asiatique, VIIe, Serie, 9, Janvier-Juin 1877). — ١٨

LANE : The Modern Egyptians, 5ème éd., London, 1860. — ١٩

LORET (V.) : Babylone d'Egypte (Grande Encyclopédie, 1889) — ٢٠

MAILLET : Description de l'Egypte. Composée sur les mémoires de M. de Maillet par M. L'Abbé Le Mascrier. Paris, 1735, I Vol. en deux parties. La pagination de la seconde partie est distinguée par un astérique. — ٢١

MARCEL (J.J.) : L'Egypte, Paris, 1848 (collection Didot, L'Univers. Histoire et Description de tous les peuples). — ٢٢

MARIETTE : Le Sérapéom de Memphis publié par G. Maspero, I vol., Vienne et Paris, 1882. — ٢٣

MEHREN (A.F.) : Câhirah og Kerâfat. Copenhague, 1870. — ٢٤

——— : Tableau général des monuments religieux du Caire (Bulle-in de l'Académie des Sciences de Saint-Pétersbourg, T. XV, Saint-Pétersbourg, 1871). — ٢٥

——— : Revue des monuments funéraires de kerâfat ou de la ville des morts hors du Caire (ibid, T. XVI, Saint-Pétersbourg, 1871). — ٢٦

DE MERIONEC (A.) : Charagat ouddourr (Bulletin de l'Institut Egyptien, 2ème série, No. 9, année 1888. Le Caire, 1889. — ٢٧

MONCONYS : Journal du voyage de M. Monconys, Lyon, 1675 — ٢٨

NIEBUHR : Carsten Niebuhr's Reise. Copenhague, 1794-1837. — ٢٩

Plan de 1798, v., Atlas de la Description de l'Egypte. — ٣٠

POCOCKE (R.) : A description of the East, 3 Vol., London, 1743-1745 — ٣١

QUATREMERE (E.) : Mémoires sur l'Egypte, 2 Vols., Paris, 1811 — ٣٢

——— : Notice de l'ouvrage qui a pour titre Mesalek al-Absar Fi Memalek Al Amsar (Notices et Extraits des Manuscrits, XIII). — ٣٣

——— : Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte, par Taki Eddin Ahmed Makrizi, Trad., 2 Vols., en 4 parties. Paris 1837-1845. Citée sous l'abréviation S.M. — ٣٤

REVAISSE (P.) : Essai sur l'histoire et la topographie du Caire d'après Makrizi. (Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire, I, 3e fasc. et III, 4e fasc.), cité sous l'abréviation P.R. — ٣٥

——— : Zoubdat Kachf el-Mamalik, texte arabe (Publication de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes, III, 16), Paris 1894. — ٣٦

REINAUD : Description des monuments arabes, persans et turcs, etc. du cabinet du Duc de Blacus, 2 Vols., Paris, 1828. — ٣٧

REINAUD et J. DERENBOURG : Séances de Hariri, par S. de Sacy, 2ème édition. Paris, 2 vols., 1847-1853. (Préface importante). — ٣٨

Revue d'Egypte, publiée par Gaillardot Bey, Le Caire, 1894 5 qq. — ٣٩

REY (G.) : Etude sur les monuments de l'architecture militaire des Coisés, Paris, 1871. — ٤٠

٤١ – ROGERS Bey (E.) : Le blazon chez les princes musulmans de l'Egypte et de la Syrie (Bulletin de l'Institut Egyptien, 2ème série, No. I, année 1880, Le Caire, 1882.

٤٢ – SCHEFER (C.) : Sefer Nameh. Relation du voyage de Nasiri Khosrou, Paris, 1881 (Publications de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes, II, Série I).

٤٣ – ——— : Note sur un tableau du Louvre (Gazette des Beaux-Arts), XIV, 3ème Période, 1896.

٤٤ – SILVESTRE de SACY : Chrestomathie arabe, 3 Vols., Paris, 1806.

٤٥ – السيوطى (عبد الرحمن) : حسن المحاضرة ، طبعة القاهرة .

٤٦ – STANLEY, LANE-POOLE : Saracenic art. The art of the Saracens in Egypt, London, 1886.

٤٧ – WEIL (G.) : Geschichte des Abassiden Chalifats in Aegypten, 2 Vols., suite de Geschichte der Chalifen, 3 Vols., en tout 5 Vols. Manheim et Stuggard, 1846-1862.

٤٨ – WUESTENFELD : Calcashandi. Die Geographie und Verwaltung von Aegypten (Abhandlungen der Kgl. Ges. der Wissenschften, XXV), Göttingen 1879.

٤٩ – ——— : El-Cazwini's Kosmographie, 2 Vols., Göttingen, 1848-1849

٥٠ – ——— : Iacut's geographischen Wörterbuch, 6 Vols., Leipzig, 1866-1873. معجم البلدان

٢ ـ قائمة

بالمصادر الاضافية التى اعتمد عليها المترجم

المصادر العربية : —

١ ـ ابراهيم طرخان :

مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٢ ـ ابن إياس :

بدائع الزهور فى وقائع الدهور

ـ طبعة بولاق ، ثلاثة أجزاء

ـ طبعة استانبول ، الجزء الثالث ، والرابع ، والخامس ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة .

٣ ـ ابن عبد الظاهر (محيى الدين) :

من الجزء الثالث من الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية ، تحقيق AXEL MOBERG ليبزج ١٩٠٢ م .

٤ ـ :

تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، حققه الدكتور مراد كامل ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ١٩٦١ م .

٥ ـ أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة

ـ طبعة دار الكتب ، ١٢ جزءاً .

ـ طبعة W. POPPER كاليفورنيا ، الجزء الخامس ، والسادس ، والسابع .

٦ ـ :

منتخبات من حوادث الدهور ، طبعة W. POPPER كاليفورنيا .

٧ ـ أحمد دراج :

المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، القاهرة ١٩٦١ م .

٨ ـ السيد الباز العرينى :

مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٩ ـ حسن الباشا :

الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٦٦ م .

١٠ ـ حسن عبد الوهاب :

القاشانى فى الآثار العربية ، مجلة الهندسة ، ديسمبر ١٩٣٤ .

١١ — زامباور :
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، الترجمة العزبية ، القاهرة ١٩٠١م .
١٢ — سعاد ماهر :
مجرى مياه فم الخليج ، مجلة الجمعية المصرية التاريخية ، المجلد السابع ، سنة ١٩٥٨م .
١٣ — سعيد عبد الفتاح عاشور :
مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩م .
١٤ — :
الإمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الحادى عشر ، ١٩٦٣م .
١٥ — عبد الرحمن زكى :
قلعة الجبل ، القاهرة ١٩٥٠م .
١٦ — :
القاهرة ، تاريخها وآثارها (٩٦٩ — ١٨٢٥ م) ، من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، القاهرة ١٩٦٦م .
١٧ — القلقشندى :
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب ، ١٤ جزءاً .
١٨ — :
ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر (مختصر صبح الأعشى) ، الجزء الأول ، طبعة القاهرة .
١٩ — محمد عبد الله عنان :
مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١م .
٢٠ — محمد مصطفى زيادة :
المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، القاهرة ١٩٤٩م .
٢١ — :
حركة البناء والتعمير فى عصر الناصر محمد ، « من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى » — المجلة التاريخية المصرية ، المجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦٠—١٩٦١م .
٢٢ — محمود أحمد :
دليل الآثار العربية ،
٢٣ — محمود عكوش :
مصر فى عهد الإسلام ، القاهرة ١٩٤١م .
٢٤ — المقريزى :
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الجزء الأول .
والثانى (حتى سنة ٧٥٥ هـ)

المصادر الأوروبية :

٢٥ - CRESWELL (K.A.C.) ; Archaeological researches at the Citadel of Cairo, in Bull. de l'Inst. Franç. Arch. Or., du Caire, T. XXIII, Le Caire 1924.

٢٦ - ——— : The Muslim Architecture of Egypt, Vol. I, IKHSHIDS and Fâtimides, Oxford 1952 ; Vol. II. Ayyûbides and Early Bahrite Mamlûks, Oxford 1959.

٢٧ - DARRAG (A.) : L'Acte de Waqf de Barsbay (Huggat U'aqf Barsbay), éd. Inst. Franç. d'Arch. Or. du Caire, Le Caire 1963.

٢٨ - MURTADI : L'Egypte de Murtadi fils du Gaphiphe, où il est traité des Pyramides, du débordement du Nil, des autres merveilles de cette province selon les opinions et traditions des Arabes, traduction de PIERRE VATTIER, Paris, 1656.

٢٩ - POPPER (W.) : Egypt and Syria under the Circassian Sultans, 1382-1468 A.D., University of California. Publ. in Semetic philology, 15, 1955.

٣٠ - WIET (G.) : Compte rendu d'Ibn Muyassar, Journal Asiatique, 1921

٣١ - ——— : L'Egypte Arabe, Paris 1937.

٣٢ - ——— : Réfugiés politiques Ottomans en Egypte, dans ARABICA, T.I., Sept. 1954, Fasc. 3.

٣٣ - ——— : Une nouvelle inscription Fatimide au Caire, Journal Asiatique, T. CCXLIX, année 1961, Fasc. No. 1.

كشاف الأماكن والمنشآت والأسماء والمصطلحات

(أ)

الباب الجديد ، ٥٤٤

ابراج الحمام ، ٥٩٥ ، ٦٠١ ، ٦٩٤

الآثار (آثار النبي) ، ٥١١

الأزهر ، انظر : جامع

الاسكندرية ، ٥٦٨ ، ٦٣٣

أسوار (تحصينات) ٥٢٢ ، ٥٣٥ ، ٥٤٣ ، ٥٥٨ ، ٥٧٧ ، ٥٨٩ ، ٦٨١ ، ٧٠٤ ، ٧١٢ ، ٧١٣

الأشرفية ، ٦١٦

الأشمونين ، ٦٢٤

الاصطبل (أو الاسطبل) ٥١٣ ، ٥٩٥ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٣٠ ، ٦٣٥ ، ٦٥١ ، ٦٥٦ ، ٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٨١ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٥ ، ٦٩٩ ، ٧٠٣ ، ٧١٩ ، ٧٣٤ ، ٧٣٦

اصطبل الباشا ، ٧٢٢

أصفون ، ٦٠٠

العسكر ، ٥٢٥ ، ٥٥٥

القلعة ، ٥٧٨

أمسوس ، ٥٦٨

آن (الشمالية) ٥٤٤

الانكشرية ، ٧٢١

الأهرام ، ٥٤٢ ، ٥٨٥ ، ٦٥٥

الأوضالار ، ٧٢٠

إيوان ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٦٠٠ ، ٦٠٢ ، ٦٠٩ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦٢٧ ، ٦٢٩ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٥ ، ٦٤٨ ، ٦٥٥ ، ٦٩١ ، ٦٩٥ ، ٦٩٨ ، ٧٤٣ ، ٧٥٠

إيوان الخلفاء الفاطميين ، ٦٩٥

الإيوان الكبير ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٦٠٨ ، ٦٤٢ ، ٦٥٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٢ ، ٦٨٣ ، ٧٠٩ . انظر : إيوان محمد بن قلاوون والإضافات

إيوان محمد بن قلاوون ، ٦٤٣ ، ٧٠٩

انظر اللوحة رقم ٧ .

(ب)

باب الأربعين ، ٦٥٦ ، ٧٢٤

باب الاصطبل ، ٦٥٨

باب الألواحية ، ٦٧٥ ، ٧٢٢

باب الانكشرية ، ٧٢٣ ، ٧٣٨

باب الباشا ، ٧٢٢

باب البحر ، ٥٣٩ ، ٥٤٧

باب البرقية ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٥٢ ، ٦٥٢

باب الجبل ، ٥٨٢ ، ٧١٥ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢٢ ، ٧٤١ ، ٧٤٦

باب جديد ٦٧٩ ، ٦٩١ ، ٨٥١ (قارن ذلك بباب الجديد)

باب الحويشي ، ٦٧٨

باب الجديد (خلاف الباب السابق) ٥٣٩ ، ٥٤٤ ، ٥٥٢ ، ٧٣٧ ، ٧٤٢

باب الجرس ، ٦٧٨

باب الحلق ، ٥٢٧

باب الخوضه ، ٥٢٧ ، ٥٥٢

باب درب المحروق (باب المحروق) ٥٣١ ، ٥٤١

باب الدرفيل ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٩٣ ، ٧٢٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤٣

باب دريس ، ٧٠٢

باب زويلة ، ٥٢٦ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٤٣ ، ٥٤٦ ، ٦٠٤ ، ٦٧٦ ، ٦٩٠ ، ٧٣٣

باب الساعات ، ٦٢٥ ، ٦٣٩

باب سارية ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦١٢ ، ٧٠١ ، ٧٣٩

باب السبع حدرات ، ٦٤١ ، ٧١٨
باب الستارة ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٤٥ ، ٦٩٨
باب السر ، ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٦٣٢ ، ٧٤٣
باب سعادة ، ٥٢٦ ، ٥٣٣ ، ٥٥٢
باب السلسلة ، ٥١٣ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٦ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٩ ، ٧٠٤ ، ٧١١ ، ٧١٥ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦
باب سلم المدرج ، ٦٥٣
باب الشرك ، ٥٩٤ ، ٧٢٣
باب الشعرية ، ٥٣٣ ، ٥٤١ ، ٥٤٧
باب الصفا ، ٥٤٦
باب العزب ، ٥٨١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٦
باب الغريب ، ٥٣١ ، ٥٤٤
باب الفتوح ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٢ ، ٥٤٠ ، ٥٥٢
باب الفرج ، ٥٢٦ ، ٥٣٢ ، ٥٤٣ ، ٥٥٢
باب القراطين ، ٥٣١ ، ٥٥٢
باب القرافة ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٢ ، ٥٩٣ ، ٦٤١ ، ٧٤٢
باب القرافة (بالقلعة) ٥١٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٣
باب القلعة ، ٥٧٧ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ، ٦١١ ، ٦٤٦ ، ٦٥٢ ، ٦٦٨ ، ٧٤٠ ، ٧٥٠ ، ٧٥٢
باب القلة ، ٥٩٤ ، ٦٠٠ ، ٦٦٥ ، ٧٤٢ .
— انظر : القلة .
باب القنطرة ، ٥٤٥ ، ٥٤٧
باب القوس ، ٥٢٩
باب المحروق ، ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٥٢
الباب المحروق ، ٥٢٧
باب المدافع ، ٦٢١ ، ٧١٨ ، ٧٢٣ ، ٧٣٨
باب المدرج ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٩٣ ، ٦٤١ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٥٠ —
قارن ذلك بباب سارية ، وباب الدرفيل .
باب مصر ، ٥٤٧ ، ٥٥٩
باب النحاس ، ٦٤٥ ، ٦٦٤ ، ٦٩٨
باب النصر ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣٢ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٦٣٣
باب الوزير ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٨٤ ، ٧٣٣
الباب الوسطانى ، ٥٩٤ ، ٧٠٧ ، ٧١٨ ، ٧٢٣
برج ، ٥١٣ ، ٥٣٦ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٧ ، ٦١٥ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٦٤ ، ٦٦٧ ، ٦٩٧ ، ٧٠٤ ، ٧٣٥ ، ٧٤١
برج (ابن قلاوون) ، ٦٣٧
برج الأحمر ٦٥٠
برج الانكشارية ، ٧١٦ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٣
برج الإمام ، ٧٢٠
برج الحداد ، ٥٦٢ ، ٧١٦ ، ٧٢٠ ، ٧٢١
برج الحلزون ، ٧٢٢ ، ٧٤٥
برج خزانة قلة ، ٦٠٨ ، ٧٢٣
برج الرفرف ، ٦١٢ ، ٦١٦
برج الرملة ، ٥٦٢ ، ٧٢٠
برج السباع ، ٦٠٧
برج الصحرا ، ٧٢٩
برج صفطه ، ٧١٨ ، ٧٢٢
برج الطبالين ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢٥ ، ٧٣٧
برج الطبلخانه ، ٧٣٧ ، ٧٣٨
برج الطوفه ، ٧٢١
برج الظفر ، ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٧٤١
برج العافية ، ٦٦٧
برج العلوة ، ٧٢١
برج كركيالان ، ٧٢١
برج الكوم الأحمر ، ٥٥١
برج قلاوون ، ٦٥٠
برج المبلط ، ٧٢٠
برج المطر ، ٥٩٦ ، ٧٢٠
برج المقس (أو المقسم) ٥٣٥ ، ٥٣٨ ، ٥٥٢ ، ٥٥٤

برج المقوص ، ٧٢٠
برج المنصورى ، ٦٤٩
البرديني ، ٦٩٩ — انظر : زاوية ، برج
بركة الحبش ، ٥٥٠ ، ٥٦٧ ، ٦٥٢ ، ٦٦١
بركة شطا ، ٥٥٠
بركة الفيل ، ٥٨٥
بستان الصاحب بدرالدين بن حنا ، ٦٦١
البستان الكافورى ، ٥٢٨
بغداد ، ٦٠٩
بلبيس ، ٥٩٧
بولاق ، ٦٨٢
بيت التبرزى ، ٧٢٣
بيت يوسف ، وبيت يوسف صلاح الدين ، ٥٧٥ ، ٦٣٥ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٧٢٤ ، ٧٣٥ — انظر اللوحة ، رقم ٧
بير ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢٥
بير الحلزون ، ٥٧٥ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠
بير السبع سواقى ، ٧١٩ ، ٧٢٢
بير قلاوون ، ٥٧٣ ، ٥٨٥ ، ٦٤٩
بير يوسف ، ٥٨٧ ، ٥٩٠ ، ٧١٦ ، ٧١٩ ، ٧٢٢ ، ٧٤٥
بيمارستان ، ٦٨٠
البيسرية ، ٦٧٥ ، ٦٨٤ ، ٦٩٨ ، ٧٠٥ — أنظر : قاعة .
بين الزقاقين ، ٥٤٧
بين السورين ، ٥٢٧ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٤١ ، ٥٤٢

(ت)

تحت الربع ، ٥٢١
تحت السور ، ٥٤٤
تربة الشرفة ، ٧٢٤
تربة القيروانى ، ٥٦٣
تربة القيروانى ، ٥٦٣
تربة بنى المهتار ، ٦٠٨
تربة (لاوند) ، ٥٥٨ ، ٥٥٩
تربة ولخش ، ٥٥٨ ، ٥٥٩
تكاه ، ٦٨٥ ، ٧٠٩

(ج)

جامع ، ٧٠١ — انظر : مسجد .
جامع أحمد بن طولون ، ٥٤٧ ، ٦٣٢
الجامع الأزهر ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٣
جامع الأشرف ، ٦٩٧
جامع الاصطبل ، ٦٥٧ ، ٧١٤ ، ٧٣٦
جامع أمير الجيوش ، ٥٥٥
جامع باب البحر ، ٥٣٩
جامع تاج الدين ، ٧٢١
جامع الجيوش ، ٥٣٥
جامع الحاكم بأمرالله ، ٥٢٩ ، ٥٣٣ ، ٦٣٣
جامع الحوش ، ٥١٤ ، ٥٨١
جامع الدهايشة ، ٦٧٤ ، ٧٢٢ ، ٦٧٥ ، ٦٨١
جامع الرفاعى ، ٦١٧
جامع السلطان حسن ، ٥٧٤ ، ٦١٧ ، ٦٣٢ ، ٦٥٢ ، ٦٥٦ ، ٦٩٠ ، ٦٩٧ ، ٧٠٤ ، ٧١٥ ، ٧٣٥ — أنظر : مدرسة
جامع السلطان قلاوون — انظر (جامع محمد بن قلاوون) ٧٢٣ ، ٧١٨
جامع الشارية ، ٥٦١ ، ٧٢١
جامع الصوه ، ٦٨١
جامع العزب (جامع الاصطبل) ، ٧٢٤
جامع عمرو بن العاص ، ٥٤٨
جامع العنانية ، ٥٣٩
جامع الفرج ، ٦٩١
جامع القلعة وجامع محمد بن قلاوون ، ٥٨٨
جامع قوصون ، ٦٢٠
جامع محمد بن قلاوون ، ٥١٤ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٧ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٣٤ ، ٦٤٣ ، ٦٤٦ ، ٦٥٩ ، ٦٦٥ ، ٦٨٤ ، ٦٩٥ ، ٧١٣ ، ٧١٨ ، ٧٢٩ ، ٧٤٣ ، ٧٤٥

جامع محمد على ، ٥١٤ ، ٦١٧ ، ٦٢٩ ، ٦٣٥ ، ٦٤١ ، ٧٣١ ، ٧٤٣ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ،
جامع المقس ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ .
جامع المؤيد ، ٦٨٢ ، ٧٢٤
جامع النوبة ، ٥٣٠
الجب ، ٦١٥
جب ، ٦٩٤
جب العرقانة ، ٧١٥
الجباخانة ، ٧٢٣
الجبل الأحمر ٦٦٧ ، ٥٩٥ ،
جبل الجيوش ، ٥٤٦ ، ٧٢٥
جبل المقطم ، ٧١٠
جبل يشكر ، ٥٥٥
الجرف ، ٥٥٧ ، ٥٨٤ ، ٦٦١ ، ٧٣٨
جزيرة الروضة ، ٥١٢ ، ٥٢٥
جسر الأفرم ، ٥٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٦٦٠
الجيزة ، ٥٥٠ ، ٦٦٩

(ح)

حائط (سور) ، ٦٧٨
حارة ، ٥٢٥
حارة الأتراك ، ٥٣٢
حارة البرقية ، ٥٣١ ، ٥٣٢
حارة بهاء الدين ، ٥٢٨
حارة البيازرة ، ٥٢٨
حارة التبانة ، ٦٩٠
حارة الجوارية ، ٥٣٣
حارة خرايب التتر ، ٦٨٣
حارة الديلم ، ٥٣٢
حارة الروم البرانية ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤
حارة زويلة ، ٥٢٧
حارة سارية ، ٥٦٣ ، ٧٤١
حارة العبدانية ، ٥٢٩
حارة العسكر ، ٥٦٨
حارة العطوفية ، ٥٢٩
حارة الفرحية (المرتاحية) ، ٥٢٩
حارة مختص ، ٦٢٤ ، ٦٦٥
حارة المنصورة ، ٥٢١
حارة اليانسية ، ٥٣٣
حراقة ، ٦٩١ ، ٧٣٦
حرش ، ٥٢٣ ، ٦٤٢ ، ٦٥١ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٦٥ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٩١ ، ٦٩٥ ، ٦٩٨ ، ٧٠٢ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٩ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧٤٤ ، ٧٤٦
حريم ، ٦٠٣ ، ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٤٢ ، ٦٩٧
حصن المعهد العلمى (الفرنسى) ٥٤٩
حقير ، ٦٠٥ ، ٦٠٧
حلوان ، ٥٥٥ ، ٦٦٠
حمام ، ٦٤٢ ، ٦٦٥
حمام إيدغمش ، ٥٣٣
حمام القلعة ، ٧٢٣
حماة ، انظر : أبوالفدا ، الدهيشة

(خ)

خان الخليلى ، ٥٣٠ ، ٦٨٠
خانقاه تقى الدين رجب ، ٦٦٠
خانقاه الجمالية ، ٥٣٠
خرايب التتر ، ٦٨٢
خرجة (خرجاه) ٦٧٧ ، ٦٩٧
الخرنفش ، ٥٢٨
خزان ، ٥٩٩
خزانة البنود ، ٥٣٠ ، ٥٤٢
خزانة الكتب ، ٥٩٨ ، ٦٠١ ، ٦١٥
خزانة قلة ، ٦٤٦ ، ٦٧١ ، ٧١٨
خط سارية ، ٥٦٤
خط الصفا ، ٥٤٧

خط المناخ ، ٥٢٩
خليج ، ٥٢٥ ، ٥٣٣ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩
خليلية ٥٧٩ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، والإضافات
الخندق ، ٥٨٣ ، ٦٠٥ ، ٦٧٨ ، ٦٩٤ ، ٧١٨ ، ٧٤١
خوخة ، ٥٣٣
خوخة ايدغمش ، ٥٣٣ ، ٥٣٤

(د)

دار الجديدة ، ٥١٣ ، ٦٠٦
دار الذهب ، ٥٢٨ ، ٥٣٣
دار سعيد السعداء ٦٩٩
دار الضرب ، ٧٢٠ ، ٧٢٢
دار الضيافة ، ٥٨٠ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٩٩ ، ٧٣٨
دار العدل ، ٥١٣ ، ٦٠٢ ، ٦٠٨ ، ٦١٢ ، ٦٢٩ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٧٣٧
دار كاتب السر ، ٦٧١
دار النيابة ، ٥١٣ ، ٥٣٣ ، ٦١٥ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ،
دار الوزارة ، ٥٢٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٩٥ ، ٦٧١
درب الأحمر ، ٥٣٣ ، ٦٩٠
درب سعادة ، ٥٢٧
درب الصفا ، ٥٤٦ ، ٥٤٧
درب الصقالبة ، ٥٢٨
درب الفراخة ، ٥٢٩
درب المحروق ، ٥٤٤
درکاه ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٦
الدفترخانة ، ٦٥٣ ، ٧٣٠ ، ٧٣٧
الدهيشاه ، ٦٨٤
الدهيشة ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٩٨ ، ٧٠٥ ، ٧٠٩ ، ٧٤٥
دهيشة حاه ، ٦٧٣
ديوان ، ٥١٤ ، ٥٩٣ ، ٦٢٧ ، ٧٠٨ ، ٧١٢ ، ٧١٩
ديوان الأموال ، ٦٧١
ديوان الانشاء ، ٦٧١
ديوان الجيوش ، ٦٧١
ديوان الخاص ، ٧٢٠
ديوان العزب ، ٧١٩ ، ٧٢٤
ديوان الغورى ، ٧٠٦
ديوان متحف ، ٧١٩ ، ٧٢٣
الديوان الناصرى ، ٧٤٣
ديوان يوسف ، ٥٩٣ ، ٦٢٩ ، ٦٣٢ ، وما يليها ، ٧١٨ ، ٧٢٤ ، ٧٤٣

(ر)

رباط الآثار ، ٦٦١
ربع ، ٦٧٥
ربع السلطان ، ٥٢٦
الرحبة الحمراء ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥
الرصد ، ٥٤٦ ، ٥٥٥ ، ٥٦٥ ، ٦٦١ ، ٦٦٣
الرفرف ، ٦١٢ ، ٦١٦ ، ٦٢٦ ، ٦٦٤
الرميلة ، ٥٩٥ ، ٦٣٨ ، ٦٦٠ ، ٧٠٤

(ز)

زاوية ، ٦٠٧ ، ٦٠٨
زاوية البرديني ، ٦٩٩ ، ٧٢٣
زاوية القضرا ر العزب ، ٧٢٤
زاوية محمد أغا ، ٦٢٤
زردخانة ، ٦٧١ ، ٧١٠
زقاق الكحل ، ٥٢٨
الزلاقة ، ٧١٥

(س)

السبع حدرات ، ٦٩٨
السبع قاعات ، ٥١٣ ، ٦٤٤ ، ٦٦٥
سبيل ، ٦٥٧ ، ٧٣٤
سبيل إسماعيل أفندى ، ٧٢١
سبيل أغا الباب ، ٧٢٣
سبيل باب العزب البيرقدار ، ٧٢٤
سبيل الساوقى (السواقى) ٧٢٢
سبيل سلطان مراد ، ٧٢٤

سبيل سليمان باشا ، ٧٢١
سبيل الشاوشية ، ٧١٢
سبيل شريفة ، ٧٢٣
سبيل ششمة ، ٧٢٠
سبيل كيخية ، ٧١٨ ، ٧٢٥
سبيل المصطفاوية ، ٧٢٤
السراى ، ٧١٥ ، ٧٢٥ ، ٧٤٤
سراية الباشا ، ٧٢٢
سكة الانكشرية ، ٧٢٣
سكة الخوربطلى ، ٧٢١
سكة السوق الصغير ، ٧٢١
سكة الشارية ، ٧٢١
سكة الششمة ، ٧٢٣
سكة العزب ، ٧٢٤
سلم (عتبة ، درج) ٥٨٧ ، ٥٩٠ ، ٦٠٧ ، ٦١١ ، ٦٤٦ ، ٦٧١ ، ٦٩٩ ، ٧٣٥ ، ٧٣٨ ، ٧٤٠
سلم قايتباى ، ٧٠٦ ، ٧٠٧
سلم المدرج ، ٥٨٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٧٩ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٣٩ ، ٧٤٣
سور بدر الجمالى ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٥٢
سور جوهر ، ٥٣١ ، ٥٣٣ ، ٥٣٦ ، ٥٥٢ — انظر : سور القاهرة .
سور صلاح الدين ، ٥٤٧
سور القاهرة ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٤٠ ، ٥٤٨ ، ٥٧٢ ، ٥٨٣ ، ٧٤١ — انظر : سور جوهر ، سور بدر الجمالى ، أسوار .
سور القرافة ، ٥٤٥ .
سور القلعة ، ٥٤٢ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٧٨
سورية ، ٦٢٧
سوق الباشا ، ٧٢٢
سوق البرانى ، ٧٢٣
سوق الحطب ، ٧٢١
سوق الخلعيين ، ٥٣٣
سوق الخيل ، ٦٠٦ ، ٦٦٩ ، ٦٧١
سوق الرقيق ، ٥٣٣
سوق الصغير ، ٧٢١
سوق المآكل ، ٦٦٨
سوق المطرباظية ، ٧٢٢
سويقة أمير الجيوش ، ٥٢٨
سويقة الصاحب ، ٥٢٧
السيرابيوم ، ٧٤٤ ، ٧٤٦

(ش)

الشارع الأعظم ، ٥٤٦
شارع كلوت بك ، ٦٣٩
شارع محمد على ، ٧٠٣
شباك ، ٦١٥ ، ٦١٩ ، ٦٤٢ ، ٦٤٧ ، ٦٦٨ ، ٦٧٦ ،
شباك النيابة ، ٦٤٨
الشرف ، ٥٥٥
الششمة ، ٧٢٣

(ص)

صور الأغا ، ٧١٨ ، ٧٢٣
صور الانكشرية ، ٧١١ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٥
صور الصراية ، ٧٢٥
صور الصوة ، ٥٤٣ ، ٥٨٤ ، ٥٩٠ ، ٧٣٨
صور العزب ، ٧١٧ ، ٧٢٥

(ط)

طبقة (طباق) ٦٠٥ ، ٦٠٨ ، ٦٤٩ ، ٦٦٤ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٩٥ ، ٧١١ ، ٧٤٢
طبقة الأشرفية ، ٦٨٣
الطبلخاناه ، ٦٠٤ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦٥١ ، ٦٥٣ ، ٦٨١ ، ٦٩١ ، ٦٩٥ ، ٧٣٠ ، ٧٣٧
الطشتخانة ، ٦٢٤
الطغرة ، ٧٣٠
الطواحين ، ٥٤٧ ، ٦٧٧ ، ٧١٩
الطوب خانة ، ٧٢١

(ع)

عطفة الساقية ، ٧٢٠

عطفة الشارية ، ٧٢١

عطفة الغزال ، ٧٢١

عطفة الفراخة ، ٥٢٩

عطفة القرن ، ٧٢٤

عطفة القزازين ، ٧٢٢

عطفة القصطنجى ، ٧٢١

عطفة المدانين ، ٧٢١

عطفة المقصقص ، ٧٢٠

عيذاب ، ٦٥٤

عين شمس ، ٥٥٤

(غ)

غلطة ، ٦٠٨

الغوطة ، ٦٣٩

غيط ، ٦٤٢ ، ٦٩٨

غيط الجرف ، ٥٤٧ ، ٥٤٨

غيط الغورى ، ٥١٤ ، ٧٠٦ ، ٧١٤

(ف)

الفراشخاناه ، ٦٢٢ ، ٦٢٣

الفسطاط ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٤٥ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ ، ٥٦٨

فم الخليج ، ٥٤٨

الفيوم ، ٥٩٧

(ك)

كتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، ٥٦٣

كتاب الموالى ، ٥٥٦

كتب الأتابك والعصور ، ٥٩٨

كتب المزارات بالقرافة ، ٥٦١ ، ٥٦٢

الكرك ، ٥٨٩

الكسارة ، ٧٧٣

كنيسة ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣

كنيسة القديس ميخائيل ، ٥٥٠

الكسوة الشريفة ، ٥١٤ ، ٦٣٩

الكوم الأحمر ، ٥٣٦ ، ٥٣٩ ، ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣

كوم الجارح ، ٥٤٦ ، ٥٤٧

كوم الكباب ، ٥٤٧ ، ٥٤٨

كوم المشانيق ، ٥٤٧ ، ٥٤٨

كيمان البرقية ، ٦٩٣ ، ٧٤١

كيمان القاهرة ، ٥٤٦

(ق)

قاعة الأشرفية ، ٦٧٧

قاعة البحرة ، ٦٨٢ ، ٧٠٥ـ٧٠٩

قاعة البيسرية، ٧٠٩ ، ٧١٠

قاعة الصاحب ، ٦٠١ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٧٤٢

القلعة الصالحية ، ٦٠٢ ، ٦١٥

القلعة الطاهرية ، ٦٦٠

قاعة العواميد (قاعة العمد ، قاعة الأعمدة) ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٩٨ ، ٧٠٥

قاعة الفضة ، ٦٤٥ ، ٦٩٨

القاعة المظفرية ، ٦٨٤

قاعة النحاس ، ٦٤٥

القاهرة ، ٥٤٥ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ ، ٥٦٧ ، ٦٦٧ ، ٦٦٩ — انظر : أسوار ، تحصينات ، كيمان قبة ، ٥٤٢ ، ٦٠٥ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦٢٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٥ ، ٦٤١ ، ٦٤٦ ، ٦٦٨ ، ٦٨٢ ، ٧٤٣

قبة بيبرس ، ٦١٤

قبة العزب ، ٥٤٢ — انظر : قبة ، قبة النصر.

قبة النصر، ٥٤٢

قبة الهواء ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٧٤٤ والاضافات .

القدس ، ٥٤٤ ، ٧٢٦

القرافة ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٦٢ ، ٥٦٧ ، ٥٨٢ ، ٦٧٢

قراميدان (الرميلة) ، ٥٩٥ ، ٦٤٤ ، ٦٥٧ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٧٢٥ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤

القسطنطينية ، ٦٠٨

قصر (أودار) ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٦٠٠ ، ٦٣٧ ، ٦٦٩
٦٨٣ ، ٦٩٧ ، ٧٠٩ ، ٧٣٩ ، ٧٤٤ ، ٧٥٠
القصر الأبلق (بقلعة الجبل) ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٧٥ ،
٥٧٦ ، ٦٣٥ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٥٨
٦٦٤ ، ٦٦٧ ، ٦٦٩ ، ٦٨٣ ، ٦٩١ ، ٦٩٧
٧١١ ، ٧٣٥ ، ٧٤٤ ، ٧٤٦
القصر الأبلق (بدمشق) ٦٣٨
قصر برن (بيت يوسف) ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٤٠ ،
٧١٨ ، ٧٢٤ ، ٧٢٨
قصر بلقيس ، ٦١٤
قصر الشمع ، ٥٤٨ ، ٥٤٩
قصر الكبش ، ٥٥٥ ، ٦١٠
قصر الكسوة ، ٥١٤
القصور الجوانية ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٤١ ، ٦٦٩
قصور الخلفاء الفاطميين ، ٥٩٢
القصرار ، ٧٢٤
القطايع ، ٥٢٥ ، ٥٥٥ ، ٥٦٨ ، ٦٦٣
قطيا ، ٥٩٧
قلاع الحشيشية ، ٥٢٣
قلاع الصليبيين ، ٥٢٣ ، ٥٨٥ ، ٥٨٩
القلعة (قلعة القاهرة ، قلعة الجبل) ٥٤٤ ، ٥٤٥ ،
٥٤٦ ، ٥٤٨ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٨٥ ، ٥٩٤ ،
٥٩٧ ، ٦٠٢ ، ٦٠٥ ، ٦١٠ ، ٦١٥ ، ٦٤٣ ،
٦٨٢ ، ٧١٧ ، ٧٥٠
القلعة ، ٥٢٥ ، ٥٦٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٩١ ، ٦٠٠
قلعة بازكوخ ، ٥٥١ ، ٥٧٨
قلعة دمشق ، ٦٣٩
قلعة الروضة ، ٧٠٢
قلعة صلاح الدين ، ٧٤٧
قلعة صينية ، ٥٨٥
قلعة الكوم الأحمر ، ٥٤٢
قلعة قراقوش ، ٥٣٩
قلعة المقس ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٧٨ ، انظر :
برج المقس .
قلعة المقسم ، ٥٣٦
قلعة يوسف ، ٧٣١ ، ٧٣٧
القلة ، ٥١٣ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٤٦ ، ٦٧٠ ، ٦٧٢ ،
٦٩٣ ، ٧٤٢ ، انظر باب القلة والإضافات .
قناطر السباع ، ٥٤٨
قناة بني وائل ، ٥٥٠
قنطرة باب الشعرية ، ٥٤٠
قنطرة بني وائل ، ٥٥٠
قنطرة الجديد ، ٥٢٩
قنطرة جوهر ، ٥٢٧ ، ٥٢٨
قنطرة الخروبى ، ٥٤٠
قنطرة الخليلى ، ٦٨٠
قنطرة الموسكى ، ٥٢٧
قوص ، ٦٥٤ .

(م)

مبيت ، ٦٣٧ ، ٧٠٢
المحجر ، ٥٨٤
مدرسة ، ٥٠٧
مدرسة الأشرف ، ٦٧٧
مدرسة السلطان حسن ، انظر : جامع السلطان حسن .
المدرسة الصالحية ، ٦٠٢
مدرسة الغورى ، ٧١٠
المدرسة القاصدية ، ٥٢٩
المدرسة النظامية ، ٥١٨
المدينة السلطانية ، ٥٧٧ ، ٧٤٣ ، ٧٥٠
المراغة ، ٥٤٧ ، ٥٤٨
مراقد ، ٦٣٧
مرتبة ، ٦٠٣ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٩٢ والاضافات
مرج دابق ، ٧٠٥
مسجد أمين الملك سعد الدولة ، ٥٣٣ ، ٥٣٦ ، ٥٥٨ .
٥٥٩ ، ٥٦٢
مسجد الديكمى ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٢
مسجد الرديتى
مسجد سارية ، ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٧١٣ ، ٧٢٩ ، ٧٤٢

مسجد سام ، ٥٢٦
مسجد شيخ الملك ، ٥٥٩ ، ٥٦١
مسجد عبد الجبار ، ٥٥٨ ، ٥٥٩
مسجد عدة الدولة ، ٥٥٨ ، ٥٥٩
مسجد قسطة ، ٥٥٩ ، ٧١٣ ، ٧٤٢
مشهد ست نفيسة ، ٥٤٧
مصر (القديمة) ٥٣٥ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٦٧ ، ٦٦٣ ، انظر : سور (أسوار) فسطاط .
مصطبة (مسطبة) ٦٤٦ ، ٧٠٦
مصنع ، ٦٦٠
مطابخ ، ٦٢٢ ، ٦٢٥ ، ٧٠٣
مطار ، ٥٩٦
مطار البرقية ، ٥٩٦
مطار الفيوم ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
مكتبة الخلفاء الفاطميين ، ٥٩٩ ، ٦٨٢
مكتبة القاضى الفاضل ، ٦٨٢
مقابر الخلفاء ، ٧٤١
المقس (ميناء) ٥٢٧
مقصورة ، ٦٢٣ ، ٦٦٨ ، ٦٩٨
ممفيس ، ٥٥٤ ، ٥٦٨
منشأة المهران ، ٥٤٩
منشآت ، ٦١٦ ، ٦٥٥
منشآت (مرفقة) بالقلعة : ٦٩٠ ، ٧١١ ، ٧٤٠ .
منظرة اللؤلؤة ، ٥٣٣
موردة الخلفاء ، ٥٤٧ ، ٥٤٨
الميدان ، ٥٥٣ ، ٦٣٩ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٩٥ ، ٧٤٤
الميدان الأخضر ، ٦٣٨ ، ٦٧٢ ، ٦٨٩
الميدان الأسود ، ٥٩٥ ، ٦٥٧
ميدان باب الحديد ، ٥٣٩

(ن)

النسر (نسر صلاح الدين) ٧٢٥ ، ٧٢٨ ، ٧٣٦ ، ٧٤٣
نصف الدنيا ، ٧١٠
نقش (برقوق) ٦٨٠ ، ٧٤٤
نقش (جامع سارية) أو سليمان ، ٥٣٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٧١٣ ، ٧١٤
نقش (جقمق) ٧٤٠
نقش (الخديو اسماعيل) ٧٣١
نقش (صلاح الدين — باب سارية) ٥٦٩ ، ٦٩٣ ، ٧٢٦ ، ٧٤٠
نقش (طومان باى) ٧٤٠
نقش (قايتباى) ٧٤٠
نقش قسطه ، ٧١٣ ، ٧٤٢
نقش (محمد بن قلاوون) ٩٦١
نقش (يكن باشا) ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧٤٦
نقوش ، ٥٩٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٤ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢ ، ٦٤١ ، ٧٠١ ، ٧١٤ ، ٧٣١ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٤٢ ، ٧٤٦
نقوش (محمد على) ٧٢٩ ، ٧٣٠
النوبة ، ٦٠٣ ، ٧٥٤ والاضافات
النيل ، ٥١٣ ، ٥٣٩ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٦٧ ، ٦٦٣ ، ٦٦٩ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦

(و)

وسعة الاصطبل ، ٧٢٢
وسعة الباشا ، ٧٢٢
وسعة المطبخ ، ٧٢٢
الورشة ، ٧٢١

(ى)

اليمين ، ٦٥٤

كشاف الاعلام

(أ)

أبجيج ، ٦٧٣
إبراهيم ، انظر : صلاح الدين
إبراهيم (الخليل) ٦٠٤ ، ٦١٥
ابن جبير ، ٥٦٣
ابن حنا ، انظر : بستان
ابن شاكر ، انظر : سيف الدين
ابن عفير ، انظر : سعيد
ابن قزل ، ٥٩٧
ابن مرزوق ، ٥٩٣
أبو الجيش خمارويه ، ٥٥٦
أبو الحسن على بن مرزوق بن عبد الله الرديني ، ٥٦٢ ، ٦٨٤ ، ٦٩٩ — انظر أيضاً الإضافات .
أبو السعادات ، ٥٦٧
أبو شامة ، انظر : قنباك
أبو طاهر السلفي ، ٥٦١
أبو العلاء المعرى ، ٥٩٨
أبو الفدا ، انظر : المؤيد
أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر ، ٦٠٩
أتابكة الموصل ، ٥١٧
أحمد بن طولون ، ٥٥٦ ، انظر أيضا (ميدان أحمد ابن طولون)
أحمد الملطى ، ٧٥٤
أرزملك ، ٧٥٥
أرغون شاه ، ٧٥٢
أرنان ، ٧٥٢
أستادار ، ٥٩٦
استبغا الزردكاش ، ٦٨١
أسد الدين شيركوه ، ٥١٨
الأسدية (الجند) ٥٢١
أسرى الفرنج ، ٥٨٨ ، ٥٩٠
الاسكندر بن فيليب ، ٥٦٨
اسماعيل باشا (خديو مصر) ٦٧٩ ، ٦٩٨ ، ٧١٤ ، ٧٢٩ ، ٧٣١ ، ٧٤١
الأشرف (الملك) جانبلاط ، ٥١٦ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٥٥
الأشرف (الملك) زين الدين شعبان ، ٥١٥ ، انظر : الأرانقة ، ٧٢٥
الأشرف (الملك) سيف الدين اينال ، ٥١٦
الأشرف (الملك) سيف الدين برسباى ، ٥١٦
الأشرف (الملك) سيف الدين قايتباى ، ٥١٢ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٦٦٣ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣
الأشرف (الملك) صلاح الدين خليل ، ٥١٥ ، ٥٩٩ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦٢١ ، ٦٦٤ ، ٦٧٧
الأشرف (الملك) طومان باى ، ٥١٦
الأشرف (الملك) علاء الدين كجك ، ٥١٥
الأشرف (الملك) قانصوه الغورى ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥٤٥ ، ٦٦٣ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦
الأفضل (الملك) ٥٥٥ ، ٥٩١ ، ٦١٤
العادل (الملك) بدر الدين سلامش ، ٥١٥
العادل (الملك) زين الدين كتبغا ، ٥١٥
العادل (الملك) سيف الدين أبو بكر ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٦٥ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٦٦٧ ، ٧٤٠ ، ٧٤٤
العادل (الملك) سيف الدين أبو بكر (الثانى) ٥١٢ ، ٦٥٨
العادل (الملك) سيف الدين طومان باى ، ٥١٩

العادل (الملك) نور الدين محمود بن زنكى ، ٥١١ ، ٥١٧ ، ٥٢٢ ، ٥٧٢ ، ٦٣٩
العاضد ، الخليفة الفاطمى ، ٥٢٠ ، ٥٢٢
العزب ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧٥٤
العزيز بالله (الخليفة الفاطمى) ٥٥٠ ، ٥٩٢
العزيز (الملك) ٥٧٣ ، ٥٩١ .
العزيز (الملك) عثمان ، ثانى سلاطين الأيوبيين ، ٥١١ ، ٥٧١ .
العزيز (الملك) يوسف ، ٥١٦
أقبغا عبد الواحد ، ٦٢٤ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٦١
أقسنقر ، ٦٢٧ ، ٦٥٢
أقطاى ، ٦٠٣ .
القوات الانجليزية ، ٧٤٢
الماس ، انظر : جامع .
أمراء الخمسات ، ٧٤٩
أمراء السبعينات ، ٧٤٩
أمراء الطبلخاناه ، ٦٣٣ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥٢
أمراء العشراوات، ٦٤٩ ، ٧٥٠ .
أمير آخور ، ٦٢٧ ، ٦٣٦ ، ٦٥٣ .
أمير الجيوش ، انظر : مرجوش، سوق ، جامع
أمين الملك سعد الدولة ، انظر : جامع
الانكشارية ، ٥١٤ ، ٧٠٨ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧٤٢
أيبك ، انظر : عز الدين ، المظفر
ايدغمش ، انظر : حمام ، خوخة
أيدق ، انظر : سيف الدين
أيدمر ، أنظر : عز الدين
اينال ، انظر : الأشرف
أيوب ، ٥٠٩ .
الأيوبيون ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٨ ، ٥٦٨

(ب)

باشوات (مصر) ٦٤٠ ، ٧١١ ، ٧١٢
باى بك ، نائب القلعة ، ٧٥٤
بجاس النوروزى ، والى القلعة ، ٧٥٢
بخت نصر ، ٥٦٨
بدر الجمالى ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٦١ ، ٦٦٤
بدر الدين ، انظر : العادل .
بدر الدين بن حنا (الصاحب) انظر : بستان
البرجيه ، انظر : المماليك .
بردبك ، والى القلعة ، ٧٥٣
البرديني ، انظر : البرديني ، زاوية .
برسباى ، انظر : الأشرف .
بركات ، انظر : السعيد .
برقوق ، انظر : الظاهر .
بالليني (جنتيل) ٧٠٦
بنو الشعرية ، ٥٤٠
بنو المهتار ، انظر : تربة .
بنو وائل ، انظر : قناة .
بهاء الدين قراقوش ، ٥١٤ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ ، ٥٥١ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٨٦ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٦٦٥ ، ٦٦٧ ، ٦٩٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٤٠ ، ٧٤٢ .
بهاء الدين ، والى القلعة ، ٧٥١
بوان (قبيلة) ٦١٤
بيبرس ، انظر: الظاهر ، المظفر ، دار الذهب
بيبرس الأحمدى ، نائب القلعة ، ٧٥١ .
بيبرس الأوحدى ، نائب القلعة ، ٧٥١ .

(ت)

تانى بك ، ٧٥٤ ، ٧٥٦
التتر (خرائب) ٦٠٥ ، ٦١٩
تعاسيف ، انظر : علم الدين قيصر .
تغرى بردى ، ٧٠٤ .
تغرى بردى طنطر الظاهرى ، والى القلعة ، ٧٥٥ .
تغرى برمش ، نائب القلعة ، ٧٥٤ .
تقى الدين رجب انظر : خانقاه .
تمراز ، ٦٤٩ .
تمربغا ، والى القلعة ، ٧٥٣ .

تنبك البردبكى ، نائب القلعة ، ٧٥٤ .
توران شاه ، انظر : المعظم .

(ج)

جانبلاط ، انظر : الأشرف .
جانبلاط ، نائب القلعة ، ٧٥٥
جانبك (الأمير) ٦٤٦ .
جركس الخليلى ، ٦٨٠ ، ٧٤٤ .
جكم ، ٧٥٣ .
جقمق ، أنظر : الظاهر .
جقمق العلائى ، ٧٥٤ .
جقمق النورى ، ٧٥٤ .
جمال الدين **الألواحى** (بواب الدهيشة) ٦٧٥ .
انظر : الدهيشه .
جهركس ٥٣٠ .
جوهر (الصقلى) ٥٤١ ، ٥٦٨ ، انظر : الأسوار .

(ح)

حاتم بن هرثمة ، ٥٥٥
حاجى ، انظر : المظفر ، الصالح الحارث بن مسكين ، ٥٥٦ .
الحافظ ، أنظر : أبوالطاهر .
الحاكم بأمر الله ، الخليفة العباس ، ٥٩٥ ، ٦١٠ .
الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمى ، ٥٣٠ ، ٥٣٩ ، ٦٩٣
حسام الدين ، انظر : العادل .
حسام الدين طرنطاى ، ٦١٥
حسام الدين لاجين الأيدمرى ، ٦١٠ .
حسن ، انظر : الناصر ، مدرسة .
حلفه ، ٥٢١ ، ٧٤٩ .

(خ)

خاصكية ، ٦٦٤
خشقدم ، انظر : الظاهر .
خليل ، انظر : الأشرف .
الخليل ، انظر : ابراهيم .
خمارويه ، انظر : أبو الجيش .
الخوربطى (سكة) ٧٢١ ،
الخوندات ، ٦٠٧ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ .
خير الدين ، نائب القلعة ، ٧٥٦
خير بك ، أميرالأمراء ، ٧١٠ .
خير بك القصروى ، نائب القلعة ، ٧٥٥ .

(د)

الدرفيل ، ٦١٠ ، ٦٩٢ .
دوادار ، ٦١٠
الديلمى ، انظر : مسجد .

(ر)

رجب ، انظر : تقى الدين .
الرديني (سيدى) أنظر : أبو الحسن .
رضوان كتخدا ، ٧١٥ ، ٧٣٤ .
ركن الدين ، انظر : الظاهر ، المظفر .

(ز)

زنكى ، ٥١٧ .
زين الدين ، انظر : الأشرف ، العادل ، الظاهر ، المظفر ، الناصر ، الصالح .

(س)

سارية بن أونى ، ٥٦٤ .
سارية (بن زنيم) ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٩٣
السباهى ، ٧١٠ .
سبيع ، والى القلعة ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ .
الست نفيسة ، انظر : مشهد .
سعادة (القائد الفاطمى) ٥٢٦ ، انظر : باب سعادة .
سعد الدولة ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، انظر : أمين الملك
سعيد بن عفير ، ٥٥٦
السعيد (الملك) ناصر الدين بركه خان بن بيبرس ، ٥١٥ ، ٦٠٥ ، ٦١٢ .
السلاجقة ، ٥١٧ .
سلامش ، انظر : العادل .
سليم (السلطان العثمانى) ٦١٠ ، ٧٠٨ ، ٧١٢ .
سليمان ، ٥٩٦ ، ٧٤٢

سليمان باشا ، ٧١٤ .
سنان ، شيخ الجبل ، ٥٢٣ .
السودان ، ٥٢١ .
سودون البردبكي ، نائب القلعة ، ٧٥٥
سودون النظامى ، والى القلعة ، ٧٥٣ .
سودون النوروزى ، نائب قلعة الجبل ، ٧٥٥
سيرج الكمشبغاوى ، نائب القلعة ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ .
سيف الدين ، انظر : الأشرف ، العادل ، الظاهر ، الكامل ، المنصور ، المؤيد ، المظفر .
سيف الدين أيبك ، والى القلعة ، ٧٥٢
سيف الدين طنبال الماردينى ، والى القلعة ، ٧٥٢
سيف الدين قطلو بك ، ٦٦٠
(ش)
شاهين الرومى ، ٧٥٣
شجرة الدر ، ٥٩٣ ، ٦٠٣ ، ٦٠٥ ، ٦٨٥ ، ٦٩٨
شعبان ، انظر : الأشرف الكامل .
شقيق الملك ، انظر : مسجد .
شمس الدين اقسنقر ، ٦٤٨
شهاب الدين ، ٦٦٦ ، أنظر : المؤيد ، المظفر ، الناصر .
شهاب الدين مثقال ، ٦٢٥ .
الشيخ فرج ، انظر : سكة .
الشيخ قاصد ، ٥٢٩ ، انظر : المدرسة القاصدية .
شيخ المحمودى ، انظر: المؤيد .
شيركوه ، انظر : أسد الدين .
الشيطان ، ٥٨٩
(ص)
صارم الدين ابراهيم ، والى القلعة ، ٧٥٣
الصالح ، زين الدين حاجى الثانى ، ٥١٥
الصالح (الملك) صلاح الدين صالح ، ٥١٥
الصالح (الملك) عماد الدين اسماعيل ، ٥١٥ ، ٦٤٨ ، ٦٧٤ .
الصالح (الملك) ناصر الدين محمد ، ٥١٦ .
الصالح (الملك) نجم الدين أيوب ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٦٠٢ ، ٦٥٨ ، انظر : قلعة الروضة ، القاعة الصلاحية .
صلاح الدين ، انظر : الأشرف ، الناصر ، الصالح .
الصلاحية (الجند) ٥٢١
الصليبيون ، ٥١٠ ، ٥٢٣ .
(ط)
الطبلخاناه ، ٧٣٧ .
طرنطاى ، انظر : حسام الدين .
طرنطاى ، والى القلعة ، ٧٥١
طشتمر حمص أخضر ، ٦٤٨ .
طشتمر المظفرى ، والى القلعة ، ٧٥٢
طقطباى العلائى ، نائب القلعة ٧٥٦
طنطر ، أنظر : الظاهر .
طوخ المحمدى ، والى القلعة ، ٧٥٥
طوغان ، نائب القلعة ، ٧٥٤
طومان باى ، انظر : الأشرف ، العادل
(ظ)
الظاهر (الخليفة) ٦٠٩ .
الظاهر (الملك) تمربغا ، ٥١٦ .
الظاهر (الملك) ركن الدين بيبرس البندقدارى) ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٦٠٢ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٦ ، ٦٣٨ ، ٦٥١ ، ٦٦٠ ، ٦٩١ ، ٧٣٠ ، ٧٣٧ ، ٧٣٩ ، ٧٤٣ ، ٧٥٥ .
الظاهر (الملك) سيف الدين برقوق ، ٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥٣٠ ، ٦٣٥ ، ٦٥٨ ، ٦٧٧ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٩٥ ، ٧٥٣ .
الظاهر (الملك) سيف الدين جقمق ، ٥١٦ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ .
الظاهر (الملك) سيف الدين خشقدم ، ٥١٦
الظاهر (الملك) سيف الدين طنطر ، ٥١٦
الظاهر (الملك) سيف الدين يلباى ، ٥١٦
الظاهر (الملك) قانصوه ، ٥١٦

(ع)

عبد الجبار ، انظر ، مسجد .
عبد الملك الناصرى ، ٧٥١
عبد الواحد ، انظر : آقبغا .
عثمان ، أنظر : العزيز ، فخر الدين ، المنصور
عدة الدولة ، انظر : مسجد .
عز الدين ، أنظر : المنصور، المعز .
عز الدين أيبك ، الفخرى ، ٦٠٦
عز الدين أيدمر الرزاق ، والى القلعة ، ٧٥٢
علاء الدين ، انظر : الأشرف ، المنصور .
علاء الدين الكلبرى ، (المجنون) ٧٥١
علاء الدين مغلطاى ، ٥٣٠ .
علم الدين سنجر ، ٧٥١
علم الدين قيصر ، تعاسيف ، ٥٩٠ ، ٦٠٠
علم الدين المنصورى ، ٦١٣
على ، ٥٦٣ ، انظر : أبو الحسن ، المنصور .
على بك ، ٦٥٩ .
على الماردينى ، ٧٥٢
عماد الدين اسماعيل ، ٦٧٣ .
عماد الدين (الكاتب) ٥٣٥ ، ٥٧٠
عمر بن الخطاب ، ٥٣٤ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤
عمرو بن العاص ، ٥٢٥ ، ٥٥٤ ، ٥٦٨ ، انظر : جامع .
عيسى بن منصور ، ٥٥٦
عيسى الفقيه ، ٥٢٠

(ف)

الفاضل ، انظر : القاضى الفاضل
الفاطميون ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ، انظر : مكتبة ، إيوان .
الفخر ، ٦٦٠
فخر الدين عثمان بن قزل ، استادار الملك الكامل ٥٩٦ .
فرج ، انظر : الشيخ ، الناصر .
فردريك الثانى (الامبراطور) ٦٠٠ ، ٧٢٦
فرعون ، ٥٧٥ ، الحاشية .
الفرنج ، ٥١٧ ، ٥٢٢ ، ٦٥٢
الفرنسيون ، ٦٢٠ ، ٧٢٨

(ك)

كاتب السر ، ٥٩٣
كافور ، انظر : البستان .
الكامل (الملك) سيف الدين شعبان (السلطان السابع عشر) من سلاطين المماليك ، ٥١٥
الكامل (الملك) ناصر الدين محمد ، السلطان الخامس من سلاطين الأيوبيين ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٧ ، ٥٨٥ ، ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٥٨ ، ٦٦٣ ، ٦٦٧ ، ٦٩٥ ، ٧١٦ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ .
كتبغا ، انظر : العادل .
كجك ، انظر : الأشرف .
كريم الدين (الصاحب) ٦٩٦ .
كسباى (المؤيدى) نائب قلعة الجبل ، ٧٥٥
كشلى السلاح دار ، ٧٥٢ .
كلوت بك ، انظر : شارع .
كندغرى العمرى ، والى القلعة ، ٧٥١
الكندى (أبو عمرو) ٥٥٥ ، ٥٥٦

(ق)

قاصد ، انظر : الشيخ .
القاضى الأشرف أحمد ، ٥٩٨ .
القاضى الفاضل ، ٥٧٠ ، ٥٩٨ ، انظر : مكتبة .
قانباى الأعمش ، نائب قلعة الجبل ، ٧٥٥
قانصوه ، انظر : الأشرف .
قانصوه الغورى ، انظر : الأشرف .
قايتباى ، انظر : الأشرف .
قراقوش ، انظر : بهاء الدين .
قسطه ، ٥٦١
قطز ، انظر : المظفر .
قطلو بغا ، ٧٥٣

قطلو بغا الذهبي ، والى القلعة ، ٧٥٢
قطلو بك ، انظر : سيف الدين .
قلاوون ، انظر : المنصور .
قمارى ، والى القلعة ، ٧٥٣
قنبك أبوشامه ، نائب قلعة الجبل ، ٧٥٥
قوصون ، ٧٤٨
قيصر ، انظر : علم الدين .

(ل)

لاجين ، انظر : حسام الدين ، المنصور .
لاون ، أنظر : تربه .

(م)

المأمون (الخليفة العباسي) ٥٥٦ ، ٥٦٥ ، ٧٤٤
الماريني ، انظر : على
ماريت ، ٥٥٧ ، ٥٦٥ ، ٧٤٤ ، ٧٤٦
المتوكل على الله (الخليفة العباسي) ٧٥٣
متولى ، والى القلعة ، ٧٥١ ، انظر : نائب القلعة
مثقال : انظر : شهاب الدين .
مجيرالدين ، ٦٠٤
محمد ، انظر : الكامل المنصور ، الناصر ، الصالح
محمد بن أسعد الجوانى ، ٥٥٧
محمد بن قايتباى : انظر : الناصر .
محمد بن قلاوون ، انظر : الناصر .
محمد على ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥٨٤ ، ٦١١ ، ٧١٥ ، ٧٢٩ ، ٧٣١ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، انظر : شارع ، نقوش ، جامع .
محمود ، انظر : العادل .
مرجوش ، ٥٢٩ ، أسير الجيوش .
مرى (ملك الفرنج) ٦٥٢
المستعين بالله (الخليفة العباسي) ٥١٦
المستنصر بالله (الخليفة العباسي) ٦٠٩ .
المظفر ، ابن أمير الجيوش ، ٥٦١
المظفر (الملك) ركن الدين بيبرس ، ٥١٥
المظفر (الملك) زين الدين حاجى ، ٥١٥
المظفر (الملك) سيف الدين قطز ، ٥١٥ ، ٦٠٥ ، ٦١٤ .
المظفر (الملك) شهاب الدين أحمد ، ٥١٦
معز الدولة ، انظر : مسجد .
المعز (الملك) عز الدين أيبك ، ٥١٥ ، ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣
المعظم توران شاه ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٢١
المغلطاى ، أنظر : علاء الدين .
مقطم بن مصرايم ، ٥٥٤
المقوقس ، ٥٥٤ .
مقيطم ، ٥٥٤
ملك شاه ، السلطان السلجوقى ، ٥١٧ .
الملك الأشرف ، أنظر : الأشرف (الملك)
الملك الظاهر ، انظر : الظاهر (الملك)
المماليك (سلاطين) ٥١١ ، ٥١٥ ، ٥٦٨ ، ٦٩٥
المماليك (البحرية) ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٦٩٥ .
المماليك (البرجية) ٥١٠ ، ٦١٥ ، ٦٦٤
المماليك السلطانية ، ٧٤٩
الممالك (مذبحة) ٧٣٢
المنصور حسام الدين (لاجين) ٥١٥
المنصور (الملك) سيف الدين أبوبكر ، ٥١٥
المنصور (الملك) سيف الدين قلاوون ، ٥١٥ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٦٠٩ ، ٦١٢ ، ٦١٣ .
المنصور (الملك) صلاح الدين محمد ، ٥١٥
المنصور (الملك) عز الدين عبد العزيز ، ٥١٦
المنصور (الملك) علاءالدين على ، السلطان الثالث والعشرون من سلاطين المماليك ، ٥١٥
المنصور (الملك) فخر الدين عثمان ، ٥١٦
المنصور (الملك) ناصر الدين محمد ، ٥١١ ، ٥٧١
المنصور (الملك) نور الدين على ، ٥١٥ ، ٦٠٥
المهمندار ، ٦٩٩
مؤتمن الخلافة ، ٥٢١
موسى ، ٥٥٤ ، ٥٧٥

المؤيد (الملك) أبو الفدا ، سلطان حماه ٦١٤ ، ٦٧٣ ، ٦٩٨
المؤيد (الملك) سيف الدين شيخ المحمودى ، ٥١٦ ، ٦٣٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٩١ ، ٧٣٩ ، ٧٥٣ ،
انظر : بيمارستان جامع .
المؤيد (الملك) شهاب الدين أحمد ، ٥١٦

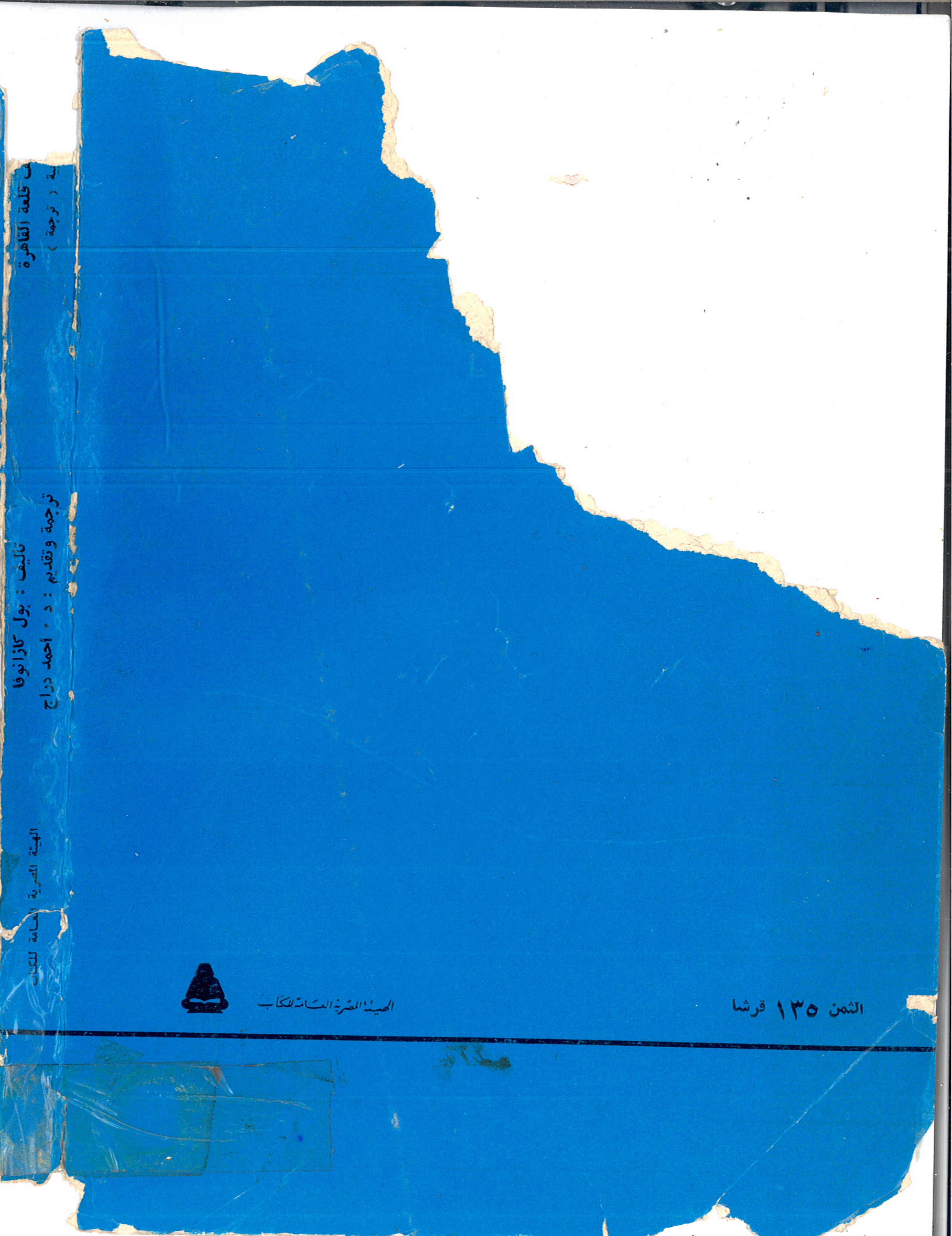
(ن)

ناصر الدين ، انظر : الناصر ، السعيد ، الصالح .
ناصر الدين شافع ، ٥٨٦ .
الناصر (الملك) زين الدين فرج ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٦٣٠، ٦٤٨ ، ٦٨١ ، ٦٩١ ، ٧٣٦ .
الناصر (الملك) شهاب الدين أحمد ، ٥١٥
الناصر (الملك) صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٧ ، ٥١٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣٣ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٩ ، ٦١١ ، ٦٢٠ ، ٦٢٩ ، ٦٣٩ ، ٦٦٧ ، ٧٤٠ ، ٧٤٤ ، أنظر : نطاق ، سور ، تحصينات ، نقوش
الناصر (الملك) ناصر الدين حسن ، ٥١٥، ٦٧٥ ، انظر : مدرسة ، جامع .
الناصر (الملك) ناصر الدين محمد بن قايتباى ، ٥١٦
الناصر (الملك) ناصر الدين محمد بن قلاوون ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥٤٥ ، ٥٨٧ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٩ ، ٦١٦ ، ٦١٩ ، ٦٣٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥١، ٦٥٦، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٧٣، ٦٧٤ ، ٦٨٣ ، ٦٩١ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٨ ، ٧٢٦ ، ٧٣٥ ، ٧٣٧ ، ٧٤١ ، ٧٤٣
نايب (القلعة) ٧٤٩ ، ٧٥٠
نايب (السلطنة) ٥١٣ ، ٦١٥ ، ٦٤٧، ٦٤٨ ، ٦٩٥ ،
انظر : دار النيابة ، النائب .
النبيه (القاضى) انظر : مسجد .
نجم الدين أيوب ، ٥١٨ ، انظر أيضاً : الصالح .
نظام الملك (وزير الملك شاه) ٥١٨
نور الدين ، انظر : العادل ، المنصور .

(و)

والدة خليل (شجر الدر) ٦٠٤
والى القاهرة ، ٦٥٤
والى باب القلعة ، ٥٩٩ ، ٧٥٠
والى باب القلة ، ٥٩٩ ، ٧٤٩
والى القلعة ، ٧٤٢ ، ٧٤٩ ، ٧٥٦
والى مصر ، ٦٥٤ .
وزير ، ٥٩٣ ، ٥٩٥
ولخش ، انظر : تربة .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣/٤٥٣٩



ف قلعة القاهرة
ية (ترجمة)
تأليف : بول كازانوفا
ترجمة وتقديم : د . أحمد دراج
الهيئة المصرية العامة للكتاب
الهيئة المصرية العامة للكتاب
الثمن ١٣٥ قرشا